بونداريفسكي

الغرب ضد العالم الاسلامى

من الحملات الصليبية حتى ايامنا

بونداريفسكي

الغرب ضد العالم الاسلامي

من الحملات الصليبية حتى ايامنا





دار التقدم

موسكو

ترجمة الياس شاهين

Г. Л. Бондаревский

ЗАПАД ПРОТИВ МУСУЛЬМАНСКОГО ВОСТОКА

(от Крестовых походов до наших дней)

На арабском языке



طبع فى الاتحاد السوفييتي

Б $\frac{0801000000—422}{014(01)—85}$ 241—85

مقدمة

ان الثورتين فـــى افغانستان وايران ، وتعاظـــم الحركات الديموقراطية والمعادية للاقطاعية فى بلدان الخليج العربى ، وافريقيا الشمالية والشمالية الشرقيـــة ، وتوطد مكانـة حركة عدم الانحياز وعلاقاتها وروابطها مع البلدان الاشتراكية قد قوضت كثيرا ، فى اواخر السبعينيات ، مواقع الامبريالية فى بلدان العالم الاسلامى . وفى هذه الحال ، بدأت الاوساط الحاكمة فى بلدان الناتو (حلف الاطلسى الشمـــالى) برئاسة الولايات المتحدة الاميركية تنتهـــج ستراتيجية مزدوجة وتطبقها ببالغ الحمية والجهد . فقد عززت نشاط المصالح المختصة (مصالح المخابرات والتجسس) فى هذه المنطقة ، وانشأت بتسرع فى قوام مصلحة المخابرات المركزية الاميركية دائرة خاصة هى «الدائرة الاسلامية» ، وشرعت تزيد القوات المسلحة على حدود بلدان آسيا الجنوبية وآسيا الجنوبية الغربية وافريقيا الشماليـــة وقوت عسكـــرة المحيط الهـــادى والبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، وطفقت بمزيد من النشاط تستثير النزاعات على الاساس القومى والدينى وغيره من الاسس بين بلدان المنطقة . وفى الوقت ذاته اخذت تقوم بدعاية واسعة للاحترام «المخلص» للثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية ولتعاطفها مع بلدان العالم الاسلامى ولحرصها عليها . وهذا ما تبدى بجلاء خاص فى سنتى ١٩٧٩ و١٩٨٠ عندما احتفل العالم الاسلامى بحلول القرن الهجرى الخامس عشر . وتكاثرت الاحاديث والبيانات من الرئيس الاميركى ومعاونيه فى شؤون الامن القومى والشيوخ ، ومدراء الجامعات الكبيرة فى الولايات المتحدة ، والوزراء والعلماء والشخصيات الاجتماعية فى فرنسا وبريطانيـــا

والمانيا الغربية . وجميعهم حاولوا ان يقنعوا ملايين المسلمين بان بلدان الغرب قد استهدفت دائما ، فى سياق كل تاريخ الاسلام ، ان تقيم مع البلدان الاسلامية الاتصالات الوثيقة وعلاقات التفاهم والصداقة والتعاون .

ولا يزال عرض «الحب للاسلام» بالاقوال مستمرا فى ايامنا ايضا . وكل هذا يبدو بمثابة تجديف وقح للغاية على ضوء المجازر الدموية التى اقترفها المعتدون الصهاينة واعوانهم من التشكيلات الكتائبية فى لبنان بمؤازرة الاوساط الحاكمة الاميركية ، وعلى خلفية النزاعات بين المسلمين والمسيحيين التى استثارتها وتستثيرها ودعمتها وتدعمها الاوساط الحاكمة والمصالح المختصة الغربية فى تشاد واثيوبيا والفيليبين ، وعلى ضوء النزاعات التى ضخمتها بين الهندوس والمسلمين فى الهند ، بين المسلمين والبوذيين فى سرى لانكا ، بين السنيين والشيعيين فى الشرق الاوسط .

ان الوقائع التاريخية ، والوثائق العديدة التى عثر عليها المؤلف فى الارشيفات الانجليزية والاميركية والالمانية والهندية تدحض بصورة مقنعة مزاعم رجال الدولة والشخصيات الاجتماعية الغربيين بان حكام البلدان الغربية حاولوا طوال الف وخمسمئة سنة تقريبا اقامة علاقات الصداقة مع شعوب العالم الاسلامى .

منذ الحملات الصليبية وحتى اليوم سعت الدول الغربية ، حكاما وديبلوماسيين وجنرالات وتجارا ومرسلين واداريين استعماريين ، بواسطة القوة المسلحة واعمال التخريب ، بواسطة عمليات التدخل المسلح واثارة النزاعات القومية والدينية والدولية والاثنية ، الى استعباد شعوب العالم والاستيلاء على ثرواتها الطبيعية الطائلة ، وتدمير ثقافتها العريقة . وبما ان القدرة الدفاعية ، والنظام السياسى ، والثقافة والوطنية لدى شعوب الشرق كانت مقترنة اوثق اقتران بالاسلام ، فان الغزاة الغربيين قد بذلوا قصارى الجهد لتقويض مكانة الدين الاسلامى ونفوذه . وعلى العموم كان المستعمرون يموهون خططهم الاغتصابية واهدافهم العدوانية بشعارات مرائية وديماغوجية ، شعارات نشر المسيحية وحرية التجارة وتصفية الرق وحماية الاقليات القومية والدينية ، والخ . . حسبنا التذكير بان اقطاعيى فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا قد رفعوا شعار

تحرير «اورشليم» و«قبر المسيح» من السيادة الاسلامية منذ ٩٠٠ سنة ، بدءا من العدوان على شعوب مصر وفلسطين وسوريا ولبنان بغية احتلال المناطق المهمة فى هذه البلدان العريقة ، والاستيلاء على قيم طائلة ، وفرض الرقابة على التجارة بين آسيا واوروبا . وبما ان الفاتيكان كان يلهم ويشجع هذه الحملات ، وبما ان المشتركين فيها كانوا يخيطون على البستهم الصلبان المسيحية ، فقد دخلت هذه الحملات الكتب المدرسية جميعها تقريبا تحت اسم الحملات الصليبية .

فى غضون ١٧٥ سنة (القرن الحادى عشر — القرن الثانى عشر — القرن الثالث عشر) ، قامت ثمانى حملات صليبية كبرى فى الشرق الادنى وكثرة من عمليات الفتح والاغتصاب الصغيرة نسبيا . وبنتيجة الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٦-١٠٩٩) التى اشترك فيها اكثر من ١٠٠ الف شخص ، استولى الغزاة على فلسطين بما فيها القدس وقسم ما وراء الاردن ، وقسم كبير من اراضى لبنان الحالى وسوريا وتركيا الجنوبية الغربية ؛ واسسوا مملكة القدس ودولا اقطاعية تابعة لها شكلا — كونتية طرابلس ، امارة انطاكية (وعاصمتها انطاكية) ، وكونتية الرها (وعاصمتها الرها ، حاليا مدينة اورفا) .

واثناء هذه الحملة الاغتصابية اباد الصليبيون عشرات الآلاف من المسلمين من نساء واطفال وشيوخ . واقترف الغزاة الجرائم والمآثم اثناء احتلال القدس فى سنة ١٠٩٩ . وتدل اخبار «اعمال الافرنج» ان المقاتلين المسلمين قد دافعوا بعناد بالغ عن واحد من اعظم مقدسات الاسلام — جامع عمر . وبعد استيلاء الصليبيين على الجامع ، «غرق» الجامع كله ، كما كتب مدون الاخبار ، «بدم المسلمين» . ويؤكد المؤلف ذاته ان اجساد المسلمين القتلى من سكان القدس قد كوموها اكواما بعلو مبانى المدينة . وفى الختام اضطر الى الاعتراف بقوله : «قبل ذاك لم يروا ولم يسمعوا يوما فى الشرق بمجزرة دموية بهذا القدر» (١) .

دمر المستعمرون الاوروبيون الكثير من المدن الزاهرة فى شرق البحر الابيض المتوسط ، وابادوا قسما كبيرا من سكانها المسلمين ، وحولوا فلاحى فلسطين ولبنان وسوريا الغربية من مسلمين ومسيحيين الى فلاحين اقنان . وقد استثارت هذه الاعمال حقدا مشتدا

اكثر فاكثر على الغزاة وعززت بين حكام سوريا الشرقيــة ومصر الذين حلت بينهم الفرقة الميول الى الاتحاد . وفى اواخر القرن الثانى عشر ، اى عندما اتحد مسلمو سوريا وفلسطين ومصر والعراق الغربى ولبنان تحت قيادة المؤسس الفعلى لسلالة الايوبيين ، القائد العسكرى الموهوب صلاح الدين الايوبى ، استطاعوا ان يسحقوا فى ٣ و ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧ قوات الصليبيين ويحرروا القدس وفلسطين وقسما كبيرا من لبنان وسوريا . ان انتصار حطين على ضفة بحيرة طبريا يذكر شعوب العالم الاسلامى بانه لا سبيل الى انقاذ اوطانها وثقافتها ودينها الا بالاتحاد ضد المعتدى . ومما له دلالته ان صلاح الدين الايوبى ، خلافا للصليبيين ، بعد تحرير القدس ، قد عامل غزاتها السابقين ببالغ الشفقة والرحمة ، وسمح لهم بمغادرة القدس وفلسطين لقاء فديــة وفى معظم الاحوال بدون اية فدية .

وغير مرة حاول الفاتيكان واقطاعيو اوروبا الغربية ان يستولوا من جديد على الاراضى الاسلامية فى شرق البحر الابيض المتوسط ، وان يبعثوا فيها امبراطوريتهم الاستعمارية . وبعد ان منيت الحملة الصليبية الثانية المنظمــة لهذا الغرض بالاخفاق ، دعا البابــا غريغوريوس الثامن فى سنــة ١١٨٩ الى حملة ثالثة . وفى هذا «المشروع» الضخم للفتوحات ، اتحدت الفصائل الاقطاعية التابعــة لملكى فرنسا وانجلترا وحكــام الامبراطورية الالمانيــة بقيــادة امبراطورها فريدريك الاول هوهانشتاوفن الذى دخل التاريخ بلقب برباروسا (اللحية الشقراء) . وفى حزيران (يونيو) ١١٩٠ ، استعد جيش لجب من الصليبيين للمعركــة الفاصلــة ضد قوات صلاح الدين . ولكن فريدريك برباروسا غرق فى ١٠ حزيران فى ظروف غامضة عند عبور نهر فى سوريا . واخذ يتفسخ جيش الصليبيين اذ كانت تمزقه التناقضات بين قادته ، وكانت فصائل صلاح الدين تنزل به الضربات على الجبهة ، وكانت تضعفــه انتفاضات السكان المسلمين المستعبدين فى الاراضى المحتلة . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بالفشل ايضا .

فى غضون القرن الثالث عشر حاول الصليبيون غير مرة لبعث مواقعهم ، ولم يتسن لهــم احراز بعض النجاحات الا في مراحل

النزاعات والحروب بين الحكام المسلمين ، ورثة صلاح الدين . ولكن حملة الصليبيين الثامنة فى سنة ١٢٧٠ فشلت ايضا . وفى سنة ١٢٩١ سقطت قلعتهم الاخيرة فى فلسطين ، قلعة عكا . ولاكثر من ستة قرون تحرر مسلمو شرق البحر الابيض المتوسط من نير المستعمرين الاوروبيين .

والحملات الصليبية رافقتها ابادة ملايين الناس من مختلف الاديان وتسببت بخسائر مادية جسيمة فى اوروبا وآسيا ، والحقت ببلدان الشرق الادنى ضررا فادحا جدا . واضطرت الشعوب الاسلامية الى تحمل جميع ويلات الغزوات الاجنبية والتدمير والاضطهاد من جانب اقطاعيى الغرب . وكل هذا يؤكد صحة الوصف الذى اعطاه عن الصليبيين الديموقراطى والكاتب الاجتماعى والسياسى والناقد الروسى البارز بيلينسكى حين قال انه كان يلازمهم «الجهل والانانية والتهتك والكفر المختلط بالتعصب الاعمى الوحشى والتعطش الى سفك الدماء» (٢) .

وحتى الآن يحاول المؤرخون الغربيون ان يشيروا فى المقام الاول الى «الغيرة الدينية» التى كانت ، على حد زعمهم ، تدفع الصليبيين فى سعيهم الى استعادة القدس و«قبر المسيح» من المسلمين . وحتى فى البحوث الجدية من طراز «تاريخ الاسلام» من مجلدين من تاليف جامعة كمبريدج المنشور سنة ١٩٧٠ ، تقوم محاولات لاستصغار العواقب السلبية للحملات الصليبية بالنسبة لشعوب العالم الاسلامى . ان مزورى التاريخ الغربيين الحاليين يزعمون ان الصليبيين قد لقوا فى عدوانهم على مسلمى الشرق الدعم بجميع الوسائل من مسيحيى هذه المنطقة ولاسيما من موارنة جبل لبنان . وهذا الزعم تنشره الآن على نطاق واسع الدعاية الاميركية والصهيونية سعيا لبناء قاعدة «نظرية» تحت مشروع تقسيم لبنان الى «اسلامى» و«مسيحى» (مارونى) .

وللمرة الاولى فى التاريخ اعطى علماء البلدان الاشتراكية تقديرا شاملا لدور الحملات الصليبية المشؤوم بالنسبة للاقتصاد والثقافة والحضارة فى البلدان الاسلامية فى شرق البحر الابيض المتوسط . والى الاستنتاجات ذاتها خلص في الآونة الاخيرة المؤرخ العربي البارز محمد حسين علا (٣) .

وهناك مرحلة اشد خطرا بين مراحل عدوان الغرب على شعوب العالم الاسلامى تقترن بالاكتشافات الجغرافية العظيمة التى يعنون بها عادة فى المؤلفات العلمية الاوروبية الغربية والاميركية حقبة من مائة سنة تقريبا – من اواسط القرن الخامس عشر الى اواسط القرن السادس عشر . وقد تميزت ذرى هذه الحقبة باكتشاف اميركا من قبل كريستوف كولومبوس ، واكتشاف الطريق البحرى المتواصل من اوروبا الغربية حول افريقيا الجنوبية الى الهند من قبل اسطول فاسكو داغاما ، ورحلة ماجيللان الاولى حول العالم . امـــا السبب الرئيسى للبعثات البحرية العديدة التى اسفرت عن هذه الاكتشافات وعن اكتشافات اقل شأنا ، فقد كـــان سعى الاوساط الحاكمة فى اوروبـــا الغربية والرأسمال التجارى الذى كان يقوى اكثر فاكثر الى فرض الرقابة المباشرة على تجارة توابل الشرق ومصنوعاته ثم الى الحصول على المعادن النفيسة . وقد سددت هذه السياسة ضربة قوية جدا الى نظام العلاقات التجارية الموثوق الذى اقامه فى غضون قرون وقرون التجار المسلمون من ملقـه والهند الجنوبية وحوض الخليج العربى وافريقيا الشمالية الشرقية . وكانت الاكتشافـــات الجغرافية وثيقة الارتباط بنضال الاوساط الحاكمة فى بلدان اوروبا الغربية ضد الدول الاسلامية فى هذه المنطقة الشاسعة ، وببداية التوسع الاستعمارى وبالمرحلـــة الاولى من الاضطهاد الاستعمارى لشعوب العالم الاسلامى وآسيا واميركـا . وقد وصف ماركس فى مؤلفه الخالد «رأس المال» هذه الظاهرة بالتراكم البدائى الذى كان اساسا لاجل تطور المجتمع الرأسمالى المعاصر .

ومثل الصليبيين قبل ذاك باربعة قرون ، موه التجار والملاحون الاوروبيون ، رواد الاكتشافـات الجغرافية العظيمة ، مقاصدهـــم الوحشية بشعارات النضال من اجل نشر المسيحية . وسعيا لتأمين هيمنة الاسطول البرتغالى فى المحيط الهندى والبحر الاحمر والبحر العربى والخليج العربى ، امر بانـــى الامبراطورية الاستعماريـــة البرتغالية الاميرال البوكركه بالاستيلاء على جميع السفن التى تنقل الحجاج المنطلقين من آسيا الجنوبية الشرقية وهندوستان وافريقيا الشرقية الى مكة واغراق المسلمين او حرقهـــم او رميهم فى خوابى ضخمة مليئة بالزيت الغالى . واقترح البوكركه في رسالته الي الملك

البرتغالى مانويل الثانى انزال قوات من الخيالة فى ينبع على ساحل البحر الاحمر من الجزيرة العربية تحت ستار المستحدث الحربى فى ذلك الزمن – مدفعية السفن – والاستيلاء على المدينة المنورة بزحف صاعق ، ونبش مدفن النبى محمد هناك ونقل نعشه الى ليشبونه لاجل التقدم فيما بعد من الحكام المسلمين باقتراح مقايضته . . «بقبر المسيح» والقدس وبعض اراضى الشرق الادنى الاخرى (٤) . وقد دمر الغزاة البرتغاليون الجوامع فى اغلبية مدن افريقيا الشرقية وحوض الخليج العربى والساحل الغربى من هندوستان وفى ملقه . وسعيا لفرض المسيحية بالعنف على مسلمى آسيا ، قضى الاساقفة الكاثوليك من البرتغال على قيم الاسلام الثقافية والدينية والحقوا خسارة فادحة جدا بالحضارة الاسلامية .

فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ظهر فى افريقيا الشرقية وحوض المحيط الهندى وآسيا الجنوبية وآسيا الجنوبية الشرقية الباحثون عن الربح الفرنسيون والهولنديون والانجليز ، «بناة» الامبراطوريات الاستعمارية . وكانوا يسترون الفتوحات الدموية ، ونهب المدن المزدهرة نهبا وحشيا ، والقضاء على القيم المادية والثقافية فى الدول الاسلامية بمزاعم كاذبة عن السعى ، لا الى نشر المسيحية وحسب ، بل ايضا الى النضال ضد النخاسة . وحتى الآن تنعت الكتب التعليمية الغربية «المآثر» الدموية التى قام بها الغزاة والمستعمرون والنخاسون الغربيون بالاعمال «النبيلة» المحققة من اجل «الاكتشافات الجغرافية العظيمة» . والنهب الاستعمارى الذى تعرضت له شعوب العالم الاسلامى ، واستعبادها ، واستثمارها اللاانسانى ، والارباح بالمليارات التى ابتزها رأسماليو الغرب من التجارة غير المتكافئة واستغلوها لتطوير صناعتهم ورفع مستوى اقتصادهم – كل هذا يحاولون تصويره للقراء المعاصرين فى الغرب ، وجزئيا فى الشرق بصورة حسنة كبيرة على شعوب آسيا وافريقيا التى حمل لها المستعمرون احدث منجزات العلم والثقافة والتكنيك .

وقد أثبت المستشرق السوفييتى البارز الاكاديمى كونراد ان عهد النهضة الذى تعتز به ايطاليا وايما اعتزاز بدأ فى الشرق قبل ان يبدأ في اوروبا . وقد كتب في مقالته «مغزى التاريخ» : «ان

عهد النهضة ، على ما يبدو ، لا يمت البتة الى تاريخ الشعب الايطالى وحده . . يبدو انه يجب اعتبار حقبة القرن الثامن – القرن التاسع فى تاريخ الشعب الصينى ، وحقبة قرن التاسع – الثالث عشر فى التاريخ المترابط لشعوب ايران وآسيا الوسطى والهند الغربية الشمالية ، وحقبة القرن الرابع عشر – القرن السادس عشر فى تاريخ اوروبا عهدا من هذا النوع» (٥) . كذلك أثبت المستشرق والباحث فى الشؤون الاسلامية الاكاديمى السوفييتى الشهير بارتولد فى مؤلفه «ثقافة الاسلام» (٦) المترجم الى كثير من اللغات الاوروبية والشرقية ان مستوى الثقافة والعلم فى بلدان العالم الاسلامى كان يتفوق كثيرا فى المرحلة الباكرة من القرون الوسطى على مستواهما فى اوروبا . واوضح بالتفصيل الاهمية البالغة التى اتسمت بها بالنسبة للبشرية جمعاء اعمال اعاظم العلماء من امثال محمد بن موسى الخوارزمى (القرن الثامن – القرن التاسع) ، الذى صارت مؤلفاته فى الحساب والجبر مؤلفات كلاسيكية . وفى اوروبا كان معروفا بالاسم اللاتينى الغوريتمى Algorithmie ومن هنا ينبع التعبير البالغ الشأن فى الرياضيات والسيبيرنيتيك فى الوقت الحاضر algorithme . ومثل هذا التقدير الرفيع ، كما يرى بارتولد وكما يرى علماء العالم الاسلامى وعلماء الغرب والشرق عموما ، يستحق الموسوعى الفذ من القرون الوسطى ابن سينا ، الفيلسوف والشاعر والطبيب ، وابو الريحان محمد بن احمد البيرونى ، عالم الرياضيات والفلكى الشهير ، والفارابى ، الفيلسوف والفلكى والرياضى ، وابن رشد الفيلسوف والمؤرخ ، وكوكبة من الشعراء والكتاب البارعين ، منهم الفردوسي وعمر الخيام وسعدى وحافظ ونظامى ونوائى والجامى وبابر . وتعتز شعوب الاتحاد السوفييتى عن حق وصواب بان كثيرين من رجال العلم والثقافة البارزين قد ولدوا فى آسيا الوسطى والقفقاس .

على ضوء هذه الوقائع تبدو مرائية وتجديفية مزاعم ايديولوجيى الاستعمار القائلة ان سفن فاسكو دا غاما والبوكركه ، والجحافل المأجورة التابعة لقادة شركات الهند الشرقية ، البريطانية والفرنسية والهولندية ، التى اغرقت بالدماء المدن المزدهرة في الشرق الادني

والشرق الاوسط وهندوستان وافريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية الشرقية ، قد حملت لشعوب العالم الاسلامي العلم والتكنيك والثقافة ، وحتى رأى العلماء الغربيين القائل ان الملاح البرتغالي فاسكو دا غاما هو اول من افتتح الطريق البحرى من اوروبا حول افريقيا الى الهند قد دحضه العلم المعاصر . وقد أثبت المستعرب السوفييتى شوموفسكى فى بحثه «العرب والبحر» ان سفر سفن فاسكو دا غاما من افريقيا الشرقية الى الهند لم يحالفه النجاح الا لان الملاح العربى الفذ احمد بن مجيد قد ساق السفن . وقد عثر العالم السوفييتى شوموفسكى على مخطوطة احمد بن مجيد «كتاب المنافع» الذى يتضمن تعليمات وارشادات ملاحية عن البحر الاحمر والمحيط الهندى ، فى مستودع مخطوطات معهد الاستشراق فى الاتحاد السوفييتى . ومما له دلالته ان الملاح البحرى يعرب فى خاتمة كتابه عن اسفه المر لكونه فتح الطريق البحرى الى الهند امام الضوارى البرتغاليين .

واثر الغزاة البرتغاليين ، كما سبق ان اشرنا ، ظهر «الجغرافيون» والتجار والغزاة الفرنسيون والهولنديون والانجليز فى بلدان آسيا وافريقيا . وقد كان المستعمرون الانجليز اعداء رهيبين بصورة خاصة لشعوب الشرق الاسلامية ، اذ بنوا اكبر واقسى سجن في تاريخ البشرية عنينا به الامبراطورية البريطانية .

هدم المستعمرون الانجليز امبراطورية المغول العظام ، وشنوا حروب الفتح ثلاث مرات ضد افغانستان ، وفصلوا منها قسمها الشرقى ، وشنوا حروب الفتح ضد ايران ، وقسموا قوم البيلوجى الى ثلاثة اقسام ، واستثاروا الحروب بين ايران وافغانستان ، بين تركيا وايران ، وحاولوا فصل خوزستان عن ايران ، واستعبدوا بلدانا عربية كثيرة سنوات وسنوات . وبعد الحرب العالمية الاولى ، فرضوا الحماية على فلسطين واعلنوا انشاء «وطن قومى يهودى» فى فلسطين ، وساعدوا بجميع الوسائل هجرة اليهود بالجملة ، وضمنوا بالتالى المقدمات لاجل تأسيس اسرائيل مع كل ما تبع ذلك من عواقب فاجعة على شعوب الشرق .

وعن المستعمرين الانجليز لم يتخلف الغزاة الفرنسيون الذين استعبدوا في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الجزائر

وتونس والمغرب وبعض البلدان الاسلامية الاخرى فى افريقيـا . وتسببوا بكثير من البلايا لمسلمى سوريا ولبنان وعرضوهم خلال عقود من السنين للنهب الاستعمـارى من جانب اصحاب المصارف الفرنسيين . ومنذ الثلاثينيـــات من القرن التاسع عشر ، اخـذ المستعمرون الفرنسيون يساندون بجميع الوسائل الكتل الاقطاعية من الموارنـــة فى لبنان . وفى ١٨٦٠-١٨٦١ ، احتلت القـــوات الفرنسية بيروت وضواحيها بحجة حماية المسيحيين من اعمال القمع الاسلاميـــة . وتحت ضغط المستعمرين الفرنسيين ، اضطر حكام الامبراطورية العثمانية الى تقسيـــم اراضى لبنان الى قائمقاميتين - درزية ومارونية . وكان القصد من تقسيم البلد على اساس دينى ان يحول دون نمـــو الوعى الذاتى الوطنى عند عرب المشرق وان يسهل استعباد البلد من قبل فرنسا . واليوم ايضـــا يعانى شعب لبنان المعذب من العواقب الفاجعـــة لهذه السياسة الاستعماريـة ، سياسة «فرّق تسد» .

كذلك شرع الامبرياليون الالمان فى اواخر القرن التاسع عشر يسهمون فى نهب وخنق شعوب الشرق الاسلاميـــة . وقد دعموا السلطان التركى الدموى عبد الحميـــد الثانى الذى خنق حريـــة واستقلال الملايين من العرب ، وجروا الامبراطوريـــة العثمانية الى الحرب ضد بلدان الوفاق ، وهذه الحرب آلت الى استيلاء المستعمرين البريطانيين والفرنسيين على البلدان العربيـــة الداخلة فى قوام الامبراطورية العثمانية .

عشية الحرب العالمية الثانية ، حاول الامبرياليون الالمان من جديد ان يستغلوا راية الاسلام الخضراء لبلوغ اهدافهم الاغتصابية . ووزعوا فى بلدان الشرقين الادنى والاوسط وافريقيا الشماليـــة وافريقيا الشمالية الشرقية ، بملايين النسخ ، مناشير بصورة هتلر وعلى رأسه عمامة ، وزعموا زورا وبهتانا وتجديفا انه اعتنق الاسلام واتخذ اسم حيدر ، واعلن نفســـه حامى المسلمين الاعلى . وتدل الوثائق التى اكتشفها المؤلف فى الارشيفات الهتلرية - ، كمـــا سنبين فى الفصل السابـــع ، - على ان الفاشيين الالمان رسموا عشية الحرب العالمية الثانيـــة وبخاصة فى سياقها ، وحاولوا ان ينفذوا خططا بعيدة المدى للاستيلاء على مصر وفلسطين وسوريـــا

ولبنان وتركيا والعراق وايران وافغانستان والقسم الغربى من الهند . وكان ينبغى ان يبدأ تحقيق القسم الاساسى من هذه الخطة للاستيلاء على العالم بعد ان تخترق فرق الدبابات الهتلرية القفقاس الشمالى ومنطقة ما وراء القفقاس (ارمينيا وجورجيا واذربيجان) الى طهران و بغداد . وليس البتة من قبيل الصدفة ان تكون الخطة السرية للعدوان على الاتحاد السوفييتى التى كان تنفيذها مقدمة الزامية وشرطا لا غنى عنه للاندفاع الى فتح العالم الاسلامى قد اسميت ، بمبادرة من هتلر ، «خطة بر باروسا» .

ومما له دلالته ان المصالح المختصة (مصالح المخابرات والتجسس) الهتلرية قد عمدت لدن رسم مختلف التفاصيل والجوانب من خطة الاستيلاء على بلدان العالم الاسلامى بعد تحقيق «خطة بر باروسا» الى اقامة اتصالات مع قادة الصهاينة ، وانور السادات ، وبعض زعماء الحركات الانفصالية الاقطاعية فى العراق وفى كردستان الايرانى ، ومع زعماء بعض قبائل الكاشكاى واللور من الرحل فى جنوب ايران ، وبعض زعماء قبائل البوشتى .

ان الفاشيين الالمان قد استغلوا بصفاقة ووقاحة فى مصالحهم شعارات الاسلام وكره شعوب العالم الاسلامى للمضطهدين البريطانيين والفرنسيين ، ولكن خططهم الاغتصابية منيت بالفشل بعد ان هزمت القوات المسلحة السوفييتية الجيوش الفاشية فى معارك موسكو وستالينغراد وفى القفقاس الشمالى وفى قوس كورسك .

كذلك تسبب الامبرياليون الاميركيون بضرر فادح لشعوب العالم الاسلامى ، وهم يحاولون الآن ان يضللوا الرأى العام فى بلدان آسيا وافريقيا بمزاعم باطلة ومزيفة مفادها ان الولايات المتحدة الاميركية كانت دائما صديقة للشعوب الاسلامية وخصما للاستعمار . ولكنه سبق للحكومة الاميركية ان شنت فى الحقبة الواقعة بين عام ١٨٠١ وعام ١٨١٥ حروبا ضد مسلمى ليبيا وتونس والجزائر التى كانوا يسمونها آنذاك بعجرفة وتكبر فى واشنطن «بالدول الهمجية» . وفى الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر قصفت مدافع سفن القوات البحرية الاميركية المناطق الساحلية من سوماطره وغيرها من جزر اندونيسيا الاسلامية . وفى سنة ١٨٣٣ فرض

الاميركيون «معاهدة صداقة» على سلطان مسقط ، وكانـــت هذه «المعاهدة» اول وثيقة دولية غير متكافئة وقعها حاكم دولة عربية . ومنذ اوائل القرن العشرين حـــاول الامبرياليون الاميركيـون ان يفرضوا رقابتهم على جميع خطوط النقل فى الامبراطورية العثمانية ، وفى سنة ١٩١٢ حاول صنيعة الاحتكارات الاميركية مورغان شوستر ان يأخذ فى يده قيادة المالية والحياة الاقتصادية كلها فى ايران . والعالم بأسره يعرف ان الانقلاب الذى جرى فى ايران سنة ١٩٥٣ واعاد الشاه الى الحكـــم وجعل ايران اكبر رأس جسر للامبريالية الاميركية فى الشرقين الادنى والاوسط قد نظمته مصلحة المخابرات المركزية الاميركية . ومعلـــوم بالقدر نفسه انـه لولا المساندة الاقتصادية والسياسية والديبلوماسية والعسكرية الشاملـــة من جانب الولايات المتحدة الاميركية لما استطاع المعتدون الصهاينة ان يشنوا الحروب العدوانية على شعوب البلدان العربية ، ولما استطاعوا ان يستولوا على الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان ، ولمـــا تجرأوا بالطبع على اقتحام لبنان ووضع الخطط لتجزئة هذا البلد .

وتشن الاوساط الحاكمة الاميركية حربا غير معلنة على مسلمى افغانستان وتبذل قصارى جهدهـــا لتأزيم العلاقات بين مسلمى افغانستان ومسلمى الباكستان ، بين افغانستان الاسلامى وجمهورية ايران الاسلامية . وقد يسّرت الحرب الدامية بين ايران والعراق ، كما ان مصالحها المختصة وديبلوماسيتها تبذر بذور الشقاق والعداء والنزاعات بين البلدان الاسلامية فى افريقيا الشمالية .

ولئن كان الصليبيون والمستعمـــرون البرتغاليون قد ستروا حروبهم العدوانية ضد شعوب العالم الاسلامى بشعارات حماية «قبر المسيح» ونشر المسيحية ، ولئن كان المستعمرون البريطانيون قد رفعوا للغرض نفسه شعار النضال ضد العبودية والنخاسة ، فان الامبرياليين الاميركيين يموهون خططهم الاغتصابية الشاملة بشعارات مكافحة الشيوعية . ومما له دلالتـه انه فور اتخاذ القرار بمضاعفة عدد افراد «فيلق الانتشار السريع» المعد للعمل قبل كل شيء ضد شعوب الشرق ، وعشية نشر الامر بتشكيل القيادة المركزية التى ادرجت فى «مجال فعلها» ١٩ دولة من آسيا وافريقيا الشماليـــة الشرقية بينها ١٨ دولة اسلامية ، دعا الرئيس الاميركى ريغان فى

حزيران (يونيو) ١٩٨٢ الى شن «حملة صليبية على الشيوعية» . وقد سبق لكارل ماركس ان قال ان التاريخ يتكرر ، للمرة الاولى كمأساة ، ثم كمهزلة . ان الحملات الصليبية التى قامت فى حقبة القرن الحادى عشر -القرن الثالث عشر تحت ستار من الشعارات المسيحية قد انقلبت الى مأساة فظيعة هائلة على شعوب العالم الاسلامى . ان المهزلة الممثلة حاليا فى واشنطن - مهزلة «الحملة الصليبية على الشيوعية» المرفقة «بحماية» مئات الملايين من المسلمين من «الخطر البلشفى» بواسطة اساطيل حاملات الطائرات ، والف وخمسمئة قاعدة حربية ، والسلاح الحرارى النووى ، والتحالف العسكرى مع الصهاينة ، والمؤامرات اللامتناهية فى بلدان آسيا وافريقيا ، - لا يمكنها ان تخفى عن شعوب الشرق الاسلامية ان الامبريالية الاميركية هى اخطر اعدائها خلال ٩٠٠ سنة من الحروب والاعتداءات الاستعمارية .

ويأمل المؤلف من كتابه المرتكز على دراسة المطبوعات العلمية والوثائق الارشيفية خلال زمن طويل ان يتيح للقراء ان يفهموا بمزيد من الوضوح جوهر الاستعمار والاستعمار الجديد ودورهما المشؤوم فى مصائر شعوب العالم الاسلامى ، وان يحددوا بمزيد من الدقة والجلاء مكانهم فى النضال العظيم الذى يجرى الآن فى العالم كله ضد الاستعمار والعرقية والاضطهاد الامبريالى ومن اجل السلام والديموقراطية والحرية والذى تتوقف على مآله ، بلا ريب ، مصائر البشرية جمعاء .



الفصل الاول

نشوء الامبراطوريات الاستعمارية في بلدان العالم الاسلامي

في ايار (مايو) ١٤٩٨ رست اربع سفن برتغالية مسلحة بمدفعية غير معروفة في السرق ، تحت امرة فاسكو دا غاما ، في جون كاليكوت ، اكبر مركز للتجارة البحرية في هندوستان في ذلك الزمن . فهناك بالذات كانت تتلاقى سبل الزوارق والمراكب التي تنقل الاقمشة الحريرية والآنية الصينية الثمينة ، وسفن التجار المسلمين التي تنقل التوابل التي تفوق التقدير من ملقه ، مع سبل المراكب الشراعية من هرمز وعدن القادمة لاخذ هذه البضائع والموسوقة بمصنوعات البلدان العربية وايران ، وكذلك بالاحصنة التي تحظى برفيع التقدير في هذه المنطقة . وكان لتجار كاليكوت المسلمين مكاتب ، لا في هندوستان وفي حوض الخليج العربي وحسب ، بل ايضا في القاهرة والاسكندرية وحتى في فاس البعيدة . ورغم ان حكام كاليكوت الملقبين بـ«ملوك الجبال والبحار» كانوا دائما من الهندوس ، كانت العلاقات بين الطائفة الهندوسية والطائفة الاسلامية خلال قرون وقرون علاقات صداقة ومودة . وقد اخذ الوضع يتغير بصورة جذرية بعد ان عرفوا في ليشبونه عن الثروات الطائلة التي ينطوي عليها النظام التجاري القائم في حوض المحيط الهندي والمتواجد اساسا في ايدي المسلمين . وفي سنة ١٥٠٢ ظهر فاسكو دا غاما للمرة الثانية في كاليكوت . وهذه المرة كان يحمل لقبا فخما طنانا ، لقب «اميرال البحر الهندي» ، وكان اسطوله يتألف من ١٥ سفينة . في البدء ، قصف البرتغاليون كاليكوت بالمدافع ، واحرقوا قصر الحاكم ، وكذلك قطعوا ايدي وارجل البحارة المسلمين الذين قبضوا عليهم عند مشارف جون المدينة (على سبيل التخويف) . وبعد القضاء على

قسم كبير من كاليكوت ، عاد فاسكو دا غاما الى ليشبونه حيث كافأه الملك بسخاء على المعلومات التى حملها وعلى «مآثره» . وفى سنة ١٥٠٥ انطلق من ليشبونه الى المحيط الهندى اسطول لجب من ٢٢ سفينة على متنها ١٥٠٠ جندى علاوة على طواقمها . ونال آمر الاسطول الميدا لقب «نائب الملك الهندى» .

وقبل ذاك ، كان ملك البرتغال مانويل الثانى قد اتخذ لقبا جديدا — «سيد الملاحة والفتوحات والتجارة فى اثيوبيا والعربية وبلاد فارس والهند» . وهكذا ، منذ اوائل القرن السادس عشر ، وقبل انشاء الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية ، اتخذ ملك البرتغال لقبا كان ينبغى له ان يرمز الى الرقابة العسكرية السياسية على بلدان المحيط الهندى التى كان المسلمون يؤلفون اغلبية سكانها الساحقة . ومن الطريف ان البيت الابيض اعلن ، بعد مرور ٥٠٠ سنة تقريبا ، هذه الاراضى بالذات منطقة يشملها فعل القيادة المركزية السيئة الشهرة .

وكان «الاساس الحقوقى» للقب الزعامة والهيمنة الذى اتخذه مانويل الثانى قد ارسى قبل ذاك بثمانى سنوات — فى سنة ١٤٩٤ — حين وقع ممثلو اسبانيا والبرتغال معاهدة تورديسيلياس التى اعلنت . . . تقاسم الكرة الارضية ! وكان خط التقاسم يمر فى المحيط الاطلسى غربى جزر الرأس الاخضر ، بمحاذاة خط الطول الغربى الخمسين تقريبا . واشير فى المعاهدة الى ان كل ما سيكتشف لاحقا من الاراضى غربى خط التقاسم سيكون ملك اسبانيا ، وكل ما سيكتشف من الاراضى شرقى هذا الخط سيكون ملك البرتغال .

وقد صادق بابا روما الكسندر السادس بورجيا على معاهدة تورديسيلياس . كانت مصلحة الفاتيكان فى تطبيق هذه المعاهدة وفى دفع البرتغاليين الى الاستيلاء على رقع شاسعة من الاراضى فى آسيا ، استمرارا فى الظروف الجديدة للسياسة القديمة التى كانت تنتهجها الكنيسة الكاثوليكية لاجل النضال ضد الاسلام والتى سبق ان تجلت ببالغ الشؤم فى مرحلة الحملات الصليبية . ومع كل اسطول جديد ينطلق الى مياه المحيط الهندى من ليشبونه ، كان يمضى عشرات اليسوعيين والفرنسيسكان وممثلى سائر الرهبانيات ،

وكانت مهمتهم تتلخص فى غرس المسيحية بالحديد والدم . ولكن سرعان ما اقتنع الغزاة بانه يستحيل اداء هذه المهمة . ولا بّد من الموافقة على رأى الديبلوماسى والعالم الهندى المعروف بانيكار الذى فضح بكامل الحق والصواب نفاق الغزاة البرتغاليين الذين موهوا توسعهم الاستعمارى بالشعارات الدينية . «كان المقصود ابادة الكفار المسلمين فقط ، وليس البتة تحويلهم الى مسيحيين» (١) .

ورغبة فى تبرير مآثم البرتغاليين واعمالهم الوحشية حيال المسلمين ، وعلى الاخص تبرير الموبقات التى لا سابق لها ، التى اقترفها فاسكو دا غاما فى ١٥٠٢–١٥٠٣ ، حين اغرق حقا وفعلا بالدماء سواحل مالابار ، كتب باروز ، الذى اشترك فى هذه الحملات ، والذى كان من اوائل مؤرخى الاستعمار انه توجد فى اوروبا بالطبع قواعد دولية معينة يتقيد بها الملاحون وان البرتغاليين يعترفون بها ويتقيدون بها ، ولكن «هذه القواعد لا توجد خارج حدود اوروبا ، وهناك يستطيع البرتغاليون ، بوصفهم اسياد الملاحة ، ان يتخذوا اية اجراءات» (٢) . ويقينا ان هذا «التبرير» لا يفعل غير ان يشدد من ذنب ومسؤولية المستعمرين البرتغاليين عن اعمالهم الاجرامية بحق المسلمين . ومما له دلالته ان المؤرخين الغربيين الذين مدحوا فاسكو دا غاما على اكتشاف الطريق البحرى الى الهند (مع ان احمد بن مجيد ساق سفنه ، كما سبق ان اشرنا) «يتناسون» اليوم ايضا الاشارة الى اعماله المخزية والاجرامية .

ومع المحاولات المحموعة لتوطيد المواقع فى سواحل مالابار . بذل المستعمرون البرتغاليون قصارى جهدهم لكى يفرضوا رقابتهم على المركز الرئيسى للتجارة فى حوض المحيط الهندى ، مدينة كاليكوت ، وعلى المواصلات فى القسم الغربى من المحيط الهندى ، ويعززوا مواقعهم فى الخليج العربى ، ولاسيما فى هرمز حيث كانت تتلاقى السبل التجارية للشرق الادنى وايران وافريقيا الشمالية الشرقية وآسيا الجنوبية . وهذه المرة ايضا سددوا الضربة الرئيسية الى المسلمين . ففى سنة ١٥٠٦ ظهر فى مياه القسم الغربى من المحيط الهندى اسطول الفونسو البوكركه ، الذى كان لا يزال يخضع آنذاك «لنائب الملك الهندى» الميدا .

وبموجب الخطة المرسومة فى ليشبونه ، قاد البوكركه سفنه بمحاذاة الساحل الشرقى من افريقيا واحتل جزيرة سقطرة . ولكنه اخفق فى محاولة الاستيلاء على عدن التى كانت من اهم مراكز التجارة الشرقية . وفى آب (اغسطس) ١٥٠٦ شرع البوكركه يستولى على مرافىء القسم الشرقى من الجزيرة العربية الخاضعة لحاكم هرمز . واستولى على مدينتى ومينائى خبوره وقريات واحرق جميع السفن العربية الموجودة هناك مع طواقمها . ثم بدأ اقتحام مركز من أهم المراكز التجارية فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية هو مدينة مسقط التى كانت تابعة هى ايضا لحكام هرمز . وقد وصف البوكركه بالتفصيل فى كتابه «تعليقات» تدمير المدينة واحراق الجامع البديع بناء على امره . وبعد تدمير عدد من المدن الميناثية اقترب الاسطول البرتغالى من جزيرة هرمز وبدأ يستعد لاقتحام هذا المركز المهم للتجارة البحرية فى عموم الشرقين الادنى والاوسط . ورغم انه كانت لدى حاكم هرمز سيف الدين قوات كبيرة لاجل الدفاع ، الا ان الاوساط التجارية العليا فى المدينة ، التى سبق ان عرفت عن قدرة مدفعية السفن الحربية البرتغالية ، والتى خافت على مداخيلها واموالها ، فضلت قبول انذار البوكركه . واعتبر سيف الدين نفسه تابعا للملك البرتغالى وتعهد بان يدفع سنويا جزية ويؤمن للتجار البرتغاليين شروطا مهاودة استثنائية . اما الاهم فهو انه صار من الالزامى على جميع السفن المنطلقة ، لا ضمن حدود ممتلكات حاكم هرمز وحسب ، بل ايضا فى عموم الخليج العربى ، ان تحصل على اذن خاص كان لا يمنحه غير الحكام البرتغاليين الذين استقروا فى هرمز حيث تأسست محطة تجارية برتغالية .

وهذه الاتفاقية التى تم التوقيع عليها فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٥٠٧ ارست اساس سيادة البرتغاليين البحرية والتجارية فى القسم الغربى من المحيط الهندى وفى الخليج العربى ، وسددت ضربة قوية جدا الى العلاقات التجارية والاقتصادية بين آسيا الجنوبية والشرقين الادنى والاوسط ، وقوضت مواقع التجار العرب ، وكان لها تأثير سلبى للغاية فى مستوى حياة جميع السكان فى الخليج العربى . ان تسرب البرتغاليين الى الخليج

والمعاهدة الجائرة مع هرمز الحقا ضررا خطيرا بايران ايضا . ذلك ان الساحل الشرقى من الخليج العربى كـــان خلال الفى سنة (مع انقطاعات غير كبيرة) جزءا لا يتجزأ من ايران وكانت لـــه اهمية اقتصادية بالغة بالنسبة لايران . وكانت هرمز وسائر جزر الساحل الشرقى جزءا من دولة الهخامنشيينيين ودولة الساسانيين وغيرهما من الدويلات القائمة فى اراضى ايران . ونحو اوائل القرن السادس عشر انتهت فى ايران مرحلة التجزؤ الاقطاعى ونشأت دولة ممركزة نسبيا هى دولة الصفويين . وقد علم الحاكم الاول مـن ابناء اسرة الصفويين ، اسماعيل ، الذى اتخذ لنفسه لقب الشاه ، بمساعـــى البرتغاليين ، فطلب من حاكم هرمز ان يستأنف دفع الجزيـــــة العادية ، الامر الذى كان لا بدّ له ان يؤكد خضوعه لايران . ردا على طلب سيف الدين ، طلب الاميرال البرتغالى من حاكم هرمـــز ، لا ان يمتنع عن دفع الجزية لشاه ايران وحسب ، بل ان يساعـــد كذلك البرتغاليين فى ان يخضعوا لانفسهم جميع مرافئ الساحـــل الشرقى من الخليج العربى . وهكذا شكل البرتغاليون خطرا فعليا على الممتلكات العربية على الساحل الغربى من الخليج ، وعلى ايران على الساحل الشرقى ، وعلى الامبراطورية العثمانية التى كانت تخوض نضالا عنيدا ضد ايران بصدد الاستيلاء على بغداد والبصره والتى كانت لها مصلحة حيوية فى الساحل الشمالى من الخليج العربى وفى حرية الملاحة فى الخليج . وهكذا عمد المستعمرون البرتغاليون ، بالاعتماد على مدافع سفنهم ، الى تحدى العالم الاسلامى كلـــــه تقريبا .

وبما ان الاسطول البرتغالى كـــان اقرب بكثير الى هرمز من قوات الشاه اسماعيل ، فقد قرر حاكـــم الجزيرة ان ينفذ امر البوكركه ويمتنع عن دفع الجزية لايران اى انـه رفض الاعتراف بسيادة ايران على الساحل الشرقى من الخليج العربى . وفى الوقت نفسه حاولت الاوساط العليا التجارية فى هرمز ان تتهرب من دفع الجزية للبرتغاليين ايضا . ان جشع المستعمرين الذين كانوا يسعون الى وضع ايديهم على ثروات مدن الخليج العربى ، والذين قوضوا العلاقات التجارية القديمة بين مرافئ الخليج من جهة وبين الهنـد والشرق الادنى وافريقيا الشمالية الشرقية من جهة اخرى ، ادى الى

تأزم العلاقات بين هذه الاوساط العليا والبرتغاليين . وقد التف المستاؤون حول حاكم هرمز الهمام حاجي اترارا الذى استطاع ان يقيم ، من وراء ظهر البوكركه ، اتصالات سرية مع بعض من آمرى السفن البرتغالية الذين استاؤوا لدن تقاسم الغنيمة والذين غضبوا بسبب التوقف المستطيل اكثر من اللزوم عند سواحل هرمز القائظة . وبالنتيجة اوقف حاكم هرمز بناء القلعة البرتغالية وطالب الربابنة المستاؤون ، بشكل انذارى ، برحيل الاسطول من هرمز . وفى ايار (مايو) ١٥٠٨ اضطر البوكركه ، قبل ان يحقق خططه الى النهاية ، الى اخراج الاسطول من الخليج العربى .

كان البرتغاليون يتجوبون فى مياه خليج عمان والبحر العربى ويهاجمون كالقراصنة المدن البحرية فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية ، التابعة لسلطة هرمز . وكانوا لا يكتفون بتدمير وحرق البيوت والجوامع ونهب اموال السكان ، بل شرعوا كذلك يطبقون اساليب همجية غير معروفة فى هذه الانحاء : فان سكان المدن الذين يقعون فى الاسر ، والذين يعتبرون انفسهم من رعايا حاكم هرمز ، انما كان المستعمرون البرتغاليون يعتبرونهم خونة للبرتغال لان هرمز ، بموجب اتفاقية سنة ١٥٠٧ ، قد اعترفت شكلا بتبعيتها للبرتغال (الامر الذى لم يكن يعرفه السكان المحليون بالطبع) ، ويعاقبون مئات العرب ، بمن فيهم النساء والاولاد عقابا رهيبا ، اذ كانوا يقطعون لهم آذانهم وانوفهم .

وفى هذه الاثناء عرف اسماعيل شاه ايران بالنزاع بين حاكم هرمز والبوكركه ، فارسل مددا الى منطقة كمبرون بغية نقل القوات بحرا الى هرمز لاجل تعزيز الحامية المحلية وبعث سيادة ايران هناك . ولكن البوكركه استطاع ان يحول دون ذلك بعد عودته مع قسم من الاسطول . وامر الاميرال البرتغالى الضابط الايرانى ، آمر الفصيلة التى حاولت العبور الى هرمز ، بان يبلغ الشاه اسماعيل بانه ، اذا ما حاول الشاه من جديد ان يستولى على هرمز ، «سيبنى جدران القلعة من عظام المسلمين ويسمر آذانهم على البوابات وينصب علمه على جماجمهم»» (٣) .

واتجه مع اسطوله ومع السفن الاضافية التى جاءت من البرتغال الى الساحل الغربى من الهند قبل ان يتمكن من اخضاع

هرمز الى النهاية . فعلى ضوء الاحداث التى سنتناولها ادناه ، قرروا فى ليشبونه انه من الضرورى ، لا قطع جميع العلاقات التجارية القائمة عبر هرمز بين الهند وبين الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط وحسب ، الامر الذى تحقق فعلا ، رغم ان الجزيرة ذاتها لم تكن قد خضعت نهائيا بعد ، بل ايضا فرض الرقابة على كاليكوت ، النقطة النهائية للخط التجارى الرئيسى الهند — هرمز — عدن — مصر .

فى سنة ١٥٠٦ ، عمد حاكم كاليكوت ، لتأثره من الاعمال الهمجية التى اقترفها فاسكو دا غاما ومرؤوسوه ، الى طلب المساعدة من سلطان المماليك فى مصر اشرف قنصوه غورى . ومما له دلالته ان حاكم كاليكوت الهندوسى الذى امتحن «صداقة» الملاحين المسيحيين قد اسرع الى طلب المساعدة من حاكم مصر المسلم . وفى ربيع ١٥٠٧ ظهر اسطول مصرى كبير مسلح بالمدافع فى البحر العربى . وانضم الاميرال المحنك مير حسين قرب جزيرة ديو الى سفن حاكم كاليكوت وسرعان ما اشتبك فى قتال مع الاسطول البرتغالى . وللمرة الاولى فى التاريخ ، دارت فى المحيط الهندى رحى معركة بحرية اشتركت فيها من الجانبين مدافع السفن . منى الاسطول البرتغالى بالهزيمة . وادرك «نائب الملك الهندى» الميدا ان وجود الامبراطورية البرتغالية التى انشئت للتو صار على يد عفريت ، فحشد كل ما تحت تصرفه من سفن وقوات مسلحة وارسلها من جديد الى جزيرة ديو . ولم يكن الميدا يأمل فى التفوق والاحتكار فى ميدان مدفعية السفن ، فقرر اللجوء الى السلاح المجرب ، سلاح التجسس والخيانة . اقام اتصالا سريا مع مالك ايّاز محافظ ديو الغوجرتى ، المسيحى الذى اعتنق الاسلام ، فحرم مالك اياز مير حسين الماء والمأكولات . فاضطر الاميرال المصرى الى ارسال قسم من سفنه واسطول حاكم كاليكوت الى كاليكوت وراء المؤن والذخائر . وفى هذه الاحوال دارت فى شباط (فبراير) ١٥٠٩ رحى المعركة البحرية الثانية بين الاسطول البرتغالى والاسطول المصرى المستضعف ، فانتهت عمليا بالمعادلة لان سفن الطرفين سلمت ؛ ولكن مير حسين اعتبر ان ملك غوجرات قد خانه فانطلق نحو البحر الاحمر . ومن جديد اصبح

البرتغاليون اسياد القسم الغربى من المحيط الهندى . وفى هذه الاثناء وصلت سفن البوكركه من الخليج العربى الى منطقة كاليكوت . وفى خريف ١٥٠٩ قام البوكركه ، وقد اصبح «نائب الملك الهندى» ، بمحاولة جديدة لاحتلال كاليكوت بهجوم صاعق لكى يقضى بضربة واحدة على الحاكم الهندوسى الذى اقام صلات وثيقة جدا مع الحكام المسلمين فى الشرق الادنى ومع التجار المسلمين فى الساحل الغربى من الهند . ولكن حاكم كاليكوت استطاع ان يصد الهجوم . وظلت كاليكوت مستقلة .

وفى هذه الاحوال قرر البوكركه ان يوجه قواته ابعد الى الشمال للاستيلاء على جزيرة غوا الخارقة الاهمية من الناحية الستراتيجية وتحويلها الى اهم حصن للسيطرة البرتغالية فى حوض المحيط الهندى . وفى سنة ١٥١٠ استولى البرتغاليون على غوا . ان المؤرخين الغربيين يطرون هذا النصر باعتباره دليلا على التفوق الهائل للسلاح الاوروبى والتكنيك الاوروبى والروح المسيحية على الهندوس والمسلمين . اما فى الواقع ، فان البوكركه قد استولى على غوا ، بقدر كبير ، نتيجة للمؤامرات المديدة والمعقدة التى استهدفت استغلال التناقضات بين الحكام المسلمين والهندوس المحليين ، وتأجيج نيرانها بجميع الوسائل . وفى اوائل ١٥١٠ ارسل البوكركه مندوبين عنه الى الحاكم الجديد لاكبر دولة هندوسية – دولة فيدجاياناغار – كريشنادف رايا ؛ وقد اسهم هؤلاء المندوبون فى نشوب الحرب بين هذه الدولة ودولة فيدجابور الاسلامية التى قامت على انقاض دولة البهمانيين الشاسعة . وبما ان كريشنادف رايا كان يحتاج الى مخرج حر على البحر العربى لاجل التجارة البحرية وبخاصة لاجل استيراد الاحصنة باعداد كبيرة للخيالة المعدة للعمليات الحربية ضد فيدجابور ، فقد دعم خطط البوكركه الاغتصابية حيال غوا الواقعة فى مؤخرة فيدجابور . وقد كتب البوكركه فى تقرير الى الملك مانويل الثانى عن الاستيلاء على غوا ان جنوده وبحارته «ابادوا جميع المسلمين حيثما كانوا . اما الذين لم يقطعوا رؤوسهم ، فقد ساقوهم الى الجوامع ثم احرقوهم» (٤) .

وهكذا قضى الغزاة البرتغاليون فى السنوات الاولى بالذات من بناء الامبراطورية الاستعمارية فى حوض المحيط الهندى على العلاقات

التجارية والاقتصادية القائمة بين هندوستان الاسلامية وبلـــدان الشرق الادنى ولم يترددوا عن القضاء الجسدى على مئات الآلاف من المسلمين وعن تدمير قيمهم الثقافية ومعابدهم ، واسهموا بجميـــع الوسائل في تأزيم الحزازات الهندوسية الاسلامية فى هندوستان .

فى سنة ١٥١٠ جعل البرتغاليون من غوا عاصمة الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية فى المحيط الهندى . وبعد بضع سنـــوات انتزعوا من سلطان فيدجابور شريحة من الارض على الساحل مقابل غوا ، وفى الاربعينيات من القرن السادس عشر استغلوا الحـــرب الجديدة التى ساعدوا فى اندلاعها بين فيدجابور وفيدجاياناغـــار ووسعوا رقعة ارضهم ، وحرموا فعلا دولة فيدجابور الاسلامية مخرجا على البحر .

وللحيلولة دون اقامة العلاقات التجارية بين المرافئ الهندية الشمالية والشرق الادنى حاول البرتغاليون عبثا فى ١٥٠٩ و١٥٢١ و١٥٣١ الاستيلاء على قلعة ديو الغوجراتية التى تحمى المخرج الى الخليج الذى يقع فى اعماقه المرفأ الغوجراتى الرئيسى كمبـــى ذو الاهمية الاقتصادية والستراتيجية الكبيرة . وفى سنة ١٥٣٥ ، عندما نشبت الحرب بين غوجرات وامبراطورية المغول العظام الناشئة ، اقنع البرتغاليون باهادور سلطان غوجرات ان يسلمهم ديو مقابل دعمهم له ضد جيش المغول العظام . وهذا الوعد بالذات عجل بداية الحرب بين الدولتين الاسلاميتين . وحين اقتنع باهادور بـــان البرتغاليين لم يفوا بوعودهم والتزاماتهم ، حاول ان ينتزع ديو ، ولكنهم اغتالوه غدرا اثناء المفاوضات . وفى ١٥٥٨–١٥٥٩ استولى البرتغاليون على دامان ، على الساحل المقابل لديو من خليج كمبى واغلقت قلعتا دامان وديو مدخل خليج كمبى وفقدت سلطنة غوجرات نهائيا ميناءها كمبى ، الامر الذى عقّد وضعها الاقتصادى الى اقصى حدّ ، وقوى المشاحنات الاقطاعية ، واسهم فى واقع ان حاكـــم امبراطورية المغول العظام اكبار سحق غوجرات فى سنـــة ١٥٧٢ وضمها الى الامبراطورية . ولكن حكام امبراطورية المغول العظام لم يستطيعوا الاستفادة من كمبى . ولهذا ازدهرت غوا البرتغاليـــة المرتبطة بحكام فيدجاياناغار حيث وصلت الى الحكم سلالة ارافيدو التوسعية . ان عدم وجود مرفأ بحرى جيد فى البحر العربى (عدا

صور) كان يضعف وضع امبراطورية المغول العظام الاقتصادى ، بينما كان تحالف البرتغاليين مع فيدجاياناغار يسهم فى تأزيم علاقات هذه الدولة مع اكبر امبراطورية اسلامية فى هندوستان . وهكذا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ايضا ادى وجود البرتغاليين على الساحل الغربى من الهند ، وحصارهم لتجارة امبراطورية المغول العظام البحرية ، وتدخلهم فى العلاقات بين الدول الهندوسية والاسلامية الى استمرار تأزم العلاقات الهندوسية الاسلامية والى كبح التطور الاقتصادى لدول وشعوب هندوستان .

درسوا فى ليشبونه بكل عناية البلاغات السياسية والاقتصادية الواردة من غوا بصدد الوضع العام فى المحيط الهندى وتعاظم اهمية الرقابة على التجارة بين آسيا واوروبا . ونحو اواخر العقد الاول من القرن السادس عشر ، اقتنعوا فى العاصمة البرتغالية بان عدن وهرمز وملقه كانت فى ذلك الزمن مراكز حيوية للتجارة العالمية ، من شأن امتلاكها ان يجعل من حكام البرتغال «زعماء العالم» لانها كانت آنذاك المفاتيح الثلاثة التى تفتح جميع الابواب الى الكنوز العالمية (٤–أ) . ولهذا فور تحويل غوا الى عاصمة للامبراطورية الاستعمارية البرتغالية ، انطلق البوكركه فى ربيع ١٥١١ ، على رأس اسطول من ١٩ سفينة ، الى ملقه . وفى النصف الاول من القرن الخامس عشر كانت سلطنة ملقه قد اصبحت من اقوى الدول فى آسيا الجنوبية الشرقية ، والمركز الرئيسى لنشر الاسلام فى اندونيسيا . ان مدينة ملقه ، بحكم موقعها الجغرافى وعلاقاتها الوثيقة مع الصين وجزر الدولوك (جزر الافاويه) وميناءى كاليكوت وكمبى الهنديين ، قد كانت ، حسب الاعتقاد المعلل جدا الذى عرضه الملاح البرتغالى تومى بيريش (وكان هناك من سنة ١٥١٢ الى سنة ١٥١٥) فى بحثه الطريف «لمحة عن بلدان الشرق» (لم يكتشف الا فى سنة ١٩٣٧) ، اكبر وانشط ميناء بحرى فى العالم .

فى ٢٥ تموز (يوليو) ١٥١١ ، رسى اسطول البوكركه فى جون ملقه ، وبدون اى انذار امر البوكركه باغراق جميع السفن الاسلامية الموجودة فى الجون . ولم يطلق البرتغاليون النار على السفن الصينية والهندوسية . ثم بدأ الاستعداد لاقتحام المدينة . خاطب البوكركه بحارة وجنود الاسطول وقال ان الهجوم سيبدأ فى يوم مقدس

للبرتغال ، يوم عيد القديس ياغو (يعقوب) ، حامي الجيش البرتغالي وشفيع الاخوية العسكرية الدينية التي كان الاميرال آمرها . ثم اعلن ان البحارة والجنود سيؤدون واجبهم امام الله بالهجوم لانهم «سيطردون المسلمين من هذا البلد ويطفئون شعلة طائفة محمد بدرجة من القوة بحيث انها لن تشتعل يوما» . وتحدث البوكركه عن واجب البرتغاليين امام الملك واكد قائلا : «انا واثق من اننا اذا حرمنا المسلمين امكانية الاستفادة من مداخيل التجارة في ملقه ، سيحل الخراب التام بالقاهرة ومكة ، وسيضطر اهل البندقية الى شراء الافاويه من البرتغال» (٥) . وببعض الكلمات اوضح مؤسس الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية بوضوح الجوهر الاجتماعي الاقتصادي لسياسة الغزاة الاوروبيين والغاية الحقيقية من التعليل الايديولوجي للتوسع الاستعماري – النضال ضد الاسلام .

صُدّ الهجوم الاول . ولم يفلح البرتغاليون في الاستيلاء على ملقه الا بعد ٩ ايام من المعارك الضارية ، وعلى الفور شرع البوكركه في تأسيس قلعة وكنيسة ، وابقى في المدينة حامية كبيرة ، وضم ملقه الى الامبراطورية البرتغالية .

بالاستيلاء على ملقه استولى البرتغاليون على اغنى غنيمة منذ ظهورهم في المحيط الهندي . ان حصة الملك الشخصية وحدها ، التي ارسلت حالا الى ليشبونه كانت تربو على ٢٠٠ الف كروزيرو ذهبي . ولكن البوكركه لم يستطع ان ينقل معظم الثروات المنهوبة لا الى غوا ولا الى ليشبونه . فان السفينة الرئيسية في اسطوله المحملة بالاحجار الكريمة والمصنوعات الذهبية ، جنحت عند العودة قرب ساحل سوماطره . وببالغ الجهد والمشقة خلص نائب الملك وقسم من الطاقم . وغرقت المشحونات التي تفوق التقدير .

فور الاستيلاء على ملقه ارسل البوكركه بعثتين الى جزر الافاويه . وفي سنة ١٥١٣ استطاع الاسطول الثاني ان يقيم اتصالا مع سلطاني تيدور وترناتة ، الجزيرتين الكبيرتين في ارخبيل مولوك ، والمنتجتين الرئيسيتين لكبش القرنفل الذي يلقى رفيع التقدير في اوروبا . وفيما بعد ، انتهج البرتغاليون سياسة معقدة في جزر المولوك ، اذ انهم ساندوا في آن واحد سلطانين متعاديين . وفي اواخر ١٥٢١ ، تعقد الوضع لان السفينة «فكتوريا» اقتربت من جزر

المولوك (وقد كانت آخر سفينة من اسطول ماجلان ، وكانت فى طريق العودة الى اسبانيا بعد اول رحلة حول العالم فى تاريخ البشرية وبعد اكتشاف المحيط الهادى) . وعلى الفور اتصل الاسبانيون بسلطان تيدور . فرفع البرتغاليون احتجاجا حادا سواء فى تيدور ام فى مدريد متهمين اسبانيا بمخالفة معاهدة توردیسیلیاس المعقودة عام ١٤٩٤ والامر البابوى الذى اقرها ، اذ ان الاسبانيين اقتحموا «منطقة نفوذ البرتغال» . وفى سنة ١٥٢٤ ، انعقدت لجنة مشتركة من الخبراء كان عليها ان تثبت صحة احتجاج البرتغال لان نص المعاهدة كان قد وضع قبل العلم بوجود المحيط الهادى ولان خرائط ذلك الزمن كانت تخلق الكثير من سوء الفهم وعدم الوضوح . وفى غضون القرن السادس عشر استمر الصراع بين اسبانيا والبرتغال على الجزر . وفى الثمانينيات اشترك الانجليز ايضا فى الصراع . وفى العشرينيات من القرن السادس عشر ، بدأ البرتغاليون ، بالاعتماد على مواقعهم فى ملقه يتدخلون بعزم وحزم فى الشؤون الداخلية لاندونيسيا حيث كانت تدور رحى صراع ضار بين الامارات الهندوسية والاسلامية .

فور العودة من ملقه الى غوا فى اواخر سنة ١٥١١ ، اخذ البوكركه يستعد استعدادا محموما للقيام بحملة جديدة من الفتوحات، وهذه المرة فى منطقة البحر الاحمر . وقد كتب فى بلاغ الى ليشبونه ان سيادة البرتغاليين على الساحل الغربى من هندوستان وفى حوض الخليج العربى لن تكون متينة ما دام العالم الاسلامى يؤمن فى امكان وصول جيوش الامبراطورية العثمانية واسطولها الى هذه المنطقة . وكان من الضرورى ، برأى البوكركه ، قطع جميع الطرق البحرية من البحر الاحمر الى المحيط الهندى والخليج العربى . ولاجل تخليد السيادة على آسيا الاسلامية ، كان على البرتغاليين ان يحققوا ثلاثة اهداف : الاستيلاء على عدن ، وبالتالى فرض رقابة ثابتة على «مضيق مكة» ، الاحتفاظ بهرمز والاحتفاظ بالتالى «بمضيق البصره» ؛ تأمين الرقابة التامة على غوا وديو (٦) .

لقد وضع البوكركه امتلاك هرمز والاستيلاء على عدن فى مستوى واحد من الاهمية مع احتفاظ البرتغاليين بعاصمة الامبراطورية الاستعمارية غوا . ومما له دلالته ان نائب ملك الهند الذى كان

واسع الاطلاع على الجغرافيـــة يسمى مضيق عدن (باب المندب) «مضيق مكة» مع ان هذا المضيق لـــم يرد يوما بهذا الاسم فى الخرائط البرتغالية . لقد كان ذلك مرتبطا ، كما سنبين فيما بعد ، بالخطط التى كان يحيكها البرتغاليون آنذاك للنضال ضد مركـــز الاسلام ، مكة المكرمة ، وللحيلولة دون استيلاء الامبراطوريـــة العثمانية على القاهرة حيث كان البرجيون المماليك يعيشون ايامهم الاخيرة .

وربط البوكركه ضرورة الاحتفاظ بهرمز فى ايدى البرتغاليين بالرقابة على «مضيق البصره» ، اى بمضيق هرمز . ثم ان الاشارة الى مركز البصره التجارى الجديد المتنامى بسرعة ، الواقع غير بعيد عن مصب شط العرب فى الخليج العربى كانت ترتبط بخطط بعيدة المدى حاكها المستعمرون البرتغاليون لكى يفرضوا رقابتهم عـلى الخليج كله ولكى يستغلوا فى صالحهم الصراع الضارى من اجل بغداد والبصره الذى كان يدور فى تلك السنوات بين الامبراطورية العثمانية وايران الصفوية .

وفى ليشبونه حبذوا جميع هذه الاعتبارات ، وتلقى البوكركه امرا بامتلاك عدن . ولكن هذه المحاولة التى قامت فى آذار (مارس) ١٥١٣ صدتها حامية عدن وطواقم السفن الراسية فى المكلأ ، من مختلف القوميات . وعلى سبيل الثأر امر البوكركه الربابنة بالانصراف الى القرصنة فى البحر الاحمر والاستيلاء على السفن المتجهة الى عدن وجده . واخذ البرتغاليون يغرقون السفن التى يستولون عليها ، ويعاقبون افراد طواقم هذه السفن وركابها ، دون تمييز فى الجنس والعمر ، بالعقاب الوحشى التقليدى بالنسبة للبرتغاليين : فقـــد كانوا يقطعون انوفهم وآذانهم ، وكذلك ايادى البعض منهم ، بتهمة دعمهم لبأس الاسلام .

على متن السفينة الرئيسية المتجوبة فى البحر الاحمر ، كتـــب حاكم الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية رسالتين طريفتيـــن الى الملك مانويل الثانى . فى الرسالة الاولى ، اقترح القيام باعمـــال كبيرة فى جبال اثيوبيا لاجل اسقاط قسم من السلسلة الجبلية فى النيل الازرق ، وقطع مجراه وتحويل تيار النيل من الشمـــال الى الشرق (٧) . وكان القصد من المشروع حرمان مصر من مياه النيل

وتحويل القاهرة وكل المنطقة المجاورة لها الى صحراء ، ووقف زحف القوات التركية وتوفير الوقت الضروري للبرتغاليين لاجل تعزيـز مواقعهم على ساحل البحر الاحمر في مصر والسودان . وقد آمن البوكركه في واقعية الخطة الى حد انه طلب من الملك ان يرسل بأسرع وقت من جزيرة ماديرا اختصاصيين محنكين في مضمـــار الري ، ومنجميين ، للبدء بأسرع وقت بالاعمال في جبال اثيوبيا .

وفي الرسالة الثانية ، التي اشرنا اليها في المقدمـــة ، اقترح البوكركه القيام بمسيرة – قفزة للخيالة الى المدينة المنورة لاجـل الاستيلاء على نعش النبي محمد صلعم ونقله الى ليشبونه .

كان الكره للاسلام يفعم كذلك اعمال البوكركه وكل السياسة الاستعماريـــة البرتغالية . وفي سنة ١٥١٤ قـام المستعمرون البرتغاليون بمحاولة جديدة للاستيلاء على هرمز . ولكن الهجوم على هذه الجزيرة البالغة الاهمية على الصعيد الاقتصادي والستراتيجي انتهى بالاخفاق بفضل المساندة التي قدمتها لحامية الجزيرة القوات الايرانية القادمة الى كمبرون ، ناهيك بان حاكم هرمز تنكر لتعهداته السابقة للبرتغاليين واعتبر نفسه تابعا للشاه اسماعيل .

وفي هذه الاحوال بدأ البوكركه يهيئ حملة جديدة كبيرة من الفتوحات في البحر العربي والبحر الاحمر والخليج العربي .

وقد اشار البوكركه في الرسائل التي ارسلها الى الملك فـــي اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٥١٤ الى انه يتعين على البرتغاليين ، لكي يصبحوا اسياد الخليج العربي ، ان يقطعوا كل اتصال بين هرمز وجونات البحر الاحمر . ولهذا الغرض كان البوكركه ينوي حشد قواته في خليج عدن وفي البحر الاحمر ، وان يستولي بهجوم صاعق عـلى عدن ، ثم ان يستولي على ارخبيل فرَسان وارخبيل قمران في البحر الاحمر ، وان يفرض رقابته على مرفأ مصوع في اثيوبيـــا ، ثم ان يستعد لمهاجمة جدّه . وبعد ذلك كان على البرتغاليين «ان يجمعـــوا جميع القوى لتدمير مكة» . كان البوكركه بتوجيه ضربة ماحقة عـلى هذا النحو الى اهم مراكز الاسلام ، وباغلاق البحر الاحمر نهائيا امام السفن المصرية والتركية ، يحسب ان يستولي فيما بعد ، لا على هرمز فقط ، بل ايضا على جميع الجزر والجونات الخاضعة لها ، وان يفرض الرقابة البرتغالية كليا على جميع العلاقـــات التجاريـــة

والاقتصادية بين الشرق الاقصى وآسيا الجنوبية وآسيا الجنوبية الشرقية من جهة ، وبين الشرق الادنى وافريقيا الشمالية الشرقية والبحر الابيض المتوسط من جهة اخرى .

ان الخطط المهيبة التى حاكها البوكركه وحاشية البلاط فى ليشبونه لاجل الاستيلاء على حوض البحر الاحمر ، والتعويل على «تدمير مكة» و«خنق الاسلام» قد فشلت تماما . ولكن الوضع تأزم فى الشرق الاوسط ، وآل الى معركة كبيرة ودامية دارت رحاها فى سهل شلدران فى آب (اغسطس) ١٥١٤ بين القوات الايرانية والقوات التركية وانتهت بهزيمة جيش ايران الصفوية ، فتحت آفاقا جديدة امام السياسة الاستعمارية البرتغالية فى الخليج العربى . وعن طريق شتى الوعود والتعهدات الخطية بصدد تقديم الدعم المسلح للصفويين ضد الامبراطورية العثمانية ، حمل البوكركه الشاه اسماعيل فى سنة ١٥١٥ على توقيع معاهدة ايرانية برتغالية اعترف بموجبها الشاه بهيمنة البرتغال على هرمز ومسقط . وتعهد البرتغاليون بدورهم بنقل القوات الايرانية الى البحرين والساحل الغربى من الخليج العربى لكى تتمكن من توجيه ضربة الى جناح الجيش التركى . وقد دعا نائب الملك البرتغالى فى رسائله الى الشاه اسماعيل الى عقد تحالف عسكرى بغية تنظيم زحف مشترك . . . على القدس والقاهرة !

ولكن البرتغاليين لم يتمكنوا ، رغم الجهود الدائبة التى بذلوها خلال سنوات وسنوات ، ان يحولوا دون ادراج هذين المركزين المهمين للاسلام فى قوام الامبراطورية العثمانية فى ١٥١٦-١٥١٧ . وفضلا عن ذلك اخذ الاسطول التركى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر يظهر فى البحر الاحمر والخليج العربى . وفى الوقت ذاته تقريبا ، - نحو اوائل القرن السابع عشر - طفقت ايران التى قويت فى عهد الشاه عباس الاول الصفوى تهتم من جديد بالخليج العربى وتبحث عن الحلفاء لاجل طرد البرتغاليين من هرمز .

فى القرن السابع عشر بدأت تأفل شمس الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية التى كان لها تأثير سلبى للغاية فى تطور اقتصاد وثقافة شعوب العالم الاسلامى ، وقطعت العلاقات التجارية الدائبة بين آسيا الجنوبية وآسيا الجنوبية الشرقية من جهة وبين

بلدان الشرق الادنى وشرق البحر الابيض المتوسط من جهة اخرى .
ان العلماء الغربيين لا يزالون الى اليوم يحاولون لزوم الصمت عن جرائم ومآثم المستعمرين البرتغاليين بحق شعوب العالم الاسلامى او انهم ، على الاقل ، يعدلون كثيرا فى خطوط لوحة الجرائم الرهيبة التى اقترفها مؤسسو اول امبراطورية استعمارية اوروبية . ويبذل المستشرقون والدعاة الغربيون قصارى الجهد لكى تنسى شعوب الشرق باسرع وقت مرحلة الاستعمار الرهيبة التى دشنتها سفن فاسكو دا غاما ، ويلزمون الصمت قصدا وعمدا عن ان المستعمرين البرتغاليين لم يتصرفوا البتة وحدهم . فمنذ سنة ١٥٠٦ ، احالت الحكومة البرتغالية الحق الاحتكارى فى كل التجارة مع الشرق ، وبخاصة فى تجارة الافاويه ، الى غرفة التجارة البرتغالية فى الهند . وبما ان اثمان الافاويه فى الهند وملقه ولا سيما فى جزر المولوك كانت فى اغلب الاحيان اقل بـ٢٠٠–٢٥٠ مرة عنها فى ليشبونه ، فان التاج البرتغالى والمساهمين فى غرفة التجارة كانوا يجنون ارباحا بالرأسمال الموظف قدرها ٧٠٠–١٠٠٠٪ ! ومنذ سنة ١٥٠٥ ، اخذ الرأسمال الهولندى المستقوى وعلى رأسه ملوك انفرس غير المتوجين من آل فسلر ، يشترك فى عمليات غرفة التجارة البرتغالية فى الهند بصورة غير علنية ولكن نشيطة وفعالة . ولهذا السبب بالذات فتحت غرفة التجارة البرتغالية فى الهند ، منذ سنة ١٥٠٣ ، مكتبا كبيرا فى انفرس مرفقا بمستودعات هائلة للتوابل والافاويه .

ولقد اشير غير مرة الى ان الفاتيكان كان يشترك انشط الاشتراك فى سياسة البرتغال الاستعمارية . وبقدر ما كانت تضعف البرتغال ، بدأ يتحكم فى ممتلكاتها الشاسعة منذ اواخر القرن التاسع عشر احتكاريو بريطانيا والمانيا ، وبعد الحرب العالمية الثانية احتكاريو الولايات المتحدة الاميركية . وهذا ما يفسر بقدر كبير هذه الظاهرة البالغة التناقض وهى ان الامبراطورية الاستعمارية الاولى فى تاريخ اوروبا كانت اطول الامبراطوريات الاستعمارية عمرا . فحتى ثورة ١٩٧٤ ضمنا فى البرتغال التى تبلغ مساحة اراضيها ٩٢ الف كيلومتر مربع ، استمرت السيادة الاستعمارية الاسمية على امبراطورية مساحتها اكثر من مليونى كيلومتر مربع .

ان دراسة تاريخ السياسة الاستعمارية البرتغالية فى المحيط

الهندى تدل على ان البرتغاليين كانوا بين الاوروبيين اوائل من جعلوا من اثارة وتأجيج النفور الدينى اهم ادوات السياسة . فانهم لم يستغلوا الخلافات الهندوسية الاسلامية لاجل توطيد مواقعهم فى هندوستان وحسب ، بل اجحوا بجميع الوسائل نيران التناقضات بين الحكام المسلمين والهندوس وطبقوا طرائق مماثلة فى آسيا الجنوبية الشرقية . اما فيما يخص الشرقين الادنى والاوسط ، فان البرتغاليين قد عززوا مواقعهم هناك الى حد كبير بتأجيج نيران النفور والخلاف بين ايران الشيعية وتركيا السنية . وهذه الطرائق طبقها ايضا المستعمرون البريطانيون خلال زمن طويل . وفى ايامنا يستغلها المستعمرون الجدد الاميركيون بقدر متزايد ابدا .



الفصل الثانى

المرحلة الاولى من استعباد شعوب آسيا الجنوبية والشرق الاوسط من قبل المستعمرين البريطانيين

١ ـ مقاومة مسلمى هندوستان

الاستيلاء على البنغال

كان البنغال يتسم بنظر المستعمرين البريطانيين باهمية بالغة لاسباب عديدة . اولا ، بسبب موقعه الستراتيجى كان يستعمل كرأس جسر لاجل التغلغل ، لا الى سائر مناطق هندوستان وحسب ، بل ايضا الى دول آسيا الجنوبية الشرقية . ثانيا ، كان مصدرا لارباح طائلة كانت تتيح تمويل الحروب الاغتصابية التى حولت هندوستان فيما بعد الى مستعمرة بريطانية . ثالثا ، كان مركزا لانتاج الاقمشة الشهيرة التى كانت فى القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر ، كما اشار جواهر لال نهرو فى كتابه المعروف «اكتشاف الهند» ، افضل الاقمشة فى العالم ، وكانت تساعد عملاء شركة الهند الشرقية فى فتح اسواق اوروبا والبلدان الاسلامية فى الشرق الادنى والشرق الاوسط وافريقيا الشمالية حيث كانت تحظى بطلب خاص ، الامر الذى عزز المواقع السياسية لبريطانيا العظمى فى هذه المنطقة . وهذه الاقمشة كان ينتجها الحاكة المسلمون البنغاليون وبصورة رئيسية سكان دكا ، عاصمة بنغلادش حاليا ، وسكان المناطق المجاورة لها . رابعا ، حوّل الغزاة البريطانيون البنغال الى اهم منطقة لانتاج الافيون الذى اغنى توريده الى بلدان الشرق الاقصى وبخاصة الى الصين شركة الهند الشرقية وسهل تغلغلها الى كثير من بلدان آسيا ، الى حد ان ورن هستينكس ، الحاكم العام البريطانى الاول فى البنغال ، لم يتردد عن اصدار قرارات فى سنة ١٧٧٣ وسنة ١٧٩٧ اعلن بموجبها انتاج الافيون وبيعه احتكارا لشركة الهند الشرقية . وقد اجبروا الفلاحين المسلمين البنغاليين على انتاج الافيون الذى كان المستعمرون البريطانيون يسممون به مئات الملايين من سكان آسيا . وفى القرن التاسع عشر ، كان ثمة

فى الصين التى اضطرت الى خوض حربين ضد بريطانيا فى ١٨٤٠-١٨٤٢ وفى ١٨٥٦-١٨٦٠ لقطع دابر توريد الافيون البنغالى الى اراضيها ، رأى واسع الانتشار مفاده ان البنغاليين هم المسؤولون عن تسميم ملايين الصينيين . وهكذا كانت سياسة المستعمرين البريطانيين تبذر بذور الشقاق بين شعبى بلدين آسيويين عظيمين .

خامسا ، اصبح البنغال ، كما سنبين ادناه ، مصدرا لابتزاز هائل فى مصلحة كل جهاز شركة الهند الشرقية ، الامر الذى اتاح لمساهميها وحكامها وكبار اداريبها ان يشتروا الوظائف فى البلاط الملكى فى لندن والمقاعد النيابية فى البرلمان ، وان يمارسوا بالتالى تأثيرا متعاظما ابدا فى سياسة بريطانيا العظمى ، الاستعمارية والخارجية . وهكذا كانت الاموال الطائلة المبتزة باستثمار الفلاحين والحرفيين المسلمين فى البنغال استثمارا وحشيا لاانسانيا تعزز نفوذ طواغيت شركة الهند الشرقية وتساعدهم فى الحصول على دعم الاوساط الحاكمة فى بريطانيا لاجل شن حروب وحملات عدوانية واغتصابية جديدة موجهة ضد شعوب العالم الاسلامى .

ونحو اواسط القرن الثامن عشر ، توطدت مواقع شركة الهند الشرقية فى البنغال . وكان نفوذها يرتكز بقدر لا يستهان به على دعم الامزجة الانفصالية لدى «نواب» البنغال الذى كان لا يزال يعتبر شكلا ، اسميا ، اغنى اقليم فى امبراطورية المغول العظام . وكان استثمار البنغال على الصعيد الاقتصادى يجرى بمساعدة فعالة ونشيطة من جانب اميتشاند وبخاصة الجاغات سيته ، وهما من اكبر التجار والمرابين الهندوس . وكان ممثلو شركة الهند الشرقية يسلفون «النائب» واقرب الناس اليه قسما من النقود التى يحصلون عليها منهما لدن اجراء الحسابات المتبادلة المتعلقة بالاقمشة والافيون وجباية الضرائب وينالون منهم فوائد وتسهيلات سياسية ادارية اضافية . وكان للتجار والمرابين الهندوس بدورهم مصلحة فى علاقات وثيقة مع الشركة اذ انها كانت على ما يكفى من القوة لحمايتهم من غضب الفلاحين المسلمين المنهوبين ومن مقاومة الاقطاعيين المسلمين . وهكذا كان كل هرم السلطة الذى بنته شركة الهند الشرقية فى البنغال يستنفد البلاد اقتصاديا ويعزز استثمار الجماهير الشعبية الواسعة ويؤزم النزاعات الدينية الطائفية .

ولكن وضع شركة الهند الشرقية البريطانية تعقد من جـــراء معارضة عملاء شركة الهند الشرقية الفرنسية الذين استقروا فـــى دكّان ، وبخاصة من جراء تعاظم بأس دولة الماراتهات الهندوسية التى اكتسبت اكثر فاكثر من السلطة فى الهند الغربية والوسطى وقامت ببضع غزوات فى البنغال . وفى هذه الاحوال اتخذت ادارة شركة الهند الشرقية فى لندن وممثلاها الرئيسيـــان من مدراس وكلكوتا جملة من الاجراءات السياسية والعسكرية والتخريبية البعيدة المدى لاجل توطيد السيادة البريطانية فى البنغال .

فلاجل تقويض مواقع الفرنسيين فى دكّان ، شرع عملاء شركـة الهند الشرقية البريطانية يدعمون بالنقود والمؤامرات وقوة السـلاح صنيعتهم محمد على الذى اعتبر فى سنة ١٧٥٤ «نائبا» على كارناتيك التى يقطنها الهندوس على الاغلب . وبعد اربع سنوات احرز عملاء شركة الهند الشرقية البريطانية نجاحا مماثلا فى حيدرآباد اذ جعلوا من صنيعتهم ناصر جانغ «نظام» (اى حاكم) هذه الامارة الهندوسية على الاغلب . وهكذا صارت الشركة فى مدراس وكلكوتا محمية من تدخل محتمل يقوم به الفرنسيون وحلفاؤهم . وفضلا عن ذلك ، اصبح بوسعها ان تنقل قواتها المسلحة التى تدافـــع عن مدراس الى البنغال . وقد ازداد عدد افراد قوات الشركة كثيرا بعد ان طفق ممثلوها فى سنة ١٦٤٦ يؤلفون تشكيلات عسكرية من ابناء السكان المحليين . وهكذا انشئت افواج السباهى التابعة لشركة الهنـــد الشرقية البريطانية والتى لعبت دورا كبيرا جدا فى استعباد الهنـد وغيرها من بلدان آسيا وافريقيا . وكانت افواج السباهى تؤلف بموجب المبدأ الدينى القومى : الافواج الاسلاميـــة ، الافـــواج الهندوسية ، الافواج السيخية ، وما الى ذلك . علما بان الافـــواج المؤلفة من الهندوس كانت تستخدم فى الانحاء التى تقطنها اغلبية من المسلمين ، والعكس بالعكس .

ومن الطبيعى ان تكون جميع هذه الاعمال ، وكذلك الاجراءات التى طبقها البريطانيون لاجل توطيد وضعهم فى كارناتيك وحيدرآباد قد قوت الخصومة بين الهندوس والمسلمين فوق ما هى عليه من شدة .

فى سنة ١٧٥٦ ، بعد وفـاة «النائب» الاهواردى خان الذى

ارتبط زمنا طويلا بشركة الهند الشرقية البريطانية وثيق الارتباط ، نشب فى مورشيداباد ، عاصمة البنغال ، صراع حاد على العرش لم يكن يتسم بطابع شخصي وحسب . وقد انتصر سراج الدولة ، حفيد الاهواردى خـــان ، الذى اعتمد على فريق الاقطاعيين الذين كانوا يطالبون بالحد من سلطة شركة الهند الشرقية البريطانية فى البنغال . وقد اقنع عملاء الشركة شوكت جانغ ، مدعيهـــم بالتاج البنغالى ، بالهرب الى كلكوتا . وبما انهم كانوا يحسبون ان يستغلوه لاحقا ضد سراج الدولة ، فقد تقرر رفض طلب «النائب» الجديـد بتسليم الهارب . وهكذا اثير نزاع مع «النائب» . وسرعان مـــا احتلت قوات «النائب» كلكوتا . وفى سياق المعارك ، ثم فى سياق هرب الموظفين الانجليز فى فوضى من كلكوتا ، لقى ٨٦ شخصـــا مصرعهم . واعتقل البنغاليون ٦٠ شخصا وحصروهم فى احدى غرف قلعة القديس وليام فى كلكوتـــا . ومن جراء القيظ وانعدام الهواء الطرى ، لم يبق من هـؤلاء قيد الحياة فى الصباح التالى غير ٢٣ شخصا . وعلى الفور استغل رؤساء شركة الهند الشرقية البريطانية هذا الحادث المؤسف لكى يعبئـــوا الرأى العام البريطانى ضـد «وحشيات المسلمين» المقترفة فى «ثقب اسود بكلكوتا» ، كمـــا اسميت الغرفة فى قلعة القديس وليام . وبناء على تعليمـات قادة الشركة ، اختلق الموظف البارز هولويل الذى بقى حيـــا ، قصة مأساوية عن هلاك البريطانيين وزعـــم زورا وبهتانـــا ان عدد المحصورين فى الغرفة لم يكن ٦٠ بل ١٤٦ بريطانيـــا ، وان عدد الذين لقوا مصرعهم فى الغرفة بذنب من «المسلمين المجرمين» ، ليس ٣٧ بل ١٠٩ من الموظفين البريطانيين . وكان جوهر التزييف والتزوير يتلخص فى ان هولويل «اضـاف» الموظفين الـ٨٦ الذيـن قتلوا اثناء المعـــارك والهرب الى عدد المعتقلين فى الغرفة ليزيد كثيرا بالتالى من ذنب سراج الدولـــة . وقد وسم ماركس بوصمة العار هذه الطريقة النموذجية فى الدعاية الاستعمارية واكد انه سمح لاغلبيـــة البريطانيين بالسفر على السفن باتجـــاه اسافل نهـر هوغلى (١) .

وشرع اسياد شركة الهند الشرقية البريطانية يؤزمون الوضع قصدا وعمدا بصدد اعمال «نائب» البنغال ، كما شرعوا يستعدون

بكل همة للنضال المسلح ضده رافضين بعناد جميع مقترحاته السلمية . ذلك انه تقرر فى لندن الاستيلاء على البنغال ، والقيام بذلك فى اسرع وقت ، اولا ، لان حربا جديدة ضد فرنسا كانت تختمر مما يعنى انه كان من الممكن ان تنضم قوات شركة الهند الشرقية الفرنسية الى الجيش البنغالى . وثانيا ، لان خطر اقتحام البنغال من الشمال الغربى من قبل جيش الماراتهات – الذى كان اقوى جيش آنذاك فى هندوستان – اصبح من جديد خطرا فعليا .

ولتوجيه الضربة الى «النائب» فى البنغال ، ارسلت شركة الهند الشرقية البريطانية قواتها من مدراس بسرعة بقيادة كلايف . وبما ان عدد الجنود كان قليلا ، فقد تقرر العمل قبل كل شيء بالطرائق المجربة ، طرائق الرشوة والخيانات . وبواسطة المرابيين الهندوسيين اميتشاند وجاغات سيته اقام العملاء البريطانيون اتصالا سريا مع وزير «النائب» وقائده العسكرى مير جعفر . ووعدوه بعرش البنغال . ومقابل ذلك كان عليه فى اللحظة الحاسمة من القتال ضد البريطانيين ان يطرد جميع منافسى البريطانيين من البنغال ويمنح الشركة البريطانية تسهيلات وامتيازات هائلة جديدة ويدفع تعويضا ضخما «عن تدمير كلكوتا من قبل البنغاليين» . وافق مير جعفر على قبول هذه المقترحات شرط توقيع اتفاقية سرية يوقع عليها ايضا ، من باب الضمانة ، اغنى رجل فى البنغال ، جاغات سيته . وقد اشرف اميتشاند على جميع المفاوضات بين مير جعفر وسيته والقائد البريطانى كلايف . وبما انه كان يعرف البريطانيين جيدا ، فقد طلب ان يشمل نص المعاهدة التى يوقعها الجانب البريطانى تعهدا من البريطانيين بدفع ٣٠٠ الف روبية «لقاء الوساطة والخطر» . قبل كلايف جميع الشروط ولكنه عرض على اميتشاند صيغة مزورة للمعاهدة صادق عليها ، حسب زعمه ، كبير ممثلى الشركة فى البنغال . تمت الصفقة مع مير جعفر (فقد عرضوا عليه نص المعاهدة السرية الحقيقية) ، ولم ينل اميتشاند المكافأة .

فى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٧٥٧ ، جرت فى جوار بليسى (شمالى كلكوتا) المعركة الفاصلة بين جيش «النائب» المؤلف من ٥٠ الفا من المشاة و١٨ الفا من الفرسان وبين فصيلة كلايف المؤلفة من ثلاثة آلاف رجل بينهم ٨٠٠ اوروبى فقط . وبما ان مير جعفر آمر

قوات «النائب» الاساسية لم يدفع بقواته الى ساحة القتـــال تنفيذا لشروط المعاهدة ، فقـــد سحقت فصيلة كلايف التى كانت تحوز المدافع قوات «النائب» ، التى صعقتها المفاجأة والخيانة .

اصبح مير جعفر «نائب» البنغال ولكن كلايف كان حاكم البنغال الحقيقى ، كما اصبح معبــود الشوفينيين والمستعمرين الانجليز . وحتى الآن ، تمدح الكتب التعليمية الانجليزية والمطبوعات العلمية المبسطة الانجليزية «بانى الامبراطورية» ، الستراتيجى اللامع كلايف الذى استطاع فى جوار بليسى ان يسحق بقوات فصيلة من ٣ آلاف رجل جيشا للمسلمين مؤلفا من نحو ٧٠ الف رجل . ويقيننا ان اغلبية المؤلفين الانجليز «ينسون» فى هذه الحال ان يشيروا الى الطرائق التى تحقق بها هذا النصر . وفى غضون ٢٠٠ سنة تقريبا ، صوروا للهنود ولسائر شعوب آسيا وافريقيـــا «النصر فى جوار بليسى» بصورة برهان لا يدحض على تفوق الانجليز (فقد كان عددهم ٨٠٠ فقط !) على شعوب الشرق ، وبخاصة على المسلمين .

فور ارتقاء العرش البنغالى ، كان على مير جعفر ان يشرع فى تقديم الهدايا ودفع التعويضات لشركـة الهند الشرقية البريطانية وموظفيها . وكان عليه ان يدفع تعويضا عن «تدمير» سابقه لمدينة كلكوتا ١٧ مليونا و٧٠٠ الف روبية (نحو مليارى روبية بالاسعار الحالية) رغم ان كلكوتا بقيت عمليا سالمة تماما تقريبا . وتلقى كلايف ٢٠٨٠ الف روبية على سبيل الهدية . واضطر مير جعفر الى توزيع زهاء ١٢ مليون روبية على موظفى الشركة وضباط الجيش والاسطول الانجليز .

ان ابتزاز الاموال بلا نهاية فى مصلحة الانجليز وخراب البلد استثارا استياء شديدا جدا من تصرفات مير جعفر ، لا بين الفلاحين البنغاليين وحسب بل ايضـــا بين الاقطاعيين البنغاليين . واستغل الحاكم الجديد للرئاسة البنغاليـــة (هكذا اسمى الممثل الرئيسى للشركة فى كلكوتا) فانسيتارت هبوط مكانة مير جعفر ونفوذه ، فخلعه فى سنة ١٧٦٠ وعين صهره مير قاسم «نائبا» للبنغال ؛ وقد دفع الصهر لقاء ذلك للحاكم واعضاء مجلسه ٢٠٠ الف جنيه سترلينى (٢٠ مليون جنيه سترلينى بالاسعار الحالية) ، واعطى الشركة ٣ مناطق من البنغال هى اغنى مناطقه .

ان استثمار الفلاحين والحرفيين بلا رحمة ولا شفقة واشتداده اكثر فاكثر من جانب شركة الهند الشرقية البريطانية ، والجديد من عمليات ابتزاز الاموال بمبالـــغ طائلة ، والتضييق على التجـــار المحليين — كل هذا اثار غضب جميع فئات السكان فى البنغال حقا وفعلا الى حد ان مير قاسم قرر ، لاجل الاحتفاظ بالعرش والسلطة ، ان يترأس انتفاضة ضد الانجليز . وفى سنة ١٧٦٣ عقد حلفا مع «النائب» المسلم عوده والمغولى الاعظم شاه علم الثانى . ولو ان هذا التحالف انعقد قبل سنتين ، لكانت له عواقب كارثية على السيادة البريطانية . اما فى الوضـــع الجديد ، فقد افلـــح المستعمرون البريطانيون فى حل الازمة . فقد لجأوا على نطاق واسع الى سلاح الرشوة والخيانة ، فتمكنوا من اضعـــاف قوى الحلفاء ؛ وفى سنة ١٧٦٤ ، انزلوا بقوات المسلمين فى المعركة الفاصلة بجوار بوكسار هزيمة ماحقة . وشغل كلايف للمرة الثانيـــة منصب حاكم الرئاسة البنغالية ، فنصّب من جديد على العرش البنغالى مير جعفر العجوز الذى صار نهائيا دمية فى ايدى الانجليز . وفى الوقت نفسه اجبر كلايف الشاه علم الثانى الذى وقع فى الاسر على توقيع فرمـــــان يمنح شركة الهند الشرقية البريطانية حق «الديوانى» اى الحق فى مراقبة مداخيل البنغال . وبالنتيجـــة تشكل نظام معقد للادارة — الشؤون المدنية صارت من صلاحية السلطات المحلية الخاضعة لمير جعفر . اما تحصيل الضريبة الزراعية والاشراف على استغلال الثروات الطبيعية واستثمار الجماهير الشعبية الواسعة من ملايين المسلمين البنغاليين ، فقد اخذهما رسميا موظفو الشركة فى ايديهم .

وما لبثت النتائج ان ظهرت . فمن سنة ١٧٥٧ الى سنة ١٧٨٠ فقط ، سحب المستعمرون البريطانيون من البنغال بصورة البضائع والنقود ٣٨ مليون جنيه استرلينى (زهاء ٤ مليارات جنيه استرلينى بالاسعار الحالية !) . وقد بلغ خراب البلد درجة من الشدة بحيث ان مجاعة لا سابق لها اجتاحت البنغـــال فى سنة ١٧٧٠ بعد قحط فى الموسم الزراعى ، فمات بسببهـــا بضعة ملايين . ومع ذلك ، استمرت جباية الضرائب . ففى سنة ١٧٧٢ ارسل الحاكم العـــام الاول للبنغال هستينكس تقريرا الى لندن كتب فيه : «رغم هلاك ثلث سكان البنغال على الاقل ، ورغم انخفاض المساحة المحروثة

بالتالى ، بلغت الضرائب المحصلة عن عام ١٧٧١ حتى اكثر من الضرائب المحصلة عن عام ١٧٦٨» (٢) . وفضلا عن ذلك ، شدد موظفو الشركة قصدا وعمدا من البلايا بشراء واحتكار احتياطيات الحبوب ثم بيعها باسعار فادحة . وهكذا ابتز كثيرون من الموظفين والتجار الانجليز ثروات طائلة . ومن جراء النسبة الرهيبة من الوفيات ، وهرب الفلاحين الذين فقدوا الارض والفلاحين المغبونين البؤساء بالجملة ، فرغ ثلث اراضى البلد من السكان . وهاجمت الادغال الاراضى الخصبة فى البنغال . وقام الفلاحون البنغاليون بانتفاضات عديدة ترأسها فى غالب الاحيان الاقطاعيون وبعض رجال الدين المسلمين ، ولكن المستعمرين البريطانيين قمعوها بوحشية ، مستخدمين لهذا الغرض افواج السباهى المؤلفة من الهندوس .

ونحو اواسط القرن الثامن عشر ، كما سبق ان قلنا ، اخذ يتهدد خطر جدى وضع شركة الهند الشرقية البريطانية فى البنغال من جراء تعاظم قوة وبأس دولة الماراتهات الهندوسية فى الهند الغربية والوسطى بعد ان شنت بضع حملات الى البنغال الشمالى ايضا . فدرس عملاء شركة الهند الشرقية البريطانية الوضع فى الهند الوسطى والغربية سعيا منهم الى تأمين مواقع الشركة وكذلك الى اضعاف العدو القوى والخطر الذى كان من شأنه بالتأكيد ان يعرقل الخطط البعيدة المدى لنشر النفوذ البريطانى ، لا فى عموم البنغال وحسب ، بل ايضا فى بيهار وأوذ ، واستوضحوا جوانب الضعف فى دولة الماراتهات ، وبحثوا بشكل محموم عن امارة او دولة بوسعها ان تواجه الماراتهات . وفى هذا الصدد كتب جواهر لال نهرو : «انشأ الانجليز نظاما كاملا للتجسس . وكانوا يتلقون المعلومات الكاملة عن بلاطات اعدائهم وقواتهم المسلحة ، بينما لم يكن لهؤلاء اى تصور عما يفعله وينوى فعله الانجليز . كان «الطابور الخامس» التابع للانجليز يفعل فعله على الدوام . ولهذا ، فى اللحظات الحاسمة ، فى اوج القتال ، كانت تحدث عمليات الفرار وانتقال الجيوش الى جانب الانجليز ، وكانت هذه العمليات تضعف القوات الهندية . وكان الانجليز يكسبون اغلبية المعارك قبل ان تبدأ العمليات الحربية . وكما كان الحال فى جوار بليسى ،

تكررت هذه الحالات فى غالب الاحيـان حتى الحروب ضد السيخ ضمنا» (٣) . واخذ عملاء المخابرات الانجليزية اتجـاه سياسة الماراتهات المعادية للمسلمين بعين الاعتبار ، فوجهوا اهتماما خاصا الى الدول الاسلامية المتاخمة لدولة الماراتهات .

استغل اسياد شركة الهند الشرقية البريطانية عملاءهـم فى بلاط المغول العظام فاسهموا فى تأزيم علاقاته مع الماراتهات ، فسحب هؤلاء قواتهم من حدود البنغال والهند الوسطى ، وزحفوا على الشمال وانتهى زحفهـم فى سنة ١٧٥٨ بالاستيلاء على دلهى ولاهور . وقد ادى ظهور الجيش الماراتهى اللجب فى البنجاب ، كما كان يأملون فى كلكوتا ، الى مصادمة بين الماراتهات ومؤسس الدولة الافغانية احمد شاه دورّانى . وقد افتتح هذا الاخير البنجاب اربع مرات فى حقبة سنوات ١٧٤٨–١٧٥٨ ، ضاما البنجاب فى كل مرة الى ممتلكاته . وفى سنة ١٧٥٨ ، عندما ظهر هناك الماراتهات ، عقد احمد شاه اتفاقية مع حكام الهند الشمالية المسلمين واعلن انه سيبدأ «الجهاد» ضد الماراتهات «الكفار» دفاعـا عن امبراطورية المغول العظام .

كان عملاء المخابرات البريطانية يعرفون احمد شاه من زمان . ففى سنة ١٧٣٩ ، عندما كان قائدا عسكريا فى جيش حاكم ايران ندير شاه ، تقابل معه ، وقد كان آنذاك احمد خان ، فى مقر اركان ندير شاه فى مشهد ممثل الشركة التجارية الموسكوفية البريطانية جون التون . وقد عرض التون على حاكم ايران خدماته بوصفه بانيا للسفن الحربية لاجل بناء اسطول حربى ايرانى كبير ، ولكن لا فى الخليج العربى حيث كـان من الممكن ان يعقد وضع الانجليز ، بل . . . فى السـاحـل الجنوبى من بحر قزوين لدفـع ايران الى التصادم مع الامبراطورية الروسية . ان افادات جون التون الذى نال لقب الاميرال الايرانى كانت موضع دراسة دقيقة ، لا من قبل مدراء الشركة التجارية الموسكوفيـة البريطانية وحسب ، بل ايضا من قبل مدراء شركة الهند الشرقية البريطانية . واستمرت الاتصالات مع احمد خان فيما بعد ، الامر الذى ساعده فى الحصول على معلومات اضافية مهمة جدا عن اوضاع الجيش الماراتهـى وعن التناقضات بين بعض قادته .

في ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٧٦١ ، هزم احمد شاه الجيش الماراتهي في معركة ضارية بجوار بانيباته . وهذا ما خلص الانجليز لسنوات طويلة من الخطر الماراتهي . وفي الوقت نفسه ، تكبدت قوات حلفاء احمد شاه المسلمين من الهند الشمالية خسائر كبيرة ، الامر الذي زاد امبراطورية المغول العظام ضعفا على ضعف . وفي هذا الصدد كتب كارل ماركس يقول : «اطاح نواب المغول بسلطته العليا . وحطم الماراتهات جبروت النواب ، وجبروت الماراتهات حطمه الافغان ، وبينما كان الجميع يحاربون الجميع ، داهمهم الانجليز واستطاعوا اخضاعهم جميعا» (٤) .

وهكذا لم تسفر سياسة المستعمرين البريطانيين في البنغال في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن استنفاد البلاد بكل شدة وعن املاق وهلاك الملايين من المسلمين وحسب ، بل اسفر كذلك عن تأزم الوضع في هندوستان الى اقصى حد ، وعن دفع العلاقات بين الامارات الهندوسية والامارات الاسلامية الى نزاعات دموية مديدة ، وعن ارساء الاساس لاجل تحويل الهند وعدد من البلدان المتاخمة الى مستعمرات واشباه مستعمرات بريطانية ومناطق نفوذ بريطانية لمئات السنين .

٢ ـ اثارة المستعمرين البريطانيين المصادمات الشيعية السنية لاجل توطيد مواقعهم في الخليج العربي

في اوائل القرن الثامن عشر ، دب ضعف شديد في ايران الصفوية . وفي سنة ١٧٢٢ استولت القوات الافغانية ، بعد حصار مديد ، على عاصمة ايران في ذلك الوقت ، مدينة اصفهان . وفي الوقت ذاته استولى الاتراك على ايران الشمالية الغربية . وتدل الوثائق المحفوظة في الارشيف الوطني في الهند على ان عملاء شركة الهند الشرقية البريطانية وشركة المشرق البريطانية والشركة الموسكوفية البريطانية قد اشتركوا بقسط فعال في اضعاف دولة الصفويين مسهمين في تأزيم التناقضات بين السنيين والشيعيين ، وبخاصة بين الفرس من جهة ، والافغان والاتراك من جهه اخرى . ان هذا الموقف الذي وقفه قادة هذه الشركات انما مرده الى ان

النفوذ البريطانى فى تلك الحقبة قد ضعف فى ايران ، وان الخطط الانجليزية لفرض الرقابة على تصدير الحرير الايرانى ولاستغلال الصفويين لاجل توطيد المواقع البريطانيــة فى القسم الشرقى من الخليج العربى قد انهارت .

ولكن نحو اوائـــل الثلاثينيات من القرن الثامن عشر اضطر الافغان الى الجلاء عن الاراضى الايرانيـــة وتم توحيد ايران تحت سلطة ندير شاه . وقد اولى ندير شاه بعث النفوذ الايرانى فى ساحلى الخليج العربى الشمالى والشرقى قدرا كبيرا من الاهتمام ؛ الامر الذى ادى ، مثلا ، الى نشوب الحرب الايرانية التركية بصدد البصرة حيث كانت تتواجد محطة تجاريـــة رابحة جدا لشركة الهند الشرقية البريطانية . وقد بذل عملاء هذه الشركة قصارى جهدهم لاجل اضعاف مواقع ايران فى حوض شط العرب .

هذه السياسة عقدت علاقات شركة الهند الشرقية مـع ندير شاه اقصى التعقيد . ولهذا تقرر فى لندن وكلكوتا الاسهام بقدر الطاقة فى تنفيذ خطة ندير شاه بالزحف على الهند اذ انـه كان لا بد لذلك ان يضعف امبراطورية المغول العظام ويسدد ضربـة الى الماراتهات الذين اشتد ساعدهم فى هذه الاثناء ، ويعزز بالتالى وضع الشركة فى البنغـــال ويؤمن امكانيات اضافية لاجل القيام بعمليات هجومية فى هندوستان .

وفى الوقت نفسه واصل جون التـــون ممثل الشركة التجارية الموسكوفية البريطانية ، المذكور سابقـــا ، انشاء اسطول حربى كبير على ساحل بحر قزوين .

بعد مرور ١٥٠ سنـــة ، اصدر اللورد كرزون ، الذى كان زمنا طويلا نائبا للملك فى الهند ، وكان المبادر الى تقسيم البنغال الى قسم هندوسى وقسم اسلامى ، كتابا اسمه «بلاد فارس والمسألة الفارسية» وصف فيه نشاط التون ، ولاحظ بارتيـاح وسرور ان التون افلح فى نقل نشاط ندير شاه البحرى الحربى من سواحل الخليج العربى الى بحر قزويـــن ، وفى تأزيم العلاقات الروسية الايرانية كما استطاع ان يسهل على شركة الهند الشرقيـــة فرض رقابتها على تصدير الحرير الايرانى وان يساعد ايضا فى توطيد مواقع الشركة في هذه المنطقة .

بعد اغتيال نذير شاه فى سنة ١٧٤٧ (بقى التون فى ايران حتى عام ١٧٥١ ، عندما اغتيل هو الاخر) ، بدأ صراع دموى على السلطة انتهى فى سنة ١٧٥٨ بنصر نهائى احرزه كريم خان ، مؤسس سلالة الزنديين ، وقد نقل كريم خان عاصمة البلد الى شيراز واولى تطوير التجارة الخارجية اهتماما كبيرا . وقد تتبع عملاء شركة الهند الشرقية كل خطوة من خطوات كريم خان وتتبعوا على الاخص سعيه الى بعث رقابة ايران على الساحل الشرقى من الخليج العربى ، ولاسيما على بوشير التى اشير اليها كمقر لشركة الهند الشرقية فى الخليج . وفى ١٢ نيسان (ابريل) ١٧٦٣ وقع مندوبو الشركة مع الشيخ العربى المحلى سعدون معاهدة تمنحه افضليات تجارية خاصة فى بوشير وذلك سعيا منهم لتوطيد مواقع الشركة هناك والحيلولة دون تعاظم نفوذ ايران ؛ الامر الذى اتاح للمستعمرين البريطانيين ، لا تعزيز مواقعهم فى بوشير وبناء محطة تجارية هائلة فيها وحسب ، بل ايضا اقامة اوثق اتصال مع عم سعدون ، الشيخ نصر ، زعيم اكبر قبيلة عربية فى ايران الجنوبية الغربية – قبيلة المشاريش . وقد اجج عملاء شركة الهند الشرقية نيران التناقضات بين العرب السنيين من قبيلة المشاريش وبين الفرس الشيعيين من رعايا كريم خان ، ثم قاموا بدور الوسطاء ، واستطاعوا ان يحملوا كريم خان على اصدار فرمان فى سنة ١٧٦٣ ذاتها امن للشركة امتيازات لا سابق لها سواء فى ساحل الخليج او فى ايران ذاتها . وهكذا ، منذ اكثر من ٢٠٠ سنة ، شرع المستعمرون البريطانيون ، بتأجيج نيران التناقضات بين السنيين والشيعيين ، بين الاتراك والافغان والعرب ، يتدخلون بوقاحة وصفاقة فى العلاقات بين حكام ايران وشيوخ القبائل العربية ؛ بين ايران من جهة ، والامبراطورية العثمانية وامبراطورية المغول العظام من جهة اخرى ؛ وشرعوا يعززون مواقعهم بجميع الوسائل فى الخليج العربى ويقوون تغلغلهم فى اقتصاد ايران .

ان الانجليز لم يفوا بتعهدهم لكريم خان سنة ١٧٦٣ بالاسهام فى تعزيز مواقعه فى خوزستان ، وليس هذا وحسب ، بل عارضوه كذلك بجميع الوسائل . وبأمر من لندن ساعد عملاء شركة الهند الشرقية فى تأزيم العلاقات بين حاكم البصره التركي وكريم خان .

وفى الوقت نفسه ، اقام هؤلاء العملاء اتصالا مع الشيخ سلمان ، الزعيم الاعلى النافذ لاتحـــاد قبائل كعب ، التى انتقلت فى القرن السابع عشر من نجد الى حوض نهر قارون والى الساحل الشرقى من شط العرب . وفى اواسط القرن السابع عشر اسهم عملاء شركة الهند الشرقية فى اخفاق المفاوضات حول اعتراف الشيخ سلمان بسيادة ايران . وفى الوقت نفسه وعدوا كريم خان بمساندته ضد السنى سلمان ، فعجلوا فى نشوب نزاع مسلح خطير بينهمـا . وعندما انزل كريم خان الزند فى سنة ١٧٦٩ حملة كبيرة فى جزيرة حرج (او خارك) ، المهمة من الناحية الستراتيجية ، التى كانت تنوى شركة الهند الشرقية الاستيلاء عليها ، وشن عمليات حربية ناجحة ضد سلمان ، عمد المستعمرون البريطانيون ، رغبة فى الحيلولة دون توطيد مواقع ايران فى اسافل نهر قارون وفى منطقة شط العرب ، الى حمل حاكم البصره التركى على القيام بحملة عسكرية كبيرة فى منطقة خوزستان . وفى اوائل السبعينيات ، اجتازت القوات التركية شط العرب بمساعدة الاسطول البريطانى وظهرت فى اواسط نهر قارون . وقد قامت الحملة الانجلوتركية تحت شعار «حماية قبائل كعب السنية من ايران الشيعيــة» . وفى هذه الاحوال رأى كريم خان ان الشيخ سلمان يمثل بالنسبة له خطرا اقل من خطر الانجليز والاتراك وطلب منهم «اخلاء الارض الايرانية والانسحاب الى ما وراء شط العرب» واعلن ان عرب اتحاد قبائل كعب الذين يعيشون فى جنوب خوزستان هم من رعاياه . فاضطر الاتراك الى التراجع ولكن شركة الهند الشرقية لم تستكن ، بل ظلت تؤزم العلاقات الايرانية التركية خفية ، ومكرا وغدرا ، وفرضت «وساطتها» وظلت تطالب مقابل هذه «الوساطة» بتسليمها جزيرة حرج . رفض كريم خان تلبية هذا المطلب الوقح . ولم يعدل المستعمرون البريطانيون عن خططهم . وبعد اقل من مائة سنة – فى سنوات ١٨٣٨–١٨٤٢ وسنوات ١٨٥٦–١٨٥٨ احتلت القوات البريطانية جزيرة حرج مرتين . ومما لـــه دلالته ان هذه العمليات العدوانية قد برروها فى كل مرة بالرغبة فى حماية افغانستان من خطط ايران الاغتصابية حيال هرات .

كذلك لم يعتزم المستعمرون البريطانيون العدول عن التدخل فى شؤون خوزستان ، وقطع الاتصالات مع زعماء اتحاد قبائل كعب

المقيمة فى خوزستان . وبعد مرور ١٢٠ سنة على أستشارة عملاء شركة الهند الشرقية للنزاع بين الشيخ سلمان وكريم خان الزند ، محاولين على هذا النحو توطيد مواقع الشركة فى حوض نهر قارون ، زار اللورد كرزون الرحالـــة الانجليزى الشهير خرمشهر . وقـــد تناول بالتفصيل فى كتابـــه «بلاد فارس والمسألة الفارسيـــة» مفاوضاته مع الشيخ ميزال ، شيخ اتحاد قبائل كعب آنذاك ، مغيرا اسمه قصدا وعمدا الى اسم عربى هو «الشيخ معمرى» . وتتضمن وثائق الارشيف الوطنى فى الهنـــد مواد تفيد ان كرزون ونائب القنصل البريطانى المحلى حاولا بالحاح والحاف اقناع الشيخ ميزال بالسعى الى نيل الحكـــم الذاتى ووعداه بالمساندة الشاملة ضد «المستعمرين الشيعيين من طهران» . الا ان ميـــزال رفض هذه العروض . واذ ذاك شرع المستعمرون البريطانيون فى القيـــام باعمال حازمة . ففى سنة ١٨٩٧ ، اغتيل ميزال ؛ وصار اخوه هزال الشيخ الاعلى لقبائل كعب ، وطلب مساندة نائب الملك البريطانى الجديد فى الهند . . . كرزون ! وتؤكـــد وثائق الارشيف ان السلطات الاستعماريـــة الانجلو-هندية اسرعت تقدم لهزال العون السياسى والاقتصادى والعسكرى . وبحجة حماية العرب السنيين من مضايقات الموظفين الايرانيين الشيعيين ، منح هزال نفسه وظائف بوليسية فى اواسط واسافل نهر قارون .

وبعد ان تفجرت فى منطقـــة ميدان النفطون الفوارات النفطية الشهيرة عمد الممثل السياسى البريطانى فى الخليج العربى كوكس الذى كان مقره فى بوشير ، الى التوقيع فى ٦ ايار (مايو) و١٩ تموز (يوليو) ١٩٠٩ ، على اتفاقيتين مع الشيخ هزال بشأن ضمانة الانجليز «لممتلكاته» وبشأن تأجير منطقة عبادان كلها عمليا من شركة البترول الانجلو-فارسية . وفى هذه الحقبـــة بالذات شنت الصحافة البريطانية حملة مسعورة على ايران واتهمت حكامها بملاحقة العرب السنيين فى خوزستان واضطهادهم . ولكن قصة استثارة المستعمرين البريطانيين للنزاع بين السنيين والشيعيين لاجـــل توطيد مواقعهم فى خوزستان الغنية بالبترول لم تنته عند هذا . ففى سنة ١٩٢٢ ، عندما كان كرزون وزير الخارجية فى بريطانيا العظمى دفع العملاء الانجليز صنيعتهم القديم الشيخ هزال الى انشاء

اتحاد القبائل الجنوبية السيىء الشهرة الذى كانت مهمته الرئيسية فصل خوزستان عن ايران . وفى بشاور التى كانت آنذاك فى قوام الهند البريطانية ، طبعت الوف المناشير باللغة العربية تؤكد ان الشيخ هزال اسس اتحاد القبائل الجنوبية لاجل حمايـــة العرب السنيين من ملاحقات حكام ايران الشيعيين .

وهكذا استثار المستعمرون البريطانيون بجميع الوسائل نزاعا عربيا ايرانيا ونزاعا سنيا شيعيا فى الساحل الشمالى من الخليج العربى ، فلم يتمكنـــوا بالتالى من فرض رقابتهـــم على الثروات البترولية فى ايران ويعززوا نفوذهم فى شط العرب وحسب ، بل بذروا كذلك بذور النزاع العربى الايرانى الشريرة المشؤومة التى اعطت نبتات دامية للغاية ابان الحرب الايرانية العراقية التى تزال رحاها دائرة منذ سنوات .

كذلك لجأ المستعمرون البريطانيون الى طرائق مماثلة لاجل تعزيز وضعهم فى الساحل الغربى من الخليج العربى . وهذا مـا سبق ان تجلى ايضا فى اواخر القرن الثامن عشر عندما اتخذ قادة اول دولة فى الجزيرة العربية – دولة السعوديين – التدابير لاجل توسيع نفوذهم حتى ساحل الخليــــج ضمنا . ويحاول المؤرخون الانجليز والاميركيون ان يبرهنوا ان هذا الطموح قوبل بمقاومة حازمة من جانب الحكـــام والسكان فى عموم الساحل الغربى من الخليج . ويؤكد كيللى فى كتابـــه «بريطانيا والخليج العربى فى ١٧٩٥–١٨٨٠» وبوش فى كتابه «بريطانيـــا والخليج العربى فى ١٨٩٤–١٩١٤» ان سكـــان هذه المنطقـــة – السنيين والشيعيين على السواء – كانوا يكرهـــون السعوديين الوهابيين ولهذا كانوا يقاومون تغلغلهم الى الخليج مقاومة مستميتة . اما فى الواقع ، كما تثبت وثائق الارشيف الوطنى فى الهند بما لا يقبل الجدل ، فـــان العملاء البريطانيين بالذات قد استغلوا الخلافات الدينية واستثاروا نزاعات بين السعوديين وجيرانهم الشرقيين . وفضلا عن ذلك عقد المستعمرون البريطانيون فى سنة ١٧٩٩ حلفا مع السلطان التركى سليـــم الثالث وطلبوا منه ان يضع تشكيلات كبيرة من القوات المسلحة تحت تصرف غالب ، شريف مكة ، لكى يعلن غالـــب ان الوهابيين كفار ، ويشن على هذا الاساس عمليـــات حربية ضد

السعوديين ويضطرهم بالتالى الى سحب قواتهم المسلحة من ساحل الخليج .

ولكن قوات السعوديين سحقت فصائل غالب فى سنة ١٨٠٣ واحتلت مكة والمدينة وشرعت فى تنفيذ خطط ضم الساحل الغربى من الخليج الى دولتهم . وفى هذه الاحوال ، قامت الديبلوماسية البريطانية وعملاء بريطانيا ، تحت راية النضال ضد الوهابيين ، بنشاط كبير لانشاء حلف ضد السعوديين . وبالذهب المنهوب فى البنغال ، توصل عملاء شركة الهند الشرقية الى عقد اتفاقية بين حاكم مسقط الموجود عمليا تحت الحماية البريطانية ، وبين حاكم بغداد التركى والحاكم العام لبلاد فارس . وكان الهدف من الاتفاقية توحيد نضال الشيعيين والسنيين القويمى الايمان ضد الوهابيين .

تميزت السياسة الانجليزيـــة فى بلدان العالم الاسلامى ، لا بطريقة انشاء هذه الكتلة الحربية وهدفها وحسب ، بل ايضا بقوام المشتركين فى هذه الكتلة . وقد سبق لاسياد شركة الهند الشرقية ان اسهموا فى سنة ١٧٩٣ ، سعيا منهم الى توطيد مواقع الشركة فى مضيق هرمز ، فى تقسيم دولة عمان الاسلامية العريقة وفرز سلطنة مسقط الضعيفة من قوامها . ومن اسباب هذا القرار المتخذ فى لندن وكلكوتا ، ان حكام عمان اقاموا فى اواخر السبعينيات من القرن السابع عشر علاقات ودية مع حاكم ميسور (امارة كبيرة فى الهند الجنوبية) المسلم حيدر على . وهذا الاخير ارسل بعثات الى كريم خان زند فى شيراز والى امام عمان باقتراح عقد حلف ضد شركة الهند الشرقيـــة . وقد كتب كارل ماركس فى «مقتبسات متسلسلة فى تاريخ الهند» : «حلف حيدر على وابنه طيبو سلطان اليمين على القرآن بحفظ الحقد الابدى على الانجليز وابادتهم» (٥) .

وللقضـــاء على هذا الحلف الفادح الخطر ، شن المستعمرون الانجليز فى السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات اربع حروب ضد ميسور انتهت بهزيمة ميسور وموت طيبو سلطان متأثرا بجراحه . واثار المستعمرون الانجليز نزاعا مسلحا بين الامبراطورية العثمانية وكريم خان زند اسهم فى سقوط سلالة زند واضطلعوا بدور مهم فى اقتحام رئيس السلالة الجديدة ، سلالة قاجار ، لمنطقة ما وراء القفقاس وفى نقل عاصمة البلد فى عهد سلالة قاجار الى الشمال ،

الى طهران ، الامر الذى اضعف مواقع آل قاجار فى الخليج العربى . واستغل ممثلو شركة الهند الشرقية الذهب البنغالى وضعف السلطة المركزية فى طهران واسطمبول استغلالا واسعا ، فعززوا بجميع الوسائل الاتصالات مع الاقطاعيين الكبيرين – الحاكم التركى للعراق (بغداد) والحاكم الايرانى لبلاد فارس (اصفهان) . وهكذا جرى اعداد مشتركين محتملين فى الحلف ضد السعوديين . وفى سنة ١٧٩٨ اتهم ممثلو شركة الهند الشركية سلطان بن احمد ، حاكم مسقط ، باجراء مفاوضات سرية بشأن حلف معاد للانجليز مع نابليون الموجود فى القاهرة ، ومع طيبو سلطان الذى دافع عن عاصمته سيرينغاباتام ابان الحرب الانجلو-ميسورية الرابعة . وبتخويف حاكم مسقط ، فرض عملاء الشركة عليه فى سنة ١٧٩٩ اول معاهدة جائرة فى تاريخ البلدان العربية . وهكذا تم اعداد المشترك الثالث المحتمل فى الكتلة المعادية للسعوديين التى انشئت فى سنة ١٨٠٣ .

ولكن حاكم الدولة السعودية عبد العزيز حزر مقاصد المستعمرين البريطانيين الاستفزازية واقترح على الحاكم العام لمنطقة فارس وقف العمليات الحربية وعقد اتفاقية ايرانية سعودية بشأن ضمان السلام فى الخليج . ونظرا لخارق توتر الوضع فى هذه المنطقة فى الثمانينيات من القرن العشرين لا يتسم هذا الاقتراح باهمية تاريخية فقط . فى خريف ١٨٠٣ ، فى اوج المفاوضات الايرانية السعودية ، اغتيل عبد العزيز . وقاتل الحاكم الوهابى عبد العزيز قطع الحرس جسمه قطعا ، ووجدوا فى عبايته الكتابة التالية بالفارسية : «ربك ودينك يأمرانك بقتل عبد العزيز . اذا تسنى لك ان تهرب بعد ذلك ، فانك ستكافأ بسخاء . اذا قتلوك ، فان ابواب الجنة ستكون مفتوحة امامك» . كان القصد من الكتابة ان توحي بان الحاكم الوهابى قد اغتاله ايرانى شيعى بامر من حاكم فارس الغدار . وكان لا بدّ لهذه «العملية» ، بحساب المستعمرين البريطانيين ، ان تحول دون التقارب السعودى الايرانى وتؤمن تنفيذ الخطط الاغتصابية لشركة الهند الشرقية سواء فى الساحل الشرقى او فى الساحل الغربى من الخليج العربى . اما فى الواقع ، فان القاتل لم يكن فارسيا ولم يكن شيعيا . فقد عثر عليه عملاء

شركة الهند الشرقية الذين عملوا بواسطة حاكم بغداد التركى . ومع ذلك لا يزال المؤرخون الغربيـــون ينشرون الى الآن هذا التفسير بغية تأزيم العلاقات الايرانية السعودية .

ولم يؤجج المستعمرون البريطانيون نيران التناقضات بيـــن الشيعيين والسنيين وحسب ، بل وقفوا كذلك بجميع الوسائل ضد اولئك من حكام الامارات الذين كانوا ، رغـــم الخلافات الدينية ، يسعون الى اقامة علاقات الصداقة فى الخليج العربى . وفى سنة ١٨٠٥ صار الامير بدر حاكم مسقط . وبمساندة سعيد ، امام عمان الطاعن فى السن ، اخذ يسعى ، لا الى توحيد السلطنتين وحسب ، بل ايضا الى اقامة علاقات الصداقة مع دولة السعوديين الوهابية . وبما ان ذلك كان يتهدد جميع خطط شركة الهند الشرقية فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية ، فقد اغتيل الامير بدز فى سنة ١٨٠٧ بامر من مقيم الشركـــة ، وصار سعيد بن سلطان ، صنيعة البريطانيين ، وعدو الوهابيين اللدود ، حاكما لمسقط . وسرعان ما نشب فى هذه المنطقة نزاع مسلح اسهـــم فى فرض الحماية البريطانيـــة فعلا على مسقط وساحل الصلح البحرى الذى سمـــاه المستعمرون بصفاقة ووقاحة بساحل القرصنة ، وتوطيد مواقـــع المستعمرين فى البحرين ، واضعاف نفوذ السعوديين فى الساحل الغربى من الخليج العربى .

وفى الوقت ذاته ، واصل قادة شركـــة الهند الشرقية توطيد نفوذهـــا فى احواض الفـــرات ودجلـــة وشط العرب . وبذل الديلبوماسيون البريطانيون وعملاء الشركة المشرقية وشركة الهند الشرقية السريون فى اسطمبول وبغداد وطهران قصارى الجهد لاجل تأجيج نيران نزاع جديد بين الامبراطورية العثمانية السنية ودولة قاجار الشيعية . ولكن حاكم بغداد التركى النافذ حافظ علي ، الذى كان يعتمد على دعم الديبلوماسية الفرنسية ، ويسعى الى انشاء حلف ايرانى تركى ضد روسيا وبريطانيا العظمى ، نادى فى اوائل القرن التاسع عشر بتحسين العلاقات بين الامبراطورية العثمانية وايران تحسينا جذريا رغبة فى وقف النزاعات الحدودية فى العراق العربى الداخل فى قوام الامبراطورية العثمانية ، الامر الذى لم يغفره له حكام بريطانيـــا العظمى ومدراء شركة الهند الشرقية . ففى سنة

١٨٠٧ اغتيل فى بغداد مشاطرا مصير الامير السعودى عبد العزيز ، نصير اقامة علاقات الصداقة مع ايران الشيعية ، ومصير سلطان مسقط بدر الذى دعا الى اقامة علاقات الصداقة مع الدولة الوهابية .

فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين لجأ المستعمرون البريطانيون لاجل توطيد مواقعهم فى الخليج وتسعير اوار الخصومة السنية الشيعية الى ما يسمى «بتركة اوذ» ايضا . فان مدراء شركة الهند الشرقية كانوا فى سنة ١٨٢٥ قد اجبروا عاهل مملكة اوذ الهندية الشمالية ، الشيعى غازى الدين حيدر ، على ان يقدم لهم «قرضا» بمبلغ ١٠ ملايين روبية (مبلغ ضخم فى ذلك الزمن) . الا ان ملك اوذ الذى لم يطالب بتسديد القرض ، وضع شرطا واحدا هو ان تدفع فائدة القرض السنوية ، وقدرها ٥٠٠ الف روبية فى السنة — لاعضاء عائلته ، وان يوزع ثلثا هذا المبلغ «على المجتهدين فى المكانين المقدسين النجف وكربلاء والذين يخدمون الجوامع والمساجد هناك» (٦) . ونحو اواخر الاربعينيات من القرن التاسع عشر توفى جميع ورثة ملك اوذ ، فبقيت لدى شركة الهند الشرقية وعملائها مبالغ ضخمة من النقود اسميت «تركة اوذ» . وتدل وثائق الارشيف على ان الممثلين البريطانيين فى بغداد والبصره استغلوا هذه النقود من «تركة اوذ» لكى يحملوا رجال الدين الشيعيين فى النجف وكربلاء على القيام بدعاية ترمى الى تأزيم العلاقات مع السنيين وبخاصة مع الوهابيين . والذين رفضوا تنفيذ مطلب الديبلوماسيين البريطانيين اخذوا يخيفونهم بادراج اسمائهم فى قوائم علنية باسماء المستفيدين من «تركة اوذ» ، فيظهرون بالتالى فى عيون المؤمنين كعناصر موالية للانجليز .

تدل الوقائع المذكورة على ان المستعمرين البريطانيين استثاروا فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر نزاعات قومية ودينية بين ايران والامبراطورية العثمانية والسعوديين والشيوخ والامراء العرب ، بين السنيين والشيعيين ، وبين الوهابيين والسنيين لاجل توطيد مواقعهم فى الشرق الاوسط ، ولاجل تحويل الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية» . ولهذا الغرض استغلوا على نطاق واسع ، لا النزاعات الحربية والتهويل والرشوة والابتزاز وحسب ، بل ايضا الاغتيالات والخيانة والمؤمرات .

الفصل الثالث

تدخل المستعمرين الاميركيين فى العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر

١ ـ المرحلة الاولى من العدوان الاميركى

ان رجال الدولة والديبلوماسيين والعلماء والكتاب الاجتماعيين والسياسيين الاميركيين يؤكدون بالحاح واصرار احترامهم للاسلام والشعوب الاسلامية ويشيرون فى الوقت ذاته الى ان الولايات المتحدة الاميركية ، «خلافا للمستعمرين الاوروبيين الغربيين» ، لم تشرع فى القيام بنشاط عسكرى وسياسى فى العالم الاسلامى الا بعد الحرب العالمية الثانية . وهم يحاولون ان يؤكدوا للرأى العام الاسلامى ان الاساطيل الاميركية والقواعد الحربية الاميركية العديدة لم تظهر الا آنذاك فى البحر الابيض المتوسط وفى المحيط الهندى ، وان غايتها الوحيدة هى «حماية» الشعوب الاسلامية من «الخطر السوفييتى» . ولكن الوقائع التاريخية والوثائق الارشيفية تدحض هذه المزاعم .

فان السفن التجارية والحربية الاميركية الاولى ، والتجار والديبلوماسيين وعملاء المخابرات الاميركيين قد ظهروا فى بلدان الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية فى اواخر القرن الثامن عشر ، بعد مرور بضع سنوات فقط على تأسيس الولايات المتحدة الاميركية . آنذاك نجم اهتمامهم بهذه المنطقة فى المقام الاول عن تجارة الافيون الاجرامية فى عيون شعوب الشرق فى المقام الاول ، ولكن الخارقة النفع للرأسمال الاميركى . كان التجار الاميركيون يشترون الافيون فى ازمير وغيره من مرافىء الامبراطورية العثمانية وينقلونه بسفنهم ، عبر البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى وحول رأس الرجاء الصالح وعبر المحيط الهندى وبحر الصين الجنوبى الى كانتون . ونحو اوائل القرن التاسع عشر ، اخذ التجار الاميركيون ، فى زحمة التنافس مع التجار الانجليز ، ينقلون سنويا الى هناك ٤-٥ اطنان

من الافيون ويسممون ملايين الصينيين ويبتزون اكثر من ٥٠٠٪ من الفائدة بالرأسمال الموظف ، اى مئات الملايين من الدولارات .

ان نجاح هذه العمليات التجارية كان يتوقف بمقدار كبير على مواقف الحكام المسلمين فى المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب (حاليا ليبيا) الذين كان الثلاثة الاخيرون منهم يعترفون بسيادة الامبراطورية العثمانية . كانوا يجبون رسوما كبيرة عن مرور السفن الاميركية المحملة بالافيون فى مياههم الاقليمية وعن تزويدها بالماء والمأكولات اثناء زيارة المرافىء العربية وعن ضمان سلامتها . ولكن التجار المسممين الاميركيين لم يرغبوا فى تقاسم الارباح التى كانت كبيرة الى حد ان تتيح لهم التأثير فى حكومتهم واجبارها على «افحام» الحكام فى بلدان افريقيا الشمالية . ولهذا سبق للحكومة الاميركية ان عقدت فى سنة ١٧٨٦ معاهدة مع حاكم المغرب تعهد بموجبها حاكم المغرب ، لقاء مبلغ يتقاضاه سنويا ، وقدره ١٠ آلاف دولار ، (حوالى مليون دولار بالاسعار الحالية) ، ان يدعم التجار الاميركيين ويعفيهم من دفع رسوم الترانزيت . وفى سنة ١٧٩٦ تم التوقيع على اتفاقية مماثلة مع طرابلس الغرب ، وفى السنة التالية مع تونس . وهكذا بعد مرور اقل من عقدين من السنين على نهاية الحرب المرهقة والدامية من اجل الاستقلال ، اضطر دافعو الضرائب الاميركيون اى الشعب الاميركى ، الى دفع نفقات الصفقات مع الحكام الاقطاعيين فى بلدان افريقيا الشمالية لسبب واحد فقط هو عدم تخفيض ارباح تجار الافيون .

ان السفن الاميركية التى كانت تمضى الى مرافىء الامبراطورية العثمانية لشحن الافيون كانت تنقل اليها الرز والاسماك باسعار رفيعة جدا ، كما كانت تنقل فى طريق العودة من الصين الشاى والافاويه . وكان التجار الكبار من بوسطن يوظفون الارباح الطائلة التى يبتزونها فى الصناعة والتجارة فى الولاية الاميركية الرائدة فى ذلك الزمن ، ولاية ماساشوستس ، الامر الذى كان يعود عليهم ، لا بارباح اضافية وحسب ، بل ايضا بنفوذ سياسى متعاظم فى الاوساط السياسية الاميركية . ان التجار ارباب الاعمال الذين كانوا يجنون الملايين من تجارة الافيون ومن التبادل غير المتكافىء مع بلدان

الشرق قد شكلوا كتلة متراصة معروفة باسم «شركاء بوسطن» او «زمر ايسكس» . وكانوا يؤثرون فى انتخاب الشيوخ وفى تعيين العديد من الوزراء . وقد صار احد ممثلى «زمرة ايسكس» ، وهو كراونينشيلد وزيرا للاسطول البحرى . وهذه «الزمرة» كانت تعطى الشيوخ والوزراء رشوات كبيرة ، وتؤثر فى سياسة رؤساء الجمهورية . ولهذا ، عندما طالب حكام الدول الاسلامية فى افريقيا الشمالية على عتبة القرن التاسع عشر بتغيير المعاهدات القديمة ، ووقف تعسف البحارة الاميركيين ، وزيادة المدفوعات والاعانات ، سلكت الحكومة الاميركية على المكشوف ، تحت ضغط «زمرة ايسكس» ، طريق العدوان على مسلمى افريقيا الشمالية . وفى سنة ١٨٠٠ ، ظهرت عمارتان بحريتان اميركيتان فى القسم الغربى من البحر الابيض المتوسط . ولتبرير ذلك ، تذرعوا بضرورة النضال ضد القراصنة . وفى حقبة سنوات ١٨٠١-١٨٠٥ ، اعد الاميرالات والديبلوماسيون الاميركيون وشنوا فعلا حربا حقيقية ضد طرابلس الغرب . وحاصر الاسطول الاميركى عاصمتها مدينة طرابلس . وبدأ الديبلوماسيان الاميركيان - القنصل ايتون فى تونس والقنصل كاتكارت فى طرابلس - بعلم الرئيس الاميركى جفرسون ، وتعليمات صنيعة «زمرة ايسكس» ، وزير الحربية بيكيرينغ ، يهيئان بنشاط انقلابا فى طرابلس الغرب ، والتدخل المسلح فى الوقت ذاته فى هذا البلد . ولهذا الغرض اقاما اتصالا مع حامد كرمنلى ، اخى حاكم (داى) طرابلس الغرب ، الذى كان يعيش فى المنفى فى مصر . وقد وقع حامد كرمنلى وايتون اتفاقية تعهدت بموجبها الولايات المتحدة بتقديم الدعم العسكرى والمالى لحامد لكى تساعده فى ان يصبح حاكما لطرابلس الغرب . وتعهد حامد بدوره بان يوفر للاميركيين وضعا مميزا فى البلد ويعزز النضال ضد التجار الاوروبيين المزاحمين ، ويعين القنصل الاميركى فى تونس ايتون . . . قائدا اعلى لقواته المسلحة ! وفى رسالة الى وزير البحرية الاميركية بتاريخ ١٣ شباط (فبراير) ١٨٠٥ افاد ايتون انه يعتزم فى البدء الاستيلاء على المناطق الشرقية من طرابلس الغرب ثم ان يبدأ مع «جيش» حامد كرمنلى ، المؤلف فى مصر بالاموال الاميركية من شتى المغامرين ، مهاجمة مدينة طرابلس . وكان ينبغى ان

يلقى الهجوم الدعم من مدفعية الاسطول الاميركى المرسل الى طرابلس ومن فصيلة من المشاة البحريين . وبدأ تنفيذ الخطة . فان عصابات ايتون – كرمنلى وفصيلة المشاة البحريين المدعومة بنيران الاسطول الاميركى قد استولت على مدينة درنة ، ورفعت على قلعتها العلم الاميركى (١) .

بعد الاستيلاء اللصوصي على درنة ، لم تبق ثمة حاجة الى مهاجمة طرابلس ، فان يوسف كرمنلى حاكم طرابلس الغرب الذى تملكه الذعر ، وقع مع القنصل العام الاميركى فى افريقيا الشمالية معاهدة ملائمة لجانب الاميركى غاية الملاءمة . وهكذا انتهت اول حرب استعمارية تشنها الولايات المتحدة الاميركية فى العالم العربى ، وهكذا فرضت على طرابلس الغرب اول معاهدة غير متكافئة . ان اشتراك القوات المسلحة الاميركية فى الحملة اللصوصية على طرابلس الغرب «مخلدة» فى الاسطر الاولى من نشيد المشاة البحريين الاميركيين – «من تلال مونتيسوما الى سواحل طرابلس ، فى السماء ، وفى الارض وفى البحر خضنا معارك الوطن» (٢) . وهذا النشيد يتسم الان باهمية خاصة على ضوء المهمات التى طرحها المعتدون الاميركيون على المشاة البحريين فى تنفيذ خططهم الاغتصابية بحق شعوب الشرق واميركا اللاتينية .

اما فيما يخص ايتون ، فان «زمرة ايسكس» ، عوضا عن التنديد به لقيادته التدخل المسلح ضد طرابلس الغرب ، ولتوقيعه بملء ارادته وحده اتفاقية تجعله القائد الاعلى للقوات المسلحة فى هذا البلد ، قد كرمته ومجدته بوصفه «قاهر افريقيا» ، واهدته سلطات ولاية ماساتشوستس رقعة كبيرة من الارض مساحتها ١٠ آلاف اكر.

وبينما كان ايتون وكاتكارت يهيئان التدخل المسلح ضد طرابلس الغرب ، ساق الكومودورات (قواد العمارات) الاميركيون سفنهم الحربية الى مكلأ اكبر مرفأ فى المغرب آنذاك ، مرفأ طنجة . وبدأ حصار لا سابق له فى زمن السلام للقسم الشمالى من ساحل المحيط الاطلسى والقسم الغربى من ساحل البحر الابيض المتوسط فى المغرب . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠٤ وجه الكومودورات– القراصنة الاميركيون رسالة وجيزة تتضمن سؤالا واحدا فقط : «أيرغب السلطان فى السلام ام فى الحرب ؟» . اضطر المغاربة الى

التوقيـــع على معاهدة مـــع الولايات المتحدة الاميركيـــة مددت مفعول معاهدة ١٧٨٦ ولكنهـــا تضمنت شروطا كانت اقل ملاءمـــة للمغرب (٣) .

شجعت النجاحات فى طرابلس الغرب والمغرب الاميركيين ، فركزوا انظارهم على تونس . وبالمؤامرات والتحدى والتحرش ، استفز الممثل الديبلوماسي الاميركى فى هذه الدولة الاسلاميـــة البالغة الاهمية من الناحية الستراتيجية داى تونس فى ١٨٠٤-١٨٠٥ على اتخاذ تدابير مضادة . وفى تموز (يوليو) ١٨٠٥ اضطر الداى الى طرد الممثل الديبلوماسى الاميركى من البلد . وهذه الخطـــوة بالذات كان ينتظرها بفارغ الصبر آمر العمارة الاميركية التى كانت تتجوب فى الجوار . وفى اول آب (اغسطس) ١٨٠٥ اخذت سفن الكومودور (قائد العمارة) رودجرس تقصف مدينـــة تونس دون اى انذار . وبعد ذاك ارسل رودجرس الى حاكم تونس مشروع «تعهـــد ضمانى» من شأن الموافقة عليه ان يؤمن فوائد وتسهيلات اضافية لاجل الربابنة والكومودورات الاميركيين . وانذر روجرز داى تونس بان التوقيع على هذه الوثيقة فى الحال هو وحده الذى ينقذ عاصمته من قصف مدفعى اقوى . وهكذا تم التوقيع على معاهدة اميركيـــة تونسية غير متكافئة . وفى هذا الصدد كتب سبيرس ، الذى وضع تاريخا من عدة مجلدات للاسطول الاميركى ، ونشره فى سنة ١٨٩٧ البعيدة ، عندما لم تكن الاوساط الحاكمة الاميركية لتخفى بعـــد اعتداءاتها على شعوب العالم الاسلامى وعندما لم تكن لتصور نفسها بعد بصورة صديقة الاسلام الدائمة : «تحت مواسير مدافع السفن ، امليت على حاكم تونس شروط الصلح . وهذا ما ادهش شعـــوب اوروبا ، لانه لم يحدث قط من قبل شيء من هذا القبيل» . ثم اشار بصفاقة ووقاحة الى التأثير الخير الذى مارسته القوات البحريـــة الاميركية فى تطور «تجارة الامة الاميركية الخارجية» (٤) .

اجبرت الحرب الانجلو - اميركية الثانية (١٨١٢-١٨١٤) «زمرة ايسكس» على تأجيل الهجوم على اكبر دول افريقيا الشماليـــة - الجزائر - التى كان لا بدّ للاستيلاء عليها ان يوطد النفوذ الاميركى فى هذه المنطقة . ولكنها شرعت بتنفيذ خطتها فى سنة ١٨١٥ اى فور توقيع معاهدة الصلح مع بريطانيا العظمى . فالى سواحـــل

الجزائر ، اتجهت عمارتان- بقيادة الكومودورين ديكاتور وبينبريدج ، وطبعا ، بحجة النضال ضد القراصنة . وعندما اقترب الاميركيون من مكلا الجزائر ، رفعوا على سفنهم الاعلام البريطانية لكي يضللوا الجزائريين . وبعد تحطيم الاسطول الجزائرى ، قصفت العمارتان الاميركيتان مدينة الجزائر قصفا ماحقا . وبعد ذلك ، أرسل الى عمر ، حاكم الجزائر ، انذار بتوقيع معاهدة جائرة تتضمن بنودا بشأن منح التجار الاميركيين فوائد وتسهيلات خاصة ، والاهم ، بشأن حصانة الاميركيين . لم يوافق عمر داى الجزائر على هذه المعاهدة الا بصورة مشروطة ، ومع ذلك استثار ذلك استياء جديا فى صفوف الاقطاعيين والتجار الجزائريين . ولهذا لم يعمد حاكم الجزائر فى غضون ١٨١٥-١٨١٦ الى ابرام هذه المعاهدة . واذ ذاك ، أرسلت الى سواحل الجزائر سفن جديدة مسلحة بمدافع بعيدة المدى . وفى هذه الاحوال طلب الداى عمر من الديبلوماسى الاميركى شيلر ان يعطيه شهادة خطية تفيد انه «اضطر لقبول هذه الاتفاقية تحت فوهات المدافع الاميركية» . وبعد ان حصل الداى عمر على وثيقة بوضعه الذى لا مخرج منه ، ابرم فى ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٦ معاهدة اميركية جزائرية جائرة (٥) .

وبينما كانت تجرى المفاوضات مع الداى عمر ورجال بلاطه ، استخدم الكومودورات الاميركيون عماراتهم لاجل تنظيم هجمات جديدة على مدن تونس وطرابلس الغرب البحرية . وفى الحاصل ، استطاع القراصنة الاميركيون ان يبتزوا غرامة كبيرة رغم معاهدتى الصلح مع هذين البلدين (١٨٠٤-١٨٠٥) .

ذلك هو تاريخ العدوان الاميركى المخزى على شعوب افريقيا الشمالية التى كانوا فى الولايات المتحدة الاميركية ينعتون بلدانها بازدراء واحتقار «بالدول الهمجية» . اما فى الواقع ، فان هذه البلدان كانت مراكز للثقافة العالمية خلال قرون وقرون قبل ظهور الاوروبيين فى اميركا . فان جامعة القرويين الاسلامية فى فاس ، مثلا ، قد تأسست سنة ٨٥٩ . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تأسست جامعة القيروان (تونس) ، والمدرستان الشهيرتان فى العالم العربى والشرق كله - مدرسة العطارين ومدرسة بوعننيا (فاس) حيث وضع العلماء المسلمون البارزون من القرن الثانى عشر والثالث عشر

والرابع عشر ابن رشد وابن بطوطه وابن خلدون وكثيرون غيرهم مؤلفاتهم البديعة .

ان نجاحات الكومودورات القراصنة الاميركيين والديبلوماسيين المغامرين الاميركيين فى افريقيا الشمالية قد اسهمت بقسط كبير فى حمل واشنطن على اتخاذ قرار ، فى عام ١٨٢٠ ، تحت ضغط «زمرة ايسكس» ، بتشكيل عمارة بحرية حربية دائمة فى البحر الابيض المتوسط . وفضلا عن ذلك تسنى للحكومة الاميركية ان تدفع اسبانيا التى ضعفت بعد غزوات نابليون الى الموافقة على استعمال مرفأ ماون (جزر الباليار) كقاعدة دائمة لهذه العمارة . وهكذا ظهر سلف الاسطول السادس الاميركى فى مياه البحر الابيض المتوسط منذ ١٦٠ سنة .

٢ ــ التدخل فى الامبراطورية العثمانية

كان شراء الافيون التركى باسعار فى منتهى الرخص وبيعه باسعار احتكارية عالية فى الصين ، كما سبق ان قلنا ، هدفا من أهم اهداف «زمرة ايسكس» . وبعد ان وطدت الاوساط الحاكمة الاميركية مواقعها فى مرافىء افريقيا الشمالية وأنشأت عمارة البحر الابيض المتوسط ، قررت ان تستحصل من الباب العالى على معاهدة تؤمن للتجار الاميركيين وضعا مميزا فى المرافىء التركية ، ولاسيما فى ازمير ، «المرفأ الرئيسى» للافيون . وعلى هذا ألحت بصورة خاصة شركات بوسطن التجارية وممثلها الرئيسى فى ازمير ، التاجر المكار اوفلى الذى «اشتهر» بكونه قد تجرأ اثناء وجوده فى اسطمبول ، على الاقتراب ، خلافا لقواعد الرسميات الاسلامية الصارمة ، اثناء صلاة الجمعة من السلطان محمود الثانى والحصول منه على وعد بحماية خاصة للتجار الاميركيين . وفى العام نفسه ، عام ١٨٢٠ ، اى حين انشئت عمارة البحر الابيض المتوسط ، عهد الى آمرها الاميرال بينبريدج بان يمضى الى اسطمبول على رأس بضع سفن حربية وان يستحصل مع ممثلى الحكومة الاميركية بريديش وفولسوم من الباب العالى على عقد معاهدة فى مصلحة الولايات

المتحدة الاميركية . وليس من قبيل الصدفة اختير بينبريدج لاداء هذه المهمة المعقدة . ففى سنة ١٨٠٠ ، عندما كان آمرا لسفينة حربية اميركية ، شق لنفسه طريقا عبر الدردنيل بدون اذن الباب العالى ، وخدع آمرى الحصون والقى مرساه فى اسطمبول ومذ ذاك اقام صلات وثيقة سرية مع البحارة الاتراك ، بمن فيهم قبودان باشا (امير البحر ووكيل الجبخانة فى السلطنة العثمانية) . ولكن الوضع فى عاصمة الامبراطورية العثمانية كان معقدا فى سنة ١٨٢٠ . فقد كانت الانتفاضة اليونانية بسبيل النضوج . ولهذا تقرر الاحتفاظ بالسرية وتوجيه بريديش فى البدء مع جواز سفر باسم غيره . ولكن العملاء الانجليز ، رغبة منهم فى الحيلولة دون قيام علاقات وثيقة بين الامبراطورية العثمانية والولايات المتحدة الاميركية ، وفى صيانة المواقع المهيمنة للشركة المشرقية البريطانية ، فضحوا الهدف الحقيقى لمهمة بريديش . واتهموا الاميركيين فى العواصم الاوروبية الغربية بانهم دعموا الظالمين الاتراك ابان الانتفاضة اليونانية (وقد نشبت فى ربيع ١٨٢١) .

واضطرت واشنطن الى استدعاء سفن عمارة البحر الابيض المتوسط من المياه التركية ، وبريديش من اسطمبول . ولكن بما ان «زمرة ايسكس» كانت تطالب بامتيازات ، فقد ارسل الرئيس الاميركى مونرو ووزير الخارجية ادامس سرا ، فى اوج الانتفاضة اليونانية ، عميلا جديدا الى اسطمبول هو المغامر انغليش ، خريج جامعة هارفارد ، الذى كان قد خدم كضابط فى عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية ثم احيل الى التقاعد ، واعتنق الاسلام وتسمى محمد افندى . وفى سنتى ١٨٢٠ و١٨٢١ خدم فى جيش اسماعيل باشا ، ابن حاكم مصر ، الذى كان يقوم باخضاع السودان وكان يتعاطى النخاسة عرضا . بعد مفاوضات سرية مسبقة بين انغليش وقبودان باشا ، ارسلت ، بمبادرة من انغليش ، فى سنة ١٨٢٥ الى ازمير وغيره من المرافىء التركية اكبر سفن عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية – «كارولينا الشمالية» التى كانت اكبر سفينة حربية فى ذلك الزمن – وعلى متنها ٩٦٠ رجلا . وهكذا اكتملت ديبلوماسية انغليش السرية ورشوات الوزراء بالقوة البحرية الحربية .

ولكن المفاوضات انقطعت موقتا لمناسبة معركة نافارن الشهيرة التي دارت رحاها سنة ١٨٢٧ وسحق فيها الاسطول الموحد لروسيا وبريطانيا وفرنسا الاسطول التركي المصري . وفي الوضع المتوتر الناشيء ، خشي الاتراك مواصلة المفاوضات مع دولة غربية تعاطفت شكلا مع المسيحيين-الثوريين اليونانيين ، وخشي الاميركيون ان ينكشف سر المفاوضات ويتهموا بخيانة «الواجب المسيحي» . ولكن مصالح بزنس الافيون ، والرغبة في التدخل في اقتصاد الامبراطورية العثمانية في مرحلة تأزم علاقاتها مع الدول الاوروبية الغربية المزاحمة للولايات المتحدة الاميركية كانت ، طبعا ، بنظر واشنطن ، أهم من «التضامن المسيحي» . ولهذا استؤنفت المفاوضات السرية مع الاتراك ، وهذه المرة بمشاركة الآمر الجديد لعمارة البحر الابيض المتوسط رودجرس الذي «اشتهر» بقصف تونس على طريقة القراصنة في سنة ١٨٠٥ وقصف الجزائر في سنة ١٨١٥ ، وتاجر الافيون بالجملة اوفلي الذي كان قد اصبح آنذاك قنصلا اميركيا في ازمير ، والتاجر والسياسي ريند من نيويورك . وقد كتب وزير الخارجية الاميركية فان بورن في رسالة توجيهية الى الممثلين الاميركيين في سنة ١٨٢٩ يقول : «ان عرض القوة البحرية في البحر الابيض المتوسط قد كان له تأثير خير للغاية على علاقاتنا مع دول هذه المنطقة» (٦) . وتوضح هذه الرسالة التوجيهية اسباب اشتراك كومودورات واميرالات عمارة البحر الابيض المتوسط بمثل هذا النشاط في جميع المفاوضات الاميركية مع الدول الاسلامية .

للحفاظ على السرية ، جرت المرحلة الاخيرة من المفاوضات الاميركية التركية في قرية صغيرة بجوار اسطمبول ، وفي الليالي ، اثناء شهر رمضان الذي يمتنع فيه المسلمون عن الاعمال . وعن الجانب الاميركي لم يشترك في الطور الختامي من المفاوضات غير ريند ، المعين شكلا ، لتضليل المنافسين الاوروبيين الغربيين ، قنصلا اميركيا في اوديسا التي قل من يعرفونها في اميركا . واخيرا ، وقع ريند باسم الولايات المتحدة الاميركية ، في ٧ ايار (مايو) ١٨٣٠ اول معاهدة في تاريخ العلاقات الاميركية التركية ، وقد منحت هذه المعاهدة الاميركيين جميع حقوق «الامة المفضلة» وكثيرا من الامتيازات الاضافية . ولكن المعاهدة تضمنت بندا سريا منح

السلطان التركى حق تخزين الخشب فى الولايات المتحدة الاميركية وبناء السفن الحربية فيها . وهكذا فى اللحظة التى نالت فيها اليونان الاستقلال واحتفل فيها ممثلو الولايات المتحدة الاميركية الرسميون علنا وجهارا بانتصار المسيحيين ، انجز العميل الاميركى السرى المدعوم بقوة عمارة البحر الابيض المتوسط ، فى سياق المفاوضات الليلية السرية ، السباق الديبلوماسى الذى دام ١٠ سنوات ، ووقع معاهدة تمنح الرأسمال الاميركى امتيازات لا سابق لها فى الامبراطورية العثمانية ، من جهة ، وتؤمن الشروط للباب العالى لاجل بعث اسطوله البحرى الحربى فى الترسانات الاميركية ، تعويضا عن الاسطول الذى اغرق فى معركة نافارن من جهة اخرى . ولم يخف اصحاب المقامات الكبيرة الاتراك ان السفن الحربية التركية الجديدة ، الاميركية الصنع ، ستستعمل فى المقام الاول لتسديد الضربات الى الدولة اليونانية التى نشأت حديثا . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٣١ ، نقل الكومودور بورتر الى اسطمبول المعاهدة التى صادق عليها مجلس الشيوخ الاميركى والرئيس الاميركى وذلك عندما كانوا يتلون فى أثينة رسالة التهنئة التى ارسلها الرئيس الاميركى جكسون لمناسبة نيل الاستقلال ، وكانت رسالة التهنئة تتضمن وعدا بتقديم العون الكلى الى اليونانيين من جانب «حصن الديموقراطية - الامة الاميركية» .

وهكذا ، منذ ١٥٠ سنة ، فى سنة ميلاد الدولة اليونانية المستقلة ، بدأ رجال الاعمال والسياسة الاميركيون التلاعب على التناقضات اليونانية التركية الذى لا يزالون يلجأون اليه الى اليوم بقدر متعاظم ابدا من الضغط والوقاحة واللامبدئية ، مؤججين بجميع الوسائل نيران التوتر فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط . ولكن اثناء بحث المعاهدة فى مجلس الشيوخ الاميركى ، والحق يقال ، عارضت اغلبية اعضائه المصادقة على البند السرى ، ولذا شطب هذا البند من نص المعاهدة . بيد ان الوثائق تدل على ان البيت الابيض ووزارة الخارجية الاميركية كانا آنذاك ، اى قبل عهد هنرى كيسنجر بنحو ١٥٠ سنة ، يعرفان كيف يسحبان الشيوخ من انوفهم ، كيف يخدعانهم . فان الكومودور بورتر ، الآمر الجديد لعمارة البحر الابيض المتوسط ، الذى نقل الى اسطمبول نص المعاهدة

المصادق عليه اكد للباب العالى برسالة خاصة انه مخول شخصيا من قبل رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، رغم الغاء البند السرى ، بان يقدم لسلطات الامبراطورية العثمانية العون الكلى فى بناء إسطول بحرى حربى . وفى السنة نفسها ، سنة ١٨٣١ بنى اكفورد ، بانى السفن البحرية الحربية المشهور فى اميركا ، لاجل الاتراك السفينة الحربية «الولايات المتحدة» ثم انتقل فى السنة التالية مع فريق من الوكلاء والعمال الاميركيين المحنكين الى خدمة السلطان . وسرعان ما ترأس الترسانات السلطانية في القرن الذهبى وانزل الى الماء هناك اكبر سفينة حربية فى العالم آنذاك ، - السفينة «محمود» وازاحتها ٤٠٠٠ طن . وكانت الديبلوماسية الاميركية ووزارة البحرية الاميركية توجهان وتدعمان نشاط اكفورد ، اذ ان هذا النشاط كان يتيح للاميركيين التغلغل ، لا فى اقتصاد الامبراطورية العثمانية وحسب ، بل ايضا فى قواتها المسلحة .

وفور توقيع معاهدة ١٨٣٠ ، اسرعت الاوساط الحاكمة الاميركية ، و«زمرة ايسكس» وسائر ممثلى الرأسمال التجارى الصناعى الى استخلاص شتى المنافع الممكنة من هذه الوثيقة الفريدة . زد على ذلك انها حاولت ان تستغل ضعف مواقع المزاحمين الاوروبيين الغربيين الذى حل من جراء ازمة الشرق الادنى المستطيلة خلال الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر . وفي الوقت نفسه حسبت ان تستغل ايضا البند المعني من المعاهدة الذى يفتح المجال امام سفنها الى البحر الاسود . وقد اتضح ان رند لم يُعيَّن البتة من باب الصدفة قنصلا اميركيا فى اوديسا .

وفى اواسط القرن التاسع عشر ، شرعت الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية تولى عمارتها فى البحر الابيض المتوسط قدرا اكبر فاكبر من الانتباه ، مع لجوئها على نطاق واسع الى الديبلوماسية والتجارة والدين لاجل توطيد نفوذها فى بلدان العالم الاسلامى . وفى مقالة «الولايات المتحدة فى اوروبا» المنشورة فى ١٩ آب (اغسطس) ١٨٥٣ فى «نيويورك دايلى تريبيون» ، حلل ماركس المعلومات التى نشرتها الجرائد الالمانية والنمساوية والايطالية والتى اكدت بما لا يقبل الجدل ان الولايات المتحدة حاولت حتى فى سنة ١٨٤٠ ان تحمل ملك نابولى على التنازل لها عن

سيراقوز (جزيرة صقلية) كقاعدة لعمارة البحر الابيض المتوسط . وبعد مرور ١١٠ سنوات على هذه الاحداث اجبرت الاوسط الحاكمة الاميركية الحكومة الايطالية على الموافقة على جعل نابولى القاعدة الرئيسية للاسطول السادس الاميركى ؛ وفى سنة ١٩٨٣ ، بنت على الساحل الجنوبى من صقلية ، فى منطقة كوميزو ، ساحات انطلاق لاجل الصواريخ المجنحة الاميركية .

فى اوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، حاول الاميركيون ان يحصلوا من السلطان التركى على مرفأ اينوس (اينيز حاليا) ، مقابل المساعدة العسكرية والمالية ، الامر الذى كان من شأنه ان يؤمن للولايات المتحدة ، كما اشار ماركس فى المقالة المذكورة ، «قاعدة تجارية وحربية آمنة ومناسبة فى البحر الابيض المتوسط» (٧) . وقد ساق ماركس ، تأكيدا لاستنتاجاته بصدد ازدياد نشاط سياسة الولايات المتحدة الاميركية فى الشرق الاوسط ، قول الجريدة الايطالية «ايل برلمانتو» ان الولايات المتحدة الاميركية كانت آنذاك قد شرعت تبدى اهتماما متعاظما بمصر وطرابلس الغرب وبرزخ السويس الذى شقت فيه قناة السويس فيما بعد . والآن ، تقع فى هذه المنطقة — فى تركيا واليونان وايطاليا ومصر وشبه صحراء سيناء — عشرات القواعد الحربية الاميركية التى تشكل خطرا كبيرا على شعوب اوروبا وافريقيا والشرقين الادنى والاوسط ، بما فيها الشعوب الاسلامية .

٣ — التغلغل فى الخليج العربى والمحيط الهندى

مع التوسع فى حوض البحر الابيض المتوسط بدأ المستعمرون الاميركيون يتغلغلون الى العالم العربى من جانب المحيط الهندى ايضا . فى المرحلة الاولى من تغلغل الولايات المتحدة الاميركية فى هذه المنطقة البالغة الاهمية اضطلع بدور مهم صاحب السفن الكبير من ولاية نيو — همبشير ادموند روبرتس ، الذى اغتنى من العمليات التجارية فى البحر الابيض المتوسط . ففى سنة ١٨٢٣ راح الى جزيرة زنجيبار التى كانت آنذاك من ممتلكات سلطان مسقط سعيد

بن سلطان والتى كانت من مراكز التجارة فى افريقيا الشرقيـــة بما فى ذلك النخاسة . وقد استطاع روبرتس ان يقيم اتصالا مع حاكم مسقط الهمام والبعيد النظر ، وعرض عليه عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة – اى اول معاهدة فى تاريخ السلطنة . وقد وافق سعيد بن سلطان على منح التجار الاميركيين امتيازات كبيرة ولكنه طالب بدوره بالحصول على السلاح الاميركى وفى المقام الاول منه المدفعية .

بعد العودة الى الولايات المتحدة اثار روبرتس اهتمام «زمرة ايسكس» وسائر الصناعيين فى انجلترا الجديدة بخطط بعيـــدة المدى للتوسع التجارى السياسى الاميركى فى حـــوض المحيط الهندى . وهذه الخطط دعمها ودبيرى ، قريب روبرتس ، الذى صار فى سنة ١٨٢٩ وزير البحرية .

فى سنة ١٨٣٢ عُيِّن روبرتس ممثلا خاصا عن الولايات المتحدة الاميركية لاجل اجراء المفاوضات مع حكام عدد من بلدان الشرق الاقصى والمحيط الهندى ، بما فيها مسقط . وخوفا من مزاحمـــة الدول الاوروبية الغربية احاطت الحكومة الاميركية مهمة روبرتس بالسرية ، كما عين روبرتس نفسه امينا شخصيا لآمر السفينة الحربية «بيكوك» المخصصة لهذه المهمة . ومما له دلالته ان جميع الوثائق المتعلقة بالمفاوضات التمهيدية بين روبرتس وسلطـــان مسقط والمتعلقة كذلك بمهمته الديبلوماسية قد اكدت ان سعيد بن سلطان الح على الحصول على السلاح الاميركى لاجل النضـــال ضد . . . البرتغاليين . ولكن هؤلاء لم يكن لهم وجود فى هذه المنطقة منذ ٢٠٠ سنة . اما فى الواقع ، فان السلطان كان بحاجة الى السلاح لاجل شن العمليات الحربية ضد الحكام المسلمين فى الخليج والجزيرة . وكان روبرتس ورؤساؤه يعرفون ذلك جيدا . ولكن السرية روعيت بدرجة من الدقة والعناية بحيث ان البحوث الاميركية ، بما فيهـــا احدثها ، المتعلقة بسياسة الولايات المتحدة الاميركية فى هـــذه المنطقة تؤكد بعناد ان المقصود كان توريد الاسلحة للنضال ضد المستعمرين البرتغاليين !

فى ايلول (سبتمبر) ١٨٣٣ ، وصل روبرتس على متن «بيكوك» الى مسقط وسلم سعيد بن سلطان رسالة الرئيس الاميركـــــى

جاكسون . وفي ٢١ ايلول ١٨٣٣ تم التوقيع على المعاهدة الاميركية المسقطية التي منحت الاميركيين حق «الامة المفضلة»، والحصانة الديبلوماسية وحق انشاء القنصليــــــات . والزم بند خاص حكام السلطنة بتقديم العون لجميع السفن الاميركية التي تقع في كارثة في مياه مسقط ، وباعالة طواقمها على نفقتهم . وقد كتب سعيد بن سلطان في رسالته الجوابية الى جاكسون في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٣ تقريبا ما يلي : كان لي شرف تلقي رسالتكم في يوم وساعة غمراني بالسعادة والفرح لان كل كلمة كانت واضحة كالشمس في الظهر ولان كل حرف كان يشع ببالغ السطوع كالنجوم في الجنة . . . اعـــدكم بتنفيـذ جميع طلباتكم ورغائبكـم في ممتلكاتي (٨) . وفي سنة ١٨٣٥ حين مضى روبرتس من جديد الى مسقط لكي يسلم السلطان المعاهدة التي صادق عليها مجلس الشيوخ والرئيس ، صارت «بيكوك» اول سفينة اميركية اضطرت الى الاستفادة من بند المعاهدة بشأن المساعدة في حالة اصابة السفن بكارثة لانها جنحت قرب جزيرة مصيره .

اسرع الطرفان الى الاستفادة من المعاهدة . فمن اصل ٤١ سفينة اجنبية زارت زنجيبار في سنوات ١٨٣٣–١٨٣٥ كانت ٣١ اميركية . وقد استغلت الاوساط التجارية الاميركية على نطاق واسع المعلومات السياسية والاقتصادية الشاسعة التي نقلها روبرتس لاجل توسيع نفوذها في عموم المنطقة . وحصل سعيد بن سلطان على المدفعية السفنية والميدانية الاميركية ، واستعملها لاجل شن العمليــــات الحربية في الجزيرة العربية وتوسيع ممتلكاته في الساحل الشرقي من افريقيا في منطقة مومباسا . وفي سنة ١٨٤٠ ، احدثت السفينة المسقطية الضخمة «السلطنة» دويا هائلا بظهورها في مرفأ نيويورك . وكانت اول سفينة عربية تعبر المحيط الاطلسي . وقد ظلت المعاهدة الاميركية المسقطية سارية المفعول طوال اكثر من ١٠٠ سنة ؛ وفي ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٨ استعيض عنها بمعاهدة جديدة منحت الولايات المتحدة الاميركية امتيازات جديدة في السلطنة .

في سنة ١٩٨٣ زار قابوس ، سلطان عمان (وهذا هو الآن اسم مسقط) الولايات المتحدة الاميركية حيث اجرى مفاوضات سرية مع الرئيس ريغان ووزير الخارجية شولتس ووزير الدفاع واينبرغر .

واحتفل الجانبان بذكرى مرور ١٥٠ سنة على معاهدة سنة ١٨٣٣ ، ووعد الرئيس الاميركى بحمايتـــه ، واكد السلطـــان قابوس التزاماتـــه بمنـــح الولايات المتحدة قواعـــد بحرية حربيـة وقواعـــد جوية حربية . وهذه القواعد موجودة الآن على مقربة قريبة من عاصمة السلطنة ؛ وجزيرة مصيره التى اصيبت سفينـة روبرتس فى جوارها بكارثة منذ ١٥٠ سنة ، يجرى تحويلها الآن الى قاعدة للقوات المسلحة الاميركية البحرية والجوية ؛ وستكون هذه القاعدة الثانية من حيث الاهمية بعد قاعدة دييغو - غارسيـــا فى المحيط الهندى . كذلك تستعمل القوات البحرية الحربية الاميركية مومباسا (كينيا) كقاعدة اسناد لها ، علما بان سعيد بن سلطان كان قد استولى عمليا على مومباسا باستعماله الاسلحة الاميركية التى اشتراها بموجب معاهدة ١٨٣٣ . وفى سنة ١٩٨٣ قامت سفن الاسطول السابع الاميركى ، واسراب الطائرات الحربية الاميركية وتشكيلات المارينز الاميركيين فى اراضى عمان بالمناورات العسكرية «برايت ستار - ٨٣» التى كانت اكبر مناورات من نوعها فى تاريخ المنطقة وقد اشرفت على اجراء هذه العمليات القيادة المركزيـــة الاميركية السيئة الشهرة التى تشكل خطرا جديا على استقلال وأمـن بلدان الخليج والجزيرة . واذا عهد اللجوء الى مدفعية السفن الحربية الذى دشنته السفينة الحربية الاميركية «بيكوك» منذ ١٥٠ سنـــة يتحول الى عهد ناقلات الطائرات وطائرات «اواكس» .

وقد استغلت الاوساط الحاكمة الاميركية المعاهدة الاميركيـــة المسقطية لسنة ١٨٣٣ والمعاهدة المماثلة التى وقعها فى السنـــة ذاتها روبرتس مع السيام (حاليا تايلند) لاجل زيادة التوسع فـى المحيط الهندى . فقد استغلوا فى واشنطن الوضع الملائم لاجل تحقيق خططهم لان منافسيهم الرئيسيين فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر - المستعمرين البريطانيين - كانوا يركزون جهودهم لفتح الهند الشمالية الغربية ، ويعدّون لسحق امراء السند واستثاروا النزاع الافغانى السيخى ويهيئون اول حرب ضد افغانستان (١٨٣٨-١٨٤٢) ، ويعمقون بكل همة النزاع الافغانى الايرانى بسبب هرات . وبهذه الذريعة ، احتلوا جزيرة حرج المهمة على الصعيد الستراتيجى فى الشمال الشرقى من الخليج العربى واشتركوا باكبر قسط من

النشاط فى توسيع النزاع فى الشرق الادنى فى الثلاثينيات بجميع الوسائل ، وهيأوا توجيه ضربة ماحقة الى خديوى مصر محمد على ، الذى كان يهدد ، برأى اسياد السيتى ، مواقعهم فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وحوضى البحر الاحمر والخليج العربى . وفى تلك الحقبة كان مزاحمو الاميركيين الفرنسيون هم ايضا مشغولين بحرب استعمارية كبيرة هدفها الاستيلاء على الجزائر وكانوا يؤججون بجميع الوسائل نيران النزاع بين خديوى مصر وخليفة العالم الاسلامى ، السلطان التركى ، آملين ، بمساعدة جيش محمد على وابنه الاكبر ، القائد العسكرى الموهوب ابراهيم باشا ، لا فى تقريض نفوذ الامبراطورية العثمانية فى سوريا وعلى ساحل البحر الاحمر وحسب ، بل ايضا فى تسديد ضربة قوية جدا الى المنافسين البريطانيين . وفى الوقت ذاته استغل اصحاب المصارف الباريسيون واصحاب السفن فى مرسيليا ، حكام فرنسا الحقيقيون فى عهد ملكية لويس فيليب ، الديبلوماسية الفرنسية ومصالح المخابرات والتجسس والجمعيات الرهبانية الكاثوليكية لاجل دعم الاقطاعيين الموارنة فى لبنان ضد الاقطاعيين الدروز ، وهيأوا نزاعا اسلاميا مسيحيا كبيرا هدفه اجبار حكام البلد الاسميين ، السلاطين الاتراك ، على تقسيم لبنان الى قائمقاميتين ، درزية ومارونية . وكان المقصود ان تصبح القائمقامية المارونية رأس جسر لاجل التغلغل الفرنسى فى الشرق الادنى . وحتى الآن يعانى عرب لبنان من عواقب سياسة المستعمرين الفرنسيين الاستفزازية هذه .

وفى هذا الوضع لم يعزز حكام الولايات المتحدة عمارتهم فى البحر الابيض المتوسط وحسب ، بل بدأوا يبحثون بهمة وعزم عن قواعد بحرية حربية فى هذه المنطقة . وقد استغلوا المعاهدة الاميركية التركية لعام ١٨٣٠ ومصلحة السلاطين الاتراك فى بناء السفن الحربية فى الولايات المتحدة الاميركية ، وكذلك فى ترسانات القرن الذهبى بمساعدة المهندسين والتكنيكيين الاميركيين لاجل استئناف النضال فى سبيل اخضاع اليونان وسوريا ومصر .

وفى الوقت ذاته شرعوا فى واشنطن عمليا فى عسكرة المحيط الهندى . ففى سنة ١٨٣٥ ، اى قبل ان تبنى الولايات المتحدة فى دييغو-غارسيا قاعدتها الكبرى فى المحيط الهندى بـ١٤٠ سنة ،

شكلت الولايات المتحدة عمارة الهند الشرقية لاجل القيام بالمظاهرات العسكرية السياسية والضغط على حكام افريقيا الشمالية الشرقية والخليج وتنفيذ خطط الرأسماليين الاميركيين الاغتصابية فيما يتعلق ببعض جزر اندونيسيا .

في سنة ١٨٥٦ ، قسم المستعمرون البريطانيون سلطنة مسقط الى سلطنتين مستقلتين - سلطنة زنجيبار وسلطنة مسقط - لاستيائهم من توطد مواقع الاميركيين في مسقط ومن تعاظم نفوذ هذه السلطنة الاسلامية في عموم منطقة القسم الغربي من المحيط الهندي والخليج العربي .

في الستينيات من القرن التاسع عشر ، لم تستطع الاوساط الحاكمة الاميركية ، بسبب انهماكها في الحرب الاهلية ، ان تولي امر التوسع في حوض المحيط الهندي والقسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط الاهتمام السابق . ولكن هذا التوسع بدأ من جديد في السبعينيات . فان الاوساط التجارية والصناعية الاميركية قد سعت قبل كل شيء الى حمل حكام السلطنتين على تأكيد معاهدة سنة ١٨٣٣ . ولهذا الغرض ، أرسلت في سنة ١٨٧٨ الى البحر الاحمر والخليج العربي عمارة خاصة بقيادة الكومودور شوفلد . وقد جاء في التعليمات الموجهة اليه : «توطيد وتوسيع النفوذ الاميركي في افريقيا الشرقية والبلدان المجاورة» (٩) . ولهذا اجبر السلطانين على توجيه رسالتين خاصتين الى وزارة الخارجية الاميركية تؤكدان ان معاهدة روبرتس تحتفظ كليا بمفعولها في الظروف الجديدة ايضا . وبعد احراز النصر الديبلوماسي في مسقط ، زار شوفلد مع قسم من سفن عمارة الهند الشرقية مرافئ الخليج العربي . ولكن هذا ايضا لم يكف ممثل الوزارة البحرية الحربية الاميركية التي تعود كومودوراتها منذ اواخر القرن الثامن عشر على انتهاك سيادة البلدان الاسلامية . فقد استغل شوفلد ضعف مواقع الامبراطورية العثمانية من جراء الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨ ومؤتمر برلين حيث نسقت الدول الغربية سياستها للتدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية العثمانية ، فصعد على متن احدى السفن نحو شط العرب والفرات بغية الحصول على معلومات كاملة عن الوضع في العراق العربي وعن العلاقات المتبادلة بين الامبراطورية العثمانية

والعراق وكذلك بين السلطات التركية المحلية وشيوخ القبائـــل العربية .

بعد بناء قناة السويس بدأ التوسعيون الاميركيون يولون مصر والسودان قدرا اكبر فاكبر من الانتباه والاهتمام . ونحو سنـــة ١٨٧٠ ، كان يعيش دائما فى القاهرة اكثر من ٥٠ عسكريا اميركيا بمن فيهم ٥ جنرالات وعقداء يعملون فى خدمة مصر . وحتى فى زمن السادات ، لم تستطع الطغمة العسكرية الاميركية ان تستولى عـلى مثل هذه المواقع فى القاهرة . وفى السنة ذاتها ، ١٨٧٠ ، اصبح الجنرال الاميركى ستون رئيســا لهيئة اركان القوات المسلحة المصرية فى القاهرة ، والعقيد الاميركى شايه لونغ نائبــا لرئيس هيئة اركان القوات المسلحة المصرية المرابطة فى السودان . وقد بلغ الامر الى حد ان حكومتى بريطانيــا وفرنسا وجهتا فى سنة ١٨٧٠ الى خديـــوى مصر مذكرات خاصة للاحتجــاج على نشاط الاميركيين المشتد . ولكــن ، نظرا للضعف الشديد الذى اصاب فرنسا من جراء الحرب الفرنسيـــة البروسية ، واصل الاميركيون سياسة اقامة الرقابة تدريجيا على الجيش المصرى .

فى سنـــة ١٨٧٦ لعب الديبلوماسيـــون والعملاء السريــــون الاميركيون والبريطانيون والايطاليون دورا كبيرا فى استثارة الحرب المصرية الحبشية بسبب اريتريا . وقد اشترك الضباط الاميركيون فى هذه الحرب ، ولكن اشتراكهـــم لم ينقذ الجيش المصرى من الهزيمة . ان تأجيج المستعمرين لنيران الحرب المصرية الحبشية التى كان اشتداد الخصومة الاسلامية المسيحية اشتدادا حادا احدى نتائجها قد ادى ، كما حسبوا فى واشنطن ولندن ورومـــا ، الى ضعف البلدين ضعفا شديدا بصرف النظر عن مآل الحرب . واستغل المستعمرون البريطانيون هذا الوضع ، فقصفوا الاسكندريـــة فى حزيران (يونيو) ١٨٨٢ قصفا وحشيا الامر الذى سنتحدث عنه فى الباب التالى — واحتلوا مصر لسنوات طويلة .

ولكن هناك واقع اقل شهرة ، هو ان اربع سفن حربية كبيرة من عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية بقيادة اللواء البحرى نيكولسون ، قد اشتركت باكبـــر قسط من النشاط فى قصف الاسكندرية الاجرامى . وبعد اعمال الهدم وقتل مئات المصريين من

قبل المتدخلين نزلت على الساحل فصيلة بحرية اميركية مع المحتلين البريطانيين . وعلى رأس هذه الفصيلة اندفع العقيد شايه لونغ الى الاسكندرية . ولكنه لم يكن آنذاك نائبا لرئيس هيئة اركان القوات المسلحة المصرية فى السودان ، بل كان . . . عميلا قنصليا اميركيا في الاسكندرية !

واستغل المستعمرون الايطاليون ضعف الحبشة بسبب الحرب ضد مصر واستولوا على ساحل البحر الاحمر فى الحبشة وجعلوه فى سنة ١٨٩٠ اول مستعمرة ايطالية هى اريتريا . كذلك استغل المعتدون الايطاليون اريتريا كرأس جسر لشن الحربين الايطاليتين الحبشيتين ، حرب ١٨٩٥-١٨٩٦ التى انتهت بهزيمة الامبرياليين الايطاليين وحرب ١٩٣٥-١٩٤١ التى آلت الى احتلال الحبشة موقتا . وفى ايامنا تعمد الاوساط الحاكمة الاميركية التى تتحمل قسطا لا يستهان به من الذنب والمسؤولية عن اثارة الحرب المصرية الحبشية وما تبعها من فصل لاريتريا عن الحبشة منذ مائة سنة ، الى تأجيج نيران ما يسمى بالقضية الاريترية لاجل تأزيم علاقات الحبشة مع عدد من البلدان الاسلامية ، وكذلك بعد ان وقعت الحبشة معاهدة صداقة وتحالف مع ليبيا وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية - لاجل تأزيم العلاقات ايضا بين هذين البلدين وبين عدد من الانظمة الاسلامية المحافظة .

منذ اوائل القرن التاسع عشر ، اخذت هيئات المرسلين الاميركيين تسهم بنشاط فى توطيد النفوذ الاميركى فى بلدان العالم الاسلامى . وفى سنة ١٨٢٣ تأسست فى بيروت ، بدعم فعال من تاجر الافيون اوفلى الذى اصبح قنصلا اميركيا ، اول بعثة بروتستانتية اميركية ؛ وفى الحال ، اهتمت هذه البعثة كبير الاهتمام ، لا بنشر التوراة باللغة العربية وحسب ، بل ايضا بفتح شبكة من المدارس فى المشرق . وعلى اساس هذه المدارس ، انشئت فيما بعد الكلية البروتستانتية السورية التى صارت فى سنة ١٨٦٦ الجامعة الاميركية فى بيروت . ان هذه الجامعة هى على امتداد تاريخها كله حصن للتوسع السياسى والايديولوجى الاميركى فى الشرق الادنى . مثلا . فى سنة ١٩١٩ ، استغل مدير الجامعة هوفارد بليس ، ابن مؤسس الجامعة دانييل بليس ، معرفته

القريبة مع الرئيس الاميركى ويلسون لكى يرسل ويلسون الى سوريا ولبنان وفلسطين بعثة حكومية اميركية برئاسة كينغ كرين بحجة دراسة الوضع السياسى فى هذه البلدان . وقد اوصت بعثة كينغ كرين فى تقرير قدمه الوفد الاميركى فى مؤتمر الصلح بباريس ، بانشاء دولة سورية فلسطينية واحدة تنتدب الولايات المتحدة الاميركية لحكمها وادارتها !

وفيما بعد ، لعب عدد من خريجى الجامعة الاميركية فى بيروت دورا فعالا فى استثارة النزاعات المسيحية الاسلامية فى لبنان . وتعاون بعض منهم تعاونا وثيقا مع الديبلوماسى الاميركى فيليب حبيب ، اللبنانى الاصل ، الذى اعد المعاهدة اللبنانية الاسرائيلية المخزية ، معاهدة ١٧ ايار (مايو) ١٩٨٣ التى اضطلعت بدور مشؤوم جدا فى تأزيم الوضع فى لبنان وفى عموم الشرق الادنى والتى الغاها لبنان فيما بعد .

على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، قام المرسلون الاميركيون بنشاط كبير جدا فى حوض الخليج العربى ايضا . وهناك بذلت نشاطا خاصا منظمتان هما مجلس المرسلين الاميركيين وجمعية التوراة الاميركية . وهذه الجمعية التى عملت تحت شعار «نشر المسيحية فى العالم كله فى حياة جيل واحد» وزعت فى بلدان الشرق الاسلامية نحو اوائل القرن العشرين اكثر من ٤ ملايين نسخة من التوراة باللغات العربية والتركية والفارسية . ونظرا للصعوبات الكبيرة فى ترجمة التوراة الى هذه اللغات ، ونظرا لتكاليف الطبع الكبيرة ، من الواضح تماما انه كان لا بدّ ان تقف وراء ظهر جمعية التوراة الاميركية اوساط نافذة تحت تصرفها ملايين الدولارات .

وبما ان هذا التدخل المكثف فى حياة المسلمين الروحية اخذ يثير مقاومة الشعوب فى حوض الخليج العربى ، فقد تقرر فى واشنطن طمس نشاط المرسلين بعض الشيء وتنويعه . ولهذا الغرض انشأ المستعرب الاميركى تسفيمر - مؤلف كتاب «العربية مهد الاسلام» وعدد كبير من البحوث فى الاسلام ، - فى سنة ١٨٩٠ ما اسمي بالبعثة العربية ، وبعد سنة ، اسس مع معاونيه محطة للمرسلين في البصرة . وفي الاونة الاولى قرر العاملون فى

هذه المحطة الانصراف . . الى النشاط الطبى وليس الى النشاط الدينى . كتب تسفيمر بصفاقة : «ان جميع المرسلين فى العربية يؤكدون ان الشغيل الطبى الكفوء والجراح الكفوء يملكان اجازة مرور تفتح امامهما الابواب المغلقة ويكسبان أقسى القلوب» (١٠) .

وحين اقتنع اسيـــاد مجلس المرسلين الاميركيين الذى كان يقوم قبل ذاك «بنشر المسيحية» بين العرب ، بان البعثة العربية قد اكتسبت نفوذا فى منطقة البصرة ، بدأوا يقدمون لهذه البعثة عونا ماديا كبيرا . وفى سنة ١٩٠٣ فتح معاونو البعثة مستشفى فى جزر البحرين ؛ وفى سنة ١٩١١ ، فتحوا محطة للمرسلين ومستشفى فى الكويت رغـــم المقاومة العنيدة التى ابداها العميل السياسى البريطانى فى الخليج .

وعن الاهمية التى اتسم بها نشاط البعثة العربيـــة بالنسبة لخطط الاحتكارات الاميركية ومشاريعهـا البعيدة المدى فى بلدان العالم الاسلامى ، كتب المؤرخ الاميركى تشارلز هاميلتون ببلاغة يقول : «يعترف الكثيرون بانه لولا عمل البعثة العربية البديع لما استطاع التجار الاميركيون ان يشتركوا فى استغلال مصادر البترول الهائلة فى الشرق الاوسط» (١١) .

٤ ــ العدوان على آسيا الجنوبية الشرقية

فى التسعينيـــات من القرن الثامن عشر ، حاول الربابنة من بوسطن وسيلم ان يحتكروا تجارة الانواع القيمة من الفلفل الذى ينمـــو فى المناطق الشماليـــة من سومطرا . ففى هذا البزنس الكاسب ، كانـــوا يبتزون ربحا يربو على ٧٠٠٪ من الرأسمـــال الموظف . وفى العقد الثانى من القرن التاسع عشر كانت اكثر من ٤٠ سفينة اميركية تزور سنويا مرافئ سومطرا الشماليـــة لشراء الفلفل . وقد استغـــل ارباب المشاريع الاميركيون بكل نشاط ، لاجل توطيد مواقعهم فى سومطرا الشمالية ، التناقضات الانجلو ــ هولندية الحادة الناجمة عن الصراع من اجل السيـــادة على منطقة ملقه-سومطـــرا ، والتأزم الحـــاد فى العلاقات بين المستعمرين الهولنديين الذين صاروا اسياد جاوا ورسخوا اقدامهم فى سومطرا

الجنوبية وبين دولة اتشـــه الاسلامية القوية الواقعة فى القسم الشمالى من هذه الجزيرة الشاسعــة . وفى العشرينيات من القرن التاسع عشر ، سارت الامـور فى الولايات المتحدة الى حد وضع مشروع لانشاء مستعمرة اميركية للهجرة فى اتشه . ونظرا لمقاومة الاوساط العليا الحاكمة الاسلاميـــة فى اتشه ، لم يتحقق هـــذا المشروع ، ومع ذلك اتسع نشاط الاميركيين التجارى فى الساحل الشمالى والشمالى الغربى من سومطرا . ومقابل الفلفل القيّم ، كان الاميركيون يزودون السكان المحليين بالافيون التركى والويسكى من انتاجهم . وفى هذه المنطقة اخذت تنتشر الامراض الزهريــة بسرعة وترتفع نسبة الوفيات .

كل هذا استتبع تعاظم استياء السكان فى سومطرا الشماليــة الغربية ، وعزز طموحهـــم الى الاعتراف بزعامة اتشه ، الامر الذى كان لا بدّ له من ان يكون بمثابة حماية من الدسائس الاميركية . وفى هذه الاحوال ، سعى التجار واصحاب السفن الاميركيون قصارى جهدهم ، بالتعاون مع وزارة البحرية الاميركية ، الى استثارة نزاع مع السكـــان فى اى من النقاط فى الساحل الشمـالى الغربى فى سومطرا ، المسمى بساحل الفلفل . وكان من شأن ذلك ان يتيح استعمال القوة المسلحة ، وتخويف سكان الساحل ، وبالتالى درء اقامة حماية اتشه الاسلامية . وفى شباط (فبراير) ١٨٣١ سنحت الفرصة المنتظرة طويلا . فان سكان قرية كوالا-باتو الذين دفعهم الى حد اليأس السلوك الوقح والمتحدى من جانب التجار والبحارة الاميركيين من السفينة «فرندشيب» الذين اقاموا زمنـــا طويلا على الساحل بانتظار غلة الفلفل المقبلة ، قد استولوا على هذه السفينة . وبعد بضعة ايام ، اجبرت طواقم السفن الاميركيـــة الاخرى التى وصلت من مرفأ ماكى المجاور الاندونيسيين على اعادة «فرندشيب» الى اصحابها .

ومـــع ذلك ، انطلقت الى سواحل سومطرا ، بامر من وزير البحرية ليفى ودبيرى الذى سبق له ان سعــى الى ارسال بعثـــة روبرتس الى مسقط — سفينة من اكبر السفن الحربية الاميركية ، هى السفينة «بوتوماك» التى أُمر قائدها بان يبعث بالحديد والدم الهيبة الاميركية فى ساحل الفلفل . وصل طاقم «بوتوماك» — بعد

الاحداث الدوصوفة بسنة – فى شباط (فبراير) ١٨٣٢ – الى مكلأ كوالا-باتو ورفع الراية الهولندية لخداع السكان ، واستعد بكل دقة للقيام بمهمته القمعية . وعند الفجر نزل على الساحل فصيل من المارينز والبحارة ، كما انزلت المدافع . وفى سياق ساعتين ونصف ساعة ، قتلوا فى عملية قمع وحشية ضد المسلمين فى كوالا-باتو ١٥٠ نسمة وجرحوا ٢٠٠ . ويستفاد من التقرير الرسمى المقدم لوزارة البحرية ما يلى : «تم تحويل المدينة كلها تقريبا الى انقاض واكوام من الرماد . ومن السوق واغلبيـــة البيوت الكبيرة لم يبق غير الانقاض» (١٢) . وعند مغادرة مكلأ كوالا-باتو امر قائد «بوتوماك» باطلاق ثلاث طلقات من المدافع على سكان الضواحى الذين سلموا .

حيّا اصحاب السفن وطواغيت التجـارة والصناعة فى انجلترا الجديدة باعجاب وثناء «مآثر» «بوتوماك» . وفى رسالة بتاريخ ١٦ تموز (يوليو) ١٨٣٢ نقل وزير البحرية ودبيرى آمر هذه البعثـة القرصانية دونوس «سامى اطراء الرئيس جاكسون» (١٣) . وقبل ان يعرف ودبيرى «نجاحات» بعثـــة «بوتوماك» امر روبرتس بان يزور فى الطريق الى مسقط على متن السفينة «بيكوك» كوالا-باتو ، لكى يدعم عند الاقتضاء عمليات «بوتوماك» . وحين وصل روبرتس الى كوالا-باتو فى آب (اغسطس) ١٨٣٢ ، اعرب عن الاقتناع بان ابادة مئات المسلمين قد «بثت الذعر فى نفوس السكان فى جميع المرافىء المحلية وستكون لها ، بلا ريب ، نتيجة خيّرة» (١٤) . وقد نعت علم التاريـخ الاميركى الحديث ادموند روبرتس «برائد الديبلوماسيـة الاميركيـــة فى الشرق» ، كمـــا ان الصحفيين والديبلوماسيين اطروا فى سنة ١٩٨٣ نشاطه بكل الوسائل حين زار قابوس سلطان عمان ، الولايات المتحدة الاميركية .

ولم يكتف التوسعيون الاميركيون بجنى الارباح الاحتكارية من تجارة الفلفل وعمليات القرصنـــة فى الساحل الشمالى الغربى من سومطرا ، بل قاموا كذلك فى الثلاثينيات والاربعينيات بمحاولـــة لاستعمار الساحل الشمالى الغربى من جزيرة كاليمانتان وترسيخ اقدامهم فى جزر ارخبيل سولو ، لكى يفرضوا رقابتهم على العلاقات التجارية بين الصين والفيليبين من جهة وبين اندونيسيا من جهة اخرى .

في سنة ١٨٣٦ ، حاولت الشركة الاميركية الكبيرة «اوليفانت» ان تستحصل من سلطان برونيه على امتيازات خاصة لاجل ممثليها . وفي سنة ١٨٤٢ حمل ويلكس ، آمر بعثة بحرية حربية اميركية كبيرة تضم ٦ سفن ، حاكم ارخبيل سولو على توقيع وثيقة جاء فيها : «انا محمد ، سلطان سولو ، اعد واتعهد بتقديم العون التام لجميع سفن الولايات المتحدة الاميركية وآمريها وطواقمها التي تزور ايـــا من الجزر الخاضعة لسلطتي» (١٥) .

هذا التعهد اوجد امكانيات اضافية لاجل تغلغل الاميركيين في كاليمانتان الشماليـــة ، لان حاكم اكبر دولة في هذه الجزيرة — برونيه — سبق له ان اعترف في القرن السابع عشر بسيادة سلطان سولو على قسم كبير من ممتلكاته في كاليمانتان الشمالية .

وقد بذل ارباب المشاريع والديبلوماسيون والضباط البحريون الاميركيون قصارى جهدهم للتغلغل في كاليمانتان الشمالية مستغلين المعاهدة مع سلطان سولو . وفي هذا المجال ابدى القنصل الاميركي في سنغافورا ، بالستيه ، نشاطا خاصا . فقد استغل تأزم العلاقات بين المستعمرين الانجليز والاوساط الحاكمة في سلطنة برونيه الناجم بقدر كبير عن كون المغامر الانجليزي بروك اعلن نفسه ، بدعـــم نشيط من جانب مدراء شركة الهند الشرقية والحكومـــة البريطانية ، راجا سرواك التي كانت جـزءا من سلطنة برونيه . وحاول اصحاب السفن والتجار الاميركيون بدورهم في سنة ١٨٤٥ ان يحملوا سلطان برونيه على منحهم قاعدة في جزيرة لابوان والحق الاحتكاري في استثمار مكامن الفحم الحجري الغنية جدا هناك ، الامر الذي كان من شأنه ان يؤمن امتيازات استثنائية لشركات الملاحة الاميركية ، ويؤمن لها الفرص والامكانيات لاكتساب الاراضي . ولكن ما لبث المستعمرون البريطانيون ان اتخذوا اجراءات معاكسة . فتحت ضغطهم تنازل لهم سلطان برونيـــه في سنة ١٨٤٦ عن جزيرة لابوان ، ووقع في سنة ١٨٤٧ على اتفاقية جديدة تعهد بموجبهـا بعدم التنازل لاية دولة اجنبية عن اي جزء من ممتلكاته . ولكن هذا لم يوقف الاميركيين . ففي سنة ١٨٤٩ ، عُيّن بالستيه ، بالاضافة الى وظائفه السابقة ، «عميلا وسفيرا خاصا للولايات المتحدة» . وبموجب التعليمات التي وقعها الرئيس الاميركي تايلور ، صدرت

اليه الاوامر باتخاذ جميع الاجراءات الممكنة لاجل فرض الرقابة الاميركية على الدفائن النافعة فى هذه المنطقة وعقد معاهدات مفيدة للجانب الاميركى مع سلطان برونيه وحكام الامارات الصغيرة فى كاليمانتان الشمالية .

فى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٨٥٠ وقع بالستيه مع سلطان برونيه عمر على «اتفاقية الصداقة والتجارة والملاحة» التى ضمنت شروطا خاصة لاجل الصناعيين والتجار واصحاب السفن الاميركيين فى السلطنة . وفى سنة ١٨٦٥ ظهر فى برونيه القنصل الاميركى الدائم موزس ، المتآمر الفطن ، ورجل الاعمال والمضارب المكار . وباللجوء الى الابتزاز والتهويل والرشوة ، وبالتلاعب على تفاقم استياء الاوساط العليا الحاكمة الاسلامية فى برونيه من التعسف الانجليزى فى سرواك ، استحصل موزس فى السنة نفسها من السلطان على امتيازات فى رقعة شاسعة فى شمال الجزيرة (حاليا ولاية صباح الماليزية) . ثم مضى على جناح السرعة الى هونكونغ حيث باع فى الحال من رجلى الاعمال الاميركيين الكبيرين تورى وهاريس حقوقه فى الامتياز . وفى السنة ذاتها اسس تورى وهاريس مع ماليين اميركيين آخرين ، شركة بورنيو التجارية الامريكية ؛ وهذه الشركة رسمت برنامجا واسعا لاستثمار الدفائن النافعة وللتجارة غير المتكافئة مع السكان فى اراضى الامتياز الشاسعة . وعقد موزس اتفاقية سرية مع رؤساء شركة بورنيو التجارية الاميركية تعهد بموجبها بان يؤمن لهذه المؤسسة الاستعمارية حماية الحكومة الاميركية . وبالمقابل تعهدت الشركة بان تدفع له ثلث جميع مداخيل الامتياز المقبلة .

عكف الاميركيون بكل همة وعزم على استثمار الامتياز . وتحت ضغط موزس ، عيّن سلطان برونيه رئيس الشركة تورى «راجا امبونغ ومارودو» ، كما نال تورى «الحق على حياة وموت السكان المحليين ، وعلى التشريع ، وعلى سك العملة وانشاء الجيش والاسطول ، فضلا عن جميع الاحتكارات والحقوق الاخرى التى يتمتع بها عادة الحكام الاسياد» (١٦) . وهكذا حصل الغزاة الاميركيون منذ ١٦٠ سنة على اول مستعمرة اسلامية .

ولاجل زراعة المحاصيل الاستوائية شرع اصحاب الامتياز

يستجلبون الكولى (الفعلة) الصينيين ، ويقومون بالاعمال الجيوديزية فاصلين ممتلكاتهم عن اراضى سلطنة برونيه وسائر امارات كاليمانتان . وفى الوقت نفسه تقريبا بدأوا يدعون بضم جزيرة بالاوان وغيرها من اراضى الفيليبين الى الامتياز .

وكل هذا استثار مقاومة شديدة من جانب اسياد الفيليبين الاسبان ، وبخاصة من جانب المستعمرين البريطانيين .

استغل الامبرياليون البريطانيون ضعف مواقع الولايات المتحدة الاميركية فى المحيط الهادى والمحيط الهندى من جراء الحرب الاهلية ، وتوطد مواقعهم فى آسيا الجنوبية الشرقية ، ففرضوا فى البدء رقابتهم على شركة بورنيو التجارية الاميركية ثم حولوها الى شركة بورنيو الشمالية البريطانية . وفى سنة ١٨٨٨ فرضوا حمايتهم على اراضى صباح وسرواك (حاليا ولايتى ماليزيا) وبرونيه . وهكذا انتهت المغامرة الاستعمارية التى قامت بها الامبريالية الاميركية فى كاليمانتان ، والتى اسهمت فى اضعاف سلطنة برونيه بصورة حادة فى اواسط القرن التاسع عشر ، وفى تردى وضع سكان الجزيرة المسلمين الاقتصادى والاجتماعى ، وعجلت فى فرض السيادة الاستعمارية البريطانية لاحقا فى كاليمانتان الشمالية (وهذه السيادة دامت حتى عام ١٩٦٣ ضمنا) . ولا ريب فى ان دسائس الاميركيين فى ارخبيل سولو وعقدهم فى سنة ١٨٤٢ معاهدة مع حاكم الارخبيل قد عمقت التناقضات بين شعوب هذه المنطقة ، الامر الذى انعكس فى قطع العلاقات الديبلوماسية فى الستينيات من القرن العشرين بين اعضاء حلف «آسيان» — الفيليبين وماليزيا واندونيسيا .

هذا هو بايجاز تاريخ المرحلة الاولى من التوسع الاستعمارى الاميركى الذى شمل عمليا كل العالم الاسلامى — بدءا من سواحل المغرب فى المحيط الاطلسى حتى سواحل اندونيسيا فى المحيط الهادى . ان تاريخ هذه المرحلة من الاستعمار الاميركى لا يزال غامضا بكليته تقريبا . ناهيك بان الاوساط الحاكمة الاميركية قد اتخذت التدابير لكى يظل مجهولا بالنسبة للرأى العام الاسلامى فى آسيا وافريقيا . وبقيت اغلبية الوثائق طى الكتمان ولم يشملها النشر . وحتى فى حال تسليط النور من جانب

المؤرخين الاميركيين على الحروب ضد «الدول البربرية» فى اوائل القرن التاسع عشر او على سابق تاريخ المعاهدة الاميركية المسقطية لسنة ١٨٣٣ ، يلجأون الى «حيلة الصمت» ، الى العرض الجزئى ، المتقطع ، ساعين الى حصر كل شيء فى بعض الوقائع التى تشبه النوادر . ورغم فيض المطبوعات التى تتناول تاريخ الاستعمار ، لم يوضع ، لا فى الغرب ولا فى البلدان النامية ، تاريخ اجمالى للسياسة الاستعمارية الاميركية فى بلدان العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر .

والواقع ان ذلك كان سياسة هادفة قوامها الفتح والاغتصاب ومهمتها فرض الرقابة على اهم سبل المواصلات البحرية – البحر الابيض المتوسط ، والمحيط الهندى ، والمحيط الهادى جزئيا . وفى تلك الازمنة البعيدة ، حاولت الاوساط الحاكمة الاميركية ان تستولى على اكبر نصيب ممكن من الدخل من تجارة الافيون المخزية ، ومن الارباح الطائلة الناجمة عن تجارة الافاويه . وباللجوء الى الربابنة والتجار والديبلوماسيين والكومودورات والمغامرين والجواسيس ، سعى الرأسمال الاميركى الى نيل التسهيلات والامتيازات ، والمراسى لاجل الاسطول والقواعد ، وامتيازات الاستثمار وحقوق الحصانة الديبلوماسية فى الجزائر والمغرب وتونس وطرابلس الغرب والامبراطورية العثمانية وسلطنة مسقط وسومطرا الشمالية الغربية وكاليمانتان الشمالية . ومنذ اكثر من ١٥٠ سنة انشأ البيت الابيض عمارة البحر الابيض المتوسط وعمارة الهند الشرقية اللتين قصفت سفنهما درنا وتونس والجزائر وكوالا-باتو . وباستغلال التوراة والدولارات ، وبتأجيج نيران التناقضات بين المتنافسين الغربيين ، وكذلك بين الحكام المسلمين وبواسطة تجارة الاسلحة والتهديد بمدفعية السفن ، حسب المستعمرون الاميركيون ان يرسخوا اقدامهم فى الامبراطورية العثمانية وفى الخليج العربى وفى جزيرة زنجيبار وارخبيل سولو . وقد نظموا اعمال التخريب الايديولوجى فى افريقيا الشمالية الشرقية واعدوا الملاكات (الكوادر) من العملاء فى الجامعة الاميركية ببيروت .

ولهذا تخفى بكل دقة وعناية المرحلة الاولى من العدوان الاميركى على شعوب العالم الاسلامى . فلو عرف ملايين المسلمين الحقيقة ،

لبطلت وتبددت مزاعم الرئيسين الاميركيين كارتر وريغان ووزيرى الخارجية الاميركية هيغ وشولتس ، والديبلوماسيين والمستشرقين والكتاب والصحفيين والاحتكاريين الاميركيين بان الولايات المتحدة كانت ولا تزال منذ نشوئها والى الآن عدوة للاستعمار بدأب وثبات ، وصديقة وفية ومنزهة للشعوب الاسلامية ، ولكان من المستحيل وغير المعقول الامل فى ان تصدق الشعوب الاسلامية ، مزاعم واشنطن بان الاسطولين الاميركيين السادس والسابع قد انشئا وبان اكثر من ١٥٠٠ قاعدة حربية اميركية قد اقيمت خارج الولايات المتحدة الاميركية ، وبان «قوات الانتشار السريع» والقيادة المركزية السيئة الشهرة قد تأسست لاجل الدفاع عن شعوب العالم الاسلامى وحمايتها من «الخطر السوفييتى» .

ان الغاية من تزييف تاريخ الاستعمار الاميركى فى الشرق وفى سائر انحاء العالم هى طمس السياسة الاميركية الاستعمارية الجديدة التى ترمى الى فرض سيادة الاحتكارات الاميركية على شعوب العالم الاسلامى وغيرها من الشعوب والاستيلاء على ثرواتها الطبيعية ، وتحويل مطاراتها ومرافئها وجزرها الى قواعد لقوات المارينز ولقوات البحرية والقوات الجوية الاميركية ، وساحات انطلاق للصواريخ الاميركية ، قصد إعداد القفزة لفرض السيادة العالمية .

الفصل الرابع

استعباد شعبي مصر والسودان

١ ـ العدوان على مصر

ان موارد مصر والسودان الاقتصادية الهائلة ، وعدد سكانهما الكبير ، وموقعهما الخارق الاهمية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وفى حوض البحر الاحمر ، ودورهما كجسر اصيل من افريقيا الى آسيا ، ونفوذ مصر الكبير فى العالم الاسلامى ، قد استرعت انظار المستعمرين البريطانيين من قديم الزمان . وان محاولتهم الاولى للاستيلاء على الاسكندرية وللزحف على القاهرة قد صدها حاكم مصر آنذاك محمد على ، الذى سحقت قواته ، بدعم حازم من سكان دلتا النيل ، فصائل المستعمرين البريطانيين فى معركة الرشيد الدامية فى ١٧ آذار (مارس) ١٨٠٧ . وفى غضون الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر ، خاضت الاوساط الحاكمة فى بريطانيا العظمى النضال الدائب ضد محاولات محمد على لتأسيس دولة اسلامية قوية ، للمرة الاولى بعد صلاح الدين الايوبى (القرن الثانى عشر) تضم مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وقسما من الجزيرة العربية . وفى حزيران (يونيو) ١٨٣٩ كتب وزير الخارجية البريطانية بالمرستون ، زعيم الكتلة الاستعمارية فى الطبقة الحاكمة فى بريطانيا العظمى : «انا اكره محمد على واعتبره همجيا جاهلا احرز النجاح بفضل الدهاء والوقاحة والجرأة . . . واعتبر حضارته الممدوحة هراء فى هراء» (١) . وهذه الكلمات التى تحفل بالكره للشعب المصرى كررها حرفا حرفا تقريبا فى ربيع ١٩٥٦ رئيس وزراء بريطانيا العظمى انطونى ايدن فى معرض كلامه عن جمال عبد الناصر ، عشية شن العدوان الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى على مصر .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد فشل محاولات المستعمرين البريطانيين لاحباط بناء قناة السويس الذى قام به الرأسمال الفرنسي وعزز كثيرا مواقع اصحاب المصارف الباريسيين في مصر ، وضعوا في لندن خطة لخنق مصر اقتصاديا . وفي سنة ١٨٥٢ فرض البيت المصرفي الانجليزي «فرولينغ اند غوشن» على مصر اول قرض كبير بمبلغ ٣ ملايين جنيه سترليني وبشروط الربا . وكان هذا البيت المصرفي وثيق الارتباط بآل روتشيلد في لندن الذين لعبوا فيما بعد دورا مشؤوما في استعباد مصر سياسيــــــا وماليا . وخلال السنوات الـ١٢ التي اعقبت منح القرض الاول ، فرض اصحاب المصارف البريطانيون على مصر ٧ قروض اخرى . ونحو اواخر ١٨٧٥ بلغ دين مصر الخارجي زهاء ١٠٠ مليون جنيه سترليني (حسب السعر الحالي – اكثر من مليارى دولار) ؛ ووصلت مصر الى شفير الافلاس .

واستغل رئيس وزارة بريطانيا العظمـــــى بنيامين ديسرايلي (١٨٠٤–١٨٨١) هذا الوضع ، فأجبر خديوى مصر اسماعيل على ان يبيع حزمة الرقابة من الاسهم التي تخصه في الشركة العامة لقناة السويس مقابل ٤ ملايين جنيه سترليني . وبما ان ديسرايلي قد اضطر الى عقد هذه الصفقة بسرعة وسرا (لكي لا يعرف اصحاب المصارف الباريسيون) ، فقد اخذ قرضا بدون موافقة البرلمان وبدون اعلام اعضـــــاء الوزارة ، من رئيس البيت المصرفي لآل روتشيلد . وقد حاول هذا الاخير ان يقبض على مقاليد مالية مصر ، واشرف سرا على فرض قروض مجحفة استعبادية على هذا البلد . وتقديرا لهذه الخدمة ، صار ناتانييل روتشيلد بارونا ، كما صار عضوا في البرلمان البريطاني رغم ايمانه اليهودي الذي يمنعه من القسم على الانجيل . وفور اكتساب حزمة الرقابة من اسهم الشركة العامة لقناة السويس ، نشرت جريدة «التايمس» ، بوق السيتي ، مقالة مهللة جاء فيها : «نحن الآن اكبر المساهمين . . . لبلادنـــا الصوت الفاصل في جميع المسائل – العلمية والمالية والسياسية ؛ زمام الادارة والمفاوضات سيكون في يدنا ؛ وبما اننا مخولــون السلطة ، فعلينا تقع المسؤولية امام العالـــــم» (٢) . هكذا بدأت مرحلة من استثمار لا سابق له للجماهير الشعبية في مصر ، ومن

خنق البلاد ماليا حقا وفعلا ، ومن سعى المستعمرين البريطانيين الى اذلال واضعاف وتشويه الثقافة العربية والحضارة الاسلامية البديعة بشتى الوسائل .

كل هذا استثار بالغ الاستياء في مصر ، في الجيش وفي اوساط رجال الدين المسلمين . وقد كان لافكار ونشاط المفكر الكبير ، ايديولوجي الوحدة الاسلامية ، ومصلح الاسلام ، جمال الديـــن الافغاني الذى عاش في مصر في سنوات ١٨٧١–١٨٧٩ تأثير كبير في اشتداد المقاومة في وجه المستعمرين البريطانيين وعملائهـــم المحليين الكثيرين . وخلافا للمعجبين الليبيراليين بالغرب مـــن طراز العثمانيين الشباب ، كان جمال الدين الافغاني ينكر كليـــة جبروت الحضارة الغربية ويعارض تقليد النماذج الغربية تقليدا اعمى . وكان الافغاني يقر بما للعلم والتكنيك في اوروبا الغربية من اهمية ايجابية ، ولكنه لم يكن يعترف البتة بالمؤسسات الاجتماعية لاوروبا الغربية . وكان يعتبر ان خلاص مصر ليس في استنساخ النظم الاوروبية ، بل في بعث مبادئ العدالة الاسلامية والايمان الحقيقي .

علاوة على اصدار الجرائد ، كان الافغاني يلقى الخطب في الجوامع ، متوجها مباشرة الى الجمهور الاسلامي الواســـع . وكان يعارض التغلغل الاجنبي في مصر ويدعم انصار تأليف حكومة وطنية في البلد ، اى اولئك الذين اتحدوا آنذاك في مصر تحت الاســـم العام «حزب الوطن» . كذلك اولى القدر نفسه من الاهتمام لنقد الحكم المطلق وطرائق الادارة الاستبدادية . وفي مقالته «الحكومة المستبدة» ، طرح للمرة الاولى فكرة اقامة النظام الجمهورى في الدول الاسلامية .

وقد دعا الافغاني في خطاباته ومقالاته الى تطوير الوعى الوطني في صفوف الشعب ، واحترام مصالح الجماهير الكادحة ، والتقيد بمبادئ العدالة الاسلامية ، وعدم توقع الرأفة من الحكومة الموالية للغرب ، بل النهوض الى النضال والكفاح . وفي احدى خطبه في سنة ١٨٧٩ قال : انتم ولدتم في العبودية وتعيشون تحت سلطة المستبديـــن . وفي غضون قرون كنتـــم تحت نير الغزاة والظالمين . . . والخبز الذى تستحصلون عليـــه بعرق الجبين

ينتزعونه منكم بدون علمكم . . . فاستيقظوا من لامبالاتكم . . . انفضوا غبار الجهل والكسل . يجب اما ان تعيشوا احرارا مثل الشعوب الاخرى ، واما ان تموتوا مثل الشهداء» (٣) .

ان افكار جمال الدين الافغانى ، مؤسس المفهوم التقدمى فى تلك الحقبة ، القائل باتحاد شعوب العالم الاسلامى التى استعبدتها الامبريالية ، تحت شعار الوحدة الاسلامية ، ونصير تأسيس جمهورية اسلامية ديموقراطية خالية من الظلم الاجتماعى والاقتصادى ، تختلف اختلافا جوهريا عن افكار زعماء المنظمة الاسلامية اليمينية «الحجاتية» .

وباسماء الافغانى واتباعه محمد عبده ، وعبد الله نديم واديب اسحق ، يرتبط تطور الصحافة المصرية التقدمية ، وتعاظم امزجة العداء للاستعمار بين الطلاب والمعلمين فى الجامعة الاسلامية النافذة «الازهر» ، وتأسيس منظمات معارضة مثل جمعية «مصر الفتاة» والجمعية الخيرية الاسلامية . وقد اتصل زعماء الجمعية الخيرية الاسلامية بحزب الوطن الناشىء الذى كان من قادته العقيد احمد عرابى . وتحت ضغط هذه المنظمات السياسية والدينية ، التى كانت تسهم فى استنهاض الحركة المعادية للامبريالية فى البلد ، اضطر خديوى مصر توفيق الى تشكيل حكومة جديدة فى شباط (فبراير) ١٨٨٢ صار فيها احمد عرابى وزيرا للحربية ، وكان احمد عرابى من انصار جمال الدين الافغانى الذى كان قد نفى آنذاك من مصر باصرار من عملاء الانجليز .

كان المستعمرون البريطانيون يتتبعون باهتمام متصل نمو الحركة المعادية للامبريالية فى مصر ، الجارية تحت شعارات وطنية حظيت بكامل الدعم من جانب الاوساط التقدمية من رجال الدين المسلمين . وقد تقرر فى لندن ضرب هذه الحركة بقبضة مدرعة قبل ان تنتشر فى عموم مصر وتؤثر فى البلدان المجاورة . وفى ربيع ١٨٨٢ بدأت السلطات المحلية فى الاسكندرية بامر من عرابى باشا اصلاح الحصون التى سبق ان بنيت فى عهد محمد على لحماية المرفأ الرئيسى فى البلد . فقررت لندن ان تستغل ذلك كذريعة منتظرة زمنا طويلا لاجل التدخل . وفى ايار (مايو) ١٨٨٢ رست العمارة البريطانية فى البحر الابيض المتوسط بقيادة الاميرال

سيمور في مكلأ الاسكندرية . وفي ٦ تموز (يوليو) وجه سيمور انذارا مطالبا بوقاحة بوقف اعمال التحصين . ردت الحكومة المصرية بتعليل واسهاب ان لها ملء الحق في اجراء الاعمال الدفاعية في بوابات بلدها البحرية ، مؤكدة في الوقت ذاته انها لا تبني في الاسكندرية استحكامات جديدة ولا تنصب مدافع جديدة في الحصون القديمة . ومع ذلك ، وجه سيمور في ١٠ تموز (يوليو) انذارا ثانيا اشد وقاحة واستفزازا ، فقد طالب بان توضع تحت رقابته في غضون ٢٤ ساعة جميع الاستحكامات الساحلية في الاسكندرية . وفي ١١ تموز ١٨٨٢ ، قصفت الدوارع البريطانية الاسكندرية قصفا ماحقا وحولت هذه المدينة الزاهرة التي كانت طوال اكثر من الفي سنة من اهم مراكز التجارة الاوروبية الآسيوية الافريقية ، الى تلال من الانقاض . وفي هذه الجريمة ضد شعب مصر ، اشتركت السفن الكبيرة من عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية بقسط فعال جدا . وآنذاك قام الاميركيون بدور الشركاء الصغار للمعتدين البريطانيين . وبعد ١٠٠ سنة ، تبادل المستعمرون الادوار . فالآن ينجم الخطر الاكبر على مسلمي افريقيا الشمالية وآسيا الجنوبية الغربية عن الاسطول السادس الاميركي وريث عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية .

في اواخر تموز ١٨٨٢ ، قامت قوات فيلق الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال ولسي ، بعد نزولها في دلتا النيل ، بمحاولة لاقتحام التحصينات المصرية قرب كفر الدوار لكي تبدأ الهجوم على القاهرة . ولكن هذه المحاولة منيت بالفشل . واذ ذاك قرر المستعمرون البريطانيون ان يلجأوا الى الرشوة . فان ممثلي بيت روتشيلد اللندني ، الذين يؤمنون ايمانا مقدسا راسخا بكلية جبروت الجنيه الاسترليني - وآنذاك كان الجنيه الاسترليني أثبت عملة في العالم - قد عرضوا على احمد عرابي الذي كان يرأس النضال ضد الغزاة معاشا مدى العمر قدره ٤٠٠٠ جنيه استرليني في السنة اذا ما استقال وغادر البلد . ورفع آل روتشيلد الباريسيون مبلغ الرشوة الى ٦٠٠٠ جنيه استرليني . ان هذا الواقع يدحض الزعم بصدد الصراع الذي لا هوادة فيه بين فرع روتشيلد في لندن وفرع روتشيلد في باريس اللذين يمثلان مصالح الاوساط الحاكمة في

بريطانيا العظمى وفرنسا ، من اجل السيادة على مصر . ومـــا ان اصطدم المستعمرون بمعارضة الدولة الاسلامية ومقاومتها المسلحة حتى تناسوا فى الحال خلافاتهم . كذلك وقعت ظاهرات مماثلة فى سنة ١٩٠٧ لدن انشاء الوفاق (Entente – الانتانت) حين وافق المستعمرون الفرنسيون على «مبادلـــة» مواقعهم فى مصر «بحق» الاستيلاء على المغرب . ثـــم ان شعب ايران ، فور تأميم مصدق لشركة البترول الانجلو – ايرانية فى سنة ١٩٥١ ، وشعوب البلدان العربية فى زمن جميع الحروب الخمسة التى فرضها عليها المعتدون الصهاينة ، قد استطاعت ان تتحقق بتجربتها بالذات من وقائـــع انشاء جبهة موحدة للمستعمرين .

ان الوطنى المصرى احمد عرابى ، كما كان يجب التوقع ، رفض بغضب وابــاء وعود آل روتشيلد وبدأت مصر تتسلح بصورة محمومــة لصد المعتدين . واعلن وزير الحربية عرابى الحرب على انجلترا .

الا ان الاوساط العليا الحاكمة الرجعية فى مصر ، وعلى رأسها الخديوى توفيق بدأت مفاوضات سرية مع المعتدى خوفـــا من ان يتحول نضال الجماهير الشعبية ضد الغزاة الاجانب الى حركة جبارة ضد الاقطاعية . وفى ٢٣ تموز (يوليو) ١٨٨٢ عزل الخديوى عرابى لمناسبة رفضه وقف العمليات الحربية ضد المحتلين ، واعلنـــه متمردا وعيّن حكومة جديدة . وبعد يومين نشر عرابى باشا نداء الى الشعب اعلن فيه توفيق خائنا باع وخان الوطن والاسلام بخزى وعار . وفى ٢٩ تموز (يوليو) لقيت معارضـــة عرابى باشا الدعم بفتوى من علماء الازهر .

ولكن خيانة زمرة الخديوى عقدت وضـــع المصريين الحربى ، وفى ٢ آب (اغسطس) ١٨٨٢ نزلت القوات الانجليزية فى السويس ، وفى ٢٠ آب احتلت الاسماعيليـــة وبور سعيد ، وفرضت بالتالى رقابتها التامة على منطقة قناة السويس . ولم تغادرها الا فى سنة ١٩٥٥ وذلك بناء على طلب حكومة عبد الناصر المدعومة من الشعب بأسره . ولكن المتدخلين البريطانيين احتلوا السويس من جديد بعد سنة ١٩٥٦ ابان العدوان الثلاثى على مصر . بيد ان مقاومـــة القوات المسلحة المصرية وحزم موقف الاتحاد السوفييتى الذى حذر

المعتدين باحتمال اتخاذ تدابير معاكسة ، اجبرا المحتلين على الجلاء عن مصر . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ابان الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، حاول الصهاينة ان يستولوا على الاسماعيلية وبور سعيد وتطويق الجيش الثالث المصرى والقيام بقفزة صوب القاهرة . الا ان هذه الخطط فشلت ، وذلك فى المقام الاول ، من جراء التدابير التى اتخذها الاتحاد السوفييتى . وهذه الوقائع تدل على الموقف الحقيقى الذى تقفه من بلدان الشرق الدول الغربية وحليفها الرئيسى اسرائيل الصهيونية من جهة ، ويقفه الاتحاد السوفييتى من جهة اخرى .

فى ايلول (سبتمبر) ١٨٨٢ بدأت قوات المعتدين البريطانيين الهجوم على قوات عرابى باشا الاساسية . ومما يدل على درجة استخذاء زمرة توفيق امام الامبرياليين ، واقع ان الخديوى اصدر مرسوما خاصا اعتبر بموجبه قوات التدخل المسلح الاجنبى التابعة للجنرال ولسى . . . جزءا من الجيش المصرى !

فى ١٣ ايلول ١٨٨٢ منيت قوات عرابى باشا بالهزيمة فى المعركة الليلية بجوار التل الكبير . وفى ١٥ ايلول ١٨٨٢ دخلت القوات البريطانية القاهرة . وقد اعتقل عرابى باشا واقرب اعوانه وحكم عليهم بالاعدام ، ثم استعيض عن الاعدام بالنفى الى جزيرة سيلان . واعتقل زهاء ٣٠ الف وطنى وزج بهم فى السجون او نفوا من البلد . وجاء السفير البريطانى فى القسطنطينية اللورد دافيرين الى القاهرة لاجل «اقامة النظام» ، فكتب بوقاحة فى تقرير الى لندن : «الشعب المستعبد يحتاج الى يد السيد الحديدية ، وليس الى النظام الدستورى» (٤) . وتبعا لذلك اقيم فى مصر نظام الاستبداد والتعسف الاستعمارى . وفرضت على الشعب المصرى غرامة قدرها ٩ ملايين جنيه سترلينى . وهكذا دفع المصريون لاصحاب المصارف فى السيتى مع علاوة قيمة اسهم قناة السويس ونفقات التدخل المسلح .

فى سياق النضال ضد الوطنيين المصريين ، نكل المحتلون البريطانيون وعملاؤهم بكل قساوة بالقسم التقدمى من رجال الدين المسلمين ، وبتلامذة جمال الدين الافغانى واتباعه وانصاره . ولم يغفر المحتلون لرجال الدين المسلمين قيام صلوات جماهيرية فى

اكبر جامع فى مصر - جامع الازهر - وفى مصليات الدراويش - مصليـــات حسين وستّى زينب - بطلب النصر للقوات المسلحة الاسلامية عشية معركة التل الكبير .

استثارت اعمـــال المستعمرين البريطانيين الوحشية فى مصر استياء بالغا فى اوساط الرأى العام التقدمى ، بما فيها حتى اوساط البرلمانيين البريطانيين من اعضاء الحزب الليبيرالى (حزب الاحرار).

وقد فضح كارل ماركس ريـاء زعيم الليبيراليين (الاحرار) ، غلادستون ، رئيس وزراء بريطانيـا ، الذى اصدر الامر بالتدخل المسلح فى مصر ، كما فضـح وقاحة المعتدين البريطانيين . ففى رسالة الى ابنته اليونورا بتاريـخ ٩ كانون الثانى (يناير) ١٨٨٣ كتب يقول ان زعماء الليبيراليين (الاحرار) الانجليز «يتلمظون لمجرد فكرة المشهد الساحر ، مشهد القواعد العدوانية المحصنة من المحيط الاطلسى الى المحيط الهندى ، زد على ذلك «الامبراطورية الافريقية البريطانية» من دلتا النيل الى اقليل الكاب . مشهد لا بأس به ! وبالفعل ، هل يمكن ان يكون «فتح» اشد خزيا ونفاقا ورياء من فتح مصر ، فتح يجرى حين يسود السلام العميق» (٥) . ورغم ان هذا الاستشهاد قد كتب منذ مائة سنة ، الا انه يمكن تطبيق قسمه الاول كليا لفهم الجوهر الحقيقى للقيادة المركزية الاميركية التى تشكل خطرا جديا للغاية على شعوب الشرق .

منذ سنـــة ١٨٨٢ تحولت مصر فعلا الى مستعمرة من اهـم مستعمـــرات الامبريالية البريطانيـــة رغم بقائها شكلا فى قوام الامبراطورية العثمانية . ان استثمار الجماهير الشعبية بلا شفقة ، وسعى المستعمرين الى تحويل مصر الى مزرعة شاسعة للقطن من اجل مصانع النسيج فى منشستر ، والاستهزاء بالثقافة العريقة فى مصر وبقيم الحضارة الاسلامية ، كل هذا استثار كرها مشتدا للمستعمرين واعوانهم ، وعزز فى البلد حركة العداء للامبريالية التى ظل رجال الدين المسلمون التقدميون يشتركون فيها بصورة نشيطة وفعالة . وفى اواخر القرن التاسع عشر عاد محمد عبده الى مصر وصار مفتى مصر رغم فائق استياء زمرة البلاط الملكى . ومـع رفيقه بالفكر رشيد رضا ، اسس مجلة «المنار» التى صارت لسان الحال الرئيسى للاصلاح الاسلامى ، وسعت الى توحيد القيـــم الثقافية للحضارة

الاسلامية مع نشر الثقافة العصرية والمعارف التكنيكية فى البلدان الاسلامية لاجل تسريع تطورها الاجتماعى والاقتصادى وبالتالى لاجل تعزيز المقاومة فى وجه المستعمرين . وفيما بعد ، تطورت هذه الافكار ايضا فى مؤلفات العالـم الاقتصادى الايرانى المعروف علي شريعاتى (المقرب من الامام الخمينى فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين) الذى علل فى مؤلفاتـــه الاساس الاقتصادى للجمهورية الايرانية الاسلامية المقبلة . وتحت ضغط زعماء «الحجاتية» توقف عمليا طبع ونشر مؤلفاته فى ايران منذ اواخر سنة ١٩٨٢ .

فى اواخر القرن التاسع عشر ، قام الكاتب الاجتماعى والسياسى المعروف ، السورى الاصل ، عبد الرحمن الكواكبى ، الذى استقر فى القاهرة فى سنة ١٨٩٨ بمحاولة للجمـــع بين افكار الاسلام وافكار القومية العربية المستيقظة . وفى مؤلفيه «طبائع الاستبداد» «وام القرى» المنشورين فى مصر ، دعـــا الى توحيد جميع العرب المسلمين للنضال ضد المستعمرين . وهكذا اسهم مصلحو الاسلام ونظريو الوحدة الاسلامية ونظريو القومية العربية بقسط كبير فى وتكوين حركة قوية معادية للامبريالية فى مصر ، وموجهة ضد نير المستعمرين البريطانيين .

وقد كرس المستعربان السوفييتيان ليفين وكوتلوف جملة من البحوث عن مصلحى الاسلام (٦) ، ونشرت فى سنـــة ١٩٦٤ فى موسكو ترجمة لمؤلف الكواكبى الرئيسى «طبائع الاستبداد» .

٢ ــ اخضاع السودان

استغل المستعمرون البريطانيون الاستيلاء على مصر لا لاغنـاء اصحاب المصارف وارباب المشاريع البريطانيين بلا رادع وبنحو لا سابق له وحسب ، ولا لفرض الرقابـــة على قناة السويس وشبه جزيرة سيناء والساحل الشمالى الغربى من البحر الاحمر وحسب ، بل ايضا لاتخاذها كرأس جسر من اجل استعباد بلد كبير جدا فى افريقيـــا ، هو السودان الذى تربو مساحته على نصف مساحـــة اوروبا .

حاولت الاوساط الاستعمارية البريطانية ان تستولى على السودان لاجل استثمار ثرواته الطبيعيـــة وفرض الرقابة على نهرى النيـل الابيض والنيل الازرق وعلى كل اعالى النيل . وبذلك كان يصبح فى وسعهم ان يمسكوا فى ايديهم زمام كل عملية توفير الماء للسودان ومصر التى تتوقف على فيضانات النيل ، ويمارسوا بالتالى التأثيـــر الحاسم فى حياة البلدين الاقتصادية والسياسية . ان السيـــادة الفعلية على السودان قد يسرت للمستعمرين البريطانيين توسيـــع رقابتهم على الساحـــل الغربى من البحر الاحمر وضمنت امكانيات واسعة لاجل التغلغل فى كينيا واوغنده وحوض نهر الكونغو . وكان لا بدّ لذلك ان يساعد فى تحقيق الخطة التى حاكها القسم الاشد عدوانية من الطبقة الحاكمة البريطانية والتى فضحهـــا ماركس فى رسالتـــه المذكورة اعلاه الى ابنتـــه ايليونورا – اى خطة بنـــاء «الامبراطورية الافريقية البريطانية» من دلتا النيل الى رأس الرجاء الصالح . وقد اسرع المستعمرون البريطانيون الى استباق ظهـور المنافسين الرئيسيين – الفرنسيين – فى افريقيا الشرقيـــة ، اذ كان الفرنسيون يحاولون ان يبنـــوا امبراطورية افريقية ، لا فى اتجاه الخط الهاجرى ، بل فى اتجاه خط العرض – من ساحل المحيط الاطلسى حيث وطدوا اقدامهم ، عبر افريقيا الوسطى ، الى مستعمرة دجيبوتى الجديدة فى خليج عدن .

لاجل تنفيذ الخطط بصدد السودان ، استغـــل المستعمرون البريطانيون سيادة الخديوى المصرى الاسميـة على السودان التى كانت قائمة منذ زمن محمد على ، ولكنهـــا ضعفت كثيرا نحو اوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر . وفى هذه الحقبـة من الزمن كانت تحكـــم السودان شكلا باسم الخديوى اسماعيل عصابة من المغامرين العالميين الوقحين والجشعين الذين يسيطرون على مختلف اقاليم السودان . وكان هـــؤلاء المغامرون يعتمدون على الاوساط العليا الاقطاعية من القبائل العربية ، وعلى كبار التجار العرب ، وفى المقام الاول منهم النخاسون ، وعلى الشريحة العليـــا من الموظفين المتحدرين من البلقان وآسيـــا الصغرى والقفقـــاس وكذلك على المشرقيين الذين اعتنقوا الاسلام . وجميعهم كان السكان المحليون ينعتونهم «بالاتراك» ويكنون لهم كرها لا حدّ له .

في سنة ١٨٦٩ اصبح الانجليزي صموئيل بيكر حاكما للاقليم الاستوائي من السودان . وبناء على تعليمات من لندن قام بعدد من الحملات على الاراضي الافريقية العريقة — في منطقة بحيـــرة البرت ومقاطعة اونيورو — الامر الذي كان لا بدّ له ان يساعد المستعمرين البريطانيين في ترسيخ اقدامهم لاحقا في اوغندا . وفي سنة ١٨٧٤ حل محله الجنرال الانجليزي باتريك غوردون الذي «اشتهر» بابادة عشرات الآلاف من الصينيين في زمن «حروب الافيون» وانتفاضات التايبين . وفي سنة ١٨٧٧ استغل المستعمرون البريطانيون تفاقم تبعية حاكم مصر حيـــال اصحاب المصارف في لندن واجبروه على تعيين غوردون حاكما عاما لعموم السودان . وعين غوردون بدوره اعوانه من المغامرين العالميين حكاما لمختلف الاقاليم .

فقد غدا الالماني شنيتسر (امين باشا) حاكما للاقليم الاستوائي ، والايطالي جيسي حاكما لاقليم كردفان ، والنمساوي سلاتين حاكما لاقليم دارفور ، والانجليزي لبتون حاكما لاقليم بحر الغزال . وقد فرض هؤلاء الحكـام على اهل السودان ضرائب لا تطاق ، تقديـــة وعينية ، ونهبوا الشعب بلا حياء ، وشجعوا سرا النخاسة الممنوعة بقرار من الخديوي منذ سنة ١٨٥٧ ، واستثاروا بتصرفاتهم وافعالهم النزاعات العرقية والاثنية والدينية ، محرضين مختلف قبائل النيل بعضها ضد بعض ، والعرب ضد النيليين ، والرحل ضد الحضر ، والمسلمين ضد المسيحيين . وفي غضون زمن طويـــل ، اعرب المؤرخون الغربيون عن الدهشة : كيف امكن لحفنة من المغامرين الذين لا اصل لهم ان يقبضوا على زمام بلد شاسع كالسودان ، بالاعتماد على «سلطة» الخديوي المصري الذي تحول آنذاك الى دمية في ايدي اصحاب المصارف والقناصل البريطانيين .

تدل وثائق ارشيف الدولة في بريطانيا العظمى ان كـــل هذه العصابة كانت تنفذ اوامر وتعليمـــات الجنرال البريطاني تشارلز غوردون الخاضع مباشرة لوزير المستعمرات البريطاني وللقنصـــل العام البريطاني في القاهرة . وفي سنـــة ١٨٧٩ ، عندما اخذت فضيحة طرائق حكم السودان تتضح معالمها ، تقرر في لندن الاستغاضة عن غوردون بحاكم مسلم . ولكن بما ان الحاكمين العامين رؤوف باشا وعبد القدير باشا اللذين تعاقبا كانا دميتيـــن طيعتين في ايدي

السلطات الاستعمارية البريطانية ، فقد ظل الوضع فى البلد يزداد توترا . وفى اواخر السبعينيات قام الفور فى دار فور بانتفاضة ، واثرها قام اتحاد البكاره القبلى العربى القوى بانتفاضة كبيرة ، لم يتسنّ للحكام الانجلو - مصريين ان يقمعوهـا الا فى ايار (مايو) ١٨٨٠ .

وقد اعدم احد زعماء الانتفاضة - سليمان - رميا بالرصاص ، وفر الثانى - رباح - مع فصيلة الى تشاد المجاورة ، الامر الذى كان له ، كما سنبين فيما بعد ، تأثير كبير فى وضع هذا البلد فى وسط افريقيا.

فى سنة ١٨٨١ نشبت فى السودان انتفاضة شعبية عامة ضد المستعمرين الانجلو - مصريين وعملائهم المحليين المأجورين . وقد ترأس الانتفاضة الدرويش المترحل محمد احمد الذى اعلن ذاته «المهدى» . وفى غضون ١٠ سنوات عاش فى جزيرة ابّا فى نهر النيل ، جنوبى الخرطوم حيث ظفر بمكانة كبيرة بفضل معارفه العميقة فى الفقه والشريعة الاسلامية . وكانت الفكرة الرئيسية الدائبة فى عظاته التى كان يتوافد الى استماعها آلاف الناس ، الدعوة الى بعث نقاوة الاسلام الباكر والى النضال ضد مخالفة القوانين وضد الاستبداد وضد التأثير الوخيم العواقب الذى يمارسه «الكفار» الذين صنف فى عدادهم «الاتراك» ، وقال عنهم انهم «مسلمون بالاسم فقط» . ان «الجهاد» الذى اعلن للمرة الاولى ضد المسلمين قد اتسم باهمية كبيرة . ففى آب (اغسطس) ١٨٨١ دعا محمد احمد المهدى الشعب الى «الجهاد» ، واعلن ان مهمة «الجهاد» الرئيسية لا تقتصر على تحرير السودان وحسب ، بل تشمل كذلك تحرير مصر والعربية وسائر البلدان الاسلامية من سيادة الكفار . وهذا الجانب من دعوة المهدى تجاوبت مع خطط الوحدة الاسلامية التى وضعها جمال الدين الافغانى . وكانت جوانب الوحدة الاسلامية من حركة المهدى ، كما سنبين ادناه ، تشكل خطرا خاصا على المستعمرين الغربيين ، وفى المقام الاول بينهم المستعمرون البريطانيون .

ان فضائل البوليس والجيش التى ارسلت بامر من الخرطوم ضد المهدى فى خريف ١٨٨١ قد منيت بالهزيمة . كان آلاف البؤساء والجياع والفقراء والمحرومين يتوافدون الى المهدى من

جميع انحاء السودان . وفيما بعد اضطر شاهد عيان الانتفاضة ، المغامر النمساوى سلاتيـــن باشا الى الاعتراف بان «واقع ان سودانيا بالذات قد صار المهدى وان البلـــد سيحكمه بالتالى فى المستقبل ابناؤه وليس الاجانب قد استحث عزة النفس عنـــد الجميع» (٧) . وفى ١٨٨١ و١٨٨٢ كانت الفصائـل القبلية تتوافد على «عاصمة» المهدى ، بلدة الجبل الجدير مـــن دارفون وكردفان وبحر الغزال . كان الذين سلموا مـــن المشتركين فى انتفاضة سليمان من اتحاد البكارة القبلى بمثابة مدد قيّم لجيش المنتفضين بسبيل التكون وشكلوا اساس خيالة جيش المهدى . وتكونـــت وحدات المدفعية من مصريين بلغ تعدادهم فى جيش المهدى نحـــو اواسط الثمانينيات ١٨ الفا . ومما لـــه دلالته ان سكان المدن المتعلمين اخذوا هم ايضا ينضمون تدريجيا الى المهدى . وكثيرون من اللبنانيين المسيحيين المقيمين فى الخرطوم وام درمان وغيرهما من مدن السودان اعتنقوا الاسلام واعلنوا انهم من اتباع المهدى .

وهكذا ، لم تكن حركة المهدى البتة ، خلافا لمزاعم المؤرخين الغربيين ، انتفاضة الرحل ضد الحضر ؛ فقد كانـــت تضم عناصر قومية ، وطنية ، اسلامية ، معادية للامبريالية . وهنا كانت تكمن قوة المهديين فى المرحلة الاولى من الحركة ، ويكمن الخطـــر الرئيسى على المستعمرين وعملائهم المحليين الكثيرين . وقد اتضح ذلك نحو ربيع ١٨٨٣ حين انضمـــت الى المهدييـن قبيلة دنكـــه وغيرها من قبائل النيل فى جنوب السودان . وهكـذا للمرة الاولى اتحد فى دولة المهدى النيليون والعرب ، اخلاف العبيد السابقيـن ومالكى العبيد السابقين . ذلك ان خديويى مصر كانوا يستجلبون سنويا من جنوب السودان نحو اواسط القرن التاسع عشر ١٥٠-٢٠٠ الف عبد ، مشركين فى هذه التجارة المخزيـة ممثلى الاوساط العليا بسبيل ان يتحولوا الى اقطاعيين من قبائل الرحل العربية فى السودان الغربى ، ومسهميـــن فى تأزيم العلاقـــات بين العرب والنيليين الى اقصى حد . اما فى الثمانينيات فان قبيلتى دنكـــه والبكاره قد سارتا فى صف واحد ، تحت راية المهدى الخضراء ، ضد «الاتراك» المصريين واسيادهـــم الانجليز . وفى صفوف

المنتفضين قاتل كذلك الوطنيون المصريون ممن هربوا الى السودان بعد هزيمة جيش عرابي باشا .

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٣ دخل جيش مصري انجليزي من ١٠ آلاف رجل برئاسة الجنرال الانجليزي هيكس اقليم كردفان حيث كانت قوات المهدي الاساسية . وكان خمسة آلاف جمل تحمل امتعة الضباط وذخائر الجيش . وقد تجلى طابع الحركة المهدية الشعبي في كون محمد احمد المهدي كان يعرف عن كل خطوة يخطوها جيش هيكس بينما لم يعرف هذا عن اقتراب قوات الجيش المهدي الرئيسية . في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٣ ، ابيد جيش هيكس كليا في معركة العبيد . وفي غمرة المعركة قتل مئات من الجنود المصريين ممن اسرهم الانجليز بعد هزيمة جيش عرابي وضموا بالقوة الى جيش هيكس . وهكذا حاول المستعمرون البريطانيون ان يستولوا من جديد على السودان بايدي المصريين مستعدين المسلمين في بلد على السكان المسلمين في بلد آخر . وفي معركة العبيد قتل الجنرال هيكس وحاكم السودان آنذاك علاء الدين باشا . وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٨٤ سحق المهديون جيشا من ١٠ آلاف رجل بقيادة بيكر حاول ان يشق طريقا لنفسه الى ام درمان .

ونحو اوائل ١٨٨٤ لم يبق تحت رقابة الادارة الانجلو - مصرية سوى وادي النيل وقسم من السودان الجنوبي والخرطوم وام درمان .

وفي هذا الوضع حاول المستعمرون البريطانيون القيام بانعطاف حاد في السياسة السودانية . فقد سعوا الى حمل الحكومة المصرية الكركوزية على الموافقة على سحب بقايا الجيش المصري وجهاز الموظفين «موقتا» من السودان وعلى تعيين الجنرال الانجليزي غوردون مرة اخرى في منصب الحاكم العام مع منحه صلاحيات استثنائية .

وعندما وصل غوردون الى الخرطوم في كانون الثاني (يناير) ١٨٨٤ صرح بناء على توجيهات من لندن ، باستعداده لاعلان استقلال السودان عن مصر ، ونشر بيانا يتضمن نقدا للادارة «التركية» وشرع في تحقيق مشروع يتلخص في تقسيم السودان الى

قسمين . وحسب المشروع كان من المرتـــأى ان يصبح شمال السودان سلطنة دارفور – كردفان ، وان يتحول الجنوب النيلى الى كيان خاص تحت رقابة الانجليز . وهكذا حســـب المستعمرون البريطانيون ، بمعارضة الشمــــال والجنوب احدهما بالآخر ، ان يكبحوا عملية تكوين شعب سودانى واحد وان يؤزموا التناقضات السودانية المصرية ويحتفظوا بالتـــالى بسيادتهم على السودان . ونظرا لتعاظم وتوطد نفوذ المهديين ومكانتهم فى القسم الشمالى من السودان ، وجه غوردون رسالة الى المهدى عرض فيها عليـــه ، لغايات استفزازية ، تاج سلطنة كردفان او سلطنـــة دارفور – كردفان .

حزر المهديون خطط الانجليز الاستفزازية وسحقوا الفصائـل الانجليزية القادمة لنجدة غوردون وطوقوا الخرطوم فى تشريــــن الاول (اكتوبر) ١٨٨٤ .

فى غضون هذه الحقبة كلها ، اجرى محمــــد احمد المهدى اصلاحات جدية فى السودان ، محققا فى الواقع جزئيا المبادىء التى اعلنها عن «العدالة الاسلامية» . ووجه رسله الى حكام تونس والجزائر واليمن المسلمين ، وتراسل مع شريف مكة . وعندمـــا كان المهدى فى كردفان ، صرح ان النبى محمـــد امره بان يقوم بالوعظ فى الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة والقدس وطهران . ان هذا التصريح يتسم باهمية كبيرة ، لانه يؤكد الرأى المذكور اعلاه بصدد الطابع الاسلامى الشامل لحركة المهدى . وانها لطريفة رغبة السنى محمد احمد فى القيام بالوعظ فى جامع طهران الشيعى رغم ان المستعمرين البريطانيين بذلوا فى القرنين الثامــــن عشر والتاسع عشر جهودا هائلة لاجل تأزيم الخلاف الشيعى السنى .

فى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٨٨٥ استولى جيش المهدى على الخرطوم بهجوم صاعق . وفى سياق المعركة الطاحنة الدامية ، قتل غوردون . ان المستشرقين الغربيين يدعمون بكل جهد الصيغـــة الزاعمة ان المهديين قد اسروا غوردون ثم اعدموه بعـــد انزال عذابات رهيبة بـــه . ان هذا الزعم مثال ساطـــع على دعايـــة المستعمرين ضد الاسلام والمسلميـــــن . اما فى الواقع ، فان المهدى قد امر بالقبض على غوردون حيا لانـــه اراد ان يعرض على

المستعمرين البريطانيين مقايضته بأسيرهم عرابى باشا . وهكذا تنهار خرافة اخرى عن كره المهديين الاعمى للمصريين : فان زعيم الدولة السودانية الاسلامية الدينية قد اراد ان يحرر ، باى ثمن كان زعيم انتفاضة التحرر الوطني للشعب المصرى ، وذلك بدافع التضامن الاسلامى الذى كان آنذاك يتسم بطابع ساطع من العداء للاستعمار .

بعد طرد القوات الاستعمارية البريطانية نهائيا من السودان ، تحول السودان الى دولة اسلامية مستقلة احدث تأسيسها وانتصاراتها على قوات اقوى دولة استعمارية – بريطانيا العظمى – انطباعا كبيرا فى عموم العالم الاسلامى .

في حزيران (يونيو) ١٨٨٥ توفى المهدى . وانتقلت قيادة الدولة الى اقرب معاونيه ، عبد الله ، واتخذ عبد الله لنفسه لقب «الخليفة» . وقد خفضت الضرائب فى البلاد ، وبدأ تأليف جيش من الفلاحين والرحل ، وبناء مصانع صغيرة وترسانات بدائية . وفى ام درمان بنى مدفن مهيب للمهدى لكى يحج المسلمون اليه .

وقد خشى الامبرياليون البريطانيون ، وليس بدون مبرر واساس من ان يؤدى تأسيس دولة اسلامية مستقلة فى السودان الى اشتداد مقاومة الشعوب المقهورة والمستضعفة وشعوب الشرق خصوصا لسياستهم الاستعمارية . فعلى تخوم القرن العشرين بالذات اشتدت الامزجة والحركات المعادية للاستعمار فى ايران والمناطق العربية من الامبراطورية العثمانية (بما فيها مصر) ، والاقليم الشمالى الغربى من الهند البريطانية الذى يسكنه البوشتى والذى فصله المستعمرون البريطانيون عن افغانستان فى سنة ١٨٩٣ . وبدأوا فى لندن يرسمون الخطط لخنق الدولة المهدية تدريجيا ثم لسحقها عسكريا . وتدل الوثائق الارشيفية ان الاختصاصيين الاوروبيين العاملين فى خدمة الخليفة عبد الله كانوا يقومون بدأب وانتظام باعمال تخريبية باشارة من مصلحة التجسس البريطانية . واخذ العملاء البريطانيون يثيرون بلا انقطاع النزاعات بين القبائل النيلية فى جنوب السودان وبين القبائل العربية فى شمال السودان ، محاولين بجميع الوسائل تعقيد العلاقات بين

القبائل النيلية واتحاد البكاره القبلى الكبير الذى كان الخليفة عبد الله متحدرا منه .

فى سنة ١٨٨٧ تسنى للامبرياليين البريطانيين استثارة نزاع مسلح كبير بين السودان والحبشة بسبب ارض بوغوص الملاصقة لاهم مركز فى السودان الشرقى — كسلا . والآن ايضا ، بعد مرور زهاء ١٠٠ سنة ، تحاول مصلحة المخابرات المركزية الاميركية ووزارة الخارجية الاميركية بدأب واصرار تطبيق الاسلوب ذاته .

ومع تأجيج نيران الخصومات القومية والقبلية فى السودان بجميع الوسائل ، ادلى العملاء البريطانيون قدرا كبيرا من الاهتمام لتأزيم التناقضات الناشئة فى البلد حول تفسير القرآن الكريم وعدد من المبادىء الاساسية فى الحركة المهدية . وركز المستعمرون انتباههم على القسم اليمينى ، الاشد محافظة من رجال الدين ، الذى كان يحيط بالخليفة . وتحت ضغط هذا القسم بالذات ، صدرت قوانين تمنع ، تحت طائلة العقاب بالموت ، نقد آراء المهدى وخلفائه ، واى تفسير مجازى للقرآن الكريم . وكل هذا عقّد الوضع فى السودان .

فى سنة ١٨٩٦ شرع المستعمرون البريطانيون يقتحمون السودان بعد ان بذلوا قصارى جهدهم لعزله وتأزيم علاقاته مع جيرانه وتعميق التناقضات والخلافات فى داخله الى حد كبير .

وقد اسهم حدثان كبيران فى اتخاذ القرار فى هذا الوقت بالذات . فان الحرب الايطالية الحبشية التى بدأت فى سنة ١٨٩٥ قد انتهت بهزيمة ماحقة منيت بها القوات الايطالية فى معركة دامية بجوار عدوى فى اول آذار (مارس) ١٨٩٦ . وقد ادركوا فى لندن ان هزيمة دولتين استعماريتين خلال عشر سنوات فى افريقيا الشمالية الشرقية ستؤدى الى نمو حركة العداء للامبريالية سواء فى افريقيا ام فى الشرق الاوسط .

الحدث الثانى الذى حمل الامبرياليين البريطانيين على الشروع فى اقتحام السودان فى سنة ١٨٩٦ ، هو ان المستعمرين الفرنسيين ارسلوا فى تلك السنة من منطقة حوض نهر اوبانغى فصيلة كبيرة بامرة النقيب مارشان كان عليها ان تشق طريقا

لنفسها عبر منطقة تشاد الى السودان الجنوبي نحو فاشودا . وكان من شأن ذلك ان يسدد ضربة قوية جدا الى تحقيق خطط طواغيت السيتى البعيدة المدى .

ولهذا اقتحم جيش انجلو - مصرى كبير بامرة الجنرال البريطانى كيتشنر السودان فى سنة ١٨٩٦ . وكان الجيش مسلحا ببنادق سريعة الطلقات ، ورصاصات متفجرة وآخر مستحدثات التكنيك الحربى - الرشاشات من طراز «مكسيم» . ومع زحف جيش كيتشنر كان رجال سلاح الهندسة البريطانية يبنون بوتائر محمومة سكة حديد من مصر الجنوبية الى السودان الشمالى . ونحو اعالى النيل انطلقت المونيطورات (ضرب من السفن المدرعة) والنسافات لتنقل المدد وتقصف المقامات السكنية على ضفاف النهر بالمدافع . وفى ٢ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٨ اقترب جيش كيتشنر من عاصمة الدولة المهدية ، مدينة ام درمان ؛ وهناك جرت معركة عامة استخدم فيها المستعمرون البريطانيون الرشاشات والمدافع السريعة الطلقات من طراز «هوتشكيس» فأبادوا اكثر من ٢٠ الفا من الجنود المهديين الذين كانوا يهاجمون الرشاشات والمدافع صفوفا متراصة مزدرين الموت . واستولى المعتدون على ام درمان واهانوا ودنسوا قبر المهدى الذى كان يجله ملايين المسلمين بعيدا خارج السودان ، ونثروا رفاته فى الريح ، نظرا لبالغ خوف الامبرياليين حتى امام المهدى ميتا .

بعد هزيمة المهديين ، وقع المستعمرون البريطانيون فى سنة ١٨٩٩ مع دميتهم الخديوى المصرى اتفاقية بشأن اقامة ما يسمى بالكوندومينيوم الانجلو - مصرى فى السودان . وكان الكوندومينيوم يختلف عن الحكم الاستعمارى المباشر بواقع ان نفقات الحكم فى السودان كانت تتحملها مصر ، بينما كانت المداخيل تتدفق على الخزينة البريطانية وعلى صناديق الاحتكارات البريطانية التى جعلت من مصر والسودان الموردين الرئيسيين للقطن الناعم التيلة . ان بناء آلية الكوندومينيوم الفطنة قد عقد زمنا طويلا العلاقات بين مصر والسودان واعطى المستعمرين البريطانيين «مبررات» اضافية لاجل ابقاء رقابتهم على البلدين المسلمين ، اولا ، بحجة الاشتراك فى الكوندومينيوم وثانيا ، لاجل

«تسوية العلاقات المصرية السودانية» . ولم يتخلص الشعب السودانى من قبضة المستعمرين البريطانيين الا فى سنة ١٩٥٦ . ولكن البذور السامة التى بذروها – بذور النزاعات القومية والقبلية والدينية والاقليمية – لا تزال الى الآن تسمم العلاقات بين السودان وجيرانه ، وتخلق احيانا كثيرة وضعا متوترا داخل السودان .

هذا هو الاثر المشؤوم الذى تركه المستعمرون البريطانيون فى تاريخ اكبر بلدين اسلاميين بغالبية سكانهما فى افريقيا الشمالية الشرقية واكبر بلدين فى عموم العالم العربى – مصر والسودان .

٣ – المستعمرون الفرنسيون فى تشاد

بعد التنكيل الدموى بالمهديين فى ام درمان ، اسرع كيتشنر على الفور الى الجنوب باتجاه فاشودا الواقعة فى اواسط النيل الابيض ، وكانت فصيلة مارشان قد وصلت فى حزيران (يونيو) ١٨٩٨ الى فاشودا ، تنفيذا للمهمة التى عهدت اليها باريس بادائها ، ورفعت هناك العلم الفرنسى . ونشب نزاع انجلو – فرنسى حاد جدا كان الطرفان فى اثنائه ، كما قال لينين ، «على قيد شعرة من الحرب» (٨) . وكان المقصود السيادة على منطقة مهمة للغاية فى افريقيا الشمالية الشرقية ، والخطط المحاكة فى لندن منذ زمن بعيد بشأن تأسيس الامبراطورية الافريقية من دلتا النيل الى رأس الرجاء الصالح . وفى الوضع الدولى الملموس فى اواخر القرن التاسع عشر ، اضطر المستعمرون الفرنسيون الى التراجع . واضطرت فصيلة مارشان الى مغادرة فاشودا . وفى ٢١ آذار (مارس) ١٨٩٩ تم التوقيع على اتفاقية انجلو – فرنسية منحت بريطانيا العظمى كل حوض النيل الذى يقطنه ملايين المسلمين ، ومنحت بالمقابل المستعمرين الفرنسيين الامكانية لكى يوحدوا فى كل واحد مستعمراتهم فى افريقيا الشمالية والغربية والاستوائية ، التى يقطنها كذلك ملايين المسلمين . وبما ان الحد الفاصل منح الفرنسيين «الحق» فى رقعة شاسعة من الاراضى تمتد من بحيرة

تشاد الى الشرق حتى اقليم كردفان السودانـــى ، والى الشمال ، حتى حدود البرقة (ليبيا حاليا) ، فقد قرر المستعمرون الفرنسيون ان ينفذوا هذه الخطط على الفور ، بغية توسيع حدود مستعمرتهم المقبلة تشاد اقصى ما يمكن .

ان تسليط النور على الملحمة المخزية المتعلقة بفتح تشاد فى اواخر العقد العاشر من القـــرن التاسع عشر ، والتى اخفاهـــا المستعمرون الفرنسيون ولزموا الصمت عنها بكل دقة وعناية يتسم باهمية خاصة فى الوقت الحاضر ، اذ يحـــول المستعمرون الجدد الاميركيون والفرنسيون تشاد الى رأس جسر لاجـــل العدوان على ليبيا وسائر البلدان الاسلاميـــة فى افريقيا الشمالية والشمالية الشرقية .

على تخوم العقدين التاسع والعاشر من القرن التاسع عشر كانت تقوم فى اراضى تشاد التى تتسم باهميـــــة ستراتيجية كبيرة السلطنتان الافريقيتان القديمتان باغيرمى وكانـــم ، وسلطنة دار القوتى الجديدة التى كان يرأسها شيخ طائفة السنوسيين الدينية السياسية النافذة محمد السنوسى وسلطنة بورنو الجديدة التـــى صار رباح حاكمها ، وهو الذى سبق له ان اشترك بنشاط فـــى انتفاضة البكاره فى السودان . ونتيجة لانتصارات المهديين فـــى جميع سلطنات تشاد قوى نفوذ الاسلام كثيرا . وفى سنة ١٨٩٩ ارسل المستعمرون الفرنسيون لفتح تشاد ثلاث فصائـــل كبيرة — من جنوب الجزائر ، والكونغو الفرنسى ، والنيجر . وقد عهـــد بقيادة الفصيلة الثالثة المسماة «افريقيـــا الوسطى — تشاد» الى الضابطين الشابين فوله وشانوان . ان تاريـــخ «مآثرهما» على درجة من الخزى والعار بحيـــث ان السلطات الفرنسية منعت حتى اواسط القرن العشرين ضمنا اصدار الكتـــب التى كانت تسلط النور جزئيا عليها . ولم يتسن الا للعالم الفرنسى التقدمى المعروف جان سوريه-كانال فى كتابـــه المنشور سنة ١٩٥٨ «افريقيا الغربية والوسطى» ان يكشف صفحة من اقتم الصفحـــات فـــى السياسة الاستعمارية الفرنسية .

فقد اقترفت فصيلة فوله وشانوان فى زحفهـا من النيجر الى الشرق جرائم فظيعة ، فقد قتلت بوحشية آلاف الافريقيين واحرقت

عشرات المقامات السكنية وابادت المواشي والمبذورات . وبناء على امر من فوله ، كان على جنود الفصيلة ان يقدموا كل مساء ، كدليل على مآثرهم ، الايدى المفصولة عن جثث الافارقة المقتولين .

وبما ان القبائل الافريقية ، وبخاصة منها القبائل الاسلامية ، واجهت الغزاة بمقاومة ضارية ، فقد كانت الفصيلة تتقدم ببالـغ البطء ، كما ان المعلومات عن جرائم فولـه ومعاونه الرئيسى شانوان بلغت فرنسا . فصدرت الاوامر الى السلطات الفرنسية فى النيجر بان ترسل على جناح السرعـة المقدم كلوب لكى يدرك الفصيلة «افريقيا الوسطى – تشاد» ويترأسها ويعاقب فولـه وشانوان ، لا على ما اقترفاه من مآثم وحشية بحق الافارقة ، بـل على ان «هـذه التطرفات قد خففـت من وتيرة تقدم الفصيلة الفرنسية» .

وكانوا يخشون فى باريس من ان يتسنى للانجليز الذيـن يشتغلون برسم حدود السودان ان يستولوا على قسم من تشاد . وبما ان فوله وشانوان فهمـا ما يتهددهما ، فقد حاولا بعناد واصرار «الانفصال» عن كلوب الذى كان يوشك ان يلحق بهما . ويشهد مينيه ، معاون كلوب ، على انهم ، فى السير على اثـر الفصيلة ، كانوا يكتشفون ان «القرى المحروقة والعظام البشريـة المنثورة تفقأ العين فى كل مكان» (٩) . وقد ابادت فصيلة فوله مدينة برينين – كونى ، وذبحـت سكانها ، وعددهم ١٠ آلاف نسمة ، كانت اغلبيتهم من المسلميـن . وفى ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٩ ، فى يوم العيد الوطنى الفرنسى ، لحق كلوب ومينيـه اخيرا فصيلة فوله قرب قرية دانكورى . وهناك قتل المقدم كلوب وجرح مينيه بامر من فوله . وبما ان فوله وشانوان ادركا انهما صارا خارج القانون ، فقد قررا ان يؤسسا مملكة خاصة بهمـا بالتعويل على تأجيج نيران الخصومة والخلاف بيـن الارواحييـن والمسلمين من الافارقة . ولكن هذين اللصين المجرمين فـى لباس الضباط لقيا مصرعهما بعد ثلاثة ايام نتيجـة تمرد فى الفصيلة .

ومع ذلك استمر هجوم المستعمرين الفرنسيين على تشاد مـن بضع جهات . وفى الوقت نفسه ، استثار العملاء الفرنسيون نزاعا

بين سلطنة كانم القديمة وسلطنة بورنـــو الجديدة التى كان يترأسها خصم المستعمرين الانجليز فى البدء ثم خصم المستعمرين الفرنسيين ، رباح التابع المخلص للمهدى . وفـى نيسان (ابريل) ١٩٠٠ منيت قوات رباح بالهزيمة فى معركة كوسرى ، ونقـــل الضباط الفرنسيون رأسه المقطوع بصورة غنيمة . واصبح تشاد مستعمرة فرنسية .

ولكن المقاومة فى وجه المستعمرين الفرنسييـن استمرت فى منطقة الحدود بين تشاد والسودان ، حيث كانت تقوم سلطنـــة واداى الاسلامية . وفى سنة ١٩٠٩ فقط ، بدأ يخفق العلم الفرنسى فوق عاصمتها ابيشه ، كما ان السلطنة ضمـــت الى مستعمرة تشاد . وفى سنة ١٩٦٠ اضطر المستعمرون الفرنسيون الى منـــح تشاد الاستقلال . ولكن ، فى سنـــــة ١٩٨٣ ، نزل المظليون الفرنسيون ثم المظليون الاميركيون ، لا فى عاصمة الدولـــــة الافريقية المستقلة نجامينه وحسب بل ايضا فى مدينة ابيشـــه الاسلامية الواقعة فى الطرف الشرقى من الدولة ، وذلك بحجـــة حماية مسلمى تشاد من ليبيا الاسلامية .

تلك هى الصلة المتبادلة الوثيقة بيـــن توسع الامبرياليين الانجليز والامبرياليين الفرنسييـــــن الاستعمارى ضد الشعوب الاسلامية فى افريقيا الوسطى وافريقيا الشمالية الشرقية فى القرن التاسع عشر ، وبين التوسع الاستعمارى الجديـد لاوساط الناتو الحاكمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركيـــــة ضد البلدان المستقلة فى هذه المنطقة فى النصف الاول من الثمانينيات فـــى القرن العشرين .

تحويل الخليج العربى الى رأس جسر للعدوان على شعوب الشرق الاوسط

١ – السياسة الاستعمارية لبريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر

يقع الخليج العربى بين مراكز فى غاية الاهمية للحضارة العالمية احواض البحر الابيض المتوسط والنيل والبحر الاحمر ، من جهة ، وحوض دجلة والفرات وساحل افريقيا الشرقية ، والقسم الغربى من المحيط الهندى ، من جهة اخرى ، – على ملتقى الطرق التجارية بين شرقى البحر الابيض المتوسط والشرق الاوسط وآسيا الجنوبية والشرق الاقصى . وقبل ذاك بالفين وخمسمئة سنة ، فهم مؤسسا امبراطورية الفرس قورش وقمبيز ، اهمية هذه العوامل فهما جيدا . كذلك اخذها بالحسبان اسكندر المقدونى فوجه اسطول الاميرال نيارك الى الخليج العربى لاجل بسط الرقابة عليه .

بعد ظهور الاسلام ، وقيام الخلافة ونشوء دولة الامويين ودولة العباسيين ، تعاظمت اهمية هذه المنطقة اكثر من ذى قبل ، اذ يقع فيها مركزا الاسلام المقدسان مكة المكرمة والمدينة المنورة وعاصمة الامويين دمشق وعاصمة العباسيين بغداد . وقد استطاع التجار المسلمون ، بالاعتماد على مواقعهم فى الخليج العربى ، ان يشغلوا وضعا سائدا فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب . ولهذا السبب بالذات حاول الغزاة الاسيويون ولا سيما جنكيز خان وتيمورلنك ثم المستعمرون الاوروبيون – البرتغاليون والهولنديون والانجليز – ان يفرضوا رقابتهم على منطقة الخليج العربى . وبقدر ما كان المستعمرون البريطانيون يبسطون رقابتهم على هندوستان ومصر والسودان ويعززون مواقعهم الى اقصى حد فى الامبراطورية العثمانية ، كانوا يولون الخليج العربى قدرا اكبر فاكبر من الانتباه والاهتمام مسترشدين ، لا بالمصالح الاقتصادية

وحسب ، بل ايضا بالاعتبارات السياسية والستراتيجية ، وقد بذل قادة شركة الهند الشرقية – «بناة» الامبراطورية الاستعمارية البريطانية – كل جهدهم لبسط الرقابة ، لا على التجارة وحسب ، بل ايضا على مراكز الاسلام الدينية ، واضعاف مقاومة الدول الاسلامية وامارات القسم الشمالى الغربي من هندوستان والشرق الاوسط وافريقيا الشمالية الشرقية والشرق الادنى والجزيرة العربية فى وجه خططهم لغرض هيمنتهم وسيادتهم .

فى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر اخذت السياسة البريطانية فى حوض الخليج العربى تكتسب وجهة معادية للاسلام بكل سفور . وقد بذل ممثلو شركة الهند الشرقية الرسميون وعملاؤها السريون قصارى جهدهم لتأزيم الوضع فى هذه المنطقة لكى يعقدوا وضع الدول والامارات الاسلامية الواقعة هناك او المرتبطة بها وييسروا توطيد النفوذ البريطانى فى العالم الاسلامى بجميع الوسائل واقصى ما يمكن .

بذل المستعمرون البريطانيون الكثير من الجهود لاثارة نزاع جديد بين الامبراطورية العثمانية وايران الزندية ولاستغلال هذا النزاع من اجل توطيد مواقعهم ، لا فى البصرة وحسب ، بل ايضا فى بغداد . واخذ العملاء البريطانيون يتدخلون بوقاحة فى العلاقات بين الحكام الزنديين فى شيراز وشيوخ القبائل العربية فى خوزستان والساحل الشرقى من الخليج العربى . ولم يكتف العملاء والتجار والديبلوماسيون البريطانيون بالدسائس والمؤامرات مع شيوخ اتحاد كعب بل عملوا بدأب وانتظام على تقويض مكانة ونفوذ الزنديين فى بوشير وبندر ريغ وبندر عباس وهرمز .

ومنذ اواسط القرن الثامن عشر بدأ حكام شركة الهند الشرقية يولون الدولة العثمانية اهتماما خاصا ، بعدما سبق لها ان اقصت البرتغاليين من مسقط فى سنة ١٦٥٠ . وفى اواخر النصف الاول من القرن الثامن عشر (١٧٣٧–١٧٣٨ ، ١٧٤١–١٧٤٣) ، احتلت قوات شاه ايران نذير عمان مرتين مستخدمة اثناء حملة الفتح الاولى السفن الحربية الهولندية . ان فرض الرقابة الايرانية على مسقط وتوطد مواقع الهولنديين على هذا الاساس سواء فى ايران ام فى عمان ، اقلقا ادارة شركة الهند الشرقية اقصى القلق .

ولهذا اتخذ ممثلوها فى النصف الثانى مـــن القرن الثامن عشر التدابير لتأزيم العلاقات بين ايران وعمان التى استعادت استقلالها بعد اغتيال ندير . وقد نجمت هذه السياسة عـن المخاوف من ان يتمكن الزنديون من استخدام الاسطـول العمانى لاجل نقل القوات الى البصرة والبحرين ولاجل بعث نفوذهم المهيمن فى عموم الساحل الشرقى من الخليج العربى .

ولهذا ، كما تدل وثائق ارشيف الهند الوطنى ، عمد المقيـم البريطانى فى بوشيـر ، فور استئناف العلاقات البريطانيـة الايرانية ، الى تقديم نصيحة استفزازية لكريم خان زند فى سنـة ١٧٦٩ ، مفادها مطالبة امام عمان احمد بن سعيد ، مؤسس سلالة بوسعيد الجديدة ، باستئناف دفع الجزية التى كان يدفعهـا حكام عمان فى عهد ندير شاه . وقد بلغت النصيحـة هدفها ، اذ ان الامام احمد لن يرفض قطعا دفع الجزية وحسب ، بل بدأ كذلـك يدعم باسطوله بنشاط وفعالية الاتراك والشيوخ العرب ، اعداء كريم خان . ومن جراء نشاط العملاء البريطانيين فى الخليـج العربى ، دارت فـى سنوات ١٧٧٣-١٧٧٦ رحى معارك بحرية حقيقية بين اسطول عمان وسفن اتباع كريم خان العرب . وفى سنة ١٧٧٤ ، كان الممثل الرسمى لشركـة الهند الشرقية فى البصرة صاحب المبادرة الى العمليات المشتركـة التى قام بها الاسطول التركى والاسطول الايرانى بدعم من السفن الحربية البريطانية ضد عمان . ولكن البريطانيين قاموا فى اللحظـة الاخيرة بمناورة استفزازية ، فقد اقنعوا الاتراك بالعدول عـن الاشتراك فى هذه الحملة ، فحلت الهزيمة بالاسطول الايرانى الضعيف ، وتأزمـت العلاقات العمانية الايرانية من جديد الى اقصى حد (١) .

فى سنة ١٧٧٦ سدد الايرانيـون ضربـة خطيرة الى الخطط البريطانية ، وذلك حين استولت قوات الزنديين بالتعاون مـع فصائل اتحاد قبائل كعب العربيـة ، على البصرة ، فاضطرت شركة الهند الشرقية الى اجلاء محطتها التجارية مـن هذا المركز التجارى فى الخليج العربى ، والى تحويل بوشير مـن جديد ، بالتزلف الى كريم خان بالهدايا والتنازلات ، الى مركـز للنشاط التجارى والسياسى فى الخليـج . وفى الوقت نفسه ، واصـل العملاء

البريطانيون نشاطهم الرامى الى تقويض النفوذ الايرانى فـــــى الساحل الشرقى من الخليج . وقد اشتد هـذا النشاط على الاخص بعد موت كريم خان فى سنة ١٧٧٩ ، وبعد تأزم الصراع من اجل السلطة فى ايران من جديد .

وقد حاول عملاء وممثلو شركة الهند الشرقية ، باستغلال هذا الوضع بجميع الوسائل ، ان يعززوا مواقع الشركة فى بوشير وفى منطقة بندر عباس . وقد تدخلوا بنشاط فى العلاقات المتبادلـــة بين السلطات الايرانية والسلطات التركية فى العراق العربى حيث تأزم الصراع من جديد من اجل البصرة ، مستغلين شيوخ قبيلـــة المنتفك العربية ضد الحكام الايرانيين ، ومستغلين شيوخ اتحاد قبائل كعب ضد الاتراك .

ولكن المستعمرين البريطانييـــــن اخذوا يولون دولة عمان بسبيل الاستقواء قدرا اكبر فاكبر مــن الانتباه والاهتمام . وفى هذه المرحلة كانت دولة عمان قد تعافت كليا من عواقب السيادة الايرانية . واصبح اسطول عمان اقوى اسطول بين الاساطيـــل التجارية والحربية غير الاوروبية ، لا فى الخليج العربى وحسب ، بل ايضا فى بحر العرب . وبعث ائمة عمان سلطتهم على زنجبـار والمدن الميناثية فى افريقيا الشرقية . واشتركوا بقسط فعال جدا فى العمليات التجارية الجارية بين مرافىء الهند الغربيــة وافريقيا الشرقية والبحر الاحمر والخليج العربى . ومـــن وجهة نظر مدراء شركة الهند الشرقية ، غدت عمان قوية اكثر مــن اللزوم . ثم ان موقف المستعمرين البريطانيين هذا نجم عن اعتبارين آخريـــن ايضا . ففى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر خاضت قوات شركة الهند الشرقية حروبا دامية من اجل اخضاع الهند الجنوبية والوسطى مع الامراء الماراتهات وحكام ميسور . وقد كان حكام ميسور اعداء معاندين بخاصـــــة للمستعمرين البريطانيين . وفى الحربيـــــن الانجليزيتين الميسوريتين الاولى والثانية (١٧٦٧-١٧٦٩ ، ١٧٨٠-١٧٨٤) ، منيت القوات البريطانية بهزائم خطيرة . وحتى فــى حاصل الحرب الثالثة (١٧٩٠-١٧٩٢) ، لم يستطع البريطانيون ، رغم الانتصارات التى احرزوها بثمن باهظ ، ان يسحقوا نهائيــا حاكم ميسور تيبو سلطان .

فى تلك الحقبة بالذات ، اقام حكام ميسور صلات وثيقة مع ايران وعمان . وفى سنة ١٧٧٤ ارسل حاكم ميسور حيدر على سفارة فوق العادة الى كريم خان زند فى شيراز مع عرض بعقد حلف عسكرى وسياسى ينبغى تعزيزه بزواج سلالى ومع منح ميسور قاعدة دائمة فى بندر عباس ، والتعهد بارسال اسطول ميسور الى الخليج العربى لاجل توطيد المواقع الايرانية فيه .

ثم ان توطيد الاتصالات بين حيدر على ، وفيما بعد بين ابنه تيبو سلطان وبين حكام عمان كان اشد ازعاجا وتنغيصا لشركة الهند الشرقية . ومنذ سنة ١٧٧٦ كان فى مسقط سفير دائم لميسور خصص له حكام محليون مقرا خاصا . وبموجب اتفاقية خاصة نالت ٦ سفن ميسورية الحق فى زيارة مرافىء عمان سنويا لغايات تجارية . وكل هذا حدث فى مرحلة اعداد وشن الحرب الثانية والثالثة من قبل البريطانيين ضد ميسور . ان توطد العلاقات بين الد عدو للبريطانيين وبين الزنديين الذين كانت علاقاتهم مع شركة الهند الشرقية قد تردت ، وبخاصة بينه وبين عمان ، قد استثار مخاوف شديدة للغاية بين البريطانيين لأن ذلك كان يمكن تيبو سلطان من شق الحصار البريطانى وتلقى المدد والمؤن والدعم من الخارج . واننا لنفهم بنحو افضل واوضح مخاوف مدراء شركة الهند الشرقية اذا اخذنا بالحسبان ان تيبو سلطان كان يقيم علاقات مع عدو بريطانيا الرئيسى فى تلك الحقبة ، عنينا به فرنسا ، وان ممثلى فرنسا قد استطاعوا ان يقيموا اتصالا مع عمان ايضا فى تلك الحقبة .

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، توطدت مواقع فرنسا فى الخليج العربى كثيرا . فمنذ سنة ١٧٦٥ كان يتواجد فى البصرة على الدوام مقيم فرنسى برتبة قنصل ، وفى الوقت نفسه تقريبا ، ظهر فى بغداد اسقف كاثوليكى ، فرنسى بحكم التقاليد ، كان يؤدى «بموجب تعدد الوظيفة» ، وظائف القنصل الفرنسى . واخذ الممثلون الفرنسيون يعززون نفوذ فرنسا فى عمان بالاعتماد على مواقعهم فى بغداد والبصرة وبالاستفادة من جزيرة موريس التى تخصهم ، وكانت فرنسا تتواجد دوريا فى علاقات تحالفية مع ميسور ، وكان الضباط الفرنسيون يساعدون فى تعزيز جيش ميسور ، وبخاصة

مدفعيته التى سحقت قوات شركة الهند الشرقية بنجـاح . واخذت الاوساط الحاكمة البريطانية تتبع بحذر مشتد ابدا توطد العلاقات بين عمان وميسور ، وتعاظم النفوذ الفرنسى فى عمان .

وكل هذا اكتسب اهمية خاصة بعد الثورة الفرنسية وبدايـة الحرب بين بريطانيا وفرنسا الثوريـــة فى سنة ١٧٩٣ . ويحتفظ ارشيف الهند الوطنى تقارير من القناصل البريطانييـن والممثلين التجاريين البريطانيين وعملاء شركة الهند الشرقيـــة والجواسيس البريطانيين من مدن عديدة مـــن الامبراطورية العثمانية وايران وبلدان الخليج العربى . وهذه التقارير تؤكد القلـق البالغ الذى استحوذ على المستعمرين البريطانيين حين اقام فى هذه المنطقـــة خلال سنوات ١٧٩٣-١٧٩٨ عالمـا الطبيعيات الفرنسيان البارزان بروجيير واوليفيــــه اللذان ارسلتهما الى هناك حكومة فرنســا الثورية لاجل توطيـــــد العلاقات الاقتصادية واقامة الاتصالات السياسية . وقد أثبت الجواسيس البريطانيون انه كان يتعين على البعثة الفرنسية فى عداد مهماتها الكبيرة ، ان تقنــع حاكم ايران الجديد آغــا محمـــد ، مؤسس سلالة قاجـــار ، بالاستيلاء على البصرة ، وبعث السيادة الايرانية فى بندر عباس ومنح فرنســا الحق فى تحويـــل بندر عباس الى نقطـــة ارتكاز لفرنسا فـــى الخليج العربى . وفى الوقت نفسه قام الفرنسيون بمحاولات لاقناع سلطان عمان بالسماح لهم بتأسيس منصب مقيم فى مسقط ، الامر الذى فشل البريطانيون فى نيله من قبل (٢) .

وفى الثمانينيات ، قرر قادة شركـــة الهند الشرقية فى لندن وبومباى ان يتخذوا احزم التدابير للحيلولـــة دون توطد اقدام فرنسا فى الخليج العربى ، ولتحاشى احتمال انشـاء حلف ثلاثى — فرنسى ميسورى عمانى — موجـــــه ضد المصالح الاستعمارية لبريطانيا العظمى . وفى الوقت نفســـه تقرر تسديد الضربات الى فرنسا ، فى اوروبا وفى الهند وفى البحر الابيض المتوسط وفى المحيط الهندى ، والى تيبو سلطان والى عمان . وحتى الآونـــة الاخيرة كان البحث يتناول السياسة البريطانية فى الخليج العربى بصورة منفصلة عنها فى الهند . ولم تكن الارشيفات البريطانيـــة المتعلقة بنشاط شركة الهند الشرقيـــة الهدام ضد عمان فى منال

الباحثين ، ولهذا فان دور المستعمرين البريطانيين فى حدث من اكبر الاحداث الفاجعة فى تاريخ عمان ، فى حدث لا تزال شعوب القسم الشرقى من الجزيرة العربية تعانى من عواقبه الى الان ، قد ظل مخفيا ، غير معروف . والمقصود هنا تجزئة دولة عمان القديمة .

لقد سبق ان قلنا ان قادة شركة الهند الشرقية قد استاؤوا جدا من تحول دولة عمان الى دولة بحرية كبيرة ، لا فى الخليج العربى وحسب ، بل ايضا فى بحر العرب ، ومن تدخل حكام عمان النشيط والفعلى فى شؤون الساحلين الغربى والشرقى من الخليج العربى . ولهذا السبب بالذات ، «عكّر» العملاء البريطانيون «مياه» الخليج العربى باستثارة النزاعات بين عمان ، الامبراطورية العثمانية وبين ايران الزندية . وفى الوقت ذاته ، كانوا يتتبعون بانتباه ، بواسطة العملاء المحليين ، الوضع السياسى الداخلى فى عمان بالذات .

وبعد وفاة امام عمان احمد بن سعيد فى سنة ١٧٨٣ ، انتخب ابنه سعيد اماما جديدا ، وتبين انه حاكم ضعيف وعديم المبادرة . ولهذا اضطر فى السنة التالية ، لمناسبة الانتفاضات التى تزعمها اخواه قيس وسلطان ، ان يتخلى عمليا عن السلطة فى صالح ابنه حمد . ولكن سعيد ظل يعتبر رسميا اماما وظل يعيش فى عاصمة الامامة رستك . اما حمد بن سعيد ، فقد نقل عاصمته الى مسقط . وقد اضطلع بدور جوهرى فى اتخاذ هذا القرار التاجر الهندى رام تشاندار راودجى القائم باعمال ممثل شركة الهند الشرقية («بروكر» — سمسار ، وسيط) فى مسقط .

ان نقل عاصمة الامامة من رستك الواقعة فى وسط البلاد حيث كان تأثير التقاليد الاقطاعية القبلية الى مدينة مسقط الصاخبة التى كانت آنذاك اكبر مرافىء الخليج العربى ومرفأ من اهم المرافىء فى كل القسم الغربى من المحيط الهندى ومرفأ وثيق الصلة بالمصالح التجارية والاقتصادية وبالشركات الاجنبية ، قد كان له تأثير كبير فى مصير البلاد . فان نقل العاصمة الى مسقط المدينة الميناء ، التى كان من الممكن ان تتعرض فى كل لحظة لخطر مدافع الاساطيل الاوروبية ، قد جعل عمان اكثر تأثرا بالنفوذ

الاجنبى . وحاول عما الحاكم الجديـــد الحازمان والهمامان ، قيس وسلطان ، ان ينافساه السلطة ، ولكن عبثا . وفى سنـــة ١٧٨٤ اضطر سلطان الى الفرار الى غودار التى تخص خان كلات ، نصير الاول ، مؤسس دولة بلوجستـــــان الجبارة ، فقـدم نصير الاول منطقة غودار الى سلطان على سبيل الهدية . وهكذا سقط أهم مرفأ فى بلوجستان الجنوبية الغربية فى يد شيخ عمانى وبقى فى قوام عمان اكثر من مائة وخمسين سنة .

فى سنة ١٧٩٢ توفى حمد بن سعيد ، حاكم عمان ، فنشـــب الصراع على السلطة بيـــــن الامام الرسمى سعيد واخويه قيس وسلطان . ونتيجة الاشتباكات الدموية التى استمرت طوال سنة ، انتصر سلطان الذى استطاع ان يستولى على مسقط بمساعدة عملاء شركة الهند الشرقية ، وفيما بعد عزز مواقعه فى اهم نقاط البلاد بالاعتماد على مساندة زعيم اتحاد من اكبر اتحادين قبيلين فـــى البلاد - بنى حيناوى (الذى تشكـــــل ، مثل الاتحاد الثانى - بنى غفير - لا على اساس اثنى وحسب ، بل ايضا على اساس دينـــى وسياسى) . واثناء لقاء بيـــــن المدعين بالحكم فى بلدة برقع الميناثية الصغيرة ، تم التوصل الى قرار بعيد المدى بشأن تقسيم عمان الى ثلاثة اقسام . بقى سعيـــــد الامام الرسمى فى رستك ، وصار سلطان حاكما لمناطق عمان الساحلية مع العاصمة مسقط ، وصار قيس حاكما لمنطقة صحارى المتاخمة لمضيق هرمز .

رضى ممثلو شركة الهند الشرقية فى بومباى والخليـج العربى بالغ الرضى من هذه النتائج . ان كتاب «دليل تاريخى واتنوغرافى واحصائى عن الخليج العربى» الذى صدر بعدة مجلدات فى سنـــة ١٩٧٠ (وقد اصدره للمرة الاولى بستة مجلدات مع الختم «سرى» فى ١٩١٤-١٩١٥ الموظف البارز فى الادارة الاستعمارية الانجلو هندية لوريمر) يقيم على المكشوف نتائج المداولة فى برقع بانهـا تعنى تقسيم عمان (٣) .

وهكذا بمشاركة المستعمرين البريطانيين النشيطة والفعالة ، زالت من المسرح السياسى منذ سنة ١٧٩٣ دولـة عمان الاسلامية الموحدة التى دامت اكثر من الف وخمسمئة سنـــة مع انقطاعات . وفى مناطق البلاد الساحلية ظهرت سلطنة مسقط التى حكمهـــا

سلطان بن احمد من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٨٠٤ . وقام عملاء شركة الهند الشرقية بنشاط محموم فى ثلاثة اتجاهات فى آن واحد . وسعوا الى توسيع سلطة الحاكم الجديد خارج مسقط لكى يثبتوا اقدامهم فى الخليج العربى بمساعدته ، وحاولوا ان يشلوا نفوذ الفرنسيين الذين كانت لهم ، كما ذكرنا سابقا ، صلات متينة جدا مع مدن البلد الساحلية ، وحاولوا ، اخيرا ، ان يعززوا مواقعهم هناك .

فى ١٧٩٣-١٧٩٤ ، قام سلطان بن احمد ، بدعم من البريطانيين ، بعمليتين حربيتين سياسيتين كبيرتين ، فقد حمل نصير خان بدوج حاكم كلات ، على التنازل له كليا ونهائيا عن غودار ووسع ممتلكاته فى الساحل الغربى المكرانى بضم شاه بيهار اليها . وهكذا صار ساحلا خليج عمان فى يد حاكم السلطنة الجديدة . وفى الوقت نفسه تقريبا ، قام سلطان بن احمد بحملة بحرية حربية كبيرة ضد شيوخ قبيلة معن العربية الذين كانوا يراقبون فى ذلك الزمن جزيرتى هرمز وقشم اللتين لا تقلان شأنا على الصعيد الستراتيجى . وبمساعدة ممثلى شركة الهند الشرقية ، حمل فى السنة نفسها ، سنة ١٧٩٤ ، حاكم ايران الجديد آغا محمد ، الذى لم يتسنى له الوقت لتعزيز مواقعه فى الجنوب الشرقى من ايران ، على ان يؤجره ، لا الجزيرتين المذكورتين وحسب ، بل ايضا بندر عباس ومنطقة ميناب . وكانت هاتان الاخيرتان فى مرحلة ضعف سلطان الزنديين الاقصى بصفة ملك اقطاعى تحت رقابة شيوخ قبيلة معن . ومذ ذاك ، صارت فى يد حليف البريطانيين ، سلطان مسقط ، وهكذا بدأت شركة الهند الشرقية ومسقط ، اثر فرض الرقابة على خليج عمان ، تفرضان الرقابة على مضيق هرمز ، وتضعفان بالتالى المواقع الاقتصادية والسياسية للدولتين الاسلاميتين الكبيرتين بلوجستان (كلات) ولا سيما ايران .

فى اواسط العقد العاشر من القرن الثامن عشر ، قام سلطان بن احمد ، بدعم سافر من شركة الهند الشرقية ، بمحاولة لتوطيد نفوذه فى القسم الشمالى ايضا من الخليج العربى ، الامر الذى ادى الى نزاعات خطيرة فى سنة ١٧٩٧ مع شيخ بوشير الذى كان

يخضع للحاكم الايرانى فى فارس ثم للسلطات التركية فى بغداد والبصرة . وبما ان المواقع العسكرية للامبراطورية العثمانية فى العراق العربى كانت ضعيفة فى ذلك الوقت ، فقد طلب الحكام الاتراك وساطة مقيم شركة الهند الشرقية فى البصرة . وهذا بالذات ما كان يحتاج اليه البريطانيون .

فبالقيام بدور «الوسطاء الحسنى النوايا» ، عززوا نفوذهم فى العراق العربى وخففوا فى الوقت نفسه بعض الشىء من هجوم حاكم مسقط العاصف اكثر من اللزوم والذى اخذ يتقوى اكثر فاكثر ويصبح بالتالى اصعب فأصعب على التوجيه . وهذا العامل الاخير طفق يقلق المستعمرين البريطانيين قلقا شديدا لأن التفوق فى العمليات الحربية بين بريطانيا وفرنسا فى النصف الثانى من العقد العاشر من القرن الثامن عشر فى اوروبا وفى آسيا وفى البحر الابيض المتوسط وفى المحيط الاطلسى وفى المحيط الهندى كان الى جانب فرنسا . وبدأ الاسطول الفرنسى يدعم بنشاط وفعالية حليف عمان القديم ، حاكم ميسور تيبو سلطان . وفى لندن وبومباى تخوفوا جديا من ان يحاول الفرنسيون فى الوضع الناشىء توطيد مواقعهم فى مسقط ايضا ، وتقويض النفوذ الذى اكتسبته شركة الهند الشرقية ببالغ الجهد ، لا فى السلطنة الجديدة وحسب ، بل ايضا فى عموم الخليج العربى .

فى سنة ١٧٩٤ ، شرع «بروكر» (وكيل) شركة الهند الشرقية المحلى يسعى للحصول على الحق فى رفع الراية البريطانية على سفينته الراسية فى ميناء مسقط . وبعد سنتين ، وصل الملازم سكينر على متن سفينة حربية تابعة لشركة الهند الشرقية بمهمة اصيلة جدا ، فقد عهد اليه باثبات وجود الممثلين والتجار الفرنسيين فى ممتلكات السلطان . وكان عليه ، فى حال اكتشافهم ، ان يعرض على سلطات مسقط مكافأة تتراوح بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ روبية عن كل فرنسى . وبلغ العرض ٨٠٠٠ روبية عن رأس كل من الديبلوماسى الفرنسى كورشه والاباتى بوشان ، المقيم الفرنسى فى جزيرة موريس ، و«المرتد» البريطانى همفرى الذى انتقل الى جانب الفرنسيين . وقد اعلنت سلطات مسقط «لصيادى الرؤوس» البريطانيين انه لا وجود للفرنسيين فى

ممتلكات السلطان . وهذا الكذب حمل شركة الهند الشرقية على الحذر واليقظة . وبموجب المعطيات المقلقة المتلقاة فى لندن ، كان نابليون يهيىء بصورة محمومة حملة فتوحات على الشرق كان ينبغى ان يكون الاستيلاء على مصر مرحلتها الاولى ، مع الخروج بالتالى الى سواحل البحر الاحمر . فتقرر توبيخ الحليف المسقطى الذى قوى اكثر من اللزوم .

فى سنة ١٧٩٧ ، استؤنفت العمليات الحربية - وليس بدون مشاركة العملاء البريطانيين - بين سفن مسقط وسفن حاكمى الشارقة ورأس الخيمة اللذين كانت اراضيهما معروفة باسم القواسم . هذه المنطقة الواقعة على طول الساحل الجنوبى من مضيق هرمز والقسم الجنوبى الغربى من الخليج العربى ، قد اسميت فى اواسط القرن الثامن عشر باسم قبيلة القاسمى (القواسم) التى صار شيخها فى تلك المرحلة حاكم رأس الخيمة . اما الآن ، فان المنطقة هى قسم مهم جدا من الامارات العربية المتحدة . ان سكان القواسم الذين كانوا يعيشون طوال قرون من مداخيل الملاحة الساحلية وتجارة السمسرة والوساطة ، وصيد السمك واستخراج اللؤلؤ ، قد تردى وضعهم الاقتصادى الى اقصى حد . فان المستعمرين الاوروبيين وبخاصة منهم الهولنديون والبريطانيون ، - ممثلو شركة الهند الشرقية البريطانية وشركة الهند الشرقية الهولندية - اخذوا ينتزعون من عرب القواسم الملاحة الساحلية ، ويصعبون الى اقصى حد معاطاة الصيد ، ويتدخلون فى العلاقات بين القبائل ، ويقطعون العلاقات المتكونة تاريخيا بين القواسم التى كانت فى الازمان الغابرة وفى القرون الوسطى جزءا من دولة عمان ، وبين المرافىء الواقعة على جانبى مضيق هرمز وخليج عمان . وقد ازداد الوضع تفاقما بعد تشكيل سلطنة عمان التى حاولت ان تحتكر كل التجارة بين مناطق البلد الداخلية والساحل ، وبعد تقسيم عمان الواحدة الموحدة فى سنة ١٧٩٣ . جرى الاخلال بمواصلات القواسم مع مناطق البلد الداخلية ، وبخاصة مع البريمى . وفى هذه الاحوال طفق سكان القواسم الذين بلغوا حد اليأس ، يعتدون على سفن دول الخليج العربى الاخرى ، وفى عدد من الاحوال على سفن المستعمرين

الاوروبيين الذين حرموهم حقا وفعلا لقمة العيش . ومع دفع سكان القواسم الى هذا الوضع (فى مذكرة سرية عن الوضع الشاق فى القواسم ، اشار فاردن – عضو مجلس بومباى لشركة الهند الشرقية – على المكشوف الى ان البريطانيين بالذات هم المسؤولون عن ذلك (٤)) ، لم يعلنوهم قراصنة وحسب ، بل نعتوا كذلك كل اراضى القواسم – من ابو ظبى فى الجنوب الى رأس الخيمة فى الشمال – بانها «ساحل القرصنة» وهذا الاسم المهين لم يدرجه البريطانيون فى المؤلفات التاريخية وحسب ، بل ادرجوه كذلك فى الخرائط الجغرافية .

فى سنة ١٧٩٧ ، استثار المستعمرون البريطانيون نزاعا بين مسقط و«ساحل القرصنة» لكى يوبخوا سلطان بن احمد .

ان الادب الانجليزى المكرس لتاريخ الخليج العربى يصف باستياء وغضب هجوم سفن القواسم الحربية فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٧ على السفينة الحربية «فيبر» التابعة لشركة الهند الشرقية الراسية فى ميناء بوشير . الا انه يتضح من المواد التى نشرها لوريمر وحدها مثلا ان آمر «فيبر» بالذات قد زود فى ميناء بوشير اسطول القواسم بالبارود وقذائف المدفعية الضرورية لها لاجل الهجوم على مدن مسقط الساحلية ! وقد نشب النزاع بعد تسليم هذا المشحون الفتاك لقاء ثمن ، على ما يبدو (٥) . ومما له دلالته ان شركة الهند الشرقية التى كانت دائما تطالب – لاسباب تجارية وسياسية – بالاعتذارات والتعويضات عن الهجوم على سفنها انها لم تطالب بالتعويض عن الخسائر ، وليس هذا وحسب ، بل انها كذلك حتى لم تصر على الاعتذار . ويتبين من وثائق ارشيف الهند الوطنى ان آمرى السفن الحربية البريطانية قد تلقوا تعليمات خاصة بعدم التدخل فى حال هجوم السفن «القرصانية» من القواسم على سفن الدول الاخرى ، ولا سيما على سفن حليف مسقط – شركة الهند الشرقية (٦) . وكل هذا يؤكد ان المستعمرين البريطانيين قد حاولوا ان يستغلوا «القراصنة» فى مصلحتهم . وان الحاجة الى الضغط من جانبهم على سلطان مسقط قد ازدادت على الاخص فى سنة ١٧٩٨ حين استولى نابليون على القاهرة وارسل من هناك رسالتين الى تيبو سلطان فى ميسور والى سلطان بن احمد فى مسقط .

ان المطبوعات العلمية الانجليزية التي تحكى عن الخليج العربى والتى تحفل ، كقاعدة ، بمديح ما قام به البريطانيون هناك تخصص مكانا كبيرا لرسالتى نابليون هاتين وتزعم انهما هما التان اضطرتا السلطات البريطانية الى اتخاذ تدابير عاجلة لاجل هزم ميسور وبسط حمايتهم فيما بعد على مسقط ، والا فقد كان بامكان الحلف الفرنسى الميسورى المسقطى ان يتسبب ببلايا لا عدّ لها للامبراطورية البريطانية . وهذه المزاعم تتردد احيانا كثيرة جدا ، ولكنه من النادر جدا ان يشار الى مضمون رسالتى نابليون . ففى رسالة الى حاكم مسقط كتب نابليون ما يلى : «ارسل اليكم هذه الرسالة لكى احيطكم علما بوصول الجيش الفرنسى الى مصر . وبما انكم كنتم دائما من الاصدقاء ، فبوسعكم ان تكونوا على ثقة فى عزمنا على تقديم الدفاع الضرورى عن جميع السفن التجارية التى تجدون من الضرورى ارسالها الى السويس . كذلك ارجوكم ان تنقلوا الرسالة الملحقة طيه الى تيبو سلطان حتى تسنح الفرصة الاولى» . وكانت الرسالة ملحقة برسالة موجزة باسم تيبو سلطان (٧) . من الصعب ان يستشف المرء فى هذه الرسالة ويرى فيها مشروع حلف حربى بين فرنسا وسلطان مسقط وحاكم ميسور اتخذ المستعمرون البريطانيون لاجل الحيلولة دونه تدابير خطيرة كاستثارة الحرب الانجليزية الميسورية الرابعة وفرض معاهدة غير متكافئة على مسقط .

واطرف ما فى الامر ، ان هاتين الرسالتين «الهدامتين» لم تصل الى المرسلة اليهما ، لأن الربان ويلسون ، العميل البريطانى فى المخا حجز عليهما . وفضلا عن ذلك ، بلغ البريطانيون من بعد النظر الى حد انهم ارسلوا الى مسقط بعثة خاصة «لاجل القضاء على الخطر المرتبط بالحلف الفرنسى الميسورى المسقطى فى ايلول — سبتمبر ١٧٩٨» بينما رسالة نابليون الى سلطان مسقط مؤرخة فى . . . ٢٥ كانون الثانى (يناير) ١٧٩٩ !

فى ايلول ١٧٩٨ وصل الى مسقط بمهمة خاصة ميرزا مهدى على خان ، مقيم شركة الهند الشرقية المعين حديثا فى بوشير . وهذا الديبلوماسى الايرانى ، العامل فى خدمة شركة الهند الشرقية ، والذى وصل الى مسقط على متن السفينة الحربية البريطانية «بانتير» قد عهدت اليه رئاسة الشركة فى بومباى ولندن بتكليفات خطيرة فقد

كان عليه ان يتحقق بكل دقة مما اذا كان يوجد فرنسيون فى ممتلكات السلطنة ، وان يسعى فى حال وجودهم الى حمل السلطان على طردهم فورا ، وان يحصل من السلطان على تعهد بعدم اخذهم فى خدمته ، وبعد منحهم امكنة لاجل بناء المحطات التجارية وبمنع السفن الفرنسية من دخول موانئ السلطنة . واخيرا عهد الى ميرزا مهدى ببذل قصارى الجهد لاجل تأسيس محطة تجارية بريطانية فى مسقط واقامة العدد المناسب من الاشخاص لحمايتها .

فى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٨ وقع سلطان بن احمد تعهدا مهيبا من ٧ بنود . حقق التعهد اغلبية رغائب شركة الهند الشرقية ما عدا رغبة جوهرية جدا ، فقد رفض السلطان منح شركة الهند الشرقية الحق فى تأسيس محطة تجارية فى مسقط ، ولكنه عوض عن هذا بالسماح فى انشاء محطة تجارية فى بندر عباس اى فى ارض ايرانية كانت ملكا اقطاعيا لمسقط . وهناك بالذات اى بعيدا عن سواحل عمان ، سمح للبريطانيين ، لا ببناء مبنى المحطة التجارية ، بل ايضا بتزويدها بالمدفعية وبحرس من ٤٠–٥٠ جنديا وضابطا انجليزيا و٧٠٠–٨٠٠ سباهى .

وتعهد سلطان بن احمد بمنع الفرنسيين وحلفائهم الهولنديين من دخول ارض السلطنة وبتقديم المساعدة للسفن البريطانية فى حال نشوب معارك بحرية بين الاسطول البريطانى والاسطول الفرنسى الهولندى فى مياه مسقط الساحلية (٨) . وبعد توقيع هذا التعهد المهيب قدم ميرزا مهدى الى السلطان هدايا بمبلغ ٢٨٢٠ روبية .

تلك كانت المرحلة الجديدة فى العلاقات بين بريطانيا وبلدان الخليج العربى ولا سيما مع البلدان العربية . ان التعهد الذى اعطاه سلطان بن احمد هو اول وثيقة يوقعها حاكم عربى وتتضمن تعهدا وحيد الجانب معطى للمستعمرين البريطانيين . ورغم ان البريطانيين لم يتوصلوا الى كل ما يرغبون فيه ، اذ ان حاكم مسقط الداهية عرض عليهم اقامة المحطة التجارية ، لا فى اراضى السلطنة ، بل فى بندر عباس الواقعة على الساحل الايرانى حيث انشأوها للمرة الاولى قبل ذلك بمائة وخمسين سنة ، الا ان البداية قد ارسيت وبالاعتماد على هذا الظرف ، شرع عملاء شركة الهند الشرقية يعززون نفوذهم فى السلطنة ذاتها ، ثم حولوها الى رأس جسر لاجل التغلغل فى

الخليج العربى وفى الجزيرة العربية . ويجب الاشارة الى ان هذه الوثيقة كانت ضربا من وثيقة دولية تدل على تقسيم امامة عمان نهائيا ، اذ ان سلطان بن احمد وقع تعهدا شمل جميع ممتلكاتـــه دون ان يحصل ، لا على مصادقة ولا على تحبيذ الامام سعيد الموجود كما من قبل فى رستك .

ومما يدل على الخطط البعيدة المدى التى حاكتها شركة الهند الشرقية حيال سلطنة مسقط ، ان ممثلى الشركة فى بومباى لم يكونوا راضين عن هذه الوثيقة رغم الفوائد والتسهيلات المهمة التى نالوها من السلطان .

فى كانـــون الاول (ديسمبر) ١٧٩٩ ، وصـــل الى مسقط الديبلوماسى الكبير ورجل المخابرات والمستشرق العامل فى مصلحة شركة الهند الشرقية النقيب مالكولم الذى كان يتوجه على متن سفينة حربية بمهمة استثنائية الى بلاط حاكم ايران الجديد فتح على شاه قاجار . كان على مالكولم ان يقتنع بصحة الانباء الواردة الى بومباى والقائلة ان السلطان ظل يقيم اتصالات غير علنية مع الممثليـــن الفرنسيين وان يتخذ التدابير لقطع هذه الاتصالات . وبما ان حاكم مسقط كان على رأس بعثة حربية فى منطقة جزيرة قشم ، فقد هرع مالكولم الى هناك . وفى حاصل مناقشة حادة جدا هدد فيها مالكولم باغلاق جميع مرافىء الهند الغربية فى وجه السلطان فيمـــا اذا شاكس ، — الامر الذى كان يعنى الحصار — ، اضطر السلطان بن احمد الى الاستسلام . وفى ١٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٠٠ ، وقـــع تعهدا رسميا جديدا اشير فيه الى ان جميع مظاهر سوء التفاهم القائمة بينه وبين شركة الهند الشرقية قد صفيت ، وانه يوافق ، بغية تجنب وقوعها مستقبلا ، على انشاء مقام فى مسقط لعميل شركة الهنـــد الشرقية السياسى (٩) . وفى هذه الوظيفة عين الجراح فى جيش الشركة بوغل الذى صار ، «بموجب جميع الوظائف» ، الطبيـــب الشخصى للسلطان وصار بوسعه بالتالى ان يؤمن سواء صحـــة السلطان وسلوكه الطيب .

وهكذا غدت مسقط على تخوم القرن التاسع عشر اول دولة عربية يستقر فيها المقيمون البريطانيون ويبقون فيها الى الآن قائميـــن بالوظائف التى تغيرت بعض الشىء . ان التغلغل الاقتصادى فـــى

مسقط قد رافقه بسط الرقابة السياسية بصورة تدريجية . والاسباب التى استدعت تعاقب البعثات البريطانية فى مسقط ببالغ السرعة والضغط المشتد ابدا على السلطان ، لم يكن مردها البتة الخطر الفرنسي او خطر انشاء حلف فرنسي ميسوري عماني يكتب عنه المؤرخون البريطانيون كثيرا جدا . ذلك ان نابليون قد اضطر فى سنة ١٨٠٠ الى مغادرة مصر ، وان تيبو سلطان قد قتل اثناء دفاعه عن عاصمته سيرينغاباتام بالشام . ان تسرع اعمال المستعمرين البريطانيين فى مسقط قد نجم بقدر كبير عن واقع ان اخصاما جددا وخطرين جدا – هم الوهابيون – اخذوا يشقون طريقا لانفسهم من الغرب الى سواحل الخليج العربى .

فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ترأس الحاكمان الاقطاعيان فى امارة الدارية الصغيرة فى نجد محمد بن سعود وابنه عبد العزيز اللذان اعتنقا مذهب محمد بن عبد الوهاب (وقد اسمى هذا المذهب باسمه «الوهابية») النضال فى سبيل توحيد القبائل والامارات الاقطاعية فى نجد . وفى اواخر الثمانينيات من القرن الثامن عشر ، تحولت نجد الى دولة اقطاعية دينية كبيرة برئاسة سلالة السعوديين . وفى سنة ١٧٩١ ، اى بعد وفاة مؤسس الوهابية وحد الامير عبد العزيز فى يديه السلطة الزمنية والدينية فى الدولة الجديدة . وقد حاول السعوديون الحصول على مخارج الى مرافىء الخليج العربى سعيا منهم لتوطيد مواقعهم والاسهام فى تطوير الدولة الجديدة على الصعيد الاقتصادى .

فى سنة ١٧٩٣ احتلت قوات السعوديين منطقة الاحساء الساحلية المهمة من الناحية الاقتصادية والستراتيجية . وفى سنة ١٧٩٨ سحقت قوات الوهابيين كليا الجيش التركى الذى ارسل الى الاحساء من البصرة بمساعدة ممثلى شركة الهند الشرقية . وفى سنة ١٨٠٠ ، استولى الوهابيون على القطيف ، المرفأ الرئيسى فى الاحساء ، واطلوا على ساحل الخليج العربى . وفى ١٨٠٣ و١٨٠٤ ، استولوا على واحة البريمى المهمة وعلى كل القواسم الساحلية . ان الاستيلاء على جزر البحرين وفرض الرقابة على القواسم قد حولا العربية الوهابية الى دولة بحرية كبيرة مارست تأثيرا كبيرا فى الوضع السياسى والعسكرى فى عموم حوض الخليج العربى .

كل هذا ادى الى تفاقم النزاع بين الوهابيين وبريطانيا العظمى . فان المستعمرين البريطانيين لم يريدوا التسليم بظهور دولة اسلامية كبيرة فى الخليج العربى تجهد لتوحيد الامارات الساحلية العربية الصغيرة التى تملك اسطولا كبيرا وبحارة محنكين . وكان سكان هذه الامارات ينظرون نظرة سلبية للغاية الى الاوروبيين ولا سيما الى المستعمرين البريطانيين الذين كان سعيهم الى فرض رقابتهم على التجارة والنقليات سواء فى داخل الخليج العربى ام بين الخليج العربى والهند الغربية ، وكذلك بين الخليج العربى والبحر الاحمر وافريقيا الشرقية يحرم سكان هذه الامارات مصادر العيش . ولهذا كانت مزاعم علم التاريخ البرجوازى الانجليزى القائلة ان سكان الساحل الغربى من الخليج العربى – من الكويت الى رأس الخيمة ، بما فى ذلك الاحساء وقطر وجزر البحرين – قد كرهوا الوهابيين وقاوموا بضراوة تقدمهم نحو الخليج ، مزاعم مزيفة بقدر كبير . يقينا انه قامت بين الوهابيين والاوساط العليا الحاكمة المحلية تناقضات سياسية ودينية ، لأن سكان الساحل كانوا يعتنقون اما المذهب السنى بشكله القويم المتشدد ، واما المذهب الشيعى . وكان تعصب الوهابيين يثير الحذر واليقظة ، وكان يلقى فى بعض الاحوال المقاومة وبخاصة فى الآونة الاولى . ولكن ميول الوهابيين التوحيدية واتجاه سياستهم المعادى للاتراك بكل سطوع والمعادى للبريطانيين بنحو مشتد ابدا ، قد لقيت التأييد بين صيادى السمك والبحارة وصيادى اللؤلؤ ، اى بين الجماعات الاساسية من السكان المسلمين الذين كانوا يعانون الامرين من المزاحمين والمضطهدين البريطانيين .

نحو اوائل القرن التاسع عشر ، بدأت بريطانيا تتخذ تدابير احزم فأحزم لوقف تقدم السعوديين . وقد طبقت هذه التدابير فى بضعة اتجاهات . من جهه ، استغل البريطانيون نفوذهم فى مسقط فاستحثوا سلطان بن احمد على تعزيز المقاومة الى اقصى حد فى وجه الوهابيين ، وعلى الاستفادة من اسطوله الكبير للاستيلاء على جزر البحرين لاجل الحد من حرية الوهابيين للمناورة فى الخليج . ومن جهة اخرى ، حرضوا حكام باشاوية بغداد الاتراك شبه المستقلين على القيام بالجديد تلو الجديد من الحملات ضد ممتلكات الوهابيين .

وليس من قبيل الصدفة اذا كان رجل المخابرات البريطانية المحنك بريدجس قد شرع فى اداء وظائف العميل السياسى البريطانى فـــى بغداد في اواخر ١٧٩٨ ، عندما بدأ حاكم بغداد العام سليمان باشا حملة غير موفقة ضد الوهابيين . واخيرا ، بعد التوقيع فى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٧٩٩ على معاهدة انجلو – تركية تحالفية ، استحثت الديبلوماسية البريطانية السلطان سليم الثالث على تنشيط العمليات الحربية ضد السعوديين من سوريا والحجاز ولهذا الغرض ارسلت تعزيزات ضخمة الى شريف مكة ، غالب ، الذى كان يشن العمليات الحربية ضد نجد خلال زمن طويل بنجاح متقطع .

وهكذا تحول المستعمرون البريطانيون فى الحقبة التى نتناولها الى اعداء الداء لشعوب الخليج العربى وعملوا بجميع الوسائل التى فى منالهم ضد وحدة البلدان والشعوب الاسلامية فى هذه المنطقة ، وعلقوا آمالهم على التجزؤ الاقطاعى القبلى وعلى تسعير نيــــــران التناقضات القومية (الايرانية التركية ، الايرانية العربية ، التركية العربية) ، وعلى تأزيم النفوذ الدينى – لا بين السنة والشيعـــــة وحسب ، بل ايضا بين مختلـف فروع السنة . وللاسباب المذكورة اعلاه ، وقف المستعمرون البريطانيون على المكشوف ، منذ زهاء مائتى سنة ، ضد دولة السعوديين . ان سياستهم حيال هذه الدولة تفضح وتدحض كليا مزاعم المؤرخين البرجوازيين القائلة ان بريطانيا العظمى لم تنتهج سياسة عدوانية حيال السكان المسلمين فى بلدان الخليج العربى ، وان ممثلى شركة الهند الشرقية فقط هم الذين كانوا يعملون هناك ، ولاغراض تجارية حصرا . اما فى الواقع ، فـــان المستعمرين البريطانيين قد استغلوا جميع الوسائل وضغطوا على جميع النوابض المناسبة فى مسقط وبغداد واسطمبول ومكة لاجل سحق السعوديين وعزل نجد عن الساحل والابقاء على التجزؤ الاقطاعى القبلى فى الساحل الغربى من الخليج .

ولكن خطط وحسابات المستعمرين البريطانيين منيت بالفشل التام فى السنوات الاولى من القرن التاسع عشر . ففى ١٨٠٣ و١٨٠٤ هزم الوهابيون قوات الشريف غالب واستولوا على مكة المكرمـــــة والمدينة المنورة ، الامر الذى عزز بشكل هائل مكانة الوهابييـــن ونفوذهم بين السكان المسلمين فى الجزيرة العربية . كذلك انهزمت

القوات التركية التى ارسلت من جديد تحت ضغط العملاء البريطانيين من باشاوية بغداد الى منطقة اسافل الفرات . وفى الحقبة ذاتها ، بدأت قوات الوهابيين تهاجم مسقط ، كما ان حكام القواسم الخاضعين لهم ، وفى المقام الاول بينهم شيخ رأس الخيمة ، شرعوا يحاصرون خليج هرمز بسفنهم .

وفى سلطنة مسقط اخذت تتسع الحركة ضد صنيعة البريطانيين سلطان بن احمد . وبناء على نصيحة المقيم البريطانى ، اقدم سلطان بن احمد ، رغبة منه فى رفع مكانته ، على الحج الى مكة المكرمة التى كانت فى يد غالب ، حاسبا ان يتفق فى الوقت نفسه مع شريف هذه المدينة المقدسة حول الاعمال المشتركة ضد الوهابيين . واثناء غيابه ، بدأت فى مسقط انتفاضة ضد حكم السلطان برئاسة بدر ، ابن اخيه ، فأسرع سلطان بن احمد للعودة الى مسقط . وتم قمع الانتفاضة موقتا . ومما له دلالته ان بدر فر الى الدارية ، عاصمة الوهابيين . وفى هذه الاثناء عملت الديبلوماسية البريطانية بنشاط على انشاء حلف معاد للسعوديين قوامه سلطان مسقط ، وحاكم بغداد التركى وحاكم فارس الايرانى .

ولهذا الغرض راح سلطان بن احمد الى البصرة . وفى خريف ١٨٠٤ ، قتل ، اثناء عودته ، فى معركة بحرية جرت قرب جزيرة قشم بين السفن العمانية وسفن شيخ رأس الخيمة ، حليف السعوديين .

وهكذا فشل المشروع الذى حاكه العملاء البريطانيون لتشكيل حلف واسع ضد السعوديين . كذلك خيم الخطر الجدى على الحصن الرئيسى للنفوذ البريطانى فى الخليج عنينا به مسقط . كان هذا الخطر رهيبا لأن آمال مدراء شركة الهند الشرقية فى ان تنشب الخلافات القبلية والاقطاعية بعد اغتيال حاكم دولة السعوديين القائد العسكرى الموهوب عبد العزيز فى خريف سنة ١٨٠٣ وتضعف اندفاعة الوهابيين القوية ، لم تتحقق . فان سعود ، ابن عبد العزيز ، — وهو ايضا قائد عسكرى موهوب — قد اصبح الامام والحاكم الاعلى . واستمر الصراع لبسط الرقابة على الخليج العربى وامامة عمان وسلطنة مسقط ، وفى سلطنة مسقط دارت رحى صراع حاد على السلطة طوال سنة بعد مصرع سلطان بن احمد . وفى

سنة ١٨٠٥ صار نصير الاتجاه الوهابى بدر سلطانا . ومما له دلالته انه لقى التأييد من امام عمان الطاعن فى السن سعيد ، الذى كان يقيم كما من قبل فى رستك . وكان هذا يدل على سعى الاوساط العليا الاقطاعية والقبلية فى امامة عمان وسلطنة مسقط التى انقسمت بعضها على بعض بمشاركة فعالة من المستعمريـــن البريطانيين الى الاتحاد من جديد والى اقامة اتصالات وثيقة مع العربية المتحدة تحت سلطة السعوديين .

ولكان مجرى الاحداث على هذا النحو لم يكن يرضى شركة الهند الشرقية . فان عملاءها السريين والعلنيين بدأوا يشتركون بنشاط فى اعداد انقلاب سياسى ، مستغلين الاوساط التجارية العليا فــى المدن الميناثية مثل صور (وكانت هذه المدن ترتبط بصفقات تجارية كاسبة مع مرافىء هندوستان الواقعة تحت رقابة البريطانييـــــن) وشيوخ القبائل الذين كانوا ضد توحيد مسقط وعمان . وفى سنة ١٨٠٧ ، اغتيل بدر بخيانة ووحشية بناء على امر من سعيد بــن سلطان ، ابن حاكم مسقط العجوز . ان سعيد بن سلطان الـــذى حصل على العرش بدعم فعال من المستعمرين البريطانيين ، قد ساعد شركة الهند الشرقية باحزم وجه ، خلال زهاء ٥٠ سنة من حكمه ، فى نضالها من اجل الهيمنة فى الخليج العربى .

ولكن السعوديين والقواسم الخاضعة لهم كانوا يعترضون الطريق الى هذه الهيمنـــة . ففى سيـــاق العقـــد الاول من القـــرن التاسع عشر ، كانت سفن المدن الميناثية فى القواسم او سفن قبائل (والاصح — اتحاد القبائل) القواسم كما يسمونها فى المطبوعـــات الغربية ، تراقب عمليا الساحل الغربى من الخليج العربى . وفـــى مدينة القواسم الرئيسية رأس الخيمة ، كان يقيم المحافظ الذى يعينه الامير سعود . ان سفن شركة الهند الشرقية التى حملت الكثير من البلايا لسكان الخليج العرب قد تعرضت غير مرة لهجمات السفـــن الحربية التابعة للقواسم . ومـــا يسميه المؤلفون البرجوازيون البريطانيون بالقرصنة انما كان بالفعل شكلا من اشكال النضال ضد المستثمرين البريطانيين الذين حرموا السكان المحليين المرتبطين وثيق الارتباط بالبحر مصادر عيشهم فى غضون مائة وخمسين سنة . ان الاستيلاء على السفن البريطانية لم يكن عملا قرصانيا عاديـــا ،

والدليل على ذلك ، القصة الصاخبة عن الاستيلاء على السفينة البريطانية الكبيرة «مينرفا» التى كانت تنقل فى سنة ١٨٠٨ قيما لشركة الهند الشرقية من بومباى الى بوشير . بعد معركة دامية استمرت يومين ، عمد بحارة القواسم الذين اخذوا «مينرفا» بالمصادمة ، الى اداء الطقس العطرى ، طقس «تطهير السفينة من النجس الاوروبى» (١٠) بالماء الساخن قبل ان يسوقوها كغنيمة الى رأس الخيمة . ففى كل تاريخ القرصنة على امتداد آلاف السنين ، لم تقم طقوس كهذه . وفى هذه الحالة لم يكن المقصود الاغناء بقدر ما كان التطهير بمعنى الكلمة المباشر والمجازى اى تطهير الخليج العربى من المستعمرين الاجانب والكفار .

قبل سنة ١٨٠٩ كانت قوات المستعمرين البريطانيين الاساسية مشغولة بالحروب النابليونية فى اوروبا وفى البحر الابيض المتوسط ، وبالحربين الثانية والثالثة ضد الماراتهات فى الهند ، ولهذا لم يقوموا باعمال حازمة ضد السعودية والقواسم ومنعوا ربابنة سفنهم الحربية من الدخول فى المعارك ضد البحارة العرب الا فى حال الضرورة القصوى . ولكن الوضع تغير فى سنة ١٨٠٩ . وفى النصف الثانى من هذه السنة توقفت العمليات الحربية موقتا فى اوروبا . وفى الوقت نفسه تقريبا نشأت فترة راحة قصيرة فى الحرب الانجلو - مارتهية الثالثة . ثم ان الوضع المتوتر فى سلطنة مسقط حيث صعفت كثيرا مواقع سعيد بن سلطان ، قد اكره شركة الهند الشرقية على الانتقال الى سياسة هجومية نشيطة ، خوفا من ان يؤدى استمرار الهمود الى ضياع نفوذها كليا لا فى السلطنة وحسب ، بل ايضا فى عموم منطقة الخليج . وهذا ما انعكس فى تدبيرين منسقين . الاول كان مرتبطا بالاجراءات الحازمة لتوطيد المواقع البريطانية فى العراق العربى ولا سيما فى ايران . ولهذا الغرض ارسل من بومباى الى بغداد وطهران فى سنة ١٨٠٨ الجاسوس والديبلوماسى الانجليزى مالكولم . وقد استحوذ القلق والانفعال على الاوساط الحاكمة البريطانية من الوضع فى منطقة الخليج الى حد انها ارسلت فى الوقت نفسه مع مالكولم من لندن الى طهران هارفورد جونس بصفة ممثل شخصى لملك بريطانيا العظمى . وبعد مفاوضات مديدة ومعقدة في طهران ، ومواقف نزاعية حادة مقترنة

بالتنافس الانجلو – فرنسى فى ايران وباستياء اسياد شركة الهند الشرقية من كون الحكومة البريطانية دخلت فى مفاوضات مع الشاه منتهكة بذلك «حقوقهم الخاصة» ، وقع جونس فى آذار (مارس) ١٨٠٩ ، باسم الحكومة البريطانية مع وزراء الشاه ما اسمى بالمعاهدة التمهيدية ، وهذه المعاهدة سرعان ما ابرمها فتح على شاه . وهى اول معاهدة فى تاريخ العلاقات الانجلو – ايرانية لا يوقعها ممثلو شركة الهند الشرقية ، بل توقعها حكومة بريطانيا العظمى . وبموجب المعاهدة نالت بريطانيا العظمى الحق فى مرابطة وحدة عسكرية كبيرة فى جزيرة حرج ، وبنتيجة مفاوضات مالكولم مع الباشاوات الاتراك فى بغداد ، نالت شركة الهند الشرقية امتيازات اضافية فى البصرة .

بعد ان وطد المستعمرون البريطانيون على هذا النحو وضعهم فى القسم الشمالى والشمالى الشرقى من الخليج العربى ، انتقلوا الى الهجوم الجبهوى على مواقع السعودية والقواسم . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ظهرت عمارة حربية بريطانية كبيرة فى مرفأ رأس الخيمة . وقد اشير فى التعليمات الى آمر العمارة بانه يجب عليها ان توضح للسلطات السعودية ان المقصود هو معاقبة القراصنة وحسب ، وليس البتة القيام بعمليات حربية ضد الدولة الوهابية . وهكذا حسب المستعمرون البريطانيون ان يدقوا اسفينا بين السعوديين وبين سكان القواسم العرب والاتحادات القبلية والقبائل العربية .

ابيدت رأس الخيمة بقصف همجى من المدفعية البحرية الثقيلة . وأحرقت ٥٠ سفينة عربية كانت فى الميناء وكانت وسيلة العيش الوحيدة بالنسبة للسكان المحليين . ثم اجتازت بعثة «الانسانيين» البريطانيين الخليج العربى وصبت وابلا من النيران الماحقة على مرفأ لنغا الايرانى الذى كان يخضع آنذاك لحكام رأس الخيمة . كذلك انزلت قوات فى جزيرة قشم ، فأسهمت فى بعث سيادة سلطان مسقط عليها . ثم وجه البريطانيون نيرانا فتاكة من مدفعية سفنهم الى المقامات السكنية العربية الواقعة على طول ساحل الخليج . وحيثما امكن ، احرق المستعمرون البريطانيون السفن العربية .

ولكن المستعمرين البريطانيين احتفلوا بالنصر قبل الاوان بكثير . فمنذ سنة ١٨١٢ استأنف شيوخ القواسم النضال ضد

المستعمرين البريطانيين فى مياه الخليج ، بعد ان بنوا سفنا حربية جديدة بمساعدة السعوديين المادية .

وفى سنتى ١٨١٣ و١٨١٤ قام سعيد بن سلطان باشارة من بومباى ، بمحاولة للاستيلاء على رأس الخيمة التى بنيت من جديد ، ولكنه لم يستطع ان يحرز نجاحا حاسما رغم الدعم البريطانى . فقد ابدى «القراصنة» مقاومة حازمة فى وجه صنيعة المستعمرين البريطانيين .

ولكن الوضع اخذ يتغير نحو سنة ١٨١٥ فى غير صالح العرب رغم كل شجاعتهم وبسالتهم ، ففى خريف ١٨١١ بدأ حاكم مصر محمد على العمليات الحربية ضد العربية الوهابية ، سعيا وراء اهدافه البعيدة المدى ، ورسميا وشكلا نزولا على امر من السلطان التركى . وبعد بضعة اخفاقات ، استطاعت القوات المصرية ان تستولى على المدينة المنورة فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨١٢ ، وعلى مكة المكرمة فى كانون الثانى (يناير) ١٨١٣ . وكل هذا اضعف كثيرا ، بالطبع ، وضع الوهابيين فى عموم الجزيرة العربية وبخاصة فى حوض الخليج العربى.

وفى هذه الاثناء سنحت الفرصة لبريطانيا العظمى بعد هزيمة فرنسا النابليونية ، لكى تحشد مزيدا من القوات والمعدات فى منطقة الخليج العربى . وفى هذه الاحوال ارسل السعوديون فى خريف ١٨١٤ مبعوثا مع رسائل من الامير الوهابى وشيوخ الامارات والمدن القواسمية ، الى بوشير لاجل التفاوض مع مقيم شركة الهند الشرقية . ان واقع اجراء المفاوضات يفضح بحد نفسه بصورة مقنعة الخرافة عن «القراصنة المسلمين» فى الخليج ، لأن الممثل الرسمى للسلطات الانجلو - الهندية ما كان اجرى مفاوضات ديبلوماسية مع اللصوص وقطاع الطرق . وفى سنة ١٨١٦ خالف الطرفان الاتفاقية الموقتة المعقودة ، فان القواسم النازفة دما دخلت حلبة الصراع من جديد ، واستولت على عدد من سفن المستعمرين البريطانيين بينها سفن حربية . ولم يحدث عرض الاسطول البريطانى امام رأس الخيمة اى انطباع فى السكان المحليين .

فى سنة ١٨١٩ فقط قرر المستعمرون البريطانيون ان يشنوا حربا جديدة على القواسم . هذا الموعد لم يكن من باب الصدفة ، ففى ايلول (سبتمبر) ١٨١٨ استولت القوات المصرية على عاصمة

السعوديين داريا بهجوم صاعق بعد حصار دام خمسة اشهر . ووقع الامير الوهابى فى الاسر ، ثم قطع رأسه فى اسطمبول . وزالت العربية الوهابية من الوجود موقتا . واحتلت القوات المصرية الاحساء ، ودخلت طلائعها القطيف . كل هذا حمل مدراء شركة الهند الشرقية على اتخاذ قرار بسحق القواسم وترسيخ اقدامهم على الساحل العربى من الخليج . ولاجل هذه الحرب البحرية تم تكوين اسطول موحد من السفن الحربية التابعة لشركة الهند الشرقية ومن سفن اسطول بريطانيا العظمى البحرى الحربى الملكى . وقد ضم الاسطول الموحد سفنا مزودة كل منها بخمسين مدفعا ، وكان اكبر اسطول ظهر فى وقت ما فى مياه الخليج . وكان يحمل فيلقا يضم اكثر من ٣٥٠٠ جندى وضابط . وترأس الحملة اللواء كير غرانت الذى كسب الكتائف الجنرالية والعديد من الاوسمة فى الحروب الدامية التى شنتها شركة الهند الشرقية فى الهند . وفى مسقط انضم الى الاسطول البريطانى اسطول مساعد وقوات السلطان . وفى كانون الاول (ديسمبر) ، بدأ الحلفاء يحاصرون من البر والبحر رأس الخيمة ، عاصمة القواسم التى سبق ان احرقتها المدافع البريطانية قبل ذلك بعشر سنوات . وهذه المرة دام الحصار ستة ايام رغم التفوق الهائل فى القوى . وحتى كرزون اضطر الى الاعتراف بان المحاصرين دافعوا عن انفسهم «ببسالة خارقة» (١١) .

فى ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٩ سقطت رأس الخيمة . وابيد معظم سكانها ، واحرقت ٢٠٢ من السفن العربية اغلبيتها الساحقة من سفن صيد السمك والسفن التجارية . ثم اجتاز المستعمرون البريطانيون الساحل العربى من الخليج بالنار والسيف . وفى اوائل كانون الثانى (يناير) ١٨٢٠ استدعى شيوخ الامارات الصغيرة الداخلة فى قوام القواسم – ابو ظبى ، دبى ، الشارقة ، ام القيوين ، رأس الخيمة – الى الانقاض الداخنة فى رأس الخيمة ، واجبروا على توقيع بيانات مذلة بالخضوع . وفى ٨ كانون الثانى ١٨٢٠ وقع اللواء كير غرانت وحكام الامارات المذكورة فى رأس الخيمة ايضا وثيقة كئيبة الشهرة ، اسميت «المعاهدة العامة مع القبائل العربية فى الخليج العربى والبحر الاحمر» . وقد فسر عقد المعاهدة بضرورة «وقف اعمال النهب والقرصنة» . وعلى هذا الاساس

كان العرب يواجهون خطر اتهامهم بانهم «اعداء البشرية جمعاء» اذا ما قاموا بعمليات حربية فى البحر . وخولت المادة ٥ من المعاهدة ربابنة السفن البريطانية حق المراقبة على تحركات جميع السفن العربية فى الخليج . والزمت المادة ٦ شيوخ القبائل والامارات بارسال ممثلين عنهم الى المقيم البريطانى فى الخليج العربى لاجل تلقى التعليمات فى المسائل الاساسية من السياسة الداخلية (١٢) .

رمزت «المعاهدة العامة» الى المرحلة الاولى من اقامة الحماية البريطانية على الساحل العمانى الشمالى من الخليج العربى ، الذى أسمى رسميا مذ ذاك فى الخرائط البريطانية ثم فى سائر الخرائط الاوروبية «بساحل القراصنة» .

وهكذا ، «بفضل» يد المستعمرين البريطانيين «الثقيلة» ، صار المناضلون ضد الغزاة الاوروبيين «قراصنة» وصار موطنهم «ساحل القراصنة» . وفى الوقت نفسه ، اثنى علم التاريخ البرجوازى على البوكركه وسائر الفاتحين البرتغاليين الذين كانوا يغطسون الحجاج والتجار المسلمين فى مراجل مليئة بالزيت الغالى ويقطعون انوف وآذان البحارة العرب ويحرقون قرى ومقامات بكليتها ، ويدمرون المساجد والمدارس بقساوة خارقة . ويعظم علم التاريخ البرجوازى هؤلاء الفاتحين وامثالهم بوصفهم «بناة امبراطوريات» ، وانشط واجل المشتركين فى الاكتشافات الجغرافية العظيمة . وبلهجات ارفع واكبر يصف المؤرخون البرجوازيون «مآثر» المستعمرين البريطانيين الرهيبة والدموية فى الخليج العربى والبحر الاحمر والمحيط الهندى .

ان «المعاهدة العامة» لم تدشن بداية بسط الحماية البريطانية فى القسم الجنوبى الغربى من الخليج العربى وحسب ، بل انجزت تقسيم الدولة العمانية العريقة الذى بدأ بانشاء سلطنة مسقط فى سنة ١٧٩٣ بمشاركة العملاء البريطانيين مشاركة فعالة للغاية . ومذ ذاك قامت ، مكان دولة عمان القديمة ، امامة عمان وسلطنة مسقط و«ساحل القراصنة» حيث كان يتعالى الدخان من انقاض المدن المينائية الزاهرة حتى امد قريب .

ولكن الضرر الذى الحقه المستعمرون البريطانيون بشعوب المنطقة فى سنوات تحكمهم فى الخليج لا يقتصر على هذا . فقد حاولوا كذلك ان يخلدوا تقسيم الامارات والسلطنات الصغيرة العربية ويحولوا

دون اتحادها فى كيان سياسى واحد . وقد فصلوا نجد عن الساحل ، وقطعوا العلاقات التجارية والاقتصادية والثقافية القائمة فى سياق القرون بين الساحل الغربى والساحل الشرقى من الخليج ، وعرقلوا خروج العراق العربى الى الخليج ، وحاولوا ان يقوضوا مواقع ايران فى الساحل الشرقى . واخيرا بذلـــوا قصارى الجهد للحيلولـــة دون قيام علاقات تجارية واقتصادية مستقلة بين الهند من جهـــة والامارات العربية وايران من جهة اخرى . ذلك هو بالنسبة لشعوب المنطقة الحاصل الكئيب للمرحلة الاولى من التوسع الاستعمـــارى البريطانى فى الخليج العربى . وقد تناولناه بهذا التفصيل لأن مزورى التاريخ الغربيين ، وفى المقام الاول بينهم الانجلو – اميركيون ، يستغلون حتى الآونـــة الاخيرة احتكار الارشيفـــات والوثائق ، ويشوهون تاريخ الخليج العربى ، ويعظمون ويمدحون الى اقصى حد افعال المستعمرين البريطانيين التى لا تزال الشعوب الاسلامية – العرب والايرانيون – اسياد الخليج العربى الحقيقيون – يعانون من عواقبها الى الآن .

٢ ـ تحويل الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية»

بعد ان استعبد المستعمرون البريطانيون قبائل القواسم واذلوها واهانوها بتغيير اسم بلدهم وتسميته «ساحل القراصنة» ، اجبروا فى السنة ذاتها ، سنة ١٨٢٠ ، شيخ البحرين على الانضمـــام الى المعاهدة العامة الجائرة . وهكذا بدأوا يتسربون ايضا الى الارخبيل البالغ الاهمية من الناحية الستراتيجية ، بحجة مكافحة «القراصنة» .

وفى الوقت ذاته اشتد تحرك شركة الهند الشرقية نحو العراق العربى . ومنذ سنة ١٨٠٢ ، كان حاكم باشاوية بغداد المنظم الهمام حافظ على ، الوثيق الارتباط بسفير نابليون فى اسطمبول الجنرال سيباستيانى الذى بدأ حافظ على بمساعدته اعادة تنظيم قواتـــه المسلحة . ولم يكن ذلك يطيب لشركة الهند الشرقية التى اقامت منذ اواخر القرن الثامن عشر مواصلات بريدية عبر العراق بين لندن وممتلكاتها الهندية . وكانت السفن العاملة بانتظام تنقل البريد من بومباى الى البصرة ، ومنها على نهر دجلة الى بغداد ، ثم كان البريد ينقل على الجمال السريعة الى حلب والى بيروت ومنها بحرا الى بريطانيا.

ولـــذا كان توطد مواقع حافظ علي الوثيق الارتباط بفرنســا يهدد المصالح السياسية والاقتصادية والستراتيجية ، لا لشركة الهند الشرقية وحسب ، بل ايضا للمستعمرين البريطانيين الذين كانوا يعتبرون العراق العربي واحدا من أهم رؤوس الجسور لاجل تعزيز نفوذهم في الشرق الاوسط والقسم الشمالي من الخليج العربـــي . ولهذا لقى حافظ علي في سنة ١٨٠٧ المصير الذى لقيه قبـــل ذاك باربع سنوات الامير السعودى عبد العزيز وفي السنة ذاتها نصير التقارب السعودى المسقطي السلطان بدر ، اى انه اغتيل .

ولكن خلفه ، كوتشوك سليمان سرعان ما بدأ هو ايضا يقاوم مصالح شركة الهند الشرقية الساعية الى تحويل البصرة الى نقطـــة ارتكاز في غاية الاهمية في شمال الخليج . ولهـــذا حاولـــت الديبلوماسية البريطانية ان تحمل البـــاب العالي على اقالة كوتشوك سليمان . وفي غضون ١٤ سنة – من سنة ١٨١٧ الى سنة ١٨٣١ – حكم داود باشا العراق . وقد حاول داود باشا ان يقضى على نظـام الامتيازات الذى كان برهق التجار المحليين ويؤمن لشركة الهنـد الشرقية بعض الامتيازات الكبيرة . ردا على ذلك ، دفعت شركـــة الهند الشرقية سفنها الحربية الى شط العرب والفرات ودجلـــة ، وقطعت المواصلات بين البصرة وبغداد . وردا على ذلك ، صادر داود باشا بضائع شركة الهند الشرقية واغلق مؤسساتها ومحطاتهـــا التجارية ، ونفى جميع مستخدميها من البلاد .

آنذاك اقدم المستعمرون البريطانيون على عمل اجرامي ، فقـد اثاروا نزاعا بين داود باشا واقطاعيي كردستان العراقي وامنـــوا لهؤلاء مساندة حاكم ايران فتح علي شاه . وفي الوقت نفسه لعبـوا الدور الحاسم في استثارة الحرب الروسية الايرانية (١٨٢٦–١٨٢٨) لكي يجعلوا فتح علي شاه اكثر ليونة واستكانة . وعند دراسة سياسة المستعمرين البريطانيين الماكيافيلية هذه ، لا بدّ من ان يخلص الدارس الى القول ان خلفاءهم في دور المدعين بالسيادة على الخليج العربي ، اصحاب المذهب السيئ الشهرة ، «مذهب كارتر» ، ونظريي الادارة الجمهورية في واشنطن ، يحاولون بعد مرور اكثر من ١٥٠ سنة ان يقلدوا تكتيك اسلافهم في هذه المنطقة .

بعد ان منى داود باشا ببعض الهزائم في المعارك ضد فصائل

القبائل الكردية وضد القوات الايرانية التى تساند هذه الفصائل ، اضطر الى التصالح مع شركة الهند الشرقية . وفضلا عن ذلك ، بدأ داود باشا ، بمساعدة مقيم الشركة الجديد فى بغداد العقيد تايلور ، ينشىء وحدات عسكرية جديدة ، وبنى ترسانة كبيرة فى بغداد . وكل هذا لقى التأييد التام من جانب المستعمرين البريطانيين الذين كانوا يحسبون ان يحول العراق الى أهم قاعدة فى الشرق الاوسط ويستغلوه ، لا لأجل الاستمرار فى توطيد وضعهم فى الخليج العربى وحسب ، بل ايضا كوسيلة للضغط على ايران . الا ان داود باشا ، لما فيه غضب الديبلوماسية البريطانية ، وقع فى سنة ١٨٢٨ ، معاهدة للصلح مع روسيا فى تركمانتشاى ارست الاساس لاجل تحسين العلاقات بين البلدين بصورة ملحوظة . وفى سنة ١٨٣١ ، استغل السلطان محمود الثانى وباء الطاعون الشديد الذى قوض موارد العراق وقضى على قسم كبير من جيشه ، فأقال داود باشا ، واقام الحكم التركى من جديد فى العراق ، واحبط الخطط البعيدة المدى التى حاكها اصحاب شركة الهند الشرقية .

وبعد ان منى المستعمرون البريطانيون بالفشل فى القسم الشمالى من الخليج العربى ، قاموا بمحاولات حازمة «للتعويض» عن الفشل فى ساحله الشرقى وساحله الغربى . ومن سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢ احتلوا مرة اخرى جزيرة حرج الايرانية ، مهددين منها المواقع الايرانية فى خوزستان والمواقع التركية فى البصرة .

وفى الوقت ذاته تقريبا ، — فى آب (اغسطس) ١٨٤٣ — اجبر البريطانيون شيوخ القبائل والامارات الذين وقعوا فى سنة ١٨٢٠ «المعاهدة العامة» على توقيع وثيقة جديدة اشد جورا ، اسميت «الاتفاقية الاولى بشأن وقف العمليات الحربية فى البحر» . وقد منحت هذه الاتفاقية المقيم البريطانى فى الخليج امتيازات اوسع من ذى قبل فى بسط الرقابة على الملاحة العربية وبالتالى على السفن والمصادر الاخرى لعيش السكان فى «ساحل القراصنة» .

ولكن هذا ايضا لم يكف المدعين البريطانيين بالسيادة على شعوب الخليج العربى . ففى سنة ١٨٥٣ وقع المشتركون فى الاتفاقية على معاهدة الصلح الابدى السيئة الشهرة . ان هذه المعاهدة لم تمنح السلطات البريطانية الحق الشرعى فى مكافحة

«القرصنة» ، كما كان الحال قبل ذاك ، وحسب ، بل منحتها ايضا الحق فى ان تتدخل ، بحجة الحرص على السلام ، فى جميع الاحداث الجارية على الساحل وان تقمع بالتـــالى بقوة السلاح حركة التحرر والميول الاتحادية لدى قبائل وشعوب ساحل الخليج العربى .

وبعد ذلك ، غير المستعمـرون البريطانيون ، وعلى اثرهـــم الجغرافيون والمؤرخون البرجوازيون اسم «ساحل القراصنة» بصورة مهيبة ورسمية ، وسموه ساحل الصلـــح البحرى . وهكذا وضـــع المستعمرون البريطانيون تحت حمايتهم ١٠ امارات فى القواسم ، وفصلوها عن عمان ومسقط ونجد ، ونزعوا القنـــاع الذى لم يبق بعد ذلك ضروريـــــا ، والذى كان يستر سياستهم العدوانية تحت اللافتة الانسانية ، لافتة «مكافحة القرصنة» ، وانعموا على انفسهـم شرفا مشكوكا فيه ، شرف القضاء على هذه الظاهرة (اى القرصنة) التى لم يكن لها وجود بالفعل .

وبما ان شعار مكافحة القرصنة قد لعب دورا ، وبما ان قسما كبيرا من الخليج لـــم يكن قد خضـــع بعد ، فقد شرع الدعاة وايديولوجيو التوسع الاستعمارى البريطانيون يستعملون «سلاحـا ايديولوجيا» جديدا هو مكافحة النخاسة . وبموجب عدد من وثائق البرلمان البريطانى قضى على النخاسة فى سنوات ١٨٣٣–١٨٣٨ فى جميع ممتلكات الامبراطورية البريطانية .

فى سنة ١٨٢٢ ، عندما تناول البحث بنجاح متفاوت فى اللجان العديدة التى شكلها البرلمان البريطانى الوثيقة الختامية المتعلقة بمنع العبودية فى جميع ممتلكات التاج البريطانى ، حمل العميـــل السياسى البريطانى فى مسقط السلطان سعيد بن سلطان على توقيع معاهدة تمنع رعايا مسقط تقديم العبيد . . . للدول المسيحية . ويفسر مزورو التاريخ البريطانيون هذه الوثيقة الغريبة بما يلى : بما ان المسلمين ترعرعوا مع النخاسة ، فلم يكن بوسع السلطان ان يجازف بنشر الالتزام بمنعها على رعاياه وعلى الدول الاسلاميـة الاخرى ، ولهذا كان لا بد من الاكتفاء بمنع النخاسة مـــع الدول المسيحية .

اما فى الواقع ، فان المستعمرين البريطانيين كانوا يهيئون فى الخفاء ذريعة جديدة لاجل التدخل فى شؤون السلطنة والخليج . وقد

كانوا يحسبون ان يستغلوا هذه الذريعة بعد ان يثبتوا نفوذهم فى ساحل الصلح البحرى ويمرروا عبر البرلمان الوثيقة الختامية بمنع النخاسة . وبالفعل ، اضطر سلطان مسقط فى سنة ١٨٣٨ الى الموافقة على منح السفن البريطانية الحق فى تفتيش سفن مسقط فى المياه الدولية لاجل معرفة ما اذا كانت تنقل عبيدا معدين للبيع من رعايا الدول المسيحية . وفى سنة ١٨٤٥ ، وقع السلطان تعهدا جديدا يمنع قطعا استيراد العبيد من زنجبار وسائر ممتلكات مسقط فى افريقيا . وهذا ما وسع بقدر كبير حقوق الاسطول البريطانى الرقابية فى المحيط الهندى والخليج العربى والبحر الاحمر ، لأن هذا اتاح للربابنة البريطانيين ان يفتشوا ويحتجزوا اية سفينة فى هذه المنطقة (ما عدا السفن الفرنسية) بحجة مكافحة النخاسة . وهكذا نال المستعمرون البريطانيون مخلا جديدا وفعالا جدا لاجل التأثير فى فروع من الاقتصاد حيوية الاهمية بالنسبة لشعوب بلدان الخليج العربى – اى فى الملاحة وبناء السفن والتجارة البحرية . وكانت المدرعات البريطانية تحتجز لزمن طويل سفن البلدان والمدن والاتحادات القبلية التى تعارض شركة الهند الشرقية وعملاءها واتباعها ، وتسوقها الى مرافىء مسقط لاجل التفتيش المديد وتسدد بالتالى ضربة مميتة الى تجارة وملاحة المنافسين والاعداء .

فى اواسط القرن التاسع عشر ، اعاد المستعمرون تنظيم ممتلكاتهم فى الهند واستعاضوا عن شركة الهند الشرقية الشائخة بحكم الهند المباشر وبجهاز استعمارى على رأسه حاكم عام يخضع مباشرة لوزير شؤون الهند صار عضوا كبير النفوذ فى الحكومة البريطانية . وفى الوقت ذاته بدأوا يوسعون مجال سيادتهم فى الخليج . ففى ١٨٥٦–١٨٥٧ ، احتلت القوات البريطانية للمرة الثالثة جزيرة حرج ونزلت فى بوشير بحجة معاقبة الحكومة الايرانية التى تحاول ان تضم هرات ، ثم لمناسبة نشوب الحرب الانجلو – ايرانية . وهكذا برهن التوسعيون البريطانيون من جديد ان جزر الخليج العربى وساحله الشرقى رؤوس جسور بالغة الاهمية لاجل العدوان على ايران .

فى اواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر ، بعد القضاء

بلا شفقة على رأس الخيمة ، عمد المستعمرون البريطانيون من جديد وبعد تثبيت اقدامهم في «ساحل القراصنة» ، الى ايلاء الاحساء والمناطق الاخرى المتاخمة لنجد اهتماما متصلا . ذلك ان دولة السعوديين الذين نقلوا عاصمتهم من داريا المدمرة الى الرياض اخذت تنبعث في منتصف العشرينيات في وسط الجزيرة العربية . وبقيادة الامير تركي ، وبعد اغتياله في سنة ١٨٣٤ - بقيادة ابنه ، رجل الدولة والقائد العسكري الموهوب فيصل ، استعاد السعوديون مواقعهم في نجد ، ونحو اوائل الثلاثينيات اخضعوا لرقابتهم من جديد الاحساء وجزر البحرين . وفي اواسط الثلاثينيات ، ظهرت قوات السعوديين في المناطق الداخلية من عمان وحتى من ساحل الصلح البحري . وكل هذا استثار الذعر بين الدمى البريطانية على الساحل وفي بومباي . وقامت شركة الهند الشرقية بمحاولة لتحقيق مساومة مع فيصل شرط الحفاظ على المواقع التي اكتسبتها على الساحل العربي من الخليج . ولكن السعوديين رفضوا هذا العرض لادراكهم ان نمو الميول التوحيدية والمناهضة للاستعمار في هذه المنطقة قد رافقه ظهور احتمال فعلي لكي يؤمنوا لدولتهم مخرجا ثابتا الى الخليج العربي .

في هذا الوضع المعقد ظهرت القوات المسلحة المصرية من جديد في الجزيرة العربية . ففي سنة ١٨٣١ بدأ محمد علي الحرب ضد السلطان التركي محمود الثاني ، وقد اضطر السلطان الى تسليمه حكم سوريا وفلسطين اثر هزائم ماحقة . وفي الوقت نفسه احتلت القوات المصرية من جديد مكة المكرمة وبدأت تهاجم الرياض . وانهارت دولة السعوديين الثانية تحت ضربات القوات المصرية المدربة والمسلحة بشكل جيد . وفي سنة ١٨٣٩ ، عندما شن محمد علي حربا ثانية ضد تركيا واكره شريف مكة في هذه الحال على اعلان الجهاد ضد الاتراك «الكفار» وصلت القوات المصرية للمرة الثانية الى ساحل الخليج .

وفي وجه تحرك القوات المصرية في الشرق الاوسط وبخاصة في منطقة الخليج العربي قررت الحكومة البريطانية ان تطالب عبد المجيد السلطان التركي الجديد برفض جميع عروض المساومة التي تقدم بها الحاكم المصري في سعيه الى عقد الصلح مع الباب العالي

شرط ان تخضع له سوريا . وفى ربيع سنة ١٨٤٠ استثار عملاء بريطانيا انتفاضة ضد القوات المصرية فى مناطق لبنان الجبلية ، وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ انزلت بريطانيا قوات شمالى بيروت ثم قصف الاسطول البريطانى المدن المصرية وحاصر الاسكندرية . وفى ٢٧ تشريـــن الثانى (نوفمبر) ١٨٤٠ ، اضطر محمد على الى الاستسلام والتعهد بسحب قواته من سوريا وفلسطين والعربية .

فى علم التاريخ البرجوازى لا يزال ينتشر حتى الآن زعم مفاده ان السعى الى صيانة وحدة الامبراطورية العثمانية كان السبب الوحيد الذى حمل الحكومة البريطانية على القيام بمثل هذه الاعمال الحاسمة .

الا ان وثائق الارشيف الوطنى الهندى وارشيف الدولـــة فى بريطانيا العظمى تدل على ان السبب الجوهرى الذى حمل بريطانيا العظمى على القيام بهذه الاعمال كان الخوف من احتمال توطد مواقع المصريين فى الساحل الغربى من الخليج وتوحيد الجزيرة تحت كنف القاهرة . ولتحاشى ذلك ، تدخل حكام بريطانيا العظمى فى الحرب فى الشرق الاوسط مجازفين باستثارة نزاع جدى مع فرنسا التى تدعم محمد على ، وعبأوا القوات المسلحة فى الهند . وعدا ذلك ، ارسلوا عمارة الهند الشرقية الى بحر العرب والخليـــج العربى ، واستولوا فى سنة ١٨٣٩ على عدن بحجة شرائها من سلطان لحج ، وحولوها الى حصن للمستعمرين البريطانيين فى جنوب العربية ، وعززوا كثيرا مساعداتهم العسكرية والمالية لسلطان مسقط .

استغلت الاوساط الاستعماريـــة البريطانية ثمار انتصارات المصريين على الامير السعودى فيصل ، ثم سحب القوات المصرية بتسرع من العربية الشرقية من جراء استسلام محمد علي ، فنشطت جهودها لتوطيد مواقعها فى القسم الاوسط من الساحل العربى فى الخليج . وهذه المرة ، اولت البحرين وقطر انتباها خاصا . فقد رفض شيخا هاتين الامارتين الانضمـــام الى معاهدة السلام الابدى المعقودة سنة ١٨٥٣ . وفضلا عن ذلك ، استقبـــل محمد الخليفة حاكم البحرين فى اوائل سنة ١٨٦٠ بعثة ايرانية واعترف بسيادة ايران على جزر البحرين . وكان ذلك كافيا لتوجيه اسطول حربى قوى برئاسة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الى المنامة عاصمة جزر البحرين .

فى ٣١ ايار (مايو) ١٨٦١ ، وقع شيخ البحرين تحت فوهات مدافع الاسطول البريطانى حقا وفعلا ، معاهدة انضمت بموجبها امارته الى معاهدتى سنة ١٨٤٣ وسنة ١٨٥٣ «لمكافحة القرصنة» ، واخضعت للرقابة البريطانية السياسة الخارجية والتجارة الخارجيـــة وحتى المصدر الرئيسى للدخل ، اى استخراج اللؤلؤ البحرانى الشهير . ثم ان السلطات الاستعمارية الانجلو — هندية وافقت بدورها بسخاء وشهامة على حماية البحرين من الاعداء الخارجيين . وهكذا اقيمت حماية بريطانيـــا العظمى فعلا على جزر البحرين المهمة من الناحية الستراتيجية . وكانت هذه المعاهدة تتسم بالنسبة لبريطانيا باهمية اضافية : بما ان شيخ البحرين كان يدعى بالرقابة على القسم الشمالى الغربى من شبـــه جزيرة قطر ، فقد ورث الحماة الجدد ادعاءاتــه تلقائيا . وهكذا اكتسبت بريطانيا العظمى نحو اواخر الستينيات من القرن التاسع عشر نفوذا سائدا فى مسقط ، وساحل الصلح البحرى وهرمز وجزيرة حرج والبحرين وقسم كبير من قطر . وكل هذا كان له تأثير سلبى جدا فى وضع سكان بلدان هذه المنطقة الشاسعة ومستوى حياتهم ، وتطورهم الاقتصادى والثقافى .

ولكن تغيرات جوهرية طرأت على نسبة القوى فى الخليج منذ اوائل السبعينيات واقلقت جديـا ، لا السلطات الانجلو — هندية وحسب ، بل ايضا الحكومة البريطانية .

فى اواخر الستينيات قويت الامبراطورية العثمانية بعض الشىء بفضل تطبيق عدد من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ، فأسرعت الاوساط الحاكمة التركية تستغل هذه التقوية لاجل تعزيز مواقعها فى العراق وفى الجزيرة العربية . وقد اسهم افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ فى تحقيق هذه الخطط ، اذ انه اتاح للباب العالى ارسال قواته بحرا من الاناضول الى مرافىء الجزيرة والخليج . وفى سنتى ١٨٧١و١٨٧٢ نزل فيلق تركى كبير فى الحديدة وشرع يحتل اليمن . وفى الوقت نفسه ، لم تبعث القوات التركية بقيادة مدحت باشا حاكم باشاوية بغداد السلطة التركية كليا فى اسافل شط العرب وحسب ، بل احتلت كذلك منطقة الساحل الغربى من الخليج تقريبا ، من الكويت الى ساحل الصلح البحرى . وفى مرفأ الاحساء

الرئيسى – القطيف – وفى مدينة قطر الرئيسية – الدوحة – ظهرت حاميتان تركيتان .

ونظرا لهذه الاحداث ، اعلنت حالة الاستعداد القتالى فى عموم الجهاز الاستعمارى البريطانى فى المحيط الهندى والبحر الاحمر والخليج العربى . وبدأوا يبحثون بحمية ونشاط صيغ التدابير المضادة التى كان ينبغى اتخاذها لتحاشى ضعف المواقع البريطانية . وارسل المقيم البريطانى فى الخليج العقيد بيللى ، الذى كان مقره فى مدينة بوشير ، الى كلكوتا ولندن تقريرا أثبت فيه ان التوسع التركى فى الخليج العربى هو نتيجة للتواطؤ الروسى التركى وانه يشكل بالتالى خطرا خاصا على بريطانيا العظمى . ان وجهة هذا التقرير تؤكد ان المقيم البريطانى كان حسن الاطلاع على امزجة العداء للروس فى الاوساط الحاكمة البريطانية . وعليها تدل بصورة مقنعة رسالة رئيس وزراء بريطانيا العظمى ديسرايلى بتاريخ ٢٢ حزيران (يونيو) ١٨٧٧ الى الملكة فكتوريا التى نودى بها قبل ذلك بسنة «امبراطورة الهند» . فقد جاء فى الرسالة : «يجب مهاجمة روسيا من آسيا ، يجب ارسال القوات الى الخليج العربى ، ويجب ان تأمر امبراطورة الهند جيوشها بتطهير آسيا الوسطى من الموسكوفيين وترمى بهم فى بحر قزوين» (١٣) .

فى ايار (مايو) ١٨٧٩ ، وضع نائب الملك فى الهند اللورد ليتون – نصير انتهاج سياسة نشيطة ضد المسلمين ، واحد المبادرين الرئيسيين الى شن الحرب الثانية ضد افغانستان (١٨٧٨–١٨٨٠) ، برنامجا لتوسيع النفوذ البريطانى فى الخليج العربى الى اقصى حد . واقترح تحويل جميع امارات الخليج جنوبى الكويت الى اتباع للامبراطورية البريطانية والزامها بدفع جزية (١٤) . ومما له دلالته ان البرنامج قد وضع بعد ان بسطت بريطانيا العظمى رقابتها على قناة السويس واحتلت قبرص واستولت على عدن وجزيرة سقطرة ، وفى مرحلة اشتداد الاستعدادات لاحتلال مصر . وهكذا كان البرنامج جزءا من خطة الاوساط الاستعمارية البريطانية الساعية الى تحويل منطقة شاسعة من العالم الاسلامى الى محمية بريطانية .

ينبغى النظر الى التوسع البريطانى فى الخليج العربى ، لا فى اطار الخطط المحاكة فى لندن لاستعباد العالم العربى وحسب ، بل

ايضا على ضوء توسع الاحتكارات البريطانية توسعا كبيرا فى الشرق الاوسط . ففى الستينيات والسبعينيات (١٨٦٢ ، ١٨٦٥ ، ١٨٧٢) انتزعت بريطانيا العظمى من حكومة الشاه امتيازا ببناء واستغلال الخط التلغرافى خانقين – طهران – بوشير . وهناك اوصل هذا الخط بالكابل البحرى البريطانى بوشير – جاسك – مسقط – كاراتشي . وهكذا انشىء التلغراف الهندى الاوروبى الذى ربطت اسلاكه لندن مع بومباى ولفت بشبكة كثيفة من التبعية الاقتصادية والسياسية ايران وامارات الخليج العربى . وفى السنة ذاتها ، سنة ١٨٧٢ ، نال المالى البريطانى رويتر – ، مؤسس وكالة الانباء الشهيرة – امتيازا ينص على بناء سكة حديدية عبر ايران مرفقة بكثرة من الشعب ، وعلى بناء طرق للعربات فى عموم ايران ، وعلى الحق فى استغلال مكامن الفحم والبترول والخامات الحديدية والرصاص بصورة احتكارية ، وكذلك على الحق فى استثمار غابات الدولة . وحتى الامبريالى المحنك اللورد كرزون كتب فى هذا الصدد يقول : «حين نشر نص الاتفاق ، اعتبروه بمثابة عملية لا سابق لها لوضع جميع موارد البلد الصناعية فى ايدى الاجانب» (١٥) .

وفى الوقت نفسه بذل الديبلوماسيون والجواسيس البريطانيون قصارى الجهد لتقسيم بلوجستان واقامة حدود اصطناعية بين الهند البريطانية وافغانستان وايران عبر اراضي بلوجستان . وفى سنة ١٨٧٦ وقع خان كلات – وهي اكبر امارة فى بلوجستان ، – على معاهدة جائرة جديدة مع السلطات الانجلو – هندية «جعلتنا اسياد كلات الفعليين بدون الحاق هذا البلد» (١٦) ، – كما كتب اللورد ليتون باعتزاز الى الملكة فكتوريا .

وفى الوقت ذاته تقريبا (١٨٧١–١٨٧٣) ، عينت لجنة انجلو – ايرانية – بلوجستانية برئاسة الجنرال الانجليزى غولدسميث وتحكمه الفعلى ورسمت جزئيا على الارض الحدود الايرانية البلوجستانية (حاليا الباكستانية) من غوادر الى مدينة كوخ . و«تحوطا لكل طارئ» ، تركت غوادر فى يد تابع بريطانيا ، سلطان مسقط .

فى اواخر السبعينيات ، فى مرحلة الحرب الانجلو – افغانية الثانية ، قاد الجنرالات والجواسيس البريطانيون تدخل القوات

البريطانية فى كابول واعدوا تقسيم افغانستان الى بضع خانيات تابعة ، بما فيها خانية كابول وخانية قندهار وخانية هرات .

تدل الوقائع المذكورة انه ينبغى النظر الى المرحلة الجديدة من العدوان البريطانى فى الخليج على التخوم بين السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر ضمن اطار التوسع البريطانى فى العالم العربى وضمن خطط التوسع البريطانى فى ايران وبلوجستان وافغانستان ، هذه الخطط التى كان الخليج العربى يشغل فيها مكانا خاصا . فكأن الخليج العربى كان يجمع جناحى العدوان البريطانى — الجناح العربى والجناح الافغانى — ويؤمن امكانيات اضافية امام المستعمرين البريطانيين لاجل التغلغل الى اهم مناطق العالم الاسلامى — فى الغرب — الى الجزيرة العربية ، فى الشمال الى العراق وايران ، فى الشمال الشرقى الى بلوجستان وافغانستان . وهذا ما كان يفرضه عاملان : اولا ، الموقع المتوسط للخليج ، ثانيا ، كان من خارق الاهمية بالنسبة لبريطانيا العظمى ، — الدولة التى تملك قوى برية صغيرة نسبيا واسطولا جبارا — ان تحول الخليج الى حوض هائل لاجل القفز الى الشرقين الادنى والاوسط .

بعد مائة سنة بالضبط ، على التخوم بين السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين ، يحاول ورثة المستعمرين البريطانيين — المعتدون الاميركيون — ان يستغلوا خاصة الخليج العربى هذه لاجل تحقيق خططهم الاغتصابية . كذلك ليس من قبيل الصدفة حشد الامبرياليون الاميركيون فى بحر العرب — عند مشارف الخليج العربى — فى اوائل الثمانينيات بضع عمارات من حاملات الطائرات ، والطائرات والصواريخ ، وكلها تهدد الشعوب الاسلامية فى الجزيرة العربية والعراق وايران وافغانستان .

فى اواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر تناول البحث بالتفصيل فى بضع جلسات للحكومة البريطانية خطط نائب الملك فى الهند ليتون للاستيلاء على كل منطقة الخليج جنوبى الكويت . وقد تبين انه لا يمكن تحقيق هذه الخطط بكليتها ، بسبب من تأزم العلاقات الانجلو — روسية والعلاقات الانجلو — فرنسية فى آن

واحد . ولهذا تقرر تطبيق تكتيك التقدم التدريجي فى الخليج العربى .

وتقرر ان تكون شبه جزيرة قطر الضحية الاولى ، اذ انها مهمة من الناحية الستراتيجية وتفتح الطريق لاجل التغلغل لاحقا نحو الغرب - الى الاحساء ، ونحو الشمال - الى الكويت . وكانت المهمة الاولى تقضى بتقويض النفوذ التركى فى شبه الجزيرة الذى كانت فى عاصمته حامية تركية . وعند تنفيذ «عملية قطر» ، طبق المستعمرون البريطانيون طريقتهم المفضلة - استثارة النزاعات الحدودية بين الدول الاسلامية المتجاورة وذلك لكى يعززوا مواقعهم ، فعلا ، فى البلدين المتنازعين معا ، بحجة حماية احدهما من الآخر . ولهذا اخذ العملاء البريطانيون يستثيرون فى جنوب شرقى قطر مصادمات حدودية مع القبائل الخاضعة لسلطة شيخ ابو ظبى ، وهى اكبر امارة بين امارات ساحل الصلح البحرى . ولم تستطع الحامية التركية الضعيفة فى الدوحة ان تدعم مصالح قطر خصوصا وان السفير البريطانى فى اسطمبول حمل السلطان عبد الحميد على منع ارسال المدد الى هناك .

وفى الوقت نفسه تقريبا ، استثيرت مصادمات خطيرة بين قطر والبحرين التى كان حاكمها يدعى بالرقابة على القسم الشمالى الغربى من شبه جزيرة قطر . وفى سنة ١٨٩٥ ، عمد الاسطول البريطانى الى دعم ادعاءات حاكم البحرين فقصف القرى الساحلية فى قطر قاضيا على جميع الزوارق والمراكب التى تخص السكان المحليين . وبما ان هذه كانت المصدر الوحيد للعيش لاجل معظم السكان فى شبه الجزيرة ، فقد حكم عليهم عمليا بالموت جوعا . واذا اجرينا مقارنة بين هذه الاعمال وبين الاعمال المماثلة التى قام بها المعتدون البريطانيون ضد سكان القواسم والمدن العربية الاخرى فى منطقة هرمز - بندر عباس ، امكننا التأكيد ان هذا الاسلوب كان من اوسع اساليب المستعمرين البريطانيين التكتيكية انتشارا فى الخليج . ان اعمال المعتدين البريطانيين فى قطر قد احدثت انطباعا على درجة من القوة بحيث ان «السلطان الدموى» عبد الحميد الثانى نفسه قد ندد بها ، بعد مدة طويلة فى فصل خاص من كتابه «افكار وذكريات» عنوانه «وحشيات الانجليز» .

ان احداث سنة ١٨٩٥ قد اسفرت عن ضعف المواقع التركية فى قطر بنحو ملحوظ وعن تعزيز المواقع الانجليزية بنحو جوهرى . ومذ ذاك على وجه الضبط اخذ شيوخ شبه جزيرة قطر ، وكذلك حكام امارات ساحل الصلح البحرى وجزر البحرين يتحولون اكثر فاكثر الى منفذين طيعين لارادة المقيم البريطانى فى الخليج ، واخذ سكان هذه الامارات يتحملون نيرا مزدوجا - نير اقطاعييهم ونير المستعمرين البريطانيين . وقد كانت المعاهدة الانجلو - مسقطية المعقودة سنة ١٧٩٨ ، كما سبق ان قلنا ، مرحلة مهمة فى طريق تغلغل المستعمرين البريطانيين فى الخليج العربى . ومذ ذاك ، توطدت مواقع المستعمرين البريطانيين فى السلطنة . وقد استغلوا على نطاق واسع اسطول سلطنة مسقط وقواعدها ونفوذها لاجل التغلغل فى منطقة ساحل الصلح وبخاصة فى الاراضى البعيدة عن الشاطىء ، وفى جزر البحرين . وفى الوقت نفسه ، بذل المستعمرون البريطانيون قصارى جهدهم ، مواصلين سياستهم القديمة ، لاجل فصل ساحل الصلح ومسقط عن امامة عمان نهائيا .

وكانت سلطنة مسقط تتسم باهمية كبيرة بالنسبة للمستعمرين البريطانيين لسبب آخر ايضا هو ان جزر زنجبار وبمبا ورقعا شاسعة من الاراضى على الساحل الافريقى الشرقى كانت تخصها منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ان الرقابة على مسقط كانت تؤمن لبريطانيا العظمى امكانيات كبيرة لاجل التغلغل فى اعالى النيل وتوطيد نفوذها فى القسم الشرقي من البحر الاحمر . وهذا ما فتح بدوره آفاقا اضافية لاجل التغلغل فى السودان والمناطق الشرقية من مصر . هكذا كانت الصلة المتبادلة بين السياسة الاستعمارية للاحتكارات البريطانية فى الخليج العربى والبحر الاحمر والقرن الافريقى .

ولكن تقوّى سلطنة مسقط كان يناقض مصالح المستعمرين البريطانيين ، اذ كان بوسعه ان يؤدى الى استقلال حكامها . ولهذا تدخلت السلطات البريطانية بكل همة فى سنة ١٨٥٦ ، بعد وفاة السلطان سعيد بن سلطان ، فى النزاع السلالى بسبب الارث . وفى سنة ١٨٦١ ، فرض نائب الملك فى الهند كانينغ على الطامحين بعرش مسقط تحكيمه القسرى ، الذى قسمت بموجبه سلطنة مسقط

الى دولتين اسلاميتين هما سلطنة زنجبار وسلطنة مسقط . وتعهد سلطان زنجبار بان يدفع سنويا لمسقط ٨٦ الف روبيه كتعويض عن فقدان حكام مسقط للمداخيل من جراء فصل زنجبار . ولكن حكام زنجبار استغلوا الصراع العائلي الدموي في سلطنة مسقط (١٨٦٨-١٨٧١) ذريعة لاجل الكف عن دفع التعويضات .

في سنة ١٨٧٣ ، بعد ان ارتقى الى عرش مسقط بمساعدة المستعمرين البريطانيين صنيعتهم تركي ، شرعت السلطات الانجلو - هندية تدفع التعويض من اموالها «الخاصة» . ان النقود المبتزة باستثمار شعوب هندوستان بلا رحمة كانت تحال الى صنيعة المستعمرين البريطانيين في مسقط لاجل توسيع منطقة السيادة الاستعمارية البريطانية الى اقصى حد في الجزيرة والخليج .

في اوائل العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، بدأت مرحلة جديدة من السياسة البريطانية في الخليج العربي . ففي ٢٠ آذار (مارس) ١٨٩١ تم التوقيع على معاهدة انجلو - مسقطية سرية حولت شرعا وقانونا السلطنة الى محمية بريطانية . ولهذه الوثيقة اهمية خاصة . اولا تسجلت فيها للمرة الاولى اقامة الحماية البريطانية على امارة من امارات الخليج ، بدون اي قناع وبدون اية استشهادات مرائية بضرورة النضال ضد القرصنة او ضد النخاسة . ثانيا ، لجأت السلطات الاستعمارية البريطانية للمرة الاولى الى شكل المعاهدة السري الذي حرم حاكم الامارة الاستقلال ولكنه صان في الوقت ذاته طابع علاقته مع بريطانيا العظمى في السر ، الامر الذي اتاح للحكومة البريطانية ان تتحاشى الى وقت معين النزاعات مع المزاحمين الاوروبيين . فبموجب الاتفاقية الانجلو - فرنسية المعقودة سنة ١٨٦٢ ، مثلا ، تعهد الطرفان بمراعاة استقلال سلطنتي زنجبار ومسقط . ولهذا ، لو عرفوا في باريس بالمعاهدة الانجلو - مسقطية المعقودة سنة ١٨٩١ والتي تناقض هذه الاتفاقية كليا ، لكانت المعاهدة استثارت ، بلا ريب ، مقاومة حادة من جانب فرنسا . ان المعاهدة الانجلو - مسقطية صارت موديلا اصيلا استغله المستعمرون البريطانيون فيما بعد لاجل فرض حمايتهم على امارات الخليج الاسلامية الاخرى .

وكانت معاهدة ١٨٩١ تتسم بسمة مميزة اخرى مفادها ان حاكم السلطنة قد أسمى فيها للمرة الاولى «سلطان مسقط وعمان» ، الامر الذى كان يدل على الخطط البعيدة المدى التى حاكتها الامبريالية البريطانية حيال امامة عمان ايضا . وقد دامت هذه المعاهدة حتى سنة ١٩٥٨ ضمنا ، حين استعيض عنها بمعاهدة جديدة ، سرية ايضا ، تضع تحت تصرف الامبرياليين البريطانيين جزيرة مصيرة المهمة من الناحية الستراتيجية . ونحو اوائل الثمانينيات من القرن العشرين اخذت الجزيرة تتحـــول ، بعون السلطات البريطانيـــة النشيط ، الى قاعدة مهمة جدا للقوات المسلحة البحرية والجوية الاميركية عند مشارف الخليـــج والجزيرة ، واهم مراكز الاسلام الدينية — مكة المكرمة والمدينة المنورة .

من جراء استعباد مسقط وساحل الصلح البحرى وجزر البحرين وقطر الذى رافقه التقدم عمقا فى الخليج العربى وتقوية مواقـع بريطانيا العظمى الاقتصاديـــة والسياسية فى حوضى شط العرب والقارون ، انغلق الطوق تدريجيا حول منطقة من اهم مناطق الخليج ، عنينا بها مشيخة الكويت التى كان مركزها ، مدينـــة الكويت ، المرفأ الرئيسى فى القسم الشمالى الغربى من الخليج . وفى نهاية القرن التاســـع عشر بالذات ، فرضت السلطات الاستعماريـــة البريطانية فى الخليج العربى على مبارك الصباح فى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ معاهدة جائرة حولت الكويت عمليـــا الى محميـــة بريطانية وذلك بلجوئهـــا على نطاق واسع الى سياسة السوط والكعكة ، واستثارة المصادمـات بين الكويت والقبائل العربيـــة المجاورة ، وتخويف حاكـــم الكويت ، مبارك ، لا بالخطر التركى وحسب ، بل ايضـــا بالخطط الخرافية التى تحوكهـــا القيصرية الروسية ، كما يزعم ، لاخضاع مشيخة الكويت . وكانت للمعاهدة اهمية ستراتيجية واقتصادية كبيرة . وقد جاء فى المطبوعة المشهورة «الكارتل البترولى العالمى» المنشورة فى سنة ١٩٥٢ بتكليف من اللجنة التجارية الاتحادية فى الولايات المتحدة الاميركية : «المقدمات السياسية التى ادت الى اكتساب «غولف اكسبلوريشن كومبانى» ٥٠٪ من الاسهم فى «كويت اويل كومبانى» قد سبق ان ظهرت فى سنة ١٨٩٩ حين عقد مبارك شيخ الكويت اتفاقية مع المقيم السياسى

للحكومة البريطانية فى منطقة الخليج العربى» (١٧) . وكان النصف الثانى من الاسهم فى «كويت اويل كومبانى» يخص «بريتيش بتروليوم» اى الحكومة البريطانية حتى اواسط السبعينيات من القرن الحالى ضمنا . ومن هنا ينجم ان الاحتكارات البترولية والاوساط الحاكمة فى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية قد ابتزت خلال ٧٥ سنة تقريبا المليارات من الارباح بفضل المعاهدة الانجلو - كويتية المعقودة سنة ١٨٩٩ ، رغم ان هذه المعاهدة الغيت فى سنة ١٩٦١ حين نالت الكويت فى آخر المطاف الاستقلال التام .

ان المؤرخين البريطانيين والاميركيين المعاصرين ، سعيا منهم بجميع الوسائل الى تصوير بريطانيا بصورة المحسنة على شعوب البلدان الاسلامية وبخاصة على شعوب بلدان الخليج العربى ، لا يزالون يزعمون ان الشيخ مبارك الذى كان يفتش عن الحماية من «الخطر الروسى» ، وليس بريطانيا ، هو الذى كان صاحب المبادرة الى معاهدة ١٨٩٩ . الا انه تسنى لمؤلف هذا الكتاب ان يكتشف فى ارشيف السياسة الخارجية فى روسيا اصول ثلاث رسائل ارسلها مبارك فى نيسان (ابريل) ١٩٠١ الى كروغلوف قنصل روسيا العام فى بغداد ، وتضمنت طلبا ملحا من حكومة روسيا بان تحمى المشيخة من الدسائس البريطانية . ولهذا الغرض اقترح مبارك حتى رفع العلم الروسى على الكويت (١٨) .

وهكذا تلقى الدحض محاولة اخرى للتزييف والتزوير قام بها مداحو ومحامو الامبريالية البريطانية والاميركية المستغرقون فى بحوث محمومة عن «المصادر التاريخية» «للخطر» السوفييتى فى الخليج العربى .

فى سنة ١٨٩٨ ، عينت الحكومة البريطانية ، رغم معارضة الحزب الليبيرالى (حزب الاحرار) والرأى العام التقدمى فى البلاد ، واحدا من اشد زعماء الاوساط الاستعمارية اغراقا فى العدوان ، هو اللورد كرزون ، نائبا للملك فى الهند . وكان كرزون معروفا كنصير نشيط للسياسة الهجومية فى آسيا وبخاصة فى اتجاه التيبت وافغانستان ، وكعدو لدود لروسيا . ولكنه معروف بنحو اقل ان كرزون كان يعتبر منذ الايام الاولى بالذات من نشاطه

السياسى وحتى وفاته فى سنة ١٩٢٣ عندما كان وزيرا للخارجية البريطانية ، ان هدفه الرئيسى انجـــاز تحويل الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية» والاحتفاظ بهذا الوضع «الى الابد» .

لقد سبق ان عرض كرزون نظرته الى السياسة البريطانيـة حيال الخليج العربى فى سنة ١٨٩٢ فى مؤلف من مجلدين اسمه «بلاد فارس والمسألة الفارسية» . وقد كتب فيه ، مزورا التاريخ : «ان ميناء روسيا فى الخليج العربى ، هذا الحلم العزيز على قلوب العديدين والعديدين من الوطنيين من على ضفاف النيفا والفولغا ، يحمل حتى فى زمن السلم عنصرا من التشويش الى حياة الخليج ، ويخل بالتوازن الدقيق الناشىء بفضل الجهود الكبيرة ، ويدمــر التجارة المقيمة بملايين وملايين الجنيهات السترلينيــة ، ويؤجج مشاعر المتعصبين القوميين الميالــن الى القتال ، المستعدين على الدوام للامساك بخناق بعضهم بعضا . . . سأعتبر تنازل اى دولة عن مينـــاء لروسيـــا فى الخليج العربى اهانة متعمدة لبريطانيا ، وانتهاكا غير مبدئى للوضع القائــم ، واستفزازا للحرب . انى سأتهم الوزير البريطانى الذى سيكون مسؤولا عن اجـــازة ذلك بخيانة وطنه» (١٩) .

فى سنة ١٨٩٨ ، اصبح كرزون نائبا للملك فى الهند ، فشرع على الفور فى تنفيذ خططه البعيدة المدى حيال الخليج العربى . وكما هو الحال دائما فى مثل هذه الظروف ، استعملت فى البدء طرائق الافتراء والتزوير وتشويه المعلومات . وقد نشرت الجريدة الانجلو – هندية «تايمس اوف انديا» الخاضعة آنذاك لرقابة كرزون التامة سلسلة من المقالات الاستفزازية تحت العنوان العام «الجواسيس الروس فى الخليج العربى» (٨ تشرين الاول – اكتوبر – ١٨٩٨ ، ١٨ شباط – فبراير ، ٢٩ نيسان – ابريل ١٨٩٩) .

وفى اواخر نيسان (ابريل) ١٨٩٩ ، بدأت الصحافة الانجلو – هندية ، وفى المقام الاول منها «تايمس اوف انديـا» ولسان حال الاوساط العسكرية «بايونير» تنشر سلسلة من المقالات «الفاضحة» عن الاتفاقية الروسية الايرانية السرية تماما ، التى وقعت للتو كما زعم ، والتى نصت على جعل بندر عباس النقطة الاخيرة لسكـــة حديدية روسية عابرة لايران وقاعدة بحرية حربية لروسيا . الا ان

وثائق الارشيف الوطني فى الهند تشهد على ان كرزون ، رغم التكذيب القاطع من جانب حكومتي روسيا وايران ، ورغم ابلاغ الحكومة البريطانية ان هذه الاشاعات تناقض الواقع ، طلب من الصحافة انجلو - هندية مواصلة الحملة الاستفزازية .

منى كرزون بالفشل فى سنة ١٨٩٩ ، ولكنه هو ومساعده فريزر (آنذاك رئيس تحرير «تايمس اوف انديا») صاحب مقالة المديح المنافق والمتملق «الهند تحت حكم كرزون» ، اسرعا لاخذ الثأر بعد سنة حين زارت السفينة الحربية الروسية «غيلياك» للمرة الاولى مرافىء الخليج العربى . فبما ان سعة عنابر «غيلياك» لم تكن كبيرة جدا ، فقد قرر آمرها الذى اوصى لدى شركة فى بومباى على ٣٠٠ طن من الفحم بشرط ايصالها الى بندر عباس ، ان يترك على الساحل ١٠٠ طن لكى يأخذها بعد انتهاء الجولة فى الخليج العربى . وفى الحال امر كرزون فريزر بشن حملة نشيطة فى الجرائد بغية البرهنة على ان هذه محاولة مموهه من الروس للاستيلاء بلا اذن على قاعدة فى بندر عباس . وقد انقضى شهرا آذار ونيسان (مارس وابريل) ١٩٠٠ تحت شعار النضال ضد «الخطر الروسى» فى بندر عباس . ونظم انصار كرزون فى البرلمان البريطانى بضعة استجوابات حازمة . وبالنتيجة حمل الرسول البريطانى فى طهران الحكومة الايرانية على امر محافظ بندر عباس بمنع ابقاء الفحم لاجل «غيلياك» وان اسبوعا . وهكذا انقذت يقظة كرزون بندر عباس من «الخطر الروسى» الرهيب !

بهذه الطرائق وما ماثلها ، خلق كرزون واعوانه جوا من الذعر فى اوساط الحزب المحافظ فى بريطانيا العظمى . وانتشرت اشاعات غريبة عن خطط روسية ، والمانية ، وفرنسية ، وفرنسية روسية لانشاء قواعد حربية فى الخليج العربى .

وفى هذا الوضع المتوتر الناشىء بهذا النحو ، جرت فى البرلمان البريطانى فى ٥ ايار (مايو) ١٩٠٣ مناقشات حول الوضع فى الخليج العربى . وقد انتهت هذه المناقشات ببيان رسمى ادلى به وزير الخارجية لنسدوون الذى كان يشغل قبل ذاك منصب نائب الملك فى الهند ووزير الحربية البريطانية . وفى هذا البيان صيغ موقف المحافظين على النحو التالى : «سنعتبر انشاء قاعدة بحرية حربية او

مرفأ محصن فى الخليج العربى من قبل اية دولة خطرا جديا على المصالح البريطانية ، وسنقاوم ذلك بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفنا» (٢٠) .

بعد مثل هذا الاعداد النفسانى والسياسى الشامل ، استطاع كرزون فى آخر المطاف ان يشرع فى تحقيق حلمه القديم — الطواف بمهابة واحتفال على مرافىء الخليج العربى على رأس اسطول حربى . وقد سبق ان تقدم بهذه الخطة فى سنة ١٩٠١ ، ولكن الحكومة البريطانية كانت تخشى آنذاك ، فى اوج الحرب الانجلو — بورية ، ان يتأزم وضع بريطانيا العظمى الدولى فوق ما هو عليه من اقصى التأزم والتعقد . وفى خريف ١٩٠٣ تغير الوضع ، ناهيك بان الاعداد السياسى والدعائى لهذا الحدث كان قد انتهى .

استغل كرزون علاقاته الودية مع وزير القوات البحرية البريطانية سلبورن فتوصل الى ادراج الطراد الثقيل «ارغونوت» — وهو احدث قطعة من قوام اسطول بريطانيا العظمى فى الشرق الاقصى — فى عداد سفن عمارة الهند الشرقية من القوات البحرية البريطانية التى كان ينبغى ان ترافقه فى جولته . وفى تلك السنوات كان الطراد «ارغونوت» يقوم بوظائف تشبه كثيرا وظائف الاسطول السابع الاميركى الذى ينطلق منه حاليا قسم كبير من حاملات الطائرات والطرادات حاملة الصواريخ التى تهدد بلدان الخليج العربى .

ان كرزون قد عرض على المكشوف فى رسالة سرية ارسلها إلى وزير شؤون الهند اللورد هاملتون فى ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٣ الاهداف التى اراد بلوغها من جولته فى الخليج . فقد كتب : «ان الهدف يتلخص فى التأكيد امام العالم كله على المواقع السياسية والاقتصادية السائدة لبريطانيا فى مياه الخليج العربى» (٢١) .

وكانت حكومة بريطانيا العظمى تشاطر كليا نظرات كرزون فى هذه المسألة ، الامر الذى اكده بيان لنسدوون المذكور فى ٥ ايار (مايو) ١٩٠٣ فى البرلمان ووضع ٧ سفن حربية بريطانية ، بينها ٣ طرادات من المرتبة الاولى ، تحت تصرف كرزون . وهذا ما اكده القائد الفعلى لكل النشاط الدعائى الخارجى الذى كانت تقوم به السلطات الاستعمارية فى الهند فى عهد كرزون ، لوفات فريزر ،

واللورد رونالدى ، صاحب المديح والدفاع شبه الرسمى – سيرة حيـاة كرزون بثلاثة مجلدات – الذى كتب ان زيارة كرزون كانت تحقيقا فى الواقع لعزم الاوساط الحاكمـة البريطانية على عرض صيغتها لمذهب مونرو القائل فى هذه الحال ان الخليج العربى بحيرة بريطانية (٢٢) .

دامت زيارة كرزون الى مرافىء الخليج العربى زهاء ثلاثـة اسابيع – من ١٧ تشرين الثانى (نوفمبـر) الى ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٣ . وفى هذه الحقبة ، زار مسقط والشارقة وبندر عباس والكويت والبحرين . وعلى متون «ارغونوت» و«غاردينـغ» اقيمت بالفخامـة الشرقية حفلات استقبال حكومية لشيوخ وامراء وسلاطين اغلبية امارات الخليج العربى . وبموجب مراسم موضوعة سلفا ، كافأهم كرزون باوسمـة الامبراطورية البريطانية والسلاح الذهبى والهدايا الثمينة . وقد اكد كرزون فى خطابه اثناء الاستقبال فى الشارقة ان سيادة الامبراطورية البريطانية الى الابد على الخليج العربى قد قضت على القرصنة والعبودية والنخاسة والنهب والسلب وقادت الشعوب الاسلامية فى المنطقة الى الازدهار . وكتب المتذلل لوفات فريزر انه لا تمكن مقارنة زيارة كرزون للخليج العربى ، من حيث عدد السفن ومن حيث الانطبـاع الذى احدثته فى سكان الساحل الا بحدث واحد فى تاريخهم هو زيارة مؤسس الامبراطورية الاستعماريـة البرتغالية الفونسو البوكركـه للخليج فى سنـة ١٥١٥ (٢٣) .

وكانت تلك خدمة سيئة لكرزون ، لأن المقارنة وضعت عفوا علامة المساواة بين النشاط الدموى الرهيب الذى بذله البوكركه فى القضاء على ثقافة واقتصاد الشعوب الاسلامية فى الخليج العربى وفى الاخلال بعلاقاتها التجارية التقليدية مع آسيا الجنوبية وافريقيا وبين تحقيق كرزون لحلمه القديـم فى تحويل الخليج الى «بحيرة بريطانية» .

اجرى كرزون اثناء جولته فى الخليج مفاوضات سرية مع سلطان مسقط وشيوخ ساحل الصلح البحرى وحاكمى البحرين والكويت ، محاولا ان يفرض عليهم بدرجة اكبر من ذى قبل تحكم الامبريالية البريطانية ، ويؤزم علاقاتهـم مع الامراء الوهابيين والسلطـات

التركيـــة (٢٤) اى ان يستعـــدى ويحـــرض المسلمين على المسلمين .

منى كرزون بالاخفاق على الساحل الايرانى من الخليج . ففى بوشير فشل اللقاء الذى اعدته الديبلوماسية البريطانية بكل دقة وعناية بين كرزون وحاكم بلاد فارس العام علاء الدولة .

استخلصت سفرة كرزون نتائج صراع المستعمرين البريطانيين فى غضون ٢٠٠ سنة تقريبـــا من اجل الخليج العربى واعتبرت الاوساط الحاكمة فى بريطانيـــا انها حولت الخليـــج الى «بحيرة بريطانية» .

فى عشية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤–١٩١٨) وفى اثنائها ، ظلت الامبريالية البريطانية تناضل بهمة وحزم من اجل توسيـــع مجال سيادتها فى منطقـة الخليج العربى . ففى ٢٩ تموز (يوليو) ١٩١٣ تم التوقيع على اتفاقية انجلو – تركية تنازلت تركيا بموجبها نهائيا عن اية ادعاءات بامارتى قطر والبحرين .

فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ ، فور دخول تركيا الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا والنمسا – المجر ، انزل حكـــام بريطانيا العظمى فيلقا فى البصرة ، وبدأت القوات الانجلو – هندية الهجوم على بغداد . وفى الوقت نفسه اعترف شيخ الكويت رسميا بالحماية البريطانية . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ ، اقام ابن سعود امير نجد ، وريث مؤسسى الدولة الوهابية فى اواسط الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر ، وملك العربية السعودية مستقبلا ، – بموجب اتفاقية عقيق – ، ما اسمى «بالعلاقات الخاصة» مع بريطانيا العظمى ، وهذه العلاقـــات حسب المستعمرون البريطانيـــون ان يحولوها مستقبلا الى علاقات حماية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ اقيمت الحماية البريطانية على قطر ايضا .

وفى الوقت نفسه ، احتلت القيادة البريطانية الساحل الشرقى من الخليج العربى وكل جنوب ايران بذريعة مواجهة الخطر الالمانى التركى . وآنذاك ايضا استغل العملاء البريطانيون العلاقات القديمة مع الشيخ خذعل حاكم المحمرة ، رئيس اتحـــاد قبائل كعب الذى سبق ان استغله عملاء شركة الهند الشرقية فى القرن الثامن عشر لاجل مواجهة حكام ايران الزنديين ، فاعدوا تأسيس الاتحاد السيىء

الشهرة ، «اتحاد القبائل الجنوبية» الذى حسب مساهمو شركة البترول الانجلو - ايرانية ان يفصلوا بواسطته خوزستان عن ايران .

فى سنوات الحرب العالمية الاولى ، انشأت الحكومة البريطانية لجنة سرية خاصة برئاسة بونزن ، كان عليها ان تتخذ قرارا نهائيا بصدد تعديل خريطة العالم العربى بما فى ذلك الخليج العربى . وقد سبق ان بحث الديبلوماسيون والجواسيس البريطانيون فى الخليج فى سنة ١٩١٢ خطة لتأسيس امارة البصرة التى كان من المرتأى «فصلها» عن العراق العربى ، ولتنصيب العميل البريطانى القديم طالب باشا على عرش الامارة ، ووضع كل وادى شط العرب نهائيا تحت الحماية البريطانية واغلاق حلقة الممتلكات البريطانية بالتالى فى الخليج من الشمال .

وفى سنوات الحرب بحثت لجنة بونزن كذلك مشروعا لانشاء خلافة عربية تحت الحماية البريطانية كان يتعين ان تشمل كل الجزيرة العربية وجميع مناطق الخليج التى يقطنها العرب . ولكن ذلك واجه معارضة حادة من رئيس القسم الخارجى فى الادارة الاستعمارية البريطانية فى الهند غرانت والرئيس النافذ للقسم السياسى بوزارة شؤون الهند هرتسل . وقد اكدا فى مذكرتهما : «نحن لا نحتاج الى العربية المتحدة بل الى العربية الضعيفة ، المتفرقة ، المقسمة الى كثرة من الامارات الصغيرة الخاضعة لسيادتنا ، والمحرومة من امكانية الاتحاد ضدنا» (٢٥) .

فى ١٩١٦ و١٩١٧ ، استمر فى لندن وفى دلهى الى حيث نقل مقام نائب الملك البريطانى بحث مصائر بلدان الخليج بعد الحرب . وقد وردت افكار بضم العراق الاوسط والجنوبى الى الامبراطورية الهندية ، وتناول النقاش خطط اقامة الحماية على نجد التى كان حاكمها ابن سعود قد استطاع ان يضم الاحساء الى ممتلكاته ، بما فى ذلك مرفأ القطيف المهم فى الخليج . واستعد الامبرياليون البريطانيون بنشاط لاستعباد ملايين جديدة من المسلمين .

ونحو اواخر الحرب العالمية الاولى حسب المستعمرون البريطانيون انهم بلغوا جميع الاهداف المنشودة : فان المنافس الرئيسى - المانيا - قد حلت بها الهزيمة ، والامبراطورية العثمانية قد تجزأت ، وأهم البلدان والاراضى العربية على الصعيد الاقتصادى

والستراتيجى قد استولت عليها القوات البريطانية واحتلتها . وليس الخليج العربى وحسب ، بل البحر الاحمر ايضا تم تحويلهما كليا الى «بحيرتين بريطانيتين» . كذلك ايران الجنوبية احتلتها القوات البريطانية . وبـــدأ ضخ بترول خوزستـــان والموصل الى ناقلات البترول البريطانية ، واخذت شركة نفط العراق و«شركة البترول الانجلو — ايرانية» وشركة «رويال داتش شل» ان تبتز الارباح بالملايين . وشرعت السفن الحربية البريطانية ترمى مراسيها بكل حرية فى اى من مرافىء الخليج . وخيل ان حلـــم الامبرياليين البريطانيين وطواغيت البترول والنقليات و«بناة الامبراطورية» فى اكتساب درة جديدة للتاج البريطانى فى الشرقين الادنى والاوسط هى درة «الهند العربية» الخاضعة لرقابة مدافع الطرادات البريطانية الراسية فى الخليج العربى ، قد تحقق .

ولكن تبين ان هذه الحسابات والآمال متقلقلة وواهية . ذلك انها وضعت وأعدت بدون السيد الحقيقى — شعوب البلدان العربية وايران . وعندما هدرت عاصفة ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا ، اهتز صرح السيادة الاستعمارية البريطانيـــة على شعوب الخليج العربى ، هذا الصرح الذى اقيم ببالغ الجهد . ففى اوائل سنة ١٩١٨ تسربت الى البلدان العربية وايران الانباء عن ثورة اكتوبر وعن اولى مراسيم السلطة السوفييتية . واخذت الايدى تتناقل النداء اللينينى «الى جميع المسلمين الكادحين فى روسيا والشرق» مترجما الى اللغة العربية والفارسية .

فى سنة ١٩١٩ بدأت انتفاضة الشعب المصرى . وفى الوقت نفسه تقريبا تدفقت موجة من الانتفاضات فى سوريا . وقبل ذاك — فى سنة ١٩١٨ — قامت انتفاضـــة ضد البريطانيين فى النجف ، ووقعت اضطرابات كبيرة فى البحرين . وبلغ نضال شعب عمان ضد الامبريالية درجة كبيرة من التأجج . وقد سبق ان وقع هناك فى سنة ١٩١٣ حدث حاولت السلطات الانجلو — هندية ان تتحاشى وقوعه فى سياق عقود من السنين ، فان زعماء قبيلتى بنى غفيرى وبنى حناوى قد اتحدوا وانتخبوا سليم العروس اماما لعموم عمان . وفى سنة ١٩١٥ حاصرت قوات عمـــان المسلحة مسقط . الا ان تدخل القوات المسلحة البريطانية وحده انقذ سلطان مسقط آنذاك

تيمور بن فيصل وحال دون اتحاد مسقط وعمان . وبعد الحرب اشتد النضال التحريرى لشعب مسقط . وفى ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ اضطر مندوبو السلطة الانجلو - هندية وسلطات السلطان الى التوقيع فى مدينة سيب على معاهدة مع مفوضى الامام العروس بالاعتراف باستقلال عمان . وهكذا اخفقت السياسة البريطانية الرامية الى عزل امامة عمان ، وتجزئتها تدريجيا ثم ابتلاعها من قبل سلطنة مسقط الخاضعة للحماية البريطانية .

فى حقبة حزيران - تشرين الثانى (يونيو - نوفمبر) ١٩٢٠ ، انتفض الشعب العراقى ، الامر الذى اضعف المواقع البريطانية فى القسم الشمالى من الخليج .

فى حقبة شباط وآذار (فبرايــر ومارس) ١٩٢١ ، احــرزت الديبلوماسية السوفييتية نجاحا كبيرا ، فقد تم التوقيع على معاهدات متكافئة مع ايران وافغانستان وتركيا ، وتم اختراق حلقة الحصار التى حاولت الامبريالية البريطانية ان تطوق بها من الجنوب روسيا السوفييتية الفتية . وعززت المعاهدة السوفييتية الايرانية مواقع القوى التقدمية فى ايران ، واسهمت فى الغاء المعاهدة الانجلو - ايرانية الجائرة المعقودة سنة ١٩١٩ والتى حولت ايران الى شبه مستعمرة بريطانية . واضطر المستعمرون البريطانيــون الى سحب قواتهم من ايران . وفى ١٩٢٢ و١٩٢٣ تم سحق انتفاضة العميل البريطانى ، شيخ المحمـــرة ، خذعل ، الذى حاول الامبرياليون البريطانيون ان يفصلوا بمساعدته خوزستان عن باقى ايران . وفى المرحلة ذاتها اعيدت سيادة ايران على كـــل الساحل الشرقى من الخليج العربى ، بما فى ذلك على المدينتين الميناءيتين المهمتين من الناحية الستراتيجية والسياسية بوشير وبندر عباس .

ويقينا ان الامبرياليين البريطانيين لم يعتزموا تسليم مواقعهم بدون قتال . ففى كانون الثانى (يناير) ١٩٢١ عين ونستون تشرشل وزيرا لشؤون المستعمرات وبمبادرته انشئت شعبة شاسعة ، شعبة الشرقين الادنـــى والاوسط . وهذه الشعبة بالذات ترسم الخطط الموجهة الى صيانة السيادة البريطانية فى العالم الاسلامى وبخاصة فى منطقة الخليج . وفى آذار (مارس) ١٩٢١ ، عقد فى القاهرة ، بمبادرة من تشرشل ، مؤتمر سرى اشترك فيه ٤٠ من الديبلوماسيين

والجواسيس والاداريين الاستعماريين وآمـــرى القوات المسلحة البريطانيين فى منطقة الخليج العربى وغيرها من الاراضى والبلدان الاسلامية ، وحضره كبير الخبراء البريطانيين فى شؤون الخليج العربى برسى كوكس ، العميل السياسى في مسقط خلال زمن مديد ، والمقيم السياسى فىالخليج والمفوض الاعلى البريطانى فى العراق ، والجاسوسة البريطانية المعروفة جرترود بيلل ، وهى من اكبر الخبراء فى القبائل والشعوب العربيـــة فى شرق الجزيرة العربية وجنوب العراق ، ومارشال الطيران ترنتشارد ، وغيرهم . وتؤكد وثائق ارشيف الدولة فى بريطانيا العظمى ان المؤتمر اتخذ قرارات بعيدة المدى ترمى الى ترقية اشكال السياسة البريطانية وطرائقها فى العالم الاسلامى وفى منطقة الخليج العربى على الاخص .

ونظرا لتعاظم امزجة العداء للعسكرية فى بريطانيا العظمـــى وامزجة العداء للبريطانيين فى البلدان الاسلامية ، والمشاكـــل الخطيرة للمالية البريطانيـــة ، تقرر تخفيض تعداد قوات الاحتلال البريطانية فى العالم الاسلامى وفى منطقة الخليج تخفيفا حادا وتسليم وظائفها الى صنف جديد من القوات المسلحة ، هى القوات الجوية . وهذا ما اتاح تخفيض نفقات القوات البريطانية فى هذه المنطقة خلال سنتين من ٤٠ مليون جنيه سترلينى الى ٥ ملايين جنيه سترلينى . ولتخويف شعوب الخليج التى لم تكن تعرف القدرة القتالية للسلاح الجديد ، نظمت القوات الجوية البريطانية فى مختلف امارات الخليج وفى جنوب العراق عمليات تبيانية لقصف نماذج من القرى العربية ، ودعت الكثير من السكان الى حضور المشهدية .

وقد تسنى للمؤلف ان يطلع فى ارشيف الدولة فى بريطانيـا العظمى على محضر مفصل للجلسة التى عقدتها الوزارة البريطانية فى حزيران (يونيو) ١٩٢٨ وبحثت فيها من جميع النواحى تقرير مارشال الطيران ترنتشارد عن دور القوات الجوية بوصفها الاداة الرئيسية للسياسة الاستعمارية البريطانية فى منطقة الخليج .

ان الوزراء المحافظين البريطانيين الاساسيين فى ذلك الزمن ، بمن فيهم اوستن تشمبرلن وصموئيـــل هور واللورد بيركنهد قد ابدوا اعجابهم الشديد بهذا التقرير مقدرين بوقاحة وصفاقة فعالية وتوفيرية استعمال القوات الجوية فى العالم الاسلامى (٢٦) .

ويتبين من وثائق الارشيف الوطنى فى الهنـــد ان الاوساط الحاكمة البريطانية فى تلك السنوات كانت تهتم ، لا بتعزيز فعالية طيران القصف فى منطقة الخليج وحسب ، بل ايضا بالحيلولة دون قيام علاقات ثقافية واقتصادية وغيرها من العلاقات بين روسيــا السوفييتية وبلدان الخليج العربى . فان ملف «السفن الروسية فى الخليج العربى» لعام ١٩٣١ مثلا ، يتضمن تقارير فى منتهى التفصيل عن ١٢ سفينة سوفييتية عبرت من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣١ قناة السويس حاملة المشحونـــات من اجل مرافىء البحـر الاحمر والخليج العربى . وقد اوضح عملاء شركة البترول الانجلو - ايرانية فى بورسعيد وبور السويس تشكيلة وكميـة المشحونات الموجودة على متن السفن السوفييتية وارسلوا هذه المعلومات برقيــا الى المندوبين البريطانيين فى الخليج لكى يتخذوا فى الوقت المناسب التدابير المضادة المناسبة لاجل تقويض التجارة السوفييتية . وفى التقرير الوارد فى الملف «الروس : طرائقهم التجارية ، شعبيتهم ، نجاحهم ام اخفاقهم» ، وصف لينغيمان الملحق التجارى بالسفـــارة البريطانية فى طهران ، ووكلاؤه فى مرافىء الخليج منظومة التدابير المتخذة لاجل معارضة العلاقات التجاريـــة بين الاتحاد السوفييتى وبلدان الخليج . وقد اشتملت هذه التدابيـــر على نشر الاشاعات الاستفزازية الكاذبة عن الدعاية السوفييتية المعادية للاسلام وعن سوء البضائع السوفييتية ، وكذلك على التهويل وتخويف التجـــار المحليين ، وتخفيض اجور النقل البحرى للسفن البريطانية واسعار البضائع البريطانية بعد الحصول على نبـأ برقى عن وصول السفن السوفييتية المقبل وعلى متنها مشحونات مماثلة ، وما الى ذلك . ان القرارات العديدة التى تحفل بها تقارير لينغيمان تدل على ان قادة الادارة الاستعمارية البريطانية قد درسوها بكل دقة كما تدل على استعمالها الى اقصى حد لاجل تقويض نفوذ الاتحـاد السوفييتى فى الشرقين الادنى والاوسط (٢٧) .

ويبين ملف آخر - «الدعايـة الروسية والحج» - ان مصالح التجسس البريطانية لم تنصرف الى تقويض العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتى وبلدان الجزيرة والخليج وحسب . فهو يتضمن ايضا تقارير من العملاء البريطانيين فى البحرين والبصرة وجـــدة

وحتى مكة ، يتبين منها ان المستعمرين البريطانيين الذين اتهموا الاتحاد السوفييتي «بالنشاط ضد الاسلام» قد كانـوا يحيطون بالجواسيس كل حاج من الاتحاد السوفييتي . وكان هؤلاء العملاء يسترقون السمع الى الاحاديث بين المسلمين السوفييتيين والمسلمين من البلدان الاخرى ، ويحاولون استثارة النزاعات بينهم . وسعيا الى تسويد صفحة الاتحاد السوفييتي باى ثمن كان فى عيون مسلمى الجزيرة والخليج ، نسبت الجريدة البريطانية «بيرمنغهـم بوست» فى مقالة نشرتها فى ٢٦ كانون الثانى (يناير) ١٩٢٩ الى الاتحاد السوفييتي ، فضلا عن الدعاية والمؤامرات ، نية «الانصراف الى ... النخاسة فى البحر الاحمر» !

ومع ذلك ضعفت مواقع الامبريالية البريطانية فى الخليج العربى بصورة ملحوظة فى النصف الثانى من الثلاثينيات . ثم ان ازمـة النظام الاستعمارى التى نشبت بتأثير اكتوبر العظيم ، اخذت تتبدى فى محمية الاستعمار هذه ايضا .

وفضلا عن ذلك ، بدأ نفوذ المستعمرين البريطانيين يتقوض بفعل مزاحميهم ، وبخاصة بفعل الاحتكارات الاميركية . ونحو اواسط الثلاثينيات اكتشفت فى بلدان المنطقة احتياطيات فائقة الغنى من البترول ، فاندفعت كبريات الاحتكارات البترولية الاميركية تهاجم «البحيرة البريطانية» بدعم فعال من وزارة الخارجية الاميركية .

كان الخليج العربى غنيمة غالية الثمن الى حد انه لم يكن من الممكن ان يتخلى عنها الاسد البريطانى بلا قتال . فان الملف الشاسع المحفوظ فى الارشيف الوطنى فى الهند «الدفاع عن الخليج العربى فى حال حرب كبيرة» يدل على ان الاوساط الحاكمة البريطانية اقرت بصورة محمومة ، وبذريعة تعزيز الدفاع عن الخليج ، الاجراءات لاجل مواجهة حركة التحرر والمنافسين الاميركيين (٢٨) . ولكن الامبريالية البريطانية الهرمة لم تستطع ان توقف عجلة التاريـخ . واقتربت مرحلة انهيار الامبراطورية البريطانية وتحول «البحيرة البريطانية» من جديد الى الخليج العربى .

الفصل السادس

الاستعمار الفرنسي فى افريقيا الشمالية . التسرب الى سوريا ولبنان

من قديم الزمان استرعى موقع الجزائر وتونس والمغرب الجغرافى والستراتيجى الخارق الملاءمة انتباه المستعمرين المتصل . وفى الفصل الثالث القينا النور على تاريخ عدوان المستعمرين الاميركيين ضد هذه البلدان فى اوائل القرن التاسع عشر . وقد خيم عليها خطر اكبر بسبب الخطط الاغتصابية البعيدة المدى التى كانت تحاك آنذاك فى باريس . وفى سنة ١٨٠٨ ارسل الامبراطور الفرنسى نابليون الاول سرا الى الجزائر وتونس المهندس العسكرى بوتين لاجل القيام بتصويرات طوبوغرافية ووضع خطة مفصلة للاقتحام . ولكن هزيمة جيش نابليون فى روسيا سنة ١٨١٢ اجبر المستعمرين الفرنسيين على العدول موقتا عن هذه المشاريع . الا ان المعتدين الفرنسيين شرعوا فى النصف الثانى من العشرينيات فى القرن التاسع عشر فى تنفيذ خطط نابليون القديمة .

١ ــ العدوان على الجزائر

فى البدء قامت محاولة لخنق الجزائر اقتصاديا ، فان فرنسا لم تدفع للحكومة الجزائرية بضعة ملايين من الفرنكات بموجب حسابات تجارية قديمة ثم فرضت فرنسا فى سنة ١٨٢٧ الحصار البحرى على عاصمة الجزائر وبدأت فى الوقت نفسه تحرض محمد على حاكم مصر على التدخل فى الجزائر . وهكذا منذ نحو ١٥٠ سنة حاول المستعمرون ان يستغلوا فى الشرق اسلوبا مجربا وهو استعداء المسلمين على المسلمين ، استعداء العرب على العرب . وعندما رفض حاكم مصر فى

عام ١٨٢٩ ان يعمل «بالنصائح» الفرنسية ، قررت باريس الشروع فى فتح الجزائر بقواها . وفى تموز (يوليو) ١٨٣٠ ، احتلت القوات الفرنسية مدينة الجزائر . وكان اول ما فعله المنتصرون ، انهم نهبوا الخزينة الجزائرية ، وكانت تحتوى من الذهب والقيم الاخرى ما كان يشكل مبلغا طائلا فى ذلك الزمن - ٥٠ مليون فرنك . وبعد الاستيلاء على مدينة الجزائر كتب آمر القوات الفرنسية الجنرال دى بورمون بغطرسة وعجرفة ، فى تقرير الى باريس : «ستخضع المملكة كلها لنا فى غضون ١٥ يوما دون اية طلقة» (١) . اما فى الواقع ، فان المستعمرين الفرنسيين لم يستطيعوا اخضاع البلد الا بعد ٤٠ سنة من حرب دامية ضد الشعب الجزائرى .

ففى غرب الجزائر ، ترأس الحركة ضد المستعمرين البطل الشعبى عبد القادر الواسع الشهرة فى عموم العالم الاسلامى . كان والده المرابط محيى الدين يترأس الطريقة الاسلامية الشهيرة «القادرية» . وقد تلقى عبد القادر تعليما دينيا جيدا ، وحج الى مكة المكرمة . وكان خطيبا ملهما ، وكاتبا بارزا ، ومقاتلا جريئا ، وقائدا عسكريا لامعا . فى سنة ١٨٣٢ انتخبته قبائل الجزائر الغربية التى قررت محاربة الفاتحين الفرنسيين زعيما لها . وبعد تذليل التجزؤ الاقطاعى والقبلى ، وبالاعتماد على دعم رجال الدين المسلمين بدأ عبد القادر يسدد ضربات قاسية الى القوات الفرنسية مطبقا تكتيك النضال الانصارى . منى المستعمرون الفرنسيون بعدد من الهزائم الشنعاء فاضطروا فى سنة ١٨٣٤ الى التوقيع على معاهدة الصلح فى ديميشل ، وبموجبها اعترفوا بكل الجزائر الغربية (ما عدا ثلاث مدن ساحلية) ارضا للدولة العربية السيدة الجديدة برئاسة عبد القادر الذى اتخذ لقب «امير المؤمنين» . والى جانب الفصائل القبلية التى بلغ عدد افرادها زهاء ٧٠ الفا ، انشأ عبد القادر جيشا نظاميا قوامه ١٠ آلاف جندى ونظم تشكيلة مدفعية . وتلقى عونا كبيرا فى تجهيز عساكره من المغرب الذى كان سلطانه يمده بالسلاح والنقود . ومن هنا يتبين ان مسلمى هذين البلدين الكبيرين فى افريقيا الشمالية قد انشأوا عمليا حلفا ضد المستعمرين . ولقيت دولة عبد القادر دعما كبيرا من رجال الدين المسلمين . وهذا ما تبدى بنحو خاص فى اواسط الثلاثينيات ، حين اقتحم الجنرالات الفرنسيون

اراضيها منتهكين المعاهدة مع الجزائر غدرا ومكرا . وبعد سنتين من القتال الضارى ولكن العقيم ، تسنى للفاتحين الفرنسيين ان يوقعوا مع عبد القادر فى ٣٠ ايار (مايو) ١٨٣٧ فى تفنة على معاهدة جديدة اعترفوا بموجبها بسلطته ، لا على الجزائر الغربية وحسب ، بل ايضا على الجزائر الوسطى .

فى تلك السنوات ، قام المعتدون الفرنسيون بعمليات اغتصابية فى الجزائر الشرقية للتعويض عن خسائرهم ، واستولوا على مدينتها الرئيسية قسنطينة . وهذا ما رافقه نهب وحشى ، واستيلاء على اراضى المغلوبين واموالهم . وردا على ذلك ، بدأ مسلمو الجزائر الشرقية حرب الانصار ضد الفاتحين ، واعترفوا بعبد القادر زعيما لهم . وهكذا اتحدت الجزائر الغربية والوسطى والشرقية فى غمرة النضال ضد الغزاة .

فى سنة ١٨٣٩ بدأت مرحلة جديدة من العدوان الاستعمارى الفرنسى على الجزائر . فقد اعلن عبد القادر من جهته الجهاد ضد فرنسا . واستطالت الحرب . واخذت القيادة الفرنسية ترسل الجديد تلو الجديد من التشكيلات الى افريقيا الشمالية . وفى سنة ١٨٣٧ بلغ عدد افراد الجيش الفرنسى ٤٢ الفا ، وفى سنة ١٨٤٤ — ٩٠ الفا . الا ان عبد القادر الذى كان عدد جنوده آنذاك اقل الى النصف وسلاحه اسوأ بكثير شن ضد المستعمرين الحرب الانصارية بتفنن ومهارة .

طبق الغزاة الفرنسيون طرائق همجية لتخويف السكان : كانوا يبيدون قبائل برمتها ، ويحرقون فى طريقهم جميع القرى وجميع البيوت والاكواخ . ويستفاد من شهادة المشتركين فى الحملة ان الجنود الفرنسيين كانوا يقطعون آذان الاسرى ، ويقايضون النساء والاولاد العرب بالاحصنة ويبيعونهم فى المزاد العلنى مثل الدواب .

هكذا برهن المستعمرون الفرنسيون عن «سمو حضارتهم» و«رسالتهم التمدينية» بالعودة الى الاساليب البربرية البالية . وفى سنة ١٨٤٤ اضطر عبد القادر واعوانه المقربون الى التخفى فى اراضى المغرب . وبما ان سلطان المغرب رفض ان يسلمهم للفرنسيين ، فقد اقتحمت قوات المعتدين المغرب ، وبعد هزيمة الجيش المغربي شبه الاقطاعى فرضت على سلطان المغرب فى ١٠ ايلول

(سبتمبر) ١٨٤٤ صلح طنجه الذى اضطر المغرب بموجبه الى اعلان عبد القادر خارج القانون . وقد فر عبد القادر الى المناطق الصحراوية الجنوبية من الجزائر حيث واصل النضال الانصارى . وفى هذه الاثناء بدأ المستعمرون الفرنسيون يصادرون بالجملة اراضى السكان العرب الحضريين ومراعى القبائل المترحلة . وصدر مرســــوم بمصادرة الاراضى الموضوعة تحت تصرف الجوامع والمؤسسات الخيرية لاجل الانتفاع بها . وهكذا اعلن الستعمرون الفرنسيون الحرب ، لا على الشعب الجزائرى فقط ، بل ايضا على الاسلام . وردا على ذلك ، هبت الجزائر الغربية كلها فى سنة ١٨٤٥ . واستدعى المنتفضون عبد القادر من الصحراء لمساعدتهم . فوجه الغزاة الفرنسيون الى قمع الانتفاضة جيشا يضم اكثر من ١٠٠ الف رجل . وفى هذه الحملة ، اساء الجنرالان الفرنسيان بيليسيه وسانت ارنو الى سمعة فرنسا فادح الاساءة . فان بيليسيه قد ساق الف جزائرى عربى الى المغاور الجبلية وخنقهم فيها بالدخان . وحشد سانت ارنو فى المغاور ١٥٠٠ مسلم بينهم نساء واطفال وسد منافذ المغاور عليهم . وهو الذى كافأه الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث بسخاء ومنحه لقــــب «الماريشال» . وفى اوائل الخمسينيات ، عندما بدأت بريطانيا العظمى وفرنسا حرب القرم ضد روسيا ، عين سانت ارنو قائدا اعلى لقوات الحلفاء المسلحة .

بسبب من خيانة الاقطاعيين اسر الفرنسيون عبد القادر فــى سنة ١٨٤٧ ، فنقلوه الى فرنسا حيث امضى فى الاعتقال مدة طويلة ثم نقلوه الى دمشق حيث امضى بقية حياته تحت رقابة الباشاوات الاتراك ، حلفاء فرنسا . كان عبد القادر يحمل معه دائما ثروتــــه الوحيدة اى مكتبة رائعة تحتوى مخطوطات فريدة من مؤلفات الكتاب والعلماء المسلمين .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، واصل المستعمرون الفرنسيون نهب الجزائر بنحو لا سابق له ، واستولوا على جميع اراضيها الخصبة . وبسبب الجوع والاوبئة ، مات من سنة ١٨٦٦ الى سنة ١٨٧٢ فقط ، مثلا ، اكثر من ٥٠٠ الف نسمة اى خمس مجمل السكان .

فى سنة ١٨٧١ بدأت انتفاضة قوية ضد الاستعمار برئاســـة

محمد الموكرانى . كان اتباع طريقة الرحمانية الاسلامية يشكلون قوة المنتفضين الاساسية . وكان محرضو الطريقة يتجوبون فى القرى والبازارات داعين الى الجهاد من جديد ضد الفرنسيين . وبما ان القوات الاساسية لدى الرجعية الفرنسية كانت مشغولة بالصراع ضد كومونة باريس الباسلة ، فقد استطاع المنتفضون الجزائريون احراز نجاحات كبيرة . ولكن بعد سقوط الكومونة استطاعت حكومة تيير الرجعية ان ترسل قوات كبيرة الى الجزائر ، باذن من ملك بروسيا ، غليوم الاول ، والمستشار بيسمارك ، اللذين انتصرا على فرنسا فى الحرب الفرنسية البروسية . وبالنتيجة حلت الهزيمة باتباع الرحمانية برئاسة الشيخ حداد فى سنة ١٨٧٢ . وبدأت «تهدئة» الثوار بشكل قاس ومصادرة خيرة اراضى الجزائر بصورة نهائية . وفى سياق السنوات التسعين التالية استمر اضطهاد البلاد الاستعمارى .

٢ - الاستيلاء على تونس

بالاعتماد على مواقعهم فى الجزائر ، شرع المستعمرون الفرنسيون يستعدون منذ السبعينيات من القرن التاسع عشر لاستعباد تونس . واثناء مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ ، تناول البحث خطط تقسيم الامبراطورية العثمانية والاراضى الخاضعة لحكمها . وفى المؤتمر توصلت بريطانيا والمانيا وفرنسا الى اتفاق تعهدت بموجبه بريطانيا والمانيا بالموافقة على اقامة الحماية الفرنسية فى تونس مقابل توطيد نفوذ المانيا فى اوروبا ، ووافقت فرنسا على استيلاء بريطانيا على قبرص . وهكذا بذرت بذور النزاعات القومية والاقليمية المقبلة التى لا تزال الى اليوم تمارس تأثيرا مشؤوما فى كثير من شعوب البحر الابيض المتوسط .

منذ اكثر من مائة سنة ، فى نيسان (ابريل) ١٨٨١ ، اقتحم جيش فرنسى من ٣٠ الف رجل تونس من الجزائر . وفى نفس الوقت تقريبا انزلت قوات كبيرة فى بيزرت . وفى ١٢ ايار (مايو) ١٨٨١ ، اضطر باى تونس الى توقيع معاهدة باردو التى حولت تونس عمليا الى محمية فرنسية . ردا على ذلك ، اعلن قادة طريقة الرحمانية

الاسلامية الجهاد ضد الغزاة الفرنسيين . وفى غضون بضعة اشهر دارت رحى الحرب الانصارية فى تونس . وباستغلال التفوق الهائل فى الاسلحة وباستغلال خيانة كبار الاقطاعيين ، فرض الغـــزاة الفرنسيون على الباى التونسى فى حزيران (يونيو) ١٨٨٣ اتفاقية لامارس ، التى تحولت تونس بموجبها شرعا الى محمية فرنسية .

بدأت مصادرة اراضى الفلاحين المسلمين بالجملة فى تونس . ومن سنة ١٨٨١ الى سنة ١٩١٢ ازدادت مساحة اراضى الفرنسيين فى تونس من ١٠٧ آلاف هكتار الى ٨٨٢ الف هكتار . واستولــت الشركات الرأسمالية على رقع كبيرة من الاراضى ، وعلى ما فى باطنها من ثروات . وبدأت صناعة الاستخراج المنجمى تتطور بسرعـــة . واخذت الفوسفاتات وخامات الرصاص والحديد من تونس تمضى الى فرنسا .

عشية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) ، بدأت فى تونس حركة تحررية . نشأت احزاب سياسية ، منها الحزب الجمهـــورى والحزب التونسى اللذان استهدفا الكفاح من اجل تحريـر البلد . وابدى الحزب التونسى نشاطا خاصا ، ورفع شعار النضال من اجل استقلال «الامة الجزائرية التونسية» . واصبحت جامعة القيروان ، - وهى من اكبر مراكز الثقافة والعلم الاسلاميين فى آسيا وافريقيا - مركزا فكريا للنضال ضد المستعمرين .

٣ ـ استعمار المغرب

خلافا للجزائر وتونس الداخلتين (شكلا) فى قوام الامبراطورية العثمانيـــة ، احتفظ المغرب باستقلاله طوال قرون . الا ان البرتغاليين والاسبان امتلكوا على ساحل البحر الابيض المتوسط بضع نقاط مهمة من الناحية الستراتيجية . ونحو اوائل القـــرن التاسع عشر اضطر البرتغاليون الى الرحيل بينما احتفظت اسبانيـا بممتلكاتها وفى المقام الاول بينها مليلة وسبتة ، ولا تزال الى الان تبسط رقابتها عليها . وفى القرن التاسع عشر ، كانت هـــذه الممتلكات قواعد للتسرب الى اعماق المغرب . ثم ان المستعمرين الفرنسيين لم يغب عن بالهم المغرب الذى كانت اهميته الستراتيجة

الفريدة تنبع فى المقام الاول من كونه يملك مدنا مينائية على سواحل المحيط الاطلسى والبحر الابيض المتوسط ويسود على مشـــارف جبل طارق . وبعد ان فرضوا سيطرتهم على الجزائر فرضوا عـــلى المغرب اتفاقية فريدة بشأن الحدود لم يرسم بموجبها خط الحدود الجزائرية المغربية الا فى القسم الشمالى منها ، اما الى ابعد باتجاه الجنوب ، فعوضا عن رسم الحدود البرية ، جرى رسم الحدود بين القبائل المترحلة . بعضها خضع للسيادة الفرنسية وبعضها للسيادة المغربية . وبما ان القبائل كانت تترحل دائما ، فان ذلك كان يخلق باستمرار اوضاعا نزاعية على الحدود كان المعتدون الفرنسيـــون يستغلونها . وفى الوقت الحاضر يستغل اعداء شعوب البلدان العربية عدم وضوح رسم الحدود فى المناطق الجنوبية من الجزائر والمغرب لكى يؤزموا بصورة دورية العلاقات بين البلدين ، الامر الذى يضعف نضالهما ضد الامبريالية والصهيونية .

منذ اوائل القرن العشرين طفق المستعمرون الفرنسيون يقومون بنشاط ديبلوماسى همام لكى يؤمنوا لانفسهم موافقة الدول الامبريالية الاخرى على اقامة الحماية على المغرب . وفى نيسان (ابريل) ١٩٠٤ ، تم التوقيع فى لندن على اتفاقية انجلو-فرنسية اطلق عليها الاســم الغنائى «الوفاق القلبى» (Entente Cordiale – انتانت كورديال) . اما فى الواقع ، فقد كانت حلفا عسكريا سياسيا تضمنت بنـــوده السرية موافقة فرنسا على اقامة الحماية البريطانية على مصر مقابل موافقة بريطانيا على اقامة الحماية الفرنسيـــة على المغرب . وقد كتب لينين فى مجموعته «اكبر الازمات فى السياسة الدوليـــة للدول الكبرى» التى اوردها فى «دفاتر فى الامبرياليـــة» : «سنة ١٩٠٤ . معاهدة بين بريطانيا وفرنسا (٨-٤) : تتقاسمان افريقيا (تستعدان للحرب ضد المانيا)» (٢) . هكذا وطدت دولتان من اكبر الـــدول الامبريالية فى اوائل القرن العشرين – هما بريطانيا وفرنســـا – اساس حلفهما العسكرى السياسى ضد الخصم الامبريالى الرئيسى – المانيا – بدماء شعبى مصر والمغرب المسلمين . وبعد التوقيع على اتفاقية مع بريطانيا بشأن «مقايضة» مصر بالمغرب ، وبعد عقد اتفاقية فى تشرين الاول (اكتوبر) من السنة ذاتها مع اسبانيا بشأن تقاسم المغرب بين الطرفين المتعاقدين (كان الاسبان يستعدون للاستيلاء

على الاراضى المجاورة لمدينتي سبتة ومليلة) ، بدأ الامبرياليـــون الفرنسيون يستعدون للاستيلاء على هذا البلد الاسلامى . ولكنهم اصطدموا فى اذار (مارس) ١٩٠٥ بمقاومة الامبريالية الالمانية . فان الامبراطور غليوم الثانى وصل بصورة غير متوقعة الى طنجة واعلن فى كلمته انه ينوى الدفاع عن سيادة المغرب . اما فى الواقع ، فان الامبرياليين الالمان لم يكونوا يريدون ان يتنازلوا عن المغـــرب للمنافسين الفرنسيين بدون «تعويض» . فنشب نزاع دولى حـــاد وصفه لينين فى المجموعة المذكورة آنفا «اكبر الازمات فى السياسة الدولية» كما يلى : «سنة ١٩٠٥ . المانيا على قيد شعرة من الحرب ضد فرنسا وبريطانيا . ينهبون («يتقاسمون») المغـــرب» (٣) . واضطر المستعمرون الفرنسيون الى التراجع موقتا .

ولكنهم لم يغيروا سوى الطرائق . ففى سنتى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ ، اخذ الرأسمال الفرنسى يتغلغل بقوة فى المغرب . وفى سنة ١٩٠٧ ، اغتيل فى مدينة مراكش طبيب فرنسى هو الدكتور مارشان . ويستفاد من وثائق الارشيفات ان لمصالح التجسس الفرنسية ضلعـــا فى اغتيالـه . وقد ضمن ذلك للمستعمرين الفرصة لاحتلال كل القسم الشرقى من المغرب «كعقاب» على الاغتيال . وفى اواخر السنـــة ذاتها ، تم تدبير استفزاز جديد . فان الشركة الفرنسية «كومبانى ماروكن» التى نالت امتيازا ببناء مرفأ فى الدار البيضاء قد بدأت قصدا وعمدا بمد خط حديدى ضيق عبر المقبرة الاسلامية مدنسة ومهينة المدافن . وبدافع الغضب من تدنيس المقدسات هاجم المغاربة البناة وقتلوا بضعة عمال . وسرعان ما استغلت فرنسا الحادث ذريعة لاحتلال الدار البيضاء ومقاطعة شاوية .

وكل هذا اثار استياء عارما فى المغرب . وفى مؤتمر الزعمـــاء المنعقد فى مراكش ، اتخذ ، بمبادرة من رجال الدين المسلمين ، قرار بخلع عبد العزيز المتهـم بمعاونة المحتلين . ونودى باخيـه مولاى حفيظ سلطانا .

فرض الامبرياليون الفرنسيون على السلطان الجديد شروطـــا سياسية ومالية مذلة ، واحتلوا فى سنة ١٩١١ عاصمة المغرب ، مدينة فاس ، — فاس التى اقر فيها قادة البلدان العربية فى ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ خطة تسوية سياسية فى الشرق الادنى تنص عــلى

سحب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة ، بما فيها مدينة القدس ، وتأسيس دولة عربية فلسطينية . ردا على احتلال فاس ، ارسل الامبرياليون الالمان الى مرفأ اغادير المغربى السفينة الحربية «بانتير» . ونشب نزاع دولى جديد وقفت فيه بريطانيا بحزم الى جانب فرنسا . وبالنتيجة اضطرت الامبريالية الالمانية الى العدول عن معارضة العدوان الفرنسى فى المغرب ، ومقابل ذلك انتزعوا من المزاحمين الفرنسيين «التنازل» عن رقعة شاسعة من الكونغو مساحتها ٢٧٥ الف كيلومتر مربع . وقد كتب لينين فى مجموعته «أهم الازمات فى السياسة العالمية» : «سنة ١٩١١ : المانيا على قيد شعرة من الحرب ضد فرنسا وبريطانيا . ينهبون («يتقاسمون») المغرب . يبادلون المغرب بالكونغو» (٤) . وتطبيقا للاتفاقية ، فرض الامبرياليون الفرنسيون على السلطان المغربى فى ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢ فى فاس معاهدة تقيم الحماية الفرنسية على هذا البلد الاسلامى .

ان تاريخ التوسع الفرنسى فى افريقيا الشمالية يبين ان المستعمرين تسببوا بخسائر لا تحصى لشعوب الجزائر وتونس والمغرب ، ودمروا قيما تاريخية وثقافية رائعة ودفعوا الى الوراء لقرون وقرون تطور هذه البلدان الاقتصادى ، وابادوا بدنيا ملايين المسلمين . ومما له دلالته ان المستعمرين قد اتحدوا للنضال ضد شعوب الشرق رغم التناقضات الحادة فيما بينهم . هكذا كان الحال فى سنة ١٨٧١ عندما انتصر البروسيون على فرنسا واحتلوها وسمحوا لحكومة تيير بارسال جيش كبير لخنق الجزائر ؛ وهكذا كان فى سنة ١٩٠٤ ، حين صادق المستعمرون البريطانيون على احتلال الفرنسيين للمغرب مقابل موافقة اصحاب المصارف فى باريس على تحول مصر الى محمية بريطانية . وهكذا كان فى سنة ١٩١١ حين وافق الامبرياليون الالمان على «التنازل» للمنافسين الفرنسيين عن المغرب مقابل الكونغو . كذلك تبدى تضامن المستعمرين بسطوع ابان الكفاح المسلح الذى خاضه سكان المغرب الشمالى ضد الغزاة الاسبان . ففى سنة ١٩١٢ ، عندما كان الامبرياليون الفرنسيون يهيئون اقامة الحماية على الدولة العربية الاسلامية المستقلة الاخيرة — المغرب — اضطروا الى

التوقيع على اتفاقية مع اسبانيا بتسليمها القسم الشمالى من المغرب المتاخم للممتلكات الاسبانية القديمة على ساحل البحر الابيض المتوسط فى المغرب – مليلة وسبتة . ان موافقة اصحاب المصارف الباريسيين على تسليم اسبانيا قسما من المغرب مهما من الناحية الستراتيجية قد املاها ضغط الامبرياليين البريطانيين الذين كانوا يفضلون تحويل المغرب الشمالى الى محمية لاسبانيا الضعيفة ، وليس الى ملك للمزاحمة القديمة فى النهب والسلب الاستعمارى – فرنسا . وهكذا ، بحكم التناقضات الامبريالية ، تم تقسيم دولة المغرب الاسلامية العريقة القائمة منذ اكثر من الف سنة .

فى سنة ١٩٢١ ، ارسل المستعمرون الاسبان ، تنفيذا لاتفاقية سنة ١٩١٢ ، تشكيلة من الجيش من مليلة للاستيلاء على منطقة الريف الجبلية . وفى عدد من المعارك الكبيرة ، سحقت فصائل اهل الريف الجيش الاسبانى . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٢١ ، اعلن المنتصرون عن تأسيس جمهورية الريف ، ونودى بالقائد العسكرى والفقيه البارز عبد الكريم اميرا عليها .

ان تأسيس دولة الريف المستقلة – اول جمهورية فى تاريخ الاسلام – والانتصارات الكبيرة التى احرزتها قواتها فى سنتى ١٩٢٢ و١٩٢٣ بقيادة عبد الكريم على الجيش الاسبانى ، قد كان لها تأثير مثور كبير فى عموم العالم الاسلامى وبخاصة فى شعوب افريقيا الشمالية ، الرازحة تحت نير المستعمرين الفرنسيين . ولهذا تقرر فى باريس دعم المستعمرين الاسبان بنشاط وفعالية . وفى صيف ١٩٢٤ استولت القوات الفرنسية بغتة على وادى ورغه الخصب ، هرى جمهورية الريف ، سعيا الى خنقها وسحقها ، لا بقوة السلاح وحسب ، بل ايضا بالجوع . ولكن قوات الريف سحقت جيش المستعمرين الفرنسيين فى نيسان (ابريل) ١٩٢٥ واقتربت لصقا من حصنها الرئيسى فى المغرب ، مدينة تازه . فدب الذعر فى الاوساط الاستعمارية الفرنسية . ومن فرنسا الى المغرب اخذوا يرسلون تشكيلات الدبابات والمدفعية سيلا متواصلا . ومما له دلالته ان جيش المستعمرين الفرنسيين كان بقيادة الجنرال بيتان

الذى صار اسمه فى زمن الحرب العالمية الثانية مرادفا للخيانة والعار .

فى غضون سنة ١٩٢٥ ظلت القوات الفرنسية تتلقى ضربات قوية من جيش المسلمين بقيادة عبد الكريم . ولهذا قرر المستعمرون الفرنسيون والاسبان ان يوحدوا قواهم . وقد ارتفع عدد رجال الجيش الفرنسى الى ٢٠٠ الف والاسبانى الى ١٠٠ الف ، وقوبلت بالرفض جميع عروض عبد الكريم بشأن تسوية سلمية للنزاع . وفى ايار (مايو) ١٩٢٦ تسنى لقوات المستعمرين الموحدة ان تهزم جيش الريف وتأسر عبد الكريم وتصفى جمهورية الريف . ولكن المقاومة فى وجه المستعمرين الفرنسيين استمرت فى المناطق الجبلية من اطلس الاوسط وانتى اطلس حتى سنة ١٩٣٠ ضمنا .

ان النضال البطولى الذى خاضه الشعب المغربى من اجل الاستقلال قد استثار الاعجاب ، لا فى العالم الاسلامى وحسب ، بل ايضا فى اوساط البشرية التقدمية جمعاء . بينما استثارت مآثم المستعمرين الدموية بالغ الاستياء والغضب فى كل مكان . وقد ندد بها القائد العسكرى السوفييتى البارز ، مفوض الشعب للشؤون الحربية والبحرية فى الاتحاد السوفييتى ، ميخائيل فرونزه ، فى مؤلفه : «الممدنون الاوروبيون فى المغرب» ؛ كذلك قدر فرونزه فى مؤلفه هذا بطولة الوطنيين المغاربة وموهبة عبد الكريم العسكرية رفيع التقدير .

ولم تتحرر شعوب الجزائر وتونس والمغرب من الغزاة الفرنسيين الا فى اواخر الخمسينيات واوائل الستينيات من القرن العشرين فى ظروف انهيار النظام الاستعمارى ، وبالاعتماد على الدعم الشامل من جانب الاتحاد السوفييتى وسائر البلدان الاشتراكية . ولا بد من الاشارة الى ان قسما كبيرا من رجال الدين المسلمين قد اشتركوا بفائق النشاط والفعالية فى كثير من مراحل النضال الذى خاضته شعوب افريقيا الشمالية ضد المستعمرين .

٤ ـ استعباد سوريا ولبنان

من قديم الزمان ، كانت سوريا ولبنان ، الداخلتين فى قوام الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر ، تسترعيان اهتمام

المستعمرين الغربيين ولا سيما الفرنسيون منهم ، بثرواتهما الطبيعية وموقعهما الستراتيجى الخارق الاهمية . وتحقيقا لخطط الاغتصاب والفتح حيال هذين البلدين ، شرع اصحاب المصارف وتجار الجملة والديبلوماسيون والجواسيس الفرنسيون يركزون منذ اواسط القرن الثامن عشر ، على مزية لبنان الذى ينتمى قسم كبير من سكانه العرب الى طوائف مسيحية مختلفة ، وفى المقام الاول بينها الطائفة المارونية . وان الوثائق التى نحوزها تؤكد ان الاوساط الحاكمة في فرنسا قد اضطلعت بدور كبير في حمل قادة الموارنة على الاعتراف بزعامة الفاتيكان ورئاسته . ومنذ القرن السادس عشر ، اعترف السلاطين الاتراك لفرنسا في عدد من الاتفاقيات المعروفة باسم «Capitulations» («الامتيازات») بحق حكومة فرنسا وديبلوماسيتها فى حماية الكاثوليك . وهذا ما اتاح للقناصل الفرنسيين فى بيروت وقادة السفن الحربية الفرنسية التى كانت تظهر بانتظام فى مكلات مرافىء سوريا ولبنان التدخل بلا تكلف ولا حياء فى حياة هاتين الولايتين من الامبراطورية العثمانية بحجة «حماية» الموارنة من ملاحقات الباشوات الاتراك وحكام جبل لبنان الدروز من آل شهاب وآل جنبلاط . وقد ادت هذه السياسة الى تأزم العلاقات الدرزية المارونية تأزما حادا وسهلت التدخل فى شؤون لبنان الداخلية سواء من قبل الباشاوات الاتراك المعارضين لميول اللبنانيين والسوريين التحررية او من قبل المستعمرين الفرنسيين .

في اواخر الستينيات من القرن الثامن عشر اشتد النضال في لبنان وفلسطين ضد السيادة التركية . وقد اشتركت فيه جماهير الفلاحين ، والقبائل البدوية فى فلسطين الشمالية ، وكبار الاقطاعيين فى لبنان ، وشيوخ المتاولة-الشيعة الذين كانوا يعيشون من زمان فى مناطق لبنان الجنوبية . وفى سنة ١٧٦٨ ، استغل حاكم فلسطين الشمالية الشيخ ظاهر العمر ، وحاكم لبنان الجنوبى الامير منصور ، وشيخ المتاولة ناصيف نصار الضعف العسكرى والسياسى الذى اصاب الباب العالى والذى نجم عن بداية الحرب الروسية التركية الناشبة بدرجة لا يستهان بها عن دسائس الديبلوماسية الفرنسية ، فعقدوا فيما بينهما حلفا ، وترأسوا انتفاضة ضد نير الباشاوات الاتراك الدموى . وفى السنة التالية ، انضم اليهم حاكم مصر ، على

باى الكبير (على بك الجركسى ١٧٢٨–١٧٧٣) الذى اعلن الاستقلال عن الاتراك وارسل العساكر الى عكا وصيدا بناء على طلب ظاهر العمر . ان هذا المملوك الابخازى الاصل ، الذى نال من شريف مكة لقب «سلطان مصر والبحرين» ، قد وجه فى اوائل ١٧٧١ مندوبيه الى جزيرة باروس لمقابلة آمر العمارة الروسية اورلوف . وقد طلب من اورلوف العون وعرض على روسيا عقد حلف لاجل النضال المشترك ضد السيادة التركية فى شرقى البحر الابيض المتوسط ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر . كذلك تطوع على باى لمد العمارة الروسية بالمؤن .

بعد هزيمة الاسطول التركى فى معركة تشيسمن الشهيرة ٢٥–٢٦ حزيران (يونيو) ١٧٧٠ ، سادت القوات البحرية الروسية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وحالت دون الباب العالى ودون ارسال التعزيزات عن طريق البحر الى القوات التركية وصنائع الاتراك فى سوريا ولبنان ومصر . وبفضل ذلك ، استطاعت قوات على باى وظاهر العمر ان تسحق الجيش التركى ، فى لبنان وسوريا ، وان تحتل دمشق وصيدا وتحاصر يافا .

وبالنتيجة دب الذعر فى اسطمبول والغضب فى فرساى حيث تخوفوا ، وليس بدون مبرر ، من ان تؤدى الانتصارات الروسية فى البلقان والبحر الابيض المتوسط وبحر ايجه الى اصابة لامبراطورية العثمانية بضعف حاد ، والى اشتداد النفوذ الروسى فى اسطمبول . ومن جراء ذلك كان من الممكن الغاء اتفاقية «الامتيازات» المعقودة سنة ١٧٤٠ والتى كانت تمنح التجار الفرنسيين امتيازات لا سابق لها فى الامبراطورية العثمانية ولا سيما فى سوريا ولبنان . وللاعتبارات ذاتها لم تكن للاوساط الحاكمة الفرنسية فى اوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر مصلحة فى نيل لبنان ومصر الاستقلال . ولهذا بدأت الحكومة الفرنسية ، مع النمسا ، تحث الباب العالى بجميع الوسائل على مواصلة العمليات الحربية ضد روسيا . وفضلا عن ذلك ، تقرر تسليم الاتراك سرا ١٢–١٥ سفينة حربية فرنسية كبيرة لاجل تعزيز الاسطول التركى الذى ضعف كثيرا بعد معركة تشيسمن .

وفى الوقت ذاته ، قام العملاء الفرنسيون فى سوريا ولبنان

ومصر باعمال حازمة جدا لاجل تقويض الائتلاف المعادى للاتراك من داخله . ومن جراء الاعمال المشتركـــة التى قام بها الباشاوات الاتراك ، والرسل الفرنسيون ، والمطارنة الموارنة الذين استغلوا على نطاق واسع التناقضات الدينية والقبلية والمشاحنات الاقطاعية ، والرشوات والاستفزازات ، عمد ابو الذهب ، آمر قوات حاكم مصر على باى فى سوريا ، الى سحب جيش المماليك من دمشق بصورة غير متوقعة . وترأس فى مصر انتفاضة ضد على باى . وفى الوقت نفسه تقريبا اعلن حاكم الدروز يوسف شهاب الذى وعده الباب العالى بفرمان بحكم جبل لبنان ، عن انضمامه الى الاتراك ، وشن غارة على لبنان الجنوبى على رأس جيش من ٢٠ الف رجل ، مبيدا قرى المتاولة ومزارعهم وبساتينهم ، وحاصر صيدا . ونشأ وضع بالغ الخطر على مصائر الشعب العربى فى لبنان لأنه نشب ، بمشاركة فعالة مـــن جانب العملاء الفرنسيين وكبار رجال الدين الموارنة ، نزاع دموى بين الدروز والشيعيين والموارنة استعد الغزاة الاتراك لاستغلاله . طلب ظاهر العمر وعلى باى العون من اورلوف . وفى ايار (مايـو) ١٧٧٢ ، ظهرت سفن الاسطول الروسى بقيادة الفريق ريزو فـــى مكلأ صيدا التى كانت خاضعة لسلطة الاتراك ويوسف شهـــاب . ونتيجة لعملية منسقة اشتركت فيها سفن الاسطول الروسى وقوات ظاهر العمر ، تحررت صيدا . وفرت بقايا العمارة التركية الى بيروت بحماية مدفعية القلعة . وفى حزيران (يونيو) ١٧٧٢ ، بدأت سفن الاسطول الروسى عمليات حربية ضد الاسطول التركى فى ميناء بيروت. وفى اواخر حزيران (يونيو)، استسلم الاتراك مع قوات يوسف شهاب. وتم تحاشى سفك الدماء وربما تدمير بيروت . وفى تموز (يوليو) ١٧٧٢، عادت عمارة ريزو الى جزيرة باروس لمناسبة التوقيع على اتفاقية بشأن الهدنة فى الحرب الروسية التركية . وبدافع من الديبلوماسية الفرنسية ، اسرع حكام الامبراطورية العثمانية يستغلون الهدنة لاجل بعث سيادتهم العسكرية على لبنان ، الامر الذى كان لا بد له من ان يؤدى الى توطيد مواقع فرنسا الاقتصادية فى لبنان . ولكن مآثم الباشاوات والانكشاريـــة الاتراك الذين كانوا يطعمون الاسرى اللبنانيين اللحم البشرى استثارت فى لبنان انتفاضة كانت هـــذه المرة انتفاضة عامة . وقد اضطر الامير اللبنانى يوسف شهاب الى

قطع علاقاته مع الاتراك وعقد حلف مع الشيخ ظاهر العمر وشيخ المتاولة ناصيف نصار . وهكذا اتحد زعماء الدروز والموارنة والشيعيين ، الدينيون والزمنيون ، للمرة الاولى خلال عقود من السنين ، ضد السيادة التركية . وبما ان الاوساط الحاكمة في فرنسا كانت تدعم الباب العالى بنشاط ، فان هذا الحلف قد اتسم كذلك موضوعيا باتجاه معاد للاستعمار . ان انشاء الحلف يدحض بصورة مقنعة مزاعم علم التاريخ اللبنانى الكاثوليكى الموالى للغرب ومزاعم عدد من العلماء الفرنسيين بصدد وجود قومين او امتين – مارونية ودرزية – فى لبنان وبصدد عدم وجود امة لبنانية واحدة . وهذه الميول تتبدى بجلاء فى المدونات المارونية التقليدية التى صدرت واعيد اصدارها فى مرحلة السيادة الفرنسية فى لبنان ، وفي مؤلفات يوسف سمعان السمعانى (١٦٨٨–١٧٦٨) ، الذى كان من امناء المكتبة الفاتيكانية ، وفى كتب ابراهيم الاعور وحيدر شهاب والاب لامنس وقرالى وغيرهم (٥) .

ورغم المصاعب العديدة الناجمة عن خصائص موقع لبنان الجغرافى ، ورغم الغزوات التى لا عد لها ، وكثرة الانماط الاجتماعية والاقتصادية ، ووجود اكثر من عشرين طائفة اسلامية ومسيحية ، كان ولا يزال يوجد فى لبنان قوم لبنانى واحد بدأ يتوطد خلال القرن العشرين فى امة عربية لبنانية واحدة ، اى بوصفه جزءا لا يتجزأ من الامة العربية الواحدة . وهذا ما كان يتجلى فى مراحل الازمات الوطنية ، حين كان الخطر النابع من الغزاة الاجانب على وجود البلد بالذات يجبر مختلف الفئات الاثنية والدينية والاجتماعية على التراص والتلاحم .

وهكذا كان ايضا فى السبعينيات من القرن الثامن عشر ، رغم المقاومة الشاملة من جانب الباب العالى والعملاء الفرنسيين . ففى سنة ١٧٧٣ ، طلب الامير يوسف شهاب والشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف نصار العون من جديد من آمر العمارة الروسية فى البحر الابيض المتوسط ، لان قواتهم المحاصرة من قبل الاتراك فى بيروت ضعفت من جراء الهزيمة ثم بسبب وفاة حليفهم الكبير على باى . وفى حزيران (يونيو) ١٧٧٣ ، حين انتهت مدة الهدنة الروسية التركية ، ظهرت السفن الحربية الروسية بامرة كوجوخون فى مكلا

بيروت من جديد . وبنتيجة الاعمال المشتركة التى قامت بها القوات الروسية واللبنانية فى ايلول (سبتمبر) ١٧٧٣ ، حلت الهزيمة بالقوات التركية . وبعد شهر — فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٧٣ ، طلب يوسف شهاب من الامبراطورة ايكاتيرينا الثانية قبوله في عداد الرعايا الروس ، واقامة الحماية الروسية على لبنان .

ولكن تم التوقيع فى تموز (يوليو) ١٧٧٤ على صلح كوتشوك — كينارجى الذى انهى الحرب الروسية التركية المديدة والدامية التى لعبت الديبلوماسية الفرنسية دورا كبيرا فى نشوبها . وبموجب المادة ١٧ والمادة ٢٤ من معاهدة الصلح ، تعهدت الحكومة الروسية بسحب العمارة من شرقى البحر الابيض المتوسط ومن بحر ايجه . ولهذا قوبل طلب يوسف شهاب بالرفض . ومع ذلك كان للعمليات الحازمة التى قام بها البحارة الروس فى سنتى ١٧٧٢ و١٧٧٣ قرب السواحل اللبنانية ، ودورهم فى تحرير صيدا وبيروت ، وفى درء ابادة بيروت من قبل جحافل الانكشارية وابادة السكان بالجملة فى لبنان من قبل الباشاوات الاتراك ، تأثير فى كل مجرى التطور فى لبنان . وللمرة الاولى خلال قرون ، ارسلت دولة اجنبية كبرى قواتها وسفنها الحربية ، لا للاستيلاء على البلد ، ولا لتسعير نيران التناقضات بين مختلف الفئات الاثنية والدينية ولاستغلالها ، بل لاجل حماية الشعب اللبنانى من خطر الابادة . ويقينا ان ذلك لم يكن ينبع من انسانية القيصرة ايكاتيرينا الثانية ومستشاريها ، بل كان مرتبطا بالمصالح السياسية والستراتيجية الملموسة لدى الاوساط الحاكمة فى روسيا . ولكن اعمال الحكومة الروسية التى كانت تدعى فى سياق الحرب الروسية التركية كلها بحماية السكان المسيحيين فى شبه جزيرة البلقان ، والتى تدخلت مع ذلك فى الازمة اللبنانية لاجل حماية المسيحيين والمسلمين على السواء ، الامر الذى ادى الى تقديم الامير الدرزى يوسف شهاب من بطرسبورغ بطلب الحماية ، قد اتسمت موضوعيا باهمية ثابتة ، دائمة .

فى اواخر القرن الثامن عشر بالذات ، حين رسم نابليون خطط الحملة على مصر ، حاول مندوبه ، الديبلوماسى والمستشرق المشهور الكولونيل سيباستيانى ، قصارى جهده لاقناع الامير اللبنانى بشير الثانى الكبير ، ابن اخى الحاكم الدرزى الاخير من آل شهاب ،

بالوقوف الى جانب فرنسا ضد الاتراك وضد البريطانيين الذين كانوا حينذاك يؤيدون الاتراك .

ان الامير بشير الثانى الكبير هو من اسطع الشخصيات السياسية فى تاريخ لبنان . وبدافع الوحدة ، غير سرا عقيدته الدينية . وكان هدفه التوصل الى مركزة البلاد والى استقلالهـــا ، لا عن الاتراك وحسب ، بل ايضا عن المستعمرين الغربيين . ولهذا رفض الاشتراك فى المعارك الدامية فى عهد نابليون واسهم بالتالى بقسط لا يستهان به فى توطيد لبنان وتطوره الاقتصادى . وقد استغل بشير الثانى التناقضات المصرية التركية التى كانت بريطانيا وفرنسا تؤجـــج نيرانها بجميع الوسائل والتنافس بين بريطانيا وفرنسا فى الصراع من اجل السيادة على بلدان المشرق ، فتسنى له ، فى الثلث الاول من القرن التاســـع عشر ، بدعم من عدد من الاقطاعيين الدروز والموارنة ، ان يحول لبنان الى امارة مستقلـــة ذاتيا فى قوام الامبراطورية العثمانية وان يضع حدا للنزاعات الدينية والسياسية .

ولكن هذا لـم يكن يطيب لا للباشاوات الاتراك ، ولا لاشد الاقطاعيين الدروز والموارنة ميلا الى العدوان ، ولا سيما لرؤساء الكنيسة المارونية ، وبالاحرى للمستعمرين الفرنسيين الذين اشتد نفوذهم نحو اواسط الاربعينيات من القرن التاسع عشر .

وفى السياسة الاستعمارية ، كانت الاوساط الحاكمة الفرنسية تستغل الى اقصى حد رجال الدين الموارنة الذين كانوا اكبر ملاكى الاراضى فى لبنان . وبينما كان عدد المسلمين فى سوريا ولبنان يوازى ثلاثة اضعاف عدد المسيحيين ، كانت الهيمنة للمسيحيين فى جبل لبنان المتاخم مباشرة لبيروت . وكان الموارنة يشكلون القسم الاساسى من المسيحيين . وكانت نسبة الموارنة الى الدروز فـى جبل لبنان ٥ الى ١ ، الامر الذى استغله المستعمرون الفرنسيون الى اقصى حد لان السلطان التركى قد اكد لفرنسا فى المادة ٣٢ من «الامتيازات» لسنة ١٧٤٠ الحق فى حماية جميع الكاثوليك وجميع المؤسسات الكاثوليكية فى تركيا الاسيوية . وان الديبلوماسيين والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين والسياسيين الفرنسيين من القرن التاسع عشر قد اصروا بعناد على التفسير الزاعم ان فرنسا قد اخذت الموارنة تحت وصايتها وحمايتها منذ زمن لويس الرابع عشر الذى

كان يعتبرهم ، مع الاديرة الكاثوليكية ، ولا سيما المارونية منها فى سوريا ولبنان تحت وصايــة القناصل الفرنسيين . وكان الرهبان الكاثوليك ايا كانت الامة التى ينتمون اليها ، يتمتعون بحقـــوق المواطنين الفرنسيين . وكان ذلك يؤمن للديبلوماسية الفرنسية امكانيات وفرصا غير محدودة لاجل التدخل فى شؤون سوريا ولبنان الداخلية ، ولاجل اثارة النزاعات الدينيه ، ولاجل استئجار العديد من العملاء . ولهذا كانت علاقات الموارنة المتعددة الجوانب مع فرنسا اقوى من علاقاتهم الدينية مع الفاتيكان . وكان رجال الدين الموارنة يتلقون نحو مليونى فرنك سنويا من اوروبا الغربية بصورة هدايا واعانات من كل شاكلة وطراز وبغير ذلك من وجوه «المساعدة» . وفى سوريا ولبنان كان يعمل اساسا ممثلو رهبانيتين فرنسيتين – رهبانية الجزويت (اليسوعيين) ورهبانية العازاريين .

وهذا ما اتاح لفرنسا نشر نفوذها بعيدا خارج حدود المناطق التى يعيش فيها الموارنة . وكانت توجد تحت تصرف الرهبانيـــات الكاثوليكية كنائس واديرة . وكانت الكنائس الكاثوليكية تقوم فى المدن السورية جميعها تقريبا . وكانت الرهبانيات الفرنسية تعلق اهمية كبيرة على بناء وانشاء المدارس وغير ذلك من مؤسســـات التعليم . وفى بيروت أسس المرسلون الفرنسيـــون ١٠ مدارس ثانوية ؛ وبجهود اليسوعيين افتتحت جامعة مرفقة بمطبعة كانت تصدر الكتب الدراسية ومختلف الكتب والمجلات . وفى جميع هـــذه المؤسسات التعليمية حيث كانوا يقبلون على الاغلب اولاد الموارنة الميسورين ، كانوا يربون نظارا وموظفين لاجل المكاتب التجارية وسائر المؤسسات الفرنسية فى سوريا ولبنان . وكان خريجو هذه المؤسسات التعليمية يصبحون على العموم لا من انصار اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية وحسب ، بل ايضا من انصار الاتجاه السيـــاسى الفرنسى .

وقد اثار ذلك بالغ الاستياء فى لندن . وسعيا لاضعاف النفوذ الفرنسى ، بدأ المستعمرون البريطانيون يشجعون النشاط الارسالى لرجال الدين البروتستانت الذين لم تكن صلاحيات القناصـــل الفرنسيين تشملهم . ونتيجة لذلك ، اخذت العقيدة البروتستانتية تنتشر فى سوريا وفلسطين بسرعة . ومن سنة ١٨٠٠ الى سنة

١٨٨٠ ازداد عدد جمعيات المرسلين البروتستانت فى هذين القطرين من ٧ الى ٧٥ وعدد المرسلين من ١٧٠ الى ٣٥٠٠ وعدد المدارس التى اسسوها من ٧٠ الى ١٢٠٠٠ . وفى سنة ١٨٤١ انشئت الجمعية الطبية السورية بفضل جهود الديبلوماسية البريطانية ؛ وفى سنة ١٨٦٠ تأسست الرسالة (البعثة) السورية البريطانية .

ولاجل اضعاف النفوذ الفرنسى فى الحياة الدينية والسياسية فى سوريا ولبنان ، اخذت الاوساط الحاكمة البريطانية تدعم بهمة وحزم نشاط المرسلين الاميركيين . ففى سنة ١٨١٩ اسس المرسلون الاميركيون فى بيروت رسالة بريسبيتيريانية (مشيخية) . ونحو اوائل الخمسينيات كانت لها فروع فى صيدا وحمص ودير القمر . وكان المرسلون الاميركيون اوائل من ترجموا التوراة الى العربية . وفى بيروت ، كانوا يصدرون بانتظام المطبوعات الدعائية باللغة العربية وجريدة خاصة بهم . وفى سنة ١٨٦٦ أسسوا فى بيروت مدرسة بروتستانتية صارت فيما بعد جامعة .

ان هذا النشاط الحازم والمتواصل الذى قام به المرسلون الفرنسيون والبريطانيون والاميركيون ، بالاعتماد على الدعم الكلى ، المادى والتكنيكى والديبلوماسى ، من جانب الاوساط الحاكمة فى بلدانهم ، قد اسهم فى توطيد النفوذ الغربى فى سوريا وبخاصة فى لبنان ، وفى انشاء شبكة كبيرة من عملاء الغرب ومن المثقفين الموالين للغرب ، وعزز التناقضات الدينية والاجتماعية بين الطائفتين المسيحية والاسلامية فى لبنان . وقد استغل زعماء المسيحيين التأييد الشامل من جانب الديبلوماسيين الغربيين والاوساط التجارية والمالية الغربية ، فوسعوا ووطدوا قاعدتهم الاقتصادية ، وحصلوا على امكانيات عديدة اضافية لكى يستثمروا ، عدا المسيحيين العاديين ، المسلمين اللبنانيين الذين كانوا يعانون ، بسبب حرمانهم من الحقوق ، مضايقات كبيرة جدا من جانب السلطات التركية والذين كان يتوفر لهم اقل بكثير من الفرص والامكانيات لاجل تطوير الثقافة والتعليم . وهكذا كان المستعمرون الغربيون يبذرون فى لبنان ، بمساعدة المرسلين النشيطة والفعالة ، بذور النزاعات الدينية المقبلة وبخاصة بذور النزاعات الاجتماعية التى كانت تتخذ احيانا كثيرة شكل الحروب الاهلية .

وبقدر ما كان يتأزم الصراع البريطانى الفرنسى من اجل الشرق الادنى وبخاصة من اجل سوريا ولبنان ، رأت الاوساط الاستعمارية البريطانية نحو اوائل الاربعينيات من القرن التاسع عشر انه لا يكفى التعويل على المرسلين البروتستانتيين ورعاياهم المحليين فقط . وهذا ما اوضحه الديبلوماسي والسياسى والكاتب الاجتماعى البريطانى المشهور اوركارت بصورة مقنعة : «بما ان الموارنة مخلصون لفرنسا جسدا وروحا ، فلا يبقى لبريطانيا غير حمايـــة الدروز» (٦) . وبالفعل ، اخذت الديبلوماسية البريطانية والعملاء البريطانيون فـى لبنان يقيمون منذ اواخر الثلاثينيات اتصالات مع الاوساط العليـا الاقطاعية من الدروز ، ويعلنون انهم حماة قضيتهم ، وينظمون ارسال الاسلحة سرا الى المناطق التى يقطنها الدروز . وهكذا عزز الصراع البريطانى الفرنسى على لبنان التناقضات الدرزية المارونية الى اقصى حد ، دافعا اياها فى دوامة نزاعات مسيحية اسلامية فى غاية الحدة . والى دوامة هذه النزاعات انجذب الباب العالى كما انجذبت الـــدول الغربية . وهذه النـزاعات شوهت التطور الاجتماعى فى لبنان ، والحقت خسائر لا تحصى بتطوره الاقتصادى ، واودت بحياة مئات الآلاف من اللبنانيين ، من موارنة ودروز ، من مسيحيين ومسلمين . هكذا كانت ترسى اسس السياسة الاستعمارية الشريرة المشؤومة التى كانت تستهدف تقسيم لبنان ، وفصله عن الامة العربية والعالم الاسلامى ، وتحويله الى رأس جسر لاجل هجوم الغرب على بلدان الشرقين الادنى والاوسط . وهذه السياسة يواصلها الامبرياليون بنشاط ومثابرة واصرار فى الثمانينيات من القرن العشريـــــن ، مستغلين بجميع الوسائل لاجل تحقيق خططهم المعتدين الصهاينة ، ومعتمدين على الخبرة المديدة لاسلافهم — المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين الذين ارسوا بداية هذه الستراتيجية الاستعماريـــــة المخزية والاجرامية منذ اكثر من ١٥٠ سنة .

نحو اوائل الاربعينيات من القرن التاسع عشر ، صار الوضع فى سوريا ولا سيما فى لبنان متوترا جدا . فان انخراط هذين البلدين تدريجيا فى التبادل التجارى العالمى ، وادراج المزروعات التصديرية فى الاقتصاد قد اديا الى تفاقم استثمار الجماهير الشعبية الواسعة من قبل الاقطاعيين والشيـوخ المحليين ، الدروز والموارنـــة على

ثم ان الصراع المشتد على سوريا ولبنان بين الامبراطورية العثمانية التي كانت تدعمها آنذاك اغلبية الدول الاوروبية وبين حاكم مصر محمد على الذى كانت تحرضه الاوساط الحاكمة فى فرنسا ، والتدخل المباشر فى شؤون لبنان من جانب المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين ، والعديد من هيئات المرسلين ، قد ازما الوضع السياسى فى البلاد الى اقصى حد . وفى آخر المطاف تحولت النزاعات الاجتماعية والتناقضات الدينية فى سنة ١٨٤٠ الى انتفاضة واسعة ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون اللبنانيون المستعبدون ، وقوت دسائس العملاء البريطانيين الى اقصى حد اتجاهها المعادى جزئيا للمصريين . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ اقتربت من بيروت عمارة بحرية بريطانية نمساوية بقيادة الاميرال البريطانى نيبير . وفى ١١ ايلول نزلت فى منطقة جونيه قوة من ٢٠٠٠ جندى بريطانى و٦٠٠٠ جندى تركى و٥٠٠ جندى نمساوى . وقد اكد المستشرق السوفييتى الشهير لوتسكى عن كامل الحق والصواب ان هذا التدخل الذى وضعت خطته فى لندن وتحقق باشراف القيادة البريطانية قد دشن بداية مرحلة استعباد البلدان العربية الاستعمارى (٧) .

بعد ان بعث المستعمرون البريطانيون السيادة التركية فى القسم الغربى من لبنان ، واكرهوا محمد على على سحب قواته من لبنان ، واضعفوا بالتالى مواقع فرنسا ، بدأوا يعززون اتصالاتهم بانشط وجه مع الاقطاعيين الدروز . والى هذه الفترة بالذات من الزمن ، يرقى التقارب بين العملاء البريطانيين وآل جنبلاط ذوى النفوذ القوى الذين صاروا دعامة للبريطانيين فى لبنان . وفى ايلول ١٨٤١ ، احالت القيادة البريطانية مجانا الى زعماء الدروز ، بموجب اتفاقية سرية معهم ، كمية كبيرة من البنادق ومن الذخائر الحربية . وفى الوقت نفسه ، عزل حاكم لبنان الامير بشير الثانى ، ونقله البريطانيون الى مالطه . فان ميوله الى المركزية ، ودعمه للاقطاعيين الموارنة ، وعلاقاته مع محمد على ومع فرنسا التى تدعم محمد على ، لم تكن تطيب ، لا للندن ، ولا لاسطمبول . وقد عين الباب العالى الامير بشير قاسم ، الذى كان يساند كليا ادعاءات مشايخ الدروز باراضى الموارنة حاكما جديدا للبنان .

لم تشأ الاوساط الحاكمة الفرنسية ان تسلم بضعف مواقعها . ولهذا اخذ العملاء الفرنسيون يستحثون ببالغ الحمية والجهد الموارنة على مقاومـــة الدروز والباشاوات الاتراك وبالتالى على مقاومـــة البريطانيين . وفى خريف ١٨٤١ تدفقت فى عموم لبنان موجة من المصادمات الدرزية المارونية الناجمة عن الخلافات الاجتماعيـــة والدينية والطبقية والاثنية . وهذه المصادمـــات اخذ العمـــلاء البريطانيون من جهة والعملاء الفرنسيون من جهة اخرى يؤججون نيرانها بجميع الوسائل .

فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤١ هاجم مشايخ الدروز عـــلى راس فصائل مسلحة مدينة دير القمر واعملوا قتلا بسكانها . وفى سياق الهجوم استعمل الدروز على نطاق واسع الاسلحة التى تلقوها قبل شهر من القيادة البريطانية . ان هذه المصادمات المارونيـــة الدرزية التى اودت بحياة عشرات الآلاف من الناس قد اضعفت لبنان كثيرا ، وبذرت بذور الكره المتبادل عند مئات الآلاف من ابناء واحفاد القتلى ، وهذا الكره ينتقل من جيل الى جيل ولا يزال يعطى نبتاته وثماره الدامية فى ايامنا ايضا . وقد استغل الباب العالى هـــذه المجزرة الداميـــة فقضى على استقلال لبنان الذاتى وفرض حكـــم الباشاوات الاتراك المباشر . وفى سنـــــة ١٨٤٢ اضطر حكام الامبراطورية العثمانية ، تحت ضغط فرنسا وبريطانيا الهائل ، الى الموافقة على تقسيم لبنان الى قائمقاميتين – مارونية ودرزية – تدير كل منهما سلطات دينية وسياسية من ابنائها .

وهكذا ، نتيجة للتدخل النشيط من جانب المستعمرين الغربيين ، وفى المقـــام الاول من جانب فرنسا ، أضفيت الصفة الشرعية على تقسيم لبنان الادارى المرتكز على المبدأ الدينى ، وجرت محاولة لتقسيم القوم اللبنانى العربى فى المرحلة التى كان يتحول فيهـــا بصورة مكثفة الى امة لبنانية عربيـــة ، اى الى جزء لا يتجزأ من الامة العربية . لم يكن بوسع التقسيم ان يزيل الخلافات الدرزيـــة المارونية ، لانه كانت توجد فى كل من القائمقاميتين مدن صغيرة وقرى يقطنها الدروز والموارنة معا . ولم يفعل التقسيم غير ان قوى الخلافات ، وقد استمرت النزاعات المارونية الدرزية التى كان العملاء الاجانب ينفخون فى نيرانها . وفى سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٦٠ ، ادت

الى مصادمات واضطرابات جديدة ، اشد اراقة للدماء . وكانت المصادمات فى سنة ١٨٦٠ رهيبة بخاصة من حيث عواقبها . وبتسعير اوارها ، حسب الباشاوات الاتراك والاوساط العليا من الكنيسة المارونية ، العاملة بموجب تعليمات القنصل الفرنسى فى بيروت ، ان يحولوا دون انتشار انتفاضة الفلاحين القوية التى نشبت سنة ١٨٥٩ فى اواسط لبنان – فى كسروان بقيادة البيطرى المارونى طانيوس شاهين ، الى عموم لبنان الاوسط ولبنان الجنوبى .

باستثارة هذه المجزرة الدرزية المارونية استهدف المستعمرون الفرنسيون اهدافا واسعة . فقد نظمت الديبلوماسية الفرنسية والطغمة العسكرية الفرنسية ، بناء على اشارة مباشرة من نابليون الثالث ، حملة صاخبة فى الصحافة الاوروبية دفاعا عن المسيحيين الموارنة الذين تهدد «الوحشيات الدرزية» وجودهم بالذات ، كما زعم ، واخذتا تقومان باستعدادات مكثفة للتدخل فى سوريا ولبنان . وسعيا الى التخفيف من غلواء مطامع المصرفيين والجنرالات الفرنسيين ، توصلت حكومات خمس دول – بريطانيا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا ، تركيا – الى موافقة فرنسا على عقد مؤتمر دولى لبحث الوضع فى لبنان . وفى ٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٠ اتخذ المؤتمر قرارا صوتت فرنسا ايضا بالموافقة عليه ، ومفاده انه ينبغى ان لا يربو عدد افراد جيش الاحتلال الفرنسى المرسل «لاجل حماية المسيحيين» على ١٢ الف رجل ، وان لا تربو مدة إقامته فى اراضى سوريا ولبنان على ستة اشهر . وعدا ذلك ، كان ينبغى ارسال لجان خاصة الى سوريا ولبنان تضم ممثلى الدول المشتركة فى المؤتمر بغية اعداد نظام جديد لاجل لبنان ودرء نشوب النزاعات المارونية الدرزية . وفى اواخر آب (اغسطس) ١٨٦٠ اى عشية اختتام المؤتمر بالذات ، امر نابليون الثالث ، رغبة منه فى اضعاف مواقع خصومه فى المؤتمر ، بالشروع فورا فى التدخل المسلح فى لبنان وسوريا الغربية تحت ستار الحجة البالية المعروفة «حماية المسيحيين» .

كان جيش التدخل الفرنسى يضم افواجا من المشاة وقطعات من الخيالة والمدفعية وسلاح الهندسة . وكان قسم كبير من الجنود يتألف من العرب المجندين بالخداع والقوة فى الجزائر . وهكذا حاول

المستعمرون الفرنسيون حتى فى القرن التاسع عشر ان يستعدوا مسلمى افريقيا الشمالية على مسلمى الشرق الادنى . وقد دعمت مدافع اسطول فرنسى كبير نزول العساكر فى بيروت .

قابل السكان المسلمون فى لبنان المحتلين باقصى العداوة رغم ان القيادة الفرنسية اكدت غير مرة ، تمويها لمقاصدها العدوانية ، انها لا تفعل غير ان تنفذ قرارات المؤتمر الدولى الذى اشترك فيه الباب العالى وان عمليات القوات الفرنسية والتركية فى سوريا ولبنان ينسقها المفوض فوق العادة للباب العالى فى هذين البلدين فؤاد باشا . وفى شوارع دمشق وبيروت ، اخذوا ينشرون مناشير مكتوبة باليد موجهة الى المسيحيين المحليين ، وفى المقام الاول الى الموارنة جاء فيها : «قولوا لكلابكم الفرنسيين انهم لن ينقذوكم ، لان لدينا سيوفا تقطع الرؤوس ورماحا تخترق القلوب ، وبارودا ورصاصا يسحقان العظام . وسنتغلب عليهم وعليكم سواء بسواء» (٨) .

وفيما بعد ، اعرب الدروز غير مرة ، كما اعرب الاتراك الموجودون فى سوريا ولبنان ، غير مرة ، عن كرههم للمحتلين الفرنسيين . وكانت الجموع التى تحتشد فى الساحات الرئيسية ببيروت ودمشق تصيح ان الفرنسيين جاؤوا الى سوريا ولبنان «لكى يسلبوا كليا جميع المسلمين» . وفى مرحلة الاحتلال الفرنسى ، وقعت غير مرة مصادمات بين المحتلين وجماعات مسلحة من المسلمين فى بيروت ودير القمر وغيرهما من الاماكن . ورغم معاقبة المذنبين واعتقالهم ، لم تتوقف الهجمات على المحتلين .

وقد بذل قائد جيش الاحتلال الفرنسى الجنرال بوفور دوبول قصارى الجهد لاجل المس بمصالح الدروز ونفوذهم السياسى والاقتصادى ولاجل توطيد مواقع الاوساط العليا المارونية ونفوذها الى اقصى حد ، وتعزيز اتصالاتهم مع فرنسا . وبينما كان فؤاد باشا والممثلون الديبلوماسيون للدول الاوروبية يلحون على مرابطة جيش الاحتلال الفرنسى فى كسروان بصورة رئيسية (وكسروان منطقة تقع شمالى بيروت وغير بعيد عنها ويقطنها الموارنة) لاجل اداء مهمة التدخل الرسمية «حماية حياة المسيحيين ومصالحهم» ، كان الجنرال بوفور يجهد لاحتلال المناطق التى يعيش فيها الموارنة والدروز على السواء .

وكان يفسر هذا الجهد بوقاحة بالرغبة فى طرد الدروز من المناطق المختلطة وتحويل جبل لبنان الى ارض مارونية تكون حصنا للنفوذ الفرنسى فى المشرق (٩) . وفى الوقت نفسه ارسل بوفور قسما من القوات الفرنسية الى لبنان الاوسط والجنوبى لكى يقطع على الفصائل الدرزية سبل التراجع الى قلعتها الجبلية – حوران – ويطوقها وينزع سلاحها ، ويقضى ، حسب الامكان ، على وحدات الدروز المقاتلة . وفضلا عن ذلك ، اعد القائد الفرنسى حملة على سوريا الغربية لاجل احتلال دمشق . ولكنه لم يستطع تحقيق هذه الخطة بسبب اعتراضات الباب العالى القاطعة الذى كان يخشى انتفاضة اسلامية عامة فى سوريا ، وبسبب معارضة الدول الاوروبية التى لم تكن ترغب فى السماح باستمرار توطد مواقع فرنسا فى الشرق الادنى .

فى اواخر سنة ١٨٦٠ شنت القوات الفرنسية والتركية من ثلاثة اتجاهات هجوما مركزا على مواقع الدروز فى لبنان الاوسط وجبل لبنان . نزلت القوات التركية فى صيدا وبدأت هجوما على جزين ، واتجه الفرنسيون ، طابورين ، صوب قب الياس حاسبين ان يغلقوا على هذا النحو الطوق حول الدروز والحيلولة دون تراجعهم الى حوران واحتلال وادى البقاع ، وانشاء رأس جسر فيه لاجل الهجوم لاحقا على دمشق . واثر طابورى القوات الفرنسية ، تحركت فصائل الاقطاعيين الموارنة ، للاشتراك فى نهب القرى الدرزية وفى الاستيلاء على اراضى الدروز .

ولكن احتلال القوات الفرنسية لدير القمر ولبيت الدين ، المقر القديم للامير بشير الثانى ، لم يسفر عن تحقيق الخطة وقوامها تطويق وابادة الفصائل الدرزية . فان الدروز ، وقد حذرهم فى حينه عملاؤهم فى بيروت ، ولربما فؤاد باشا ، قد تفلتوا من الطوق فى وادى البقاع قبل ان تلتقى القوات الفرنسية بالقوات التركية وتغلق الطوق ، وانطلقوا الى جبل حوران ، واحتموا فيه . ومع فصائل الدروز ، تراجع كذلك السكان المسلمون الراشدون جميعهم تقريبا من هذا الجزء من لبنان . وهكذا لم يبلغ التدخل المسلح الفرنسى هدفه الرئيسى . ثم ان المحاولة الثانية التى قام بها الجنرال بوفور للشروع فى مهاجمة دمشق من البقاع بحجة حماية المسيحيين فى

دمشق من المجازر (وقد نشر العملاء الفرنسيون هذه الاشاعات قصدا وعمدا) منيت هي ايضا بالاخفاق بسبب معارضة الباب العالي من جهة ، ومعارضة الديبلوماسية البريطانية والروسية من جهة اخرى .

ان اعمال المحتلين الفرنسيين القاسية والمتحدية في لبنان وسوريا ، والضغط على زعماء الدروز وملاحقتهم ، قد استثارت الاستياء والغضب في العالم الاسلامي وفي اوروبا . وقد كرس كارل ماركس للتدخل الفرنسي في سوريا ولبنان مقالتين في الجريدة التقدمية آنذاك «نيويورك دايلي تريبون» . اكد ماركس في المقالة الاولى على الدور الاستفزازي الذي لعبته الديبلوماسية الفرنسية ولعبه العملاء الفرنسيون في نشوء الوضع المتأزم في سوريا ولبنان ، واشار الى ان «امبراطور الفرنسيين قد اضطر الى البحث عن حملة صليبية جديدة ومدوية ما ، لكي يخدر امبراطوريته من جديد بالهوسات القتالية» . وفي المقالة الثانية فضح ماركس خلفية التدخل المسلح الفرنسي ، واستشهد بالكراس التحريضي «سوريا» الذي اصدره في اواخر تموز (يوليو) ١٨٦٠ الناشر دانتو الوثيق الارتباط بالبلاط الامبراطوري والذي جاء فيه : «ان اوروبا المسيحية ، كما في زمن الحملات الصليبية ، قد راعتها الجريمة الرهيبة التي كانت سوريا للتو مسرحها . ان ٧٠٠ الف مسيحي يتخبطون في قبضة وسلطة استبداد قاس يمارسه مليونا مسلم . . . ويقينا ان فرنسا ستجحد جميع تقاليدها اذا لم تأخذ فورا على عاتقها الدور المشرف ، دور حماية حياة المسيحيين واموالهم» . هكذا كان ، كما قال ماركس ، التحضير الايديولوجي للتدخل المسلح . وفي الوقت نفسه ، اكد صاحب نظرية الشيوعية العلمية ، كارل ماركس ، على دور المستعمرين البريطانيين في تسعير اوار المجزرة المارونية الدرزية . وفي المقالة الاولى من المقالتين المذكورتين ، اوضح كارل ماركس ان وزير خارجية بريطانيا العظمى اللورد بالمرستون قد زود بالسلاح الاقطاعيين الدروز ، المشتركين النشطاء في المجزرة ، كما اكد انه «لم يكن من الممكن ان تعطي الخلافات المارونية الدرزية غلة دموية الا تحت قيادة المتآمرين الاجانب الماهرة» (١٠) . وهكذا استثار المستعمرون الفرنسيون ، بمشاركة نشيطة وفعالة من جانب حكام بريطانيا العظمى ، حربا اهلية في لبنان ونظموا التدخل المسلح

الواسع . ان طرائق تحضيره الاستفزازية ، واشكال تحقيقه الوقحة والصفيقة ، تعطي جميع المبررات لاعتباره موديلا اصيلا للتدخل المسلح الاستعماري الجديد الذى قام به الامبرياليون الاميركيون فى لبنان فى سنة ١٩٨٣ ، علما بانهم اعتمدوا على دعم حلفائهم فى الناتو واستغلوا العدوان الاسرائيلي الذى جرى بموافقتهم على لبنان فى سنة ١٩٨٢ ، كمفجر لنشوب الحرب الاهلية من جديد فى لبنان .

على الصعيد العسكرى انتهى التدخل المسلح عمليا بالاخفاق لانه لم يبلغ الاهداف المنشودة لاسباب مختلفة . فان الباب العالى ، من جهة ، وحكومات اغلبية البلدان الاوروبية ، من جهة اخرى ، قد طالبت بسحب جيش الاحتلال الفرنسى من سوريا ولبنان بأسرع وقت ، اذ ان الاشهر الستة لمدة اقامته ، التى اقرها المؤتمر الدولى قد انقضت فى آذار (مارس) ١٨٦١ . ولكن الاوساط الاستعمارية والكاثوليكية النافذة فى فرنسا ، ونابليون الثالث واقرب المحيطين به قد حاولوا ان يمددوا باى ثمن كان مدة اقامة القوات المسلحة الفرنسية فى لبنان . وكان العملاء الفرنسيون ينشرون الاشاعات بدأب وانتظام عن مؤامرات جديدة ضد الموارنة يهيئها زعماء الدروز وسائر الزعماء المسلمين فى بيروت وبعلبك ودمشق . وكان عضو الطائفة الكاثوليكية فى صيدا ، اليسوعى الفرنسى البارز ، روسو ، يرسل الرسائل بانتظام الى الجرائد الرجعية الباريسية ويزعم فيها ان انسحاب القوات الفرنسية من سوريا «سيكون بلية على المسيحيين» ، ويدعو الى جعل الاحتلال الفرنسى لسوريا ولبنان دائما . كذلك قامت جريدة «امى دى لا ريليجيون» («اصدقاء الدين») ، لسان الحال النافذ للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ، بحملة نشيطة لاجل تمديد مدة الاحتلال زاعمة ان انسحاب القوات الفرنسية من بيروت «سيكون اشارة لابادة مسيحيى الشرق» . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٠ ، اقيمت فى باريس مشهدية مسرحية كبيرة اسمها «المجزرة السورية» التى كان الامين الشخصى لنابليون الثالث احد اصحابها . ان حضور الامبراطور مع حاشيته فى الحفلة الاولى الرسمية اكد الدلالة السياسية الدعائية لهذه المشهدية التى اغدقت الثناء على

فرنسا ورسالتها النبيلة لانقاذ مئات الآلاف من مسيحيي المشرق» (١١) .

ولم يتأخر الجنرالات والديبلوماسيون عن المسرحيين والدعاة . فقد سبق ان شرعت وزارة الحربية الفرنسية في ايلول (سبتمبر) في رسم خطة لانشاء «الدولة السورية اللبنانية المستقلة» تحت حماية فرنسا . واكد خازن جيش الاحتلال الفرنسي لويه انه اذا ما استطالت اقامة القوات المسلحة الفرنسية سنة اخرى ، فانه سيكون من الممكن انجاز الاستعدادات لانشاء «دولة مارونية مستقلة» تحت رقابة فرنسا . ورسم السفير الفرنسي في القسطنطينية لافالت في رسالة الى القائد العسكري البارز واحد قادة جيش الاحتلال الفرنسي الجنرال دوكرو لوحة عن «الامبراطورية الغربية» التي كان بوسع الفرنسيين تأسيسها من مختلف امارات الجزيرة العربية والشرق الادنى في رقعة شاسعة تمتد من السويس الى دجلة والفرات ، على ان تكون بغداد عاصمتها ومكة المكرمة مركزها الديني . وكان لافالت يرى انه لا بد لهذا ، مع المملكة المارونية في لبنان ، ان يرسي اسس السيادة الفرنسية في آسيا (١٢) .

ولكن نابليون الثالث اضطر في تموز (يوليو) ١٨٦١ ، بعد تمديد مدة اقامة جيش الاحتلال الفرنسي لثلاثة اشهر فقط ، الى سحب قواته من المشرق ، وذلك من جراء مقاومة مسلمي سوريا ولبنان ، وموقف الباب العالي ، ولا سيما المطالبات القاطعة من جانب بريطانيا العظمى وروسيا . وهكذا اخفقت محاولة المستعمرين الفرنسيين استعباد المسلمين والمسيحيين في سوريا ولبنان .

ومع ذلك استطاعت الديبلوماسية الفرنسية ان تستحصل ، على سبيل «التعويض» ، من اللجنة الدولية المؤلفة خصيصا ، على رسم «نظام عضوي» جديد «للبنان» . وقد صيغ هذا «النظام» الذي اسمي «القانون الاساسي» بصورة اتفاقية وقعها ممثل تركيا وممثلو الدول الاوروبية في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١ في القسطنطينية . وبموجب هذه الوثيقة الدولية ، كان ينبغي ان يصبح جبل لبنان (بدون الساحل) متصرفية مستقلة ذاتيا برئاسة حاكم مسيحي غير لبناني مستقل عن باشاوات بيروت ودمشق الاتراك وخاضع مباشرة للباب العالي . والى جانب المتصرف ، كان ينبغي انشاء مجلس ادارة من

اثنى عشر عضوا (اثنان عن كـــل من الطوائف الدينية الاساسية الست فى لبنان) .

ومن هنا ينجم ان التدخل المسلح الفرنسى قد رسخ تقسيــــم لبنان الى مسيحى ومسلـــم ، الذى سبق ان بدأته اصلاحات سنة ١٨٤٢ ، وذلك فضلا عن الضرر الفادح الذى الحقه بالمسلمين فى سوريا ولبنان وكذلك بالمسيحيين ، وعن تـأزيم التناقضـــــات المسيحية الاسلامية . وقد نص «القانون الاساسى» على تصفيـــة القائمقاميتين ، الامر الذى عقد وضع الدروز الذين وقعوا تحت سلطة الباشاوات الاتراك مباشرة ، ووطد وضع الموارنة المرتبطين وثيق الارتباط بفرنسا ، والذين اصبحوا اسياد جبل لبنان فعلا . ان هدف اصحاب «القانون الاساسى» ، كان مثل هدف اصحاب الاصلاحـــات الادارية سنة ١٨٤٢ وهو تقسيم الشعب اللبنانى العربى ، ووقف عملية تكون الامة اللبنانية العربية بوصفها جزءا لا يتجزأ من الامة العربية الواحدة ، وانشاء رأس جسر لاجل تغلغل المستعمريـــــن الاوروبيين فى العالم الاسلامى .

وهذا ما فهمه ممثلـــو الشعب الطليعيون ، بصرف النظر عن عقائدهم الدينية . فان المنور البارز فى سوريا ولبنان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر المعلـــم بطرس البستانى (١٨١٩-١٨٨٣) ، المسيحى المارونى من حيث العقيدة الدينية ، مثلا ، قد دعا بلا كلل الى وحدة الشعبين العربيين فى سوريا ولبنان . وفى سنة ١٨٦٣ اسس فى بيروت اول مدرسة عربية ، واصدر باللغــــة العربية المجلتين الاسبوعيتين «نفير سوريـــا» و«الجنة» ، واعد واصدر معجما كبيرا للغة العربيـــة هو «قاموس محيط المحيط» والمجلدات السبعـــة الاولى من الموسوعة العربية الشهيرة «دائرة المعارف» . وبعد وفاته انجز ابن عمه سليمان البستانى (١٨٥٦-١٩٢٥) اصدار هذه الموسوعة . ومن انصار بطرس البستانـــى وسليمان البستانى كان الشاعر اللبنانى الفذ الشيخ ناصيـــف اليازجى (١٨٠٠-١٨٧١) الذى شجب فى قصائده التعصب الدينى ودعا الى اتحاد العرب . والقضايا ذاتها تناولها البحث فى جلسات الجمعية العلمية العربية التي سبق ان انشئت في بيروت في سنة

١٨٥٧ والتى وحدت للمرة الاولى فى تاريخ سوريا ولبنان المثقفين العرب بصرف النظر عن عقائدهم الدينية .

هكذا كان رد الوطنيين الحقيقيين على دسائس المستعمرين .

ان التدخل المسلح الفرنسى فى لبنان وسوريا فى ١٨٦٠ و١٨٦١ لا يتسم بشأن تاريخى فقط ، بل يتسم كذلك باهمية عملية . ذلك ان دراسة طرائق اعداده ، واهدافه ومهماته التى وضعها طواغيت المصارف الباريسية واصحاب مصانع الاقمشة الحريرية فى ليون واصحاب السفن وتجار الجملة فى مرسيليا امام الطغمة العسكرية الفرنسية ، والاساليب الدموية لتحقيقه ، وعواقبه المشؤومة على سكان سوريا ولبنان ، ولاسيما على ملايين المسلمين فى البلدين ، تتيح لنا ان نتفهم بمزيد من العمق دوافع العدوان الاميركى الاسرائيلى على لبنان فى ١٩٨٢ و١٩٨٣ ومهماته واهدافه .

ولكن فشل التدخل المسلح فى ١٨٦٠ و١٨٦١ لم يعن ان المستعمرين الفرنسيين قد تخلوا عن خطط استعباد سوريا ولبنان . فمنذ اواخر القرن التاسع عشر اخذ تغلغل الرأسمال الفرنسى فى هذه المنطقة يشتد بسرعة ، وطفقت الرسالات الدينية الفرنسية تجهد لاقناع اللبنانيين باعتناق المسيحية فى شكلها الكاثوليكى . وشرع اصحاب الحوانيت ، واصحاب الفنادق ، وارباب العمل فى ميدان الخدمات ، الذين لهم مصلحة فى الحصول على حماية القناصل الفرنسيين التى تخفف من تبعيتهم للباشاوات الطماعين والجشعين ، يعتنقون الكاثوليكية بالجملة . وهكذا اسهم المستعمرون الفرنسيون فى تجزئة الشعب اللبنانى دينيا واجتماعيا .

كانت الرغبة فى الاستيلاء على سوريا ولبنان احد الاهداف التى حملت الاوساط الحاكمة الفرنسية على دخول الوفاق ثم على الاشتراك النشيط فى شن الحرب العالمية الاولى . ويستفاد من المعاهدة البريطانية الفرنسية السرية المعقودة سنة ١٩١٦ («معاهدة سايكس-بيكو بشأن تقاسم المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية») انه كان ينبغى ان تصبح سوريا ولبنان من الممتلكات الفرنسية .

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى كانت فرنسا قد عينت الجنرال غورو قائد جيوشها فى الشرق «مفوضا ساميا» فى سوريا ولبنان ، ولكن سلطة الفرنسيين كانت الى ذلك الحين سائدة على لبنان فقط .

فكان عليهم ان يبسطوا سلطتهم على الاراضى السورية بقوة السلاح ، الامر الذى اثار بالغ السخط والاستياء بين المسلمين على الاخص فى سوريا . وكان «المؤتمر السورى» قد اعلن استقلال سوريا . واخذت تتشكل فصائل من الانصار فى مختلف انحاء سوريا . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٩ انشىء «المجلس الشعبى للدفاع الوطنى» .

وفى تموز (ويوليو) ١٩٢٠ احتلت القوات الفرنسية سوريا . ورغم الاستياء والاحتجاج ، اتفقت بريطانيا وفرنسا نهائيا فى مؤتمر سان ريمو فى سنة ١٩٢٠ على اخضاع لبنان وسوريا للانتداب الفرنسى . وفيما بعد ، فى ايلول (سبتمبر) ١٩٢٣ صادق مجلس عصبة الامم على هذا القرار الجائر ، غير الشرعى .

ولكن الوطنيين السوريين لم يستسلموا . ففى آب (اغسطس) ١٩٢٠ بدأت انتفاضة كبيرة معادية للامبريالية فى حوران ، ثم انتشرت فى ١٩٢٢ و١٩٢٣ وشملت منطقة جبل الدروز المهمة من الناحية الستراتيجية . وسعيا الى تحطيم مقاومة الوطنيين السوريين باى ثمن كان ، لجأ المستعمرون الفرنسيون على نطاق واسع ، لا الى المدافع والرشاشات وحسب ، بل ايضا الى الرشوة والاستفزاز والصليب والانجيل . وقد حرضوا مسيحيى سوريا ولبنان على المسلمين ، والسنيين على الشيعيين ، وأججوا بجميع الوسائل نيران النزاعات بين السنيين والعلويين . ولهذا الغرض كانوا قد قسموا سوريا فى سنة ١٩٢٠ الى «اقضية» و«دول» منفردة – «دولة حلب» ، «دولة دمشق» . كذلك انتهج المستعمرون الفرنسيون سياسة مماثلة فى لبنان .

ردا على ذلك ، نشبت الثورة الوطنية فى سوريا فى سنوات ١٩٢٥–١٩٢٧ ، وفى سياقها انزل الثوار بقيادة سلطان الاطرش ، عددا من الهزائم الكبيرة بقوات المستعمرين . وبعد ان اتخذت الثورة طابعا سوريا عاما ، اذ اشتركت فيها المنظمات والاحزاب والكتل الوطنية والدينية جميعها تقريبا ، نشر سلطان الاطرش فى ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢٥ بيانا طالب فيه باستقلال سوريا التام . وقبيل تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٥ طهرت فصائل الثوار جبل الدروز كليا واقتربت من دمشق .

وبدأت اضطرابات خطيرة معادية للامبريالية فى لبنان اتحدت اثناءها الفصائل المارونية والدرزية على موجة النضال التحريرى ، وذلك للمرة الاولى خلال زمن طويل .

واشترك رجال الدين المسلمون اشتراكا نشيطا فى النضال التحريرى الذى خاضه شعب سوريا ولبنان . وفى جوامع البلدين ، تلى مرارا بيان سلطان الاطرش الذى جاء فيه : لقد حل اليوم الذى يدعو المجاهدين الى الجهاد والمناضلين فى سبيل الحرية والاستقلال الى النضال . . . لنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد ان صمتت الاقلام ، واذ ذاك لن يموت الحق الذى نسعى الى نيله . . . تذكروا ان يد الله مع الشعب ، وان ارادة الشعب هى ارادة الله ، وان يد الظلم لا تستطيع ان تمس الامم المتراصة والمستيقظة (١٣) .

ردا على ذلك ، ارسل المستعمرون الفرنسيون الجديد تلو الجديد من الافواج الى سوريا ، كما ارسلوا قطعات المدفعية والدبابات ، واسراب الطائرات . واخذ المستعمرون الفرنسيون يحرقون القرى ويقتلون الاسرى . وقد وضعت احدى فصائل القمع الفرنسية جثث الاسرى المسلمين المقتولين رميا بالرصاص على ظهور الجمال وساقت «قافلة الجثث» فى شوارع دمشق ، ثم عرضت جثث القتلى عارية فى الساحة الرئيسية . الا ان هذه الهمجية اثارت فى ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٥ انتفاضة شعبية فى العاصمة السورية . واذ ذاك تعرضت دمشق ، بامر من القائد الفرنسى الجنرال ساراى لقصف المدفعية والطائرات . وتحول قسم من مدينة من اقدم مدن العالم الى ركام من الانقاض . ولقى الآلاف من سكان العاصمة مصرعهم . ولم يفلح المستعمرون الفرنسيون فى خنق ثورة الشعب السورى الا فى ١٩٢٧ . ومذ ذاك وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، بذل المفوضون السامون والموظفون الاستعماريون والديبلوماسيون والمصرفيون والمرسلون والمستشرقون الفرنسيون قصارى الجهد لاثارة الفراق والشقاق بين سوريا ولبنان ، وتقوية الخصومات الدينية والقومية واشعال نيران خصومات جديدة فى كل من البلدين . وهذا ما تبدى بشكل ساطع فى سنة ١٩٤٣ قبل اعلان استقلال لبنان ، حين فرض على قادة الاحزاب والمنظمات الاسلامية فى لبنان ، بمشاركة المستعمرين الفرنسيين انشط

المشاركة ، ما اسمى بالميثاق الوطنى ، الذى أثبت فى البرلمان وفى جميع هيئات السلطة النسبة بين المسيحيين والمسلمين ٦ الى ٥ اى ستة مسيحيين مقابل ٥ مسلمين . اما اكبر مكسب احرزه المستعمرون ، فهو تثبيت منصب رئيس الجمهورية فى لبنان «الى الابد» لممثل عن الطائفة المسيحية ، علما بان صلاحياته التى خولته اياها الدساتير المسنونة بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٩ اكبر من صلاحيات الرئيس الاميركى والرئيس الفرنسى ، وبان عدد افراد الطائفة المارونية لا يشكل الآن غير اكثر من ربع سكان البلد بقليل ، وبان توجيه الطائفة المارونية الموالى للغرب قد تمت «برمجته» سلفا لعقود من السنين . وهكذا نرى ان المستعمرين الفرنسيين الذين اضطروا فى سنة ١٩٤٣ الى الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان والى سحب آخر فصائل قوات الاحتلال فى سنة ١٩٤٦ من هذين البلدين ، قد بذروا فيهما بذورا سامة ، بذور النزاعات والخصومات الدينية والقومية التى استغلها الصهاينة والاوساط الحاكمة الاميركية فى السبعينيات والثمانينيات لاجل اعادة عجلة التاريخ الى الوراء – اى لاجل تقسيم لبنان وفصله عن العالم العربى وتحويله الى رأس جسر لمهاجمة سوريا وسائر بلدان العالم الاسلامى .

الفصل السابع

عدوان الامبريالية الالمانية
على شعوب الشرقين الادنى والاوسط

١ ـ الامبريالية الالمانية فى الشرق الادنى عشية الحرب العالمية الاولى

تأخرت الامبريالية الالمانية عند تقاسم العالم فانخرطت بهمة ونشاط فى الصراع من اجل اعادة تقاسمه فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر مولية ثروات الشرق الادنى الاسطورية جل اهتمامها .

وحتى الآن ضمنا ، يحاول العلماء والديبلوماسيون والدعاة والكتاب الاجتماعيون من جمهورية المانيا الاتحادية بجميع الوسائل ان يبرهنوا ان المانيا ، خلافا لبريطانيا ، لم تطمع فى ثروات بلدان الشرق الادنى ولم تستعد للاستيلاء عليها . فعوضا عن الاستيلاء على البلدان والاراضى العربية بفصلها عن الامبراطورية العثمانية ، كما فعل الانجليز ، حسبت الامبريالية الالمانية ان تضعها تحت رقابتها بتعزيز النفوذ الالمانى فى تركيا وتقوية مواقع الاوساط العليا الحاكمة التركية فى المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية . وهكذا كانت تهيئ الامبريالية الالمانية لاستعباد عشرات الملايين من المسلمين في الشرق الادنى . ولهذا الغرض عمدت هيئة الاركان العامة الالمانية الى ترسيخ نفوذها بجميع الوسائل فى القوات المسلحة التركية كما ان الاحتكارات الالمانية استحصلت فى سنة ١٨٨٨ ، بدعم الحكومة الالمانية الشديد ، على امتياز ببناء سكة حديد الاناضول ، وفى سنة ١٨٩٨ على امتياز ببناء سكة حديد بغداد الشهيرة فى قلب الشرق الادنى .

ولتعجيل الحصول على هذا الامتياز البالغ الاهمية ، قام غليوم الثانى فى خريف ١٨٩٨ بسفرة ثانية الى الامبراطورية العثمانية ، مدعومة بدعاية طنانة واسعة . وخلافا للسفرة الاولى (سنة ١٨٨٩) التي اكتفي فيها القيصر الالماني بالتعجيل في بداية بناء سكة حديد

الاناضول وبتوطيد الاتصالات الشخصية مع السلطان الدموى عبد الحميد الثانى ، وبزيارة القسطنطينية ، وضعت الخطة واجريت الاستعدادات الدقيقة لزيارة سوريا وفلسطين هذه المرة . وتقرر فى برلين الحد الاقصى من استغلال الاديان الثلاثة — المسيحيــة والاسلام واليهودية — التى لها اماكنهــا المقدســة فى هذين البلدين ، لاجل توطيد النفوذ الالمانى الى اقصى حد فى الشرق الادنى على مقربة مباشرة من قناة السويس .

فى اواخر القرن التاسع عشر ، ازداد كثيرا عدد الرسالات الكاثوليكية الالمانية وشتى المراكز الدينية والثقافية الالمانية فى سوريا وفلسطين . وفى هذين القطرين قام بنشاط واسع «اتحاد الارض المقدسة الالمانى» ، وجمعيـــات الهيكليين والبنديكتيين والكرمليين الرهبانية الالمانية ، وجمعية الراهبات البوراميـــات ؛ وافتتحت مدارس ومستشفيات كاثوليكية . ولكن المادة ٣٢ من «الامتيازات» («Capitulations») بتاريخ ٣٠ ايـــار (مايو) ١٧٤٠ كانت تحول دون الاستفادة الى اقصى حد من هذه المنظمات لاجل نشر النفوذ الالمانى فى سوريا وفلسطين اذ انها كانت تعتبــر فرنسا ، كما سبق ان اشرنا فى الفصل السابق ، «حامية» جميع الكاثوليكيين والمؤسسات الكاثوليكية فى تركيا الآسيوية ، الامر الذى كان يوفر لفرنسا مزايا وافضليـــات كثيرة . ولهذا قامت الديبلوماسية الالمانية قبل سفرة غليوم الثانى بنصف سنة الى فلسطين بنشاط عاصف لكى تحمل البابا ليون الثالث عشر على الاعتراف بحق الامبراطور الالمانى فى حمايــة «كاثوليكييه» فى فلسطين . ورغم مقاومة الديبلوماسية الفرنسية ، بلغت المانيــا هدفها . يقينا ان الصراع على حق حماية الكاثوليكيين لم يكــن بالنسبة للدولتين الامبرياليتين سوى طريقة لاجل توطيد مواقعهما فى الشرق الادنى ، لاجل اخضاع مسلمى سوريا ولبنان وفلسطين وكذلك مسيحييها لسيادتهما .

وفى الوقت نفسه ، اشتد نحو اواخر القرن التاســع عشر نشاط المنظمات البروتستانتية الالمانيـــة فى فلسطين ، وعلى رأسها «عصبة الانجيل» و«الرسالة الشرقية الالمانية» . وقد بلغ عدد المرسلين في هاتين المنظمتين نحو ٥٠٠ شخص .

فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ قام غليوم الثانى برفقة حاشية كبيرة جدا ، وفى لباس مسرحى فخم صـــارخ (لبـــاس الاستعراض للحرس الامبراطورى ، وفوقه برنس حريرى مزين بخيوط من الذهب) برحلـــة الى القدس . وبدأ تكريس الكنائس البروتستانتية الجديدة وزيارة الرسالات والمدارس والمستشفيات الكاثوليكية التى كانت تخفق على بناياتها اعلام المانية كبيرة جدا اثناء اقامة القيصر غليوم الثانى فى فلسطين . ان زيارته هذه ، وخطاباته وكلماته العديدة قد استرعت كبير اهتمام الرأى العام العالمى . ولاضعاف الشكوك فى الديبلوماسية الروسية ، ارسل القيصر الالمانى غليوم الثانى على جناح السرعة الى القيصر الروسى نيقولاى الثانى رسالة اكد فيها قائلا : «تملكنى خارق الدهشة من تلك السلاطة من الكذب والتملق والتخيل التى تقدمها الصحافـــة الاوروبية لقرائها لمناسبة سفرتى الى القدس . ومما يوهن العزم خارق الوهن ان شعور الايمان الحقيقى الذى يحمل المسيحى الى البلد الذى عاش فيه وتألم مخلصنا قد تبخر من وعى مـا يسمى بالطبقات العليا من سكان اوروبا فى القرن التاسع عشر الى حد انهم يفسرون الحج بدوافع سياسية . ان ما يجوز للآلاف من اكثر فلاحيك بدائية يجوز لى انا ايضا» (١) .

ان الرغبة فى السجود فى الاماكن التى «عاش فيهـــا وتألم مخلصنا» لم يمنع البتة القيصر الالمانى من اقامة اوثق الاتصالات مع ممثلى اشد فئات اليهود ميلا الى القتال والحرب . فقبل سفرة غليوم الثانى الى الامبراطورية العثمانية اجرى مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية هرتسل فى برلين مفاوضات مع مستشار المانيا هوهنلوى ومع وزير الخارجية الالمانية بولوف حول استعمار او استيطـــان فلسطين من قبل الصهاينة . وفى القسطنطينية والقدس واصـــل هرتسل الاحاديث مع غليوم الثانى . وقد تناولت هذه الاحاديث تحويل فلسطين الى مستعمرة صهيونية خاضعة للحماية الالمانية . وفى عاصمة الامبراطورية العثمانية اجرى غليوم الثانى فى آن واحد مفاوضات مع السلطان بشأن توطيد امبراطوريته ومكانته الشخصية بوصفه خليفة المسلمين فى الارض قاطبة ومع رئيس المؤسسة الاحتكارية الالمانية الكبرى «دويتشى بنـــك» («البنك الالمانى»)

سيمنس بشأن بناء سكة حديد بغداد واستعباد الامبراطورية العثمانية ماليا .

وتدل وثائق ارشيف السياسة الخارجية فى روسيا ان الاوساط المالية الالمانية قد حاولت قبل تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية بزمن طويل ان تستغل الهجرة اليهودية الى فلسطين والى شبه جزيرة سيناء لاجل تعزيز نفوذها فى مشارف قناة السويس . وفى خريف ١٨٩١ قرر المصرفى البرلينى بافل فريدمان ، الوثيق الارتباط بالاوساط الصهيونية ، ان ينشئ مستوطنة زراعية فى كل من منطقة مرفأ الوجه ، المهم من الناحية الستراتيجية ، الواقع على ساحل البحر الاحمر فى الحجاز (حاليا العربية السعودية) ، ومن معسكر طور فى شبه جزيرة سيناء ، وان يسكن فيهما اليهود النازحين من روسيا . الا ان المهاجرين اليهود الذين ضللهم فريدمان واجهوا وضعا كارثيا فى شبه جزيرة سيناء . ففى شباط (فبراير) ١٨٩٢ زار مندوبوهم قنصل روسيا العام فى القاهرة كوياندر وطلبوا الحماية من دسائس فريدمان واتهموه بمعاملتهم معاملة غير انسانية وباستثارة النزاعات بين اليهود والعرب وحتى بالاغتيالات . وتدخل فى الامر قنصل المانيا العام فى القاهرة . وانتهى مشروع الاستيطان بالفشل التام . وطالب المستوطنون اليهود المخدوعون بالعودة الى روسيا (٢) .

ومع ذلك حاول هرتسل من جديد ، فى سنة ١٨٩٨ ، وهذه المرة على نطاق اوسع بكثير ، وعلى مستوى اعلى ، ان يطرح امام الحكومة الالمانية مسألة استيطان اليهود فى فلسطين .

الا ان غليوم الثانى الذى ابدى فى البدء اهتماما كبيرا بالمشاريع الصهيونية ووعد هرتسل بدعم خططه الاستيطانية عند السلطان التركى ، قد اضطر فيما بعد الى التخلى عنه . ومرد ذلك الى سلبية موقف السلطان عبد الحميد الذى حاول ان يستغل الاسلام لاجل توطيد نفوذه فى الشرق الادنى والذى بذل الكثير من الجهود لاجل عقد المؤتمر الاسلامى الاول فى مكة فى سنة ١٨٩٨ والذى لم يرغب لذلك فى فتح الطريق الى فلسطين امام الصهاينة .

ان قضايا استغلال الاسلام والحركة الاسلامية لاجل اضعاف مواقع اخصام الامبريالية الالمانية فى الشرق - بريطانيا وفرنسا

وروسيا – ولاجل توطيد المواقع الالمانية فى الشرق ، قد استرعت جديا انتباه غليوم الثانى . ففى تموز (يوليو) ١٨٩٨ – عشية سفره الى تركيا – تلقى تقريرا مسهبا من المستشرق والديبلوماسى والجاسوس ماكس اوبنهايم ، مستشار القنصلية العامة الالمانية فى القاهرة . ومنذ اواسط الثمانينيات ، قام اوبنهايم ، بتكليف من المصلحة الديبلوماسية الالمانية ، بسفرات عديدة فى ربوع البلدان الاسلامية فى الشرقين الادنى والاوسط وفى افريقيا الشمالية . وفى سنة ١٨٩٦ ، ترأس بعثة خاصة ارسلتها برلين الى منطقة بحيرة تشاد سعيا الى الاستعداد لضم هذه الارض المهمة من الناحية الستراتيجية الى ممتلكات المانيا ، باستغلال المصادمات الاسلامية المسيحية هناك وتأجيج نيرانها الى اقصى حد (٣) . ويتبين من وثائق الارشيف الوطنى فى الهند ان الديبلوماسية البريطانية ومصلحة التجسس البريطانية فى القاهرة قد تتبعتا بكل يقظة كل خطوة من خطوات اوبنهايم الذى كان يدبر كذلك شتى المكائد فى مصر . وفى اوائل القرن العشرين سموه فى القاهرة ولندن «بجاسوس القيصر الالمانى» (٤) .

وقد علل اوبنهايم فى تقرير رفعه فى سنة ١٨٩٨ حاجة المانيا الى التركيز على دعم فكرة الحركة الاسلامية ، والاستفادة الى اقصى حد من نفوذ عبد الحميد الدينى والسياسى بوصفه خليفة ملايين المسلمين المقيمين فى ممتلكات بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا . واكد اوبنهايم على اهمية توطيد مواقع المانيا فى الشرق الادنى . وفى القسم الختامى من التقرير ، اشار اوبنهايم الى ان الجهاد الذى يجب ان يعلنه عبد الحميد الثانى فى حال الحرب بين المانيا من جهة ، وبريطانيا او فرنسا او روسيا من جهة اخرى ، سيكون سلاحا فعالا جدا فى الترسانة الالمانية . وقد احدث تقرير اوبنهايم انطباعا كبيرا جدا فى غليوم الثانى . واستغله غليوم الثانى على نطاق واسع اثناء اقامته فى الامبراطورية العثمانية . وقد اورد ما يسمى بخطاب القيصر الالمانى فى دمشق مقتطفات من هذا التقرير بصورة حرفية تقريبا (٥) .

فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٨ ، اجرى غليوم الثانى – بعد سفره الى فلسطين حيث زار المستوطنات الزراعية الالمانية

واليهودية – مفاوضات مع اعداء الاسلام الالداء ، زعماء الهيئات البروتستانتية والكاثوليكية والصهيونية ، وراح الى سوريا . وفى ٨ تشرين الثانى وضع الامبراطور الالمانى اكليلا من الزهر على قبر السلطان صلاح الدين الايوبى الذى سحـــق جيش فريدريك الاول هوهنشتاوفن (بربروسا) وحرر فلسطين من الصليبيين . وعلى القبر القى القيصر الالمانى خطابا خلق ضجة كبرى وختمـــه بالكلمات التالية : «بوسع صاحب الجلالة السلطان والـ٣٠٠ مليون من المسلمين الموزعين فى العالم كله والذين يعتبرونه خليفتهم ان يكونوا على ثقة فى انهم سيجدون فى جميع الازمنة صديقا لهم فى شخص الامبراطور الالمانى» (٦) . وهكذا ، بعد مرور اسبوع على المفاوضات فى القدس بشأن توطيد مواقع المسيحية واليهودية فى فلسطين ، اعلن الامبراطور الالمانى امام الملأ انـــه يناصر «السلطان الدموى» عبد الحميد ، وانه حامى الاسلام وحتى الحركة الاسلامية .

الا ان الديبلوماسية الالمانية التى ادركت ان هذا الخطـــاب سيثير كبير الحذر والريبة فى الاوساط الحاكمـــــة فى الدول الاوروبية ، عمدت الى اتخاذ التدابير المعاكسة باسرع وقت . وبناء على تعليمات بولوف ، اوضحت السفارة الالمانية فى لندن لفورين اوفيس (وزارة الخارجية البريطانية) ان الخطاب موجه ضد روسيا . وفى الوقت نفسه ارسل غليوم الثانى على جناح السرعة رسالـــة اخرى الى نيقولاى الثانى اوضح فيها قائلا : «تذكر اننا اتفقنا انت وانا فى بيترهوف على ان لا ننسى ابدا ان المحمديين سيكونون ورقة كبيرة للغاية فى لعبتنا اذا وجدنا انفسنا انت وانا فجأة فى حالة حرب ضد دولة معروفة تدس انفهـــا فى كل مكان . انت ، بوصفك امير ملايين المسلمين ، خير قاض فى هذه المسألة» (٧) . وهكذا حسبت الامبريالية الالمانية ، بالتقنع بقناع حماية الاسلام ، ان توطد نفوذها فى العالم العربى وفى الامبراطورية العثمانيـــــة عموما ، وان تؤزم فى الوقت نفسه وتستغل فى صالحها التناقضات الانجلو-روسية . ومما له دلالتـــــه ان غليوم الثانى اعلن على المكشوف فى رسالته هذه ان الامبريالية الالمانية قررت ان تحول

الاسلام وملايين المسلمين الى «ورقة كبيرة للغاية» فى الصراع والمقامرة على السيادة فى آسيا وافريقيا .

ومن اهم نتائج زيارة غليوم الثانى الى تركيا ، الحصول على الامتياز المنتظر طويلا لبناء سكة حديد بغداد التى كان الاحتكاريون الالمان يحسبون ان يمدوها حتى الكويت وان يشقوا بالتالى لانفسهم طريقا الى الخليج العربى . وبينما كانت الحكومة الالمانية تؤكد انها لا تريد من بناء سكة حديد بغداد غير توطيد وضع تركيا الاقتصادى والسياسى والستراتيجى ، كان المستشرقون والجواسيس الالمان يتكلمون بقدر اكبر بكثير من الصراحة . فان البروفسور زاهاو فى كتابه «فى ربوع سوريا وبلاد ما بين النهرين» واوبنهايم ، الذى سبق ذكره ، فى كتابه «من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربى» قد طالبا على المكشوف فى الوقت نفسه ببناء سكة حديد بغداد وباستعمار العراق الشمالى . والبروفسور شبرينغر فى كتابه ذى العنوان الواسع الدلالة «بابل اغنى بلد فى الماضى وانسب قطر مستعمر فى الحاضر» اوصى بتقسيم العراق الى قسمين – شمالى يقطنه المستوطنون الالمان مستقبلا ، وجنوبى يصار فيه الى الاستفادة الواسعة من عمل السكان المسلمين المحليين السخرى . وهذه الفكرة تلقفها احد زعماء الحركة الالمانية ، باول روبراخ فكتب عن العراق الجنوبى بشهوة وطمع : «باية الوان ، وباى امل حار ورغبة حارة ارسم لنفسى ذلك الزمن الذى ستنتصب فيه هنا صفوف الاشجار ويمضى فيه السكان المحليون السمر الى الجنوب ، الى الوادى الشاسع لكى يستحصلوا على الكثير الكثير من الحبوب لاجلنا نحن الالمان» (٨) . ان هذا الضرب من الآراء الوقحة والصريحة حول استغلال الاسلام واستعباد ملايين المسلمين لم يلجأ اليه حتى المستعمرون البريطانيون والفرنسيون لاجل تحقيق اهدافهم وخدمة مصالحهم .

وقد لقيت خطط «بحاثة الاسلام» الالمان واحلامهم الدعم الشديد من جانب الديبلوماسيين الالمان . فان الملحق العسكرى الالمانى فى القسطنطينية ، الرائد مورغن ، مثلا ، قد وضع مشروعا للملاحة الالمانية فى نهرى دجلة والفرات . وحاول السفير الالمانى

فى القسطنطينية مارشال فون بيبرشتين فى تقرير حظى بتحبيذ الامبراطور الالمانى ان يبرهن انه يجب ان يتحول العراق كله الى منطقة للنفوذ الالمانى بوجه الحصر والى رأس جسر المانى فى الشرق الاسلامى (٩) . وبين شتى الخطط التى كانت تحـاك فى برلين حيال البلدان الاسلامية ، وردت خطة مفادها انشاء مستوطنات صهيونية بمحاذاة كل سكة حديد بغداد . ومن الطريف ان بيسمارك كان من اصحاب هذه الخطة .

فضلا عن العراق والخليج العربى ، ابدى الامبرياليون الالمان اهتماما كبيرا بالجزيرة العربية الجنوبية ، باليمن ، وحوض البحر الاحمر . وفى سنة ١٨٩٨ استحصلت الديبلوماسية الالمانية من الباب العالى على امتياز ببناء سكة حديد الحديدة — صنعاء . وقد علق غليوم الثانى اهمية كبيرة على هذا المشروع . وامر بوضع خطة لانشاء مستوطنات ومستودعات المانية فى منطقة السكـة الحديدية اليمنية المقبلة . وفى الوقت نفسه وضعت المشاريـع لبناء قاعدة بحرية حربية المانية فى الحديدة او فى مُخا . وعندما اخفقت هذه المشاريع بسبب حذر وارتياب عبد الحميد الثانى ، حاولت الادميرالية الالمانية ، بموافقة غليوم الثانى ، فى سنتى ١٩٠١ و١٩٠٢ ، ان تستولى بغتة وبلا اذن على جزر فَرَسـان المهمة من الناحية الستراتيجية . وللحيلولة دون توطد مواقـع «حماة الاسلام» ، الاحتكاريين الالمان ، فى المشارف القريبة من جدة ومكة ، لجأ السلطان التركى الى الطريقة المفضلة وهى تأزيم التناقضات بين الدول الغربية . وبناء على تعليماتـه ، جرى فى القسطنطينية تسريب معلومات عن الخطط الالمانيـة حيال اليمن وجزر فَرَسان . فما لبثت السفارة البريطانيـة ان دقت جرس الانذار واوحت بنشر مقالات مدوية فى الصحافة البريطانية . ثم دخلت فورين اوفيس (وزارة الخارجية البريطانية) ساحة الوغى ، فاضطروا فى برلين الى التراجع .

ولكن ليس دائما كانت هذه الطريقة تعود بالنجاح على السلطان التركى . ففى سنة ١٩٠٣ ، عندما طلب عبد الحميد الثانى من غليوم الثانى المعونة تخوفا من ان تستولى ايطاليا على طرابلس الغرب ، اجابوا من برلين ان الحكومة الالمانية ستلبى بكل طيبة

خاطر طلب الحليف التركى ، ولكنها تطلب ، من باب التعويض ، ان تحصل المانيا على قاعدة بحرية حربية في ميسوراته (طرابلس الغرب) . فقرر السلطان ، وقد تملكه الذعر ، ان الدواء اخطر من المرض ، ورفض وساطة الحلفاء الالمان فى النزاع مع ايطاليا (١٠) .

ان هذه الواقعة تدل على ان شهية «محبى الاسلام» الالمان قد تعاظمت فى اوائل القرن العشرين الى حد انهم كانوا على استعداد ، لا لابتلاع الشرق الادنى وحسب ، بل ايضا لابتلاع قسم من افريقيا الشمالية .

وقد كان الصراع الانجلو-المانى على السيادة فى العالم الاسلامى من اهم اسباب نشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) . وفى سنوات الحرب ، قام الجيشان التركيان الرابع والسابع ، الخاضعان فعلا لقيادة الجنرالات الالمان ، بعدة محاولات لبلوغ قناة السويس ، لا لقطع هذا الطريق الحيوى الاهمية بالنسبة لبريطانيا وحسب ، بل ايضا لوضع كذلك الحجاز ومصر تحت رقابة الامبريالية الالمانية ، بما فى ذلك مكة والمدينة بالطبع . ومن الطريف ان الالمانى فون بابن الذى كان فى زمن الحرب العالمية الثانية سفيرا لالمانيا فى انقره واشرف على كل النشاط التخريبى التجسسى النازى فى الشرق الادنى قد كان فى زمن الحرب العالمية الاولى رئيسا لشعبة المخابرات فى الجيش التركى الرابع . وللقيام بالعمل الدعائى السياسى فى البلدان الاسلامية ، انشأ الالمان ابان الحرب العالمية الاولى هيئة خاصة برئاسة اوبنهايم . واوبنهايم هو صاحب الفكرة التى استغلتها الدعاية الالمانية على نطاق واسع والقائلة ان غليوم الثانى قد اعتنق الاسلام واستعاض عن اسمه باسم حيدر . وابان الحرب العالمية الثانية اوحى اوبنهايم بهذه الفكرة الى هتلر .

انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة المانيا وحليفتها تركيا . وقد كلفت حياة مئات الالوف من المسلمين ، وتسببت بخسارة فادحة ، مادية ومعنوية ، واسهمت فى استعباد الشرق الادنى من قبل الامبريالية البريطانية والفرنسية .

٢ - المانيا فيمار وبعث مواقع الرأسمال الاحتكارى الالمانى فى الشرق الادنى

فى سياق الحرب ، استغل الامبرياليون الالمـــان اشتراك الامبراطورية العثمانية فى الحرب الى جانب الحلف الثلاثى . فبذلوا جهودا هائلة لكى يفرضوا رقابتهم العسكرية والسياسية والاقتصادية على الولايات العربية من الامبراطورية العثمانية . وقد اكد لينين ان تركيا كلها قد تحولت نحو نهاية الحرب الى شبه مستعمـــرة شاسعة للامبريالية الالمانية .

واستغلت هيئة الاركان العامة الالمانية القوات التركيـــــة الموضوعة تحت امرتها لكى تبسط نفوذها فى مناطق شاسعة من ايران الشمالية الغربية . وزودت مصلحة التجسس الالمانية بكميات كبيرة من الوسائل المادية ومن الاسلحة القنصل الالمانى فى شيراز وبوشير ، ولهلم فاسموس الملقب لنشاطـــه التجسسى والهدام «بلورنس الالمانى» . وكان المقصود من هذه التوريدات المساعدة فى تنظيم انتفاضة الاوساط العليا من قبائل بختيار ولور وكاشكاى ضد الحكومة الايرانية ، الامر الذى كان من شأنه ، لا اضعـــاف ايران وحسب ، بل ايضا تعزيز النفوذ الالمانى فى القسم الجنوبى الغربى منها ، عند مشارف الخليج العربى . وفى سيـــاق الحرب كلها ، حاكت الديبلوماسية الالمانية الدسائس بكل حميـــة فى الاوساط الايرانية العليا ايضا ، مؤججـــة بجميع الوسائل نيران العداء للروس والعداء للبريطانيين ، مصورة المانيا بصـــــورة الصديق الحقيقى لايران الاسلامية .

فى سنة ١٩١٥ ارسلت هيئة الاركان العامة الالمانية ووزارة الخارجية الالمانية الى كابول ، عن طريق تركيا وايران ، بعثـــة عسكرية سياسية اسميت ببعثة نيدرماير — هنتيغ ، ومزودة ، لا بالسلاح والذهب وحسب ، بل ايضـــا برسالتين شخصيتين من غليوم الثانى والسلطان التركى محمد الى امير افغانستان حبيب الله . فى الرسالة الاولى ، اكد الامبراطور الالمانى على دوره «حامى الاسلام» وحاول ان يقنع الحاكم الافغانى بان يعلن الحرب على روسيا وانجلترا «باسم الوحدة الاسلامية» ووعد لقاء ذلك بان

يضم الى افغانستان خانية بخارى التى كانت محميـــة لروسيا ، والاقليم الحدودى الشمالى الغربى من الهند البريطانية الذى يسكنه الباتان . واشار السلطان التركى فى رسالته الى ما يلى : بمـــا انه ، بوصفه الخليفة ، قد اعلن الجهاد على «اعداء الاسلام» ، — روسيا وانجلترا — فانه يتوجب على الامير حبيب الله ان يؤيد هذه القضية المقدسة ويدخل الحرب الى جانب الحلف الثلاثى . ولقاء ذلك تلقى وعدا بمنحه المنطقتين اللتين تناولتهما رسالة غليوم الثانى . ومع تحقيق الاجراءات العسكرية والاجراءات السياسيـــة والديبلوماسية المذكورة اعلاه والرامية الى بسط السيادة الالمانية على الشرق الاسلامى ، قامت الاوساط الحاكمة فى المانيـــا خلال سنوات الحرب بنشاط دعائى هائل كانت غايتـــه اقناع الحكام والرأى العام فى بلدان الشرق بان المانيا هى بالفعل «حاميـــة الاسلام» . ولهذا الغرض ، دعيت الى برلين شخصيات دينيـــة واجتماعية من بلدان آسيا وافريقيا الشمالية ، وتلقت العون المالى المنظمات الكثيرة المؤلفـــة فى المهجر من الذين كانوا يعادون السيادة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على شعـــوب الشرق عداء شديدا وفعالا ، ويأملون بسذاجة فى مساندة برليـــن ومساعدتها . وهذا الامل كان يدعمه بكل همة وحزم مؤلفو العديد من الكتب والكراريس والمقالات التى كانت تصـــدر فى برلين وليبزيغ باللغات الاوروبية والشرقية والتى كانت تمول سرا من صندوق خاص بوزارة الخارجية الالمانية . وكانت هذه المطبوعات تدعو شعوب العالم الاسلامى الى الثورة على المستعمرين الانجليز والفرنسيين والروس ، والى اقامة خلافة اسلامية حقا على رأسهـــا السلطان التركى ، وتحت حماية غليوم الثانى العليا وتحت حماية مدافع كروب . وفى هذا الاتجاه ، ابدت المطبوعتان الاكاديميتان المشهورتان «مجلة العالم الاسلامى» و«الاسلام» نشاطا خاصا .

ان هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى لم تحمل البتـــة الاحتكاريين الالمـــان على التخلى عن خطط الاستيلاء على العالم الاسلامى . وكل ما اضطروا الى تعديله ، انما هو وتائر تنفيذ هذه الخطط ، وسرعته ، واحيانا طرائقه . وفى اواخر سنة ١٩١٨ بالذات اى فور استسلام المانيا وقبل توقيع معاهدة فرســـاى ،

انشئت فى برلين الجمعية الالمانية الفارسية ، وانضم الى مجلس ادارتها فرنر هنتيغ الذى عاد من اسفاره فى العالم الاسلامى الحافلة بالمغامرات ، وعضو الريخستاغ البارون ريختهوفن الذى شغل خلال بعض الوقت منصب السفير الالمانى فى ايران . وكان نظام الجمعية ينص على ان هدفها هو «اقامة علاقات اقتصادية وثقافية اوثق بين البلدين ، ودعم العلاقات العامة والشخصية بين الشعبين الفارسى والالمانى ، وتطوير وتعميق المعارف فى المانيا عن خصائص بلاد فارس والشعب الفارسى وثقافته ودينه» (١٠-أ) . وفى سنة ١٩٢٠ ، بذلت وزارة الخارجية فى المانيا الفيمارية ، التى كان الخبير فى الشؤون الايرانية والباحث فى الشؤون الاسلامية فريدريخ روزن قائدها ، الكثير من الجهود لاجل توسيع نشاط الجمعية الالمانية الفارسية . وكان ف . ليتن القنصل الالمانى السابق فى تبريز ، الذى اقام خلال سنوات عديدة اتصالات وثيقة مع رجال الدين الشيعيين البارزين ، الامين العام للجمعية الالمانية الفارسية . وباموال وزارة الخارجية الالمانية زيد كثيرا عدد نسخ المجلة الايرانية «كافه» التى كان يصدرها فى برلين المهاجرون الايرانيون بالفارسية حتى قبل الحرب العالمية الاولى . وفى العشرينيات بدأت هذه المجلة تنتشر فى كثير من بلدان العالم الاسلامى مطبلة ومزمرة لمنجزات الثقافة الالمانية والتكنيك الالمانى ، ولاسيما للبحث الالمانى فى الشؤون الاسلامية . ومنذ سنة ١٩٢٠ شرع الايرانى سيف ازاد الذى اقام ابان الحرب علاقات وثيقة مع مصلحة المخابرات الالمانية ، يصدر بالفارسية مجلة «ازادى يى شرق» («حرية الشرق») ؛ ومنذ سنة ١٩٢٣ شرع الكاتب والصحفى الايرانى المقيم فى برلين كاظم زاده ينشر بالفارسية المجلة الفلسفية الادبية «ايرانشهر» . وبما ان المجلة كانت تنشر عددا كبيرا من المقالات للاعلان عن احدث منجزات التكنيك الالمانى ، فقد كانت كبريات الاحتكارات الالمانية تمولها . وفى الوقت نفسه كانت تنشر العديد من المقالات التى تبحث فى شؤون الاسلام والتى اسهمت فى نشر النفوذ الالمانى فى بلدان العالم الاسلامى . وبالوظائف ذاتها قامت مجلة «صناعيى المان والشرق» («تكنيك المانيا والشرق») التى اصدرها فى برلين عام

١٩٢٤ سيف ازاد المذكور سابقا ، والتى كانت تمولها شركـــة «سيمنس – شوكرت» . وقد صدرت هذه المجلة بكثير من اللغات الشرقية وعززت ، مثلها مثل مجلـــة «ايرانشهر» ، فى اوائل العشرينيات ، مواقع الامبريالية الالمانية فى العالم الاسلامى .

كذلك قامت مجلتا البحوث الاسلاميـــة المذكورتان اعلاه «الاسلام» و«مجلة العالم الاسلامى» ، اللتان كانتا تعتبران قبـــل الحرب اوسع المطبوعات من هذا النوع نفوذا ومكانة فى اوروبا ، بنشاط كبير وهادف . وفى العشرينيات نشرتا ، عدا المقـــالات العلميـــة ، عددا كبيرا من المواد التى تطرى فى بلدان الشرق الاسلامى «المانيا الديموقراطية والمحبة للسلام» ، التى لا تملك مستعمرات ، والتى لا تبتغى فى بلدان آسيا وافريقيا غير اهداف اقتصادية وثقافية . كذلك كان لمجلة «الشرق الجديد» اتجاهـــا مماثلا وكانت تدعو بكل همة ونشاط للصداقة بين المانيا والبلدان الاسلامية .

وقد استغلت الاحتكارات الالمانية الكبيرة تعاظم تبعيـــة المؤسسات الاكاديمية والتعليميـــة حيال مختلف «الصناديق» ، فتوصلت الى تحويل علم الاستشراق الجامعى نحو خدمة الحاجات الملموسة للشركات الصناعية والمالية فى العالم الاسلامى . ففى العشرينيات نشرت فى برلين وليبزيغ بحوث عديدة تتناول قضايا الساعة فى بلدان العالم الاسلامى ، وفى عدادها كتابا هارتمان «الوهابيون» و«ازمة الاسلام» وكتاب برغشتيسر «الاسلام والغرب» الذى كان لها تأثير كبير فى اوساط الرأى العـــام فى البلدان الاسلامية واسهمت فى تعزيز نفوذ المانيا السياسى فى هذه البلدان .

فى سنة ١٩٢٢ اقيمت العلاقات الديبلوماسية بين المانيـــا وافغانستان . ومما له دلالتـــه ان المستشرق ورجل المخابرات الالمانى فريتس غروبا قد اصبح اول ممثل لالمانيا الفيمارية فى كابول ، علما بانه قد سبق له ان شغل فى سنة ١٩١٣ منصب مترجم فى القنصلية العامة الالمانية فى القدس وامر ابان الحرب العالمية الاولى فى الجبهة الغربية كتيبة مؤلفة من العرب اسروا اثناء هزيمة القوات الفرنسيـــة فى الفلاندر فى ١٩١٤–١٩١٥ . وفى اواخر الحرب كان غروبا ضابطا ذات تكليفات خاصة لدى الجنرال

كريس فون كريسنشتين الذى قاد هجوم الجيش التركى السادس على المواقع البريطانية عند مشارف قناة السويس . وبعد وصول الفاشيين الى الحكم ، صار غروبا من كبار خبراء وزارة الخارجية الالمانية الهتلرية لشؤون العالم الاسلامى .

نحو اواسط العشرينيات بدأ تغلغل الرساميل والبضائع الالمانية الى البلدان العربية ايضا . وانخرطت الامبريالية الالمانية بهمة ونشاط فى النضال من اجل الشرق الاسلامى .

٣ ـ تحالف الفاشيين والصهاينة

فى سنة ١٩٣٣ ، فور وصول هتلر الى الحكم ، عزز الامبرياليون الالمان بكل سرعة وحدة سياستهم فى الشرق الادنى . ومما له دلالته ان الدور الحاسم فى اعداد الخطط الجديدة للتوسع الالمانى فى البلدان الاسلامية عاد الى كبريات الاحتكارات ذاتها التى رسمت سياسة بيسمارك وغليوم الثانى وبولوف ومارشال فى الشرق الادنى ، اى الى «دويتشى بنك» الذى كان يمول ويبني سكة حديد بغداد ، وكونسورسيوم كروب الذى سلح الجيش التركى فيما مضى ، واخيرا اكبر اتحاد تعدينى وكيماوى فى الرور . واستغل رجال المال والديبلوماسيون ورجال المخابرات الالمان الى الحد الاقصى كره المسلمين للمستعمرين البريطانيين فحاولوا فى اواسط الثلاثينيات ان يوسعوا نفوذهم فى تركيا والعراق والعربية السعودية وايران وافغانستان . ولهذا الغرض بدأ الرسل الالمان يوزدون السلاح الى العراق ؛ وبالمقارنة مع العشرينيات ، اشتد كثيرا تصدير البضائع الالمانية الى تركيا وايران . ولعبت شركة الطيران الالمانية «لوفتهانسا» دورا خاصا ، اذ انها فتحت فى سنة ١٩٣٤ اول خط للركاب الى الشرقين الادنى والاوسط – خط برلين – اثينه – بغداد – طهران – كابول . وكان ذلك صيغة اصيلة ، محسنة لسكة حديد بغداد ، جسرا جويا الى الشرق الاسلامى .

واسهم الامبرياليون الالمان ، سعيا منهم الى تثبيت اقدامهم فى بلدان الشرق الادنى ، فى تأزيم العلاقات بين البلدان العربية وبريطانيا الى الحد الاقصى . وتدل الوثائق الديبلوماسية الالمانية

على ان الديبلوماسية الالمانية استغلت الى الحد الاقصى لهــــذا الغرض ، عشية الحرب العالمية الثانية ، القضيـــة الفلسطينية ، وسعى الجماهير الغفيرة فى الشرقين الادنى والاوسط الى الحيلولة دون الاستعمار الصهيونى لفلسطين ولاسيما القدس حيث يقع جامع عمر والجامع الاقصى المقدسان بنظر ملايين المسلمين . ولكن هذه الوثائق لا تلقى النور على ظرف خارق الاهمية لاجل فهم ستراتيجية وتكتيك الفاشيين الالمان فى الشرق الاسلامى ، هو ان الهتلريين قد دعموا سرا منذ الايام الاولى تقريبا من وصولهم الى الحكم وحتى بداية الحرب العالمية الثانية ضمنا ، خطط الصهاينة الرامية الى انشاء دولة يهودية فى فلسطين . . .

فى سنة ۱۹۳۳ تم التوقيع بين بنك الدولة فى المانيـــــا «ريخسبنك» والوكالة اليهودية على اتفاقية سرية اسميت بالكلمة العبرية القديمة «خآفارا» (الرفقة التجارية) . بموجب هذه الاتفاقية نال اليهود الميسورون الذين نزحوا من المانيـــا الى فلسطين ، على سبيل التعويض عن ممتلكاتهم التى صادرها النازيون ، نسبة مئوية معينة من ثمن البضائع الالمانية المباعة فى فلسطين بمساعدة «الوكالة اليهودية» (۱۱) . وفى الوقت نفسه ، كما سنبين ادنـاه بالتفصيل ، تم التوصل الى اتفاقية اخرى بشأن العون غير العلنى فى انتقال المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين . وبمـــا ان السلطات الفاشية لم تكن ترغب فى تأزيـــم علاقاتها مع البلدان الاسلامية ، فقد كانت تحول رسميا دون نزوح اليهود الى فلسطين . وكان المهاجرون اليهود غالبا ما يحصلون على جوازات سفر بحجة الذهاب الى بلدان اميركا اللاتينية ؛ وكانوا يغادرون المانيا على متن سفن متجهــــة الى البرازيل او الى الارجنتين . ولكن كثيرين من المهاجرين كانوا ينتقلون سرا ، بالليل وبعلم الربابنة الالمان ، فى مرافىء جزر آسور ، الى بواخر متجهــة الى فلسطين . وبزيادة عدد المهاجرين اليهود فى فلسطين ، ازم الفاشيون الالمان الوضع فى فلسطين وعززوا التناقضات بين السلطات الاستعماريـــة البريطانية والعرب . وكان المهاجرون اليهود يساعدون فى بيع البضائع الالمانية بموجب اتفاقية «خآفارا» مساعدة فعالة ، ويودعون الاموال المحصلة فى مختلف الصناديق والمؤسسات الصهيونيـــة التى كانت تشترى

الاراضى من الشيوخ العرب لاجـل بنـاء الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية وتسهـم بالتالى فى حرمان فلاحى فلسطين من الاراضى باستمرار .

فى سنة ١٩٣٧ ، تم توسيع مجال فعل اتفاقية «خآفارا» بحيث يشمل كل الشرقين الادنى والاوسط ، وذلك بمبادرة من يالمـار شاخت - رئيس «ريخسبنك» وكبير مستشارى هتلر الاقتصاديين . وهكذا حصل الفاشيون فى شخص الصهاينة الذين لهم مصلحة فى تقاضى العمولات من مبيع البضائع الالمانية ، على عملاء نشطاء جدا لاجل نشر البضائع الالمانية وبالتالى لاجل نشر النفوذ الالمانى فى البلدان الاسلامية ، الامر الذى ادى الى تقويض مواقع بريطانيـا الاقتصادية فى عموم المنطقة . اما الصهاينة فقد كانـوا يحصلون على الجديد تلو الجديـد من الرساميـل لاجل شراء الاراضى فـى فلسطين ، الامر الذى عقد بدوره الوضع فيها وازم العلاقات بين بريطانيا والبلدان العربية واوجد امكانيات اضافيـة لاجل التسرب الالمانى الى آسيا . ولهذا ، رغم مخاوف الديبلوماسية الالمانية من ان اتفاقية «خآفارا» قد تقوض النفوذ الالمانى فى الشرق الاسلامى ، لان الاشاعات عنها انتشرت فى فلسطين ، امر هتلر بتمديـد مفعول هذه الاتفاقية (١٢) بعد ان تفهـم النزاع الذى نشب بين مختلف الدوائر الحكومية الالمانيـة بصدد تعيين الخط اللاحق فى المسألة الفلسطينية الصهيونية .

فى غضون السنوات الستة من سريان مفعول اتفاقية «خآفارا» ، استطاعت الوكالة اليهودية وغيرهـا من المنظمات الصهيونية فى فلسطين ان تنقل من المانيا رأسمالا يهوديا بمبلغ ضخم فى ذلك الزمن قدره ١٣٩ مليون مارك (١٣) . وفى الاتفاقية السرية الثانية «خآفارا» لعام ١٩٣٧ ، ورد بند سرى جدا كانت القيادة النازيـة تصادق بموجبه على تسليم الصهاينة سرا اسلحة الرماية والرمانات والرشاشات وغير ذلك من الاسلحة من مستودعات الاسلحـة التى استولى عليهـا الهتلريون فى النمسـا ومنطقـة السوديت التشيكوسلوفاكيـة ، الامر الذى اتاح تسليح تشكيلات الجيش الصهيونى السرى «هاغانا» وفصائل «ارغون تسفاى ليومى» «وليخى» الارهابية التى ترأسها فيما بعد بيغن وشامير . وبالنتيجـة لقى

آلاف العرب من مسلمين ومسيحيين مصرعهم على ايدى الصهاينة الذين سلحهم هتلر وهملر وشاخت . وكل هذا اسهم فى توطيد مواقع الصهاينة وفى اشتداد تعقد الوضع فى فلسطين . ان التواطؤ النازى الصهيونى يعيد الى الاذهان الاتفاقية المعقودة بين اديناور وبن غوريون بشأن التعويضات التى اسهمت بقدر لا يستهان به فى تعزيز قدرة اسرائيل الحربية فى الخمسينيات والستينيات .

لم تكن «خآفارا» سوى اتفاقية من اتفاقيات عديدة بين الفاشيين والصهاينة . ففور وصول هتلر الى الحكم ، انشىء فى جهاز مصلحة الامن الامبراطورية الخاضعة للريخسفوهرر س س ، القسم الخاص «١١-١١٢» («قسم المراجعين فى الشؤون اليهودية») برئاسة ميلدنشتين . وقد عهد الى هذا القسم برسم «السياسة اليهودية» فى دائرة هملر . اقام ميلدنشتين اتصالات وثيقة مع الصهاينة ، وحضر مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية . وبموجب اتفاقية سرية بين الوكالة اليهودية والقسم «١١-١١٢» افتتحت فى برلين دائرة لشؤون المهاجرين اليهود المختارين من عداد مئات الآلاف من اليهود الالمان والذين هم اصلحهم من الناحية المادية ومن الناحية السياسية لاجل ارسالهم الى فلسطين . ومن سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٨ هاجر من المانيا الى فلسطين اكثر من ٦٠ الف يهودى (١٤) . ومن باب النصح لهم قبل الرحيل ، كتبت صحيفة س س «داس شفارتسه كور» التى لا توزع فى الخارج بتماجن : «لم يبق بعيدا ذلك الزمن الذى ستتمكن فيه فلسطين من جديد من ان تستقبل ابناءها الذين ضاعوا منذ اكثر من الف سنة . . . فلترافقهم تمنياتنا مع بركة الدولة» (١٥) . وبناء على دعوة من المنظمات الصهيونية ، زار ميلدنشتين نفسه فلسطين حيث اطلع على الوضع وحتى اعطى ممثلى الوكالة اليهودية المشورات فى مسائل تتعلق بتنظيم «مخيمات لاعادة الاعداد» فى فلسطين يحصل فيها المهاجرون على «التمرس الصهيونى» . وقد نشر ميلدنشتين انطباعا عن سفرته الى فلسطين فى صحيفة غوبلز «در انغريف» موقعا بالاسم المستعار «ليم» مقالة مفصلة ولا تنافى الصهيونية اطلاقا

ومن هنا ينجم ان الامبرياليين البريطانيين ، اصحاب وعد بلفور (سنة ١٩١٧) واصحاب الانتداب على فلسطين من جهة

والنازيين الالمان من جهة اخرى ساعدوا الى الحد الاقصى المنظمة الصهيونية العالمية وسائر المنظمات الصهيونية فى نقل عشرات الآلاف من اليهود الى فلسطين ، واسهموا فى توطيد القاعدة المادية للمنظمات الصهيونية المحلية وفى تزويد فصائلها شبه العسكرية وفرقها الارهابية بأحدث الاسلحة ، وفى ظهور الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية ، وفى حرمان العرب الفلسطينيين بالجملة من اراضيهم . وكل هذا ادى الى تفاقم الوضع فى فلسطين بسرعة وحدة . ففى نيسان (ابريل) ١٩٣٦ اعلنت اللجنة العربية العليا الاضراب العام للسكان العرب فى فلسطين . وفى النصف الثانى من سنة ١٩٣٦ تحول الاضراب الى انتفاضة شعبية استخدمت لقمعها القوات النظامية البريطانية وفصائل «الهاغانا» . ان اعمال النازيين هذه لم تنبع من الرغبة فى تعقيد وضع بريطانيا العظمى فى فلسطين وحسب ، بل ايضا عن الرغبة فى درء حملة معادية للنازية فى الولايات المتحدة كان من الممكن ان تشنها بعض المنظمات اليهودية . ولكن التواطؤ مع الصهاينة احبط هذه الخطط .

وهذا ما عقد علاقات بريطانيا مع جميع البلدان والمنظمات العربية فى الشرق الادنى ووفر لالمانيا النازية امكانيات اضافية لاجل التدخل فى شؤون البلدان الاسلامية .

فان المنظمات الصهيونية ، التى استاءت من الخطط التى ظهرت فى بريطانيا عام ١٩٣٧ لاجل الحد من الهجرة اليهودية الى فلسطين (للحيلولة دون دفع الامور الى حد وقوع انفجار جديد فى العلاقات مع العرب) والتى سعت الى الحصول على دفعات كبيرة من الاسلحة ، قد اسرعت الى توسيع الاتصالات مع المانيا الفاشية . فبواسطة مندوب مكتب الاعلام الالمانى ومقيم وكالة المخابرات النازية فى القدس رايخرت اقام القسم «١١-١١٢» اتصالا مع قياده «الهاغانا» التى اشتركت فصائلها اشتراكا نشيطا فى قمع انتفاضة العرب الفلسطينيين فى سنة ١٩٣٦ وابادت مئات المسلمين ، واهانت ودنست الكثير من الجوامع ، ودمرت العشرات من المدارس . وفى شباط (فبراير) ١٩٣٧ دعى احد قادة «الهاغانا» — ف . بولكس — الى برلين . وفى حاصل المفاوضات مع القائد الجديد للقسم «١١-١١٢» هاغن والموظف الجديد فى هذا القسم ادولف ايخمان ،

تم التوصل الى اتفاق بشأن مواصلة هجرة اليهود من المانيـا الى فلسطين وبشأن تزويد «الهاغانـا» بالاسلحة . وعدا ذلك ، دعى هاغن وايخمان الى زيـارة فلسطين . وقد جاء فى التقريـر عن المفاوضات مـع المندوب الصهيونى الذى قدمه هاغن الى رئيسه المباشر البروفسور فرانتس سيكس ، الغاوبتشتورمفوهرر س.س ، ان بولكس «اعرب عن الاستعداد لتقديم الخدمات لالمانيـا بشكل تسليم المعلومات اذا كانت لا تناقض اهدافه السياسية . وعدا ذلك ، تعهد بمساندة مصالح السياسة الخارجية الالمانية فى الشرق الادنى مساندة نشيطة» . وبما ان الصهاينة كانوا يعرفون جيدا ان اليهود الالمان الساعين الى مغادرة المانيا لم يكونوا يحلمون البتة فى الانتقال الى فلسطين فقد طلب بولكس ، باسم «الهاغانا» العون من . . «س.د» * . وبموافقـة هملر صاغ القسـم «١١-١٢٢» التزاماته فى هذه المسألة امام الصهاينة بالنحو التالى : «ان اتحاد اليهود الامبراطورى فى المانيا سيخضع لضغط بحيث يتعهد اليهود المهاجرون من المانيا بالذهاب الى فلسطين فقط وليس الى بلد ما آخر . ان هذا التدبير يتفق كليا مع المصالح الالمانية ، ويقوم الغستابو باعداد الاجراءات لتطبيقه» (١٥ أ) .

وفى الوقت ذاته بذلت القيادة الفاشية قصارى الجهد لاجل تأزيم العلاقات بين السلطات الاستعمارية الانجليزية والعرب فى فلسطين ، وتعقيد الوضع فى هذا البلد ، واستغلال انتفاضة الشعب الفلسطينى فى سنة ١٩٣٦ لاجل اقامة اتصالات سرية ، لا مع قادته وحسب ، بل ايضا مع زعماء عدد من البلدان العربية حيث كانوا يعتبرون هذه الانتفاضة جزءا مهما من النضال العربى العام ضد المستعمرين البريطانيين والفرنسيين . وفى سياق الانتفاضة جـرت لاحد قادة شبكة التجسس فى مصلحة المخابرات الالمانيـة فى فلسطين ، رايخرت ، بضعة لقاءات مع المشتركين النشطاء فى الانتفاضة لاجل ارسال المعلومات المضخمة الى اقصى حد عن اعمال القمع التى تقوم بها الادارة البريطانية وعن هجمات فصائـل «الهاغانا» على القرى العربية ، الامر الذى كانت تستغله مصلحة غوبلز الى اقصى حد لدن القيام بالدعاية المعادية لبريطانيا فى بلدان الشرق الاسلامى .

* س.د — مصلحة الامن الالمانية SD . المترجم .

فى خريف ١٩٣٦ ، وصلت الى فلسطين لجنة حكومية بريطانية برئاسة اللورد بيل لاجل دراسة اسباب الانتفاضة واعداد التوصيات للحكومة البريطانية فى المسائل الاساسية فى السياسة فى مجال القضية الفلسطينية . وقد اثبتت اللجنة واقع ان نظام الانتداب فى فلسطين منى بالافلاس التـــام . وفى ربيع سنة ١٩٣٧ تلقى العملاء الالمان فى لندن معلومات مفصلة عن مضمون تقرير لجنة بيل الذى كان ينبغى نشره فى الصيف والذى كان يورد ، من باب التوصية الرئيسية ، اقتراحا بتقسيم فلسطين الى ثلاثة اقسام ، بينها قسم يهودى . وقد اسرعت الديبلوماسية الهتلرية الى استغلال هذه المعلومات . وفى ايار (مايو) ١٩٣٧ جرى لقاء بين القنصل الالمانى فى القدس ديله ورئيس اللجنة العربية العليا مفتى القدس امين الحسينى . وقد تناول البحث بينهما مسألة توريدات الاسلحة الالمانية الى الثوار العرب ومسألة الاجراءات المشتركة الرامية الى النضال ضد انشاء دولة يهودية فى فلسطين . وفى الوقت نفسه تقريبا ، جرت مداولة مماثلة فى بيروت بين ممثلى المنظمات السورية القومية والقنصل العام الالمانى (١٦) . وفى هذه المداولة التى اصر غوبلز على عقدها ، اذ انه كان يعلق اهمية كبيرة على سوريا بوصفها رأس جسر لاجل التغلغـــل فى الشرق الاسلامى ، حسبت الديبلوماسية الالمانية ان تبلـغ هدفين فى آن واحد — ان توطد اتصالاتهـــا مع قادة العرب الفلسطينيين وتقيم صلة مع عدد من المنظمات السورية المناهضة للامبريالية التى كانت تعتقد ان تحرير فلسطين من النير الاستعمارى الانجليزى ومن الاستيطان الصهيونى الذى يتفاقم خطره اكثر فاكثر ، قضيتها الحيوية .

تلقى امين الحسينى من الجانب الالمانى تأكيدا بدعم سياسة اللجنة العربية العليا دعما شاملا ، فارسل الى ممثله موسى العلمى المقيم فى سويسرا تعليمات بزيارة برلين لاجل اجراء مفاوضات فى اعلى المستويات .

فى آب (اغسطس) ١٩٣٧ جرت فى وزارة الخارجية الالمانية مداولة خاصة فى المسألة الفلسطينية اشترك فيها كذلك عاملون من الابفير ووزارة الدعاية وانيطت بها ، قبل ذلك ، باشارة خاصة من هتلر ، المسؤولية عن جميـع انواع واشكال النشاط الدعائى فى

بلدان الشرق الاسلامى . وقد تقرر ارسال دفعتين من السلاح — عبر العراق والعربية السعودية — الى اللجنة العربية العليـــا فى فلسطين . وبهذا الاسلوب ، حسب الهتلريـــون ، لا ان يؤزموا الوضع فى فلسطين من جديد ويوسعـــوا الصلات مع قادة اللجنة العربية العليا وحسب ، بل ايضا ان يعززوا نفوذهم فى العراق ، وان يقيموا ، بحجة مساعدة فلسطين ، اتصالا مع ملك العربيـــة السعودية ابن سعود . ولكن بما ان اقامة موسى العلمى فى سويسرا صارت معروفة على نطاق واسع ، فان وزارة الخارجية الالمانية ، رغبة منها فى الحيلولة دون تعقد العلاقات مع الحكومة البريطانية ومع قادة المنظمة الصهيونية العالميـــة ، قد خلصت الى القول ان مجيئه الى برلين غير مرغوب فيـــه . واتخذت التدابير لكى تحاط وزارة الخارجية البريطانية وهيئة اركان المنظمة الصهيونية العالمية علما بهذا القرار بصورة غير علنية . وفى الوقت ذاته ، تـــم التوصل ، اثر اتصالات سرية مع مفتى القدس امين الحسينى الذى تخفى فى احد الاماكن الاسلامية المقدسة — فى جامع عمر بالقدس — بعد ان حلت السلطات البريطانية اللجنة العربية العليا ، الى اتفاق مفاده ان يزور سعيد امام ، رئيس النـــادى العربى فى دمشق ، برلين سرا بوصفه ممثلا عن امين الحسينى . وفى سياق زيـــارة سعيد امام للعاصمة الالمانية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٧ اعلم الجانب الالمانى ممثل الفلسطينيين عن القرار الذى اتخذتـــه المداولة المعقودة فى وزارة الخارجية الالمانية فى آب (اغسطس) بصدد توريد دفعتين كبيرتين من الاسلحة عبر العراق والعربيـــة السعودية .

وفى الوقت نفسه استفاد الرسول الالمانى فى بغداد غروبا من اقامة اقرب مستشارى ابن سعود وسكرتيره الشخصى الشيخ يوسف ياسين ، فى العاصمة العراقية لكى يطلعه على مشاعر العطف الكبيرة التى تكنها برلين ، حسب زعمه ، حيال قضية تحرير فلسطين من نير الامبرياليين البريطانيين والمستعمرين الصهيونيين ، وعلى قرار الحكومة الالمانيـــة بتزويد الوطنيين الفلسطينيين بالسلاح وعلى الاخص عبر العربية السعودية ، وعن الرغبة ، نظرا لذلك ، فى اقامة علاقات ديبلوماسية بين البلدين . ولاضعاف الاستياء المحتم

فى لندن ، اقترح غروبا ان يقيم هذه العلاقات السفيران المعتمدان فى برلين وجده «بموجب الجمع بين وظيفتين» اى اللذان لهما مقامان دائمان فى بلدين مجاورين ما فى الشرق الادنى واوروبا الغربية . وابن سعود ، الذى كان يهتم بالغ الاهتمام بدعم العرب الفلسطينيين بجميع الوسائل ، قد قبل هذا الاقتراح فى اواخر سنة ١٩٣٧ وارسل ممثله الشخصى خالد الهدى الى برلين لاجل مواصلة المفاوضات ، سواء فى القضية الفلسطينية او فى مسألة شراء الأسلحة والذخائر الحربية (١٧) .

وهكذا استطـــاع الهتلريون ، باستغلال الوضع المتوتر فى فلسطين وبتأزيمه فى الوقت نفسه ، ان يقيموا فى سنة ١٩٣٧ اتصالات مع مفتى القدس واقرب معاونيه من اللجنة العربية العليا ومع الاوساط القومية فى سوريا ، ومع حكومة العراق ومع ملك العربية السعودية وغيرهـــم من الشخصيات النافذة فى الشرق الاسلامى . ويقينا ان هؤلاء لم يكونوا يعرفون شيئا عن دور المانيا الهتلرية فى زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين بسرعة وكثرة ، وعن الدعم المالى الكبير الذى كانت تقدمه المانيا الهتلرية للمنظمات الصهيونية ، وعن تزويد المانيا الهتلرية لهذه المنظمات بالاسلحة .

فى اواخـــر ايلول (سبتمبـــر) ١٩٣٧ ، اى عندمـــا قدم الديبلوماسيون الالمان والعملاء السريون الالمان للزعماء البارزين فى البلدان والمنظمات الاسلامية البراهين المقنعة على ان الحكومة الالمانية مستعدة لبذل كل ممكن لاجل مساندة عرب فلسطين ، راح الى فلسطين قائدا القسم السيئ الشهرة «١١-١١٢» هاغن وايخمان تلبية لدعوة من احد قادة «الهاغانـــا» ، بولكس . ولكنهما لـــم يستطيعا النزول فى حيفا نظرا لاعلان حالة الطوارىء فى فلسطين ، واضطرا الى الذهاب الى القاهرة عن طريق الاسكندريـــة . والى القاهرة وصل بولكس فى ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) لاجل اجراء مفاوضات جديدة مـــع رسولى هملر اللذين تظاهرا ، لاغـــراض النشاط السرى ، بانهمـــا مندوبان خاصان عن الجريدة الالمانية الواسعة الانتشار «برلينر تاغبلات» (١٨) .

وبما ان كشف امر الدعوة التى وجههـــا قادة «الهاغانا» الى الجلاد الدامى للشعب اليهودى ايخمان لزيارة فلسطين كان يتهدد

الزعماء الصهاينة بمنغصات كبيرة بعد الحرب ، فقد اتخذت جميع التدابير لاجل تشويه الواقع وتصوير سفرة ايخمان الى فلسطين ومصر فى ايلول وتشرين الاول (سبتمبر واكتوبر) ١٩٣٧ بصورة مأمورية لاجراء مفاوضات سريـــة مع مفتى القدس امين الحسينى بشأن . . . «النضال المشترك ضد الاستعمار الصهيونى لفلسطين» ! وهذه المزاعم وردت فى كتاب «المناضل ضد الصهيونية» سيمون فيزنتال ، وفى كتاب المؤرخ الموالى للصهيونية جيرالد ريتلينغر ، وفى مقالات الصهيونى بولياكوف ، المنشورة فى الولايات المتحدة الاميركية . وفى سيرتى حيـاة ايخمان اللتين كتبهمـــا المؤرخان الاميركيان رينولدس وكلارك بالاعتماد على المصادر الصهيونية ، ورد حتى الزعم القائل ان ايخمـــان لم يجر اثناء سفره الى الشرق الادنى مفاوضات مع امين الحسينى وحسب ، بل سلمه كذلك ٥٠ الف دولار لتلبية حاجات العرب الفلسطينيين (١٩) . وفضلا عن ذلك ، قدمت النيابة العامة الاسرائيلية للمحكمة ، اثناء محاكمـــة ايخمان فى القدس فى سنة ١٩٦١ ، وثيقة كتبها ، حسب زعمها ، امين الحسينى ونعت فيها ايخمان بانه «درة من اجل العرب» .

ولكن هذا لم يكف الصهاينة . ففى سياق جلسة المحاكمة فى تموز (يوليو) ١٩٦١ ، اعلن ايخمان صراحة ، ردا على سؤال من المدعى العام ، ان «اقامة اتصال مع امين الحسينى» (٢٠) كانت اكبر مهام سفره الى فلسطين فى سنة ١٩٣٧ .

ومع ذلك تبين ان كل هذا كذب وخداع . ففى وثائق هملر (وهذه المجموعة الضخمـــة من المواد تحمل العنوان التالى «وثائق الريخسفوهـــر س.س ورئيس البوليس الالمانى») المحفوظة فـــى موجودات اللجنة الاميركية لدراسة وثائق الحرب العالمية الثانية ، والتى لا تمكن دراستها الا فى الافلام المصغرة ، يوجد الملف رقم ٤١١ الذى امكننا ان نكتشف فى كادراته المصورة رقم ٢٩٣٦٠١٢ ورقم ٢٩٣٦٠٦٩ النص الاصلى لتقرير هاغن وايخمان عن رحلتهما الى فلسطين ومصر . ان هذه الوثيقة التى قدمها رئيسهما البروفسور سيكس الى هملر شخصيـــا ، تصف وتعرض بالدقة الالمانية كل السفرة وجميع الاحاديث والمفاوضات . لم تجر اية لقاءات مع امين الحسينى وغيره من قادة اللجنة العربية العليا ، كما كان يجب توقع

ذلك ، ولم يكن من الممكن ان تجرى ، لانه لوجرت لعرف ذلك ، بلا ريب ، العمـــلاء البريطانيـــون والصهيونيون . ولكـــن التقرير يعرض بالتفصيل المفاوضات التى جرت مـع بولكس فى ١٠ و١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ فى مقهى «غروبى» المعروف فى القاهرة . وفى الكتاب الذى اثـــار ضجة كبرى «ايخمـــان فى القدس» والذى هو خير تقرير عن محاكمة جلاد الشعب اليهودى هذا ، تثبت البروفسورة حنا ارندت بصورة مقنعة ان الوثيقة التى قدمتها النيابة العامة الاسرائيلية للمحكمة والتى نعت فيها امين الحسينى ايخمان بانه «درة لاجل العرب» هى وثيقـــة مزيفة . فقد برهنت ارندت بما لا يقبل الجدل ان السلطات الاسرائيلية ترصدت ايخمان لاقتناصه خوفا من ان يقع فى «ايد غريبة» ، وسعت جهدها لكى تجرى محاكمته فى القدس على وجه الدقة . ففى هذه الحالة فقط ، كان يمكن التلاعب بالوقائع وحمل ايخمان على الاعتراف باتصالات لم تقع مع مفتى القدس ، واجباره على لزوم الصمت عن المفاوضات مـع بولكس ، – والرئيسى – عن الاتصالات الواسعة التى جرت عشية وابان الحرب العالمية الثانية بين الزعماء النازيين وزعمـاء المنظمات الصهيونية . وقد انتهت هذه الاتصالات بصفقات مخزية كان لها دورها فى ابادة مئات الآلاف من اليهود وفى الحاق ضرر كبير باهل فلسطين العرب وبسكان سائر بلدان الشرق الادنى ، كما اسهمت بقدر لا يستهان به فى نشوب النزاعات الدامية الراهنة التى هزت الشرق الادنى على امتداد نحو اربعة عقود من السنين .

فى سياق المفاوضات التى دامت يومين مـع هاغن وايخمان فى مقهى «غروبى» بالقاهرة ، عرض ممثل «الهاغانا» المطلق الصلاحية بولكس بكل صراحة اهداف القيادة الصهيونية واسباب اهتمامهـا فى اقامة تعاون دائب ومنتظم مـع النازيين . وقد قال : «يجب تأسيس الدولة الصهيونيـــة باية طرائق وباسرع ما يمكن لاجل اجتذاب سيل المهاجرين اليهود الى فلسطين . وحين تتأسس الدولة اليهودية على اساس توصيات لجنة بيل ووفقا لتعهدات بريطانيـا العظمى ، حينذاك سيكون من الممكن توسيع حدودها تبعا لرغائب وامكانيات قادتهـا المقبلين» . وانتقل بولكس الى مسألة ملاحقة اليهود فى المانيا الهتلرية فأكد ان «الاوساط اليهودية القوميـــة

تعرب عن كبير سرورها بالسياسة الجذرية التى تنتهجها المانيا حيال اليهود ، لان هذه السياسة تؤدى الى ازدياد السكان اليهود فى فلسطين ، وتؤدى بالتالى الى واقع ان العرب سيجدون انفسهم فيها اقلية فى المستقبل المنظور» . وفى سياق المفاوضات اصر بولكس على ضرورة تسريع طرد اليهود من المانيـا ، واعرب فى الوقت ذاته عن الاستعداد لتزويد مصلحة الامن (س د) النازيـة بالمعلومات السريـة . فهكذا ، مثلا ، افاد ان المشتركين فى المؤتمر الاسلامى «العالمى» الذى انعقد آنذاك فى برلين اقاموا صلات سرية مع «زعيمين عربيين مواليين للسوفييت» هما الامير عادل ارسلان والامير شكيب ارسلان . وفى ختام المفاوضات عرض بولكس على النازيين «على السبيـل الشخصى» خدماته كمخبر فى المسائل «السياسية» لقاء اجر شهرى بالعملة الانجليزية (٢١) .

كان تقرير هاغن وايخمـان موضع دراسة دقيقة ، لا من قبل رئيسهما المباشر البروفسور سيكس وحسب ، بل ايضا من قبل رئيس مصلحة الامن الامبراطورية فى المانيا النازية ، الجلاد الاكبر هيدريخ ؛ ثم احيل مضمون التقرير الى هملر .

وهكذا تناول البحث منذ نحـو ٥٠ سنـة خطط الحروب والاعتداءات ضد شعوب البلدان العربية . وفيما بعد صارت هذه الخطط حجر الزاوية فى النهج المغامر الذى انتهجه وينتهجه زعماء «ليكود» و«حيروت» وسائر زعماء اسرائيل الصهيونية .

ولم يبق كمـا كان ، دون تغيير ، سوى نفاق ولامبدئيـة الصهاينة الذين يغيرون «الحماة» — كما سنرى فيما بعد — وفقا للوضع العسكرى والسيـاسى الدولى والذين لا يأنفون من قبض الاجرة بالماركات او الدولارات او الجنيهات الاسترلينيـة لقاء نشاطهـم التجسسى والتخريبى ، والذين لا يترددون عن خداع موكليهم السامين على المكشوف . فعندما اعلـم بولكس واسياده بتكليف من قيادة «الهاغانا» ، هاغن وايخمان عن الصلات السرية بين المشتركين فى المؤتمـر الاسلامى «العالمـى» و«الزعيمين العربيين المواليين للسوفييت» ، لـم يكن من الممكن ان بولكس واسيـاده لا يعرفون ان عادل ارسلان كان وثيق الارتبـاط بالهاشميين منذ العشرينيات ، وانه دعم فيصل كليا اثناء وجوده

القصير المدى على العرش السورى ، وانه رافق فيصل الى لندن حيث نال فيصل «البركة» لتسنـــم العرش العراقى ؛ وفى الوقت ذاته ، اقام عادل ارسلان ، منذ سنة ١٩٢١ ، اتصالات وثيقة مع فريتس غروبـــا ، وانضم منذ سنة ١٩٣٧ الى اللجنة السياسية العربية التى انشأها امين الحسينى فى بغداد . اما «الزعيم العربى الموالى للسوفييت» الثانـــى والصحفى السورى المعروف ، شكيب ارسلان ، فقد سبق له ان ايد فى اواخر القرن التاسع عشر بناء سكة حديد بغداد وتوجيـه مسلمى الشرق الادنى نحو المانيـــا . وعشية الحرب العالمية الثانية وابانهـــا ، كان يقيم فى جينيف ؛ ومثله مثل عادل ارسلان ، شجع وايد كليا مفتى القدس ورشيد عالى الكيلانى . وباعتزاز كتب شكيب ارسلان فى حزيران (يونيو) ١٩٤٢ فى رسالة الى ماكس اوبنهايـم ، صديقه منذ زمن غليوم الثانى ، انه «من اقدم اصدقاء المانيا العرب» وانه يدعو منذ ٤٧ سنة الى «وحدة المصالح بين المانيا والعالم الاسلامى» (٢٢) .

ان سعى الفاشيين الالمان الى تعزيز مواقعهـــم فى العالـــم الاسلامى كان عظيمـــا الى حد انهم ، مع علمهم بنفاق الصهاينة وزيفهم وخداعهم ، ظلوا يستغلونهـم كورقة موسومة فى مقامرة كانت السيادة على الشرق الاسلامى رهانها .

فى سنة ١٩٣٨ ، عندمـــا اخذت السلطات الاستعماريـــة البريطانية تحد من هجرة اليهـــود الى فلسطين لقلقها من تعاظم الحركة المعادية للامبريالية والمعاديـة للصهيونية فى فلسطين ، هذه الحركة التى لقيت الدعم الواسع لا فى البلدان العربية المجاورة وحسب ، بل ايضا فى عموم العالم الاسلامى ، قرر قادة المنظمة الصهيونية العالمية ان يوطدوا علاقاتهم مع النازيين . والنازيون ، اسياد المانيا الفاشية ، اولوا بدورهم ، استعدادا منهم لحرب كبيرة ، اهتماما كبيرا بتوسيع الاتصالات مع اشد المنظمات الصهيونيـــة اغراقا فى الرجعية والعدوانية فى فلسطين ، لكى يعقدوا الوضع فى هذا البلد ويؤمنوا امكانيات اضافيـة لاجل النشاط التخريبى والجاسوسى فى الشرق الادنى . ولهذا ، عندما انشأ قادة «الهاغانا» فى سنة ١٩٣٨ المنظمـة السرية «موساد له الّى بت» (باختصار «موساد») – «مكتب الهجرة» – لاجل تهجير اليهـــود الاوروبيين

بالجملة وبصورة غير شرعيـــة الى فلسطين ، تقرر فى برلين تيسير نشاط هذه المنظمة . وصارت جينيف مقر «موساد» العام وصار بولكس احد قادتها ، واقام على الفور اتصالا مع قيادة القسم «١١–١١٢» فى مصلحة الامن الامبراطورية .

فى اوائل ١٩٣٩ ، جاء الى برلين بصورة مشروعة الصهيونيان غينزبورغ واويرباخ بوصفهمـا ممثلى اتحاد لا وجود له – «اتحاد المستوطنات الاجتماعية» اى اتحاد الكيبوتسات . وقد عقدا عددا من المداولات مـع ممثل القسم «١١–١١٢» ومع قيادة الغستابو فيما يتعلق بكيفية «توسيع الهجرة اليهودية غير المشروعة من اوروبا بجميع الوسائل ، رغم مقاومة السلطـات البريطانية فى فلسطين» (٢٢–أ) . وقبل ذاك ، فى ربيع ١٩٣٨ ، افتتح فى فيينا ، فور احتلالها من قبل النازيين ، «مكتب مسائل الهجرة اليهودية» الخاضع لقيادة ايخمان مباشرة . وفى صيف ١٩٣٨ ، انشئت فى النمسا ، بنتيجة المفاوضات بين ايخمان ورسول «موساد» بار غيليـاد ، وبموافقة هملر ، معسكرات خاصة للتدريب العسكرى لاجل اعداد اليهود الشبان من سن الخدمة العسكريـــة ، المختارين للهجرة والخدمة لاحقا فى فصائل «الهاغانا» غير الشرعية ، بغية النضـــال ضد السكان العرب فى فلسطين . وسرعان ما انشئت معسكرات مماثلة فى المانيا ايضا (٢٣) . وهذا الشكل الجديد من التعاون بين الصهاينة والنازيين كان يطبق بهمة ونشاط فى عز اعداد المصالح المختصة فى دائرة هملر لعملية «اندلوزونغ» (عملية ابادة ستة ملايين من يهود اوروبا) .

وبعد الحرب ، حين اخذ يتكشف تدريجيا بعض من وقائـع هذا «التعاون» ، استثارت استياء الرأى العام فى العالم اجمع . وعن هذا كتبت كذلك البروفسورة اراندت فى كتاب «ايخمان فى القدس» مشيرة الى ان النيابة العامـة الاسرائيلية بذلت قصارى جهدها اثناء المحاكمة لاخفاء هذه الوقائع المخزية . والشىء نفسه اشار اليه صاحبا كتاب «السبل السريـة» المكرس لهجرة اليهود السرية الى فلسطين ، وهما يون ودافيد كيمتشه (٢٤) .

فى اواخر ١٩٤٠ ، بدأ ممثلو الابفير – مصلحة المخابرات العسكرية الالمانية – يقيمون هم ايضا اتصالات مع الصهاينة .

وهذه المرة اقيمت الصلـــة مع ممثلي اشد المنظمات الصهيونيـة اغراقا في الرجعية والعدوانيـــة وهي «ارغون تسفـــاى ليومي» («المنظمة القومية العسكرية») التي انفصلت عن «الهاغانـــا» في ١٩٣٦ وصارت تشكيلة عسكرية تخريبية تابعة «للمنظمة الصهيونية الجديدة» التي انشأها قبل ذاك بسنة زعيم الحركة الموالية للفاشية في الصهيونية جابوتينسكي الذي كان يسعى الى تأسيس «اسرائيل الكبرى» ، لا في ارض عموم فلسطين وحسب ، بل ايضا فيمـــا وراء الأردن . ومنذ سنـــة ١٩٤٣ صار مناحيـــم بيغين قائـد «ارغون» .

ومما له دلالته ان الابفير قد عولت على «ارغون» في الوقت الذي اكدت فيه وزارة الخارجيـــة الالمانية لمفتي القدس وقادة العراق وملك العربية السعودية سعيها الثابت والاكيد الى النضال من اجل استقلال فلسطين العربية وسائر بلدان العالم العربي . وفي ١١ كانون الثاني (ينايـــر) ١٩٤١ ، اي بعد ان بدأت في المانيا ابادة اليهود بالجملة ، جرى في اسطمبول لقاء بين ممثل الابفير – الملحق البحري الحربي في السفارة الالمانية في تركيا – وبين قادة «ارغون تسفاى ليومي» . وقد سلم هؤلاء مشروع اتفاقية مع هتلر لاجل ارسالها الى برلين . وفي هذا المشروع اشير الى ان «ارغون» تسعى الى «التعاون بين المانيا الجديدة والجامعة اليهودية القومية الشعبية المجددة» . وكان المقصود من هذا «التعاون» ان يسفر عن تأسيس«دولـــة يهودية تاريخيـــة على اساس قومـــي واستبدادي» . وكان قادة «ارغون» يرون انه ينبغي ان تتواجد هذه الدولة الصهيونية الجديدة «في علاقات تعاهدية مع الريخ الالماني لاجل صيانة وتقويـــة النفوذ الالماني في الشرق الادنى» (٢٥) . وعلى هذا الاساس تم التوصل الى اتفاقية . وفي اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ ، جرى في اسطمبول كذلك لقـــاء مستطيل بين مفوض كاناريس ، اللواء البحري مارفيتس ، الذي جاء خصيصا من برلين ، وقادة «ارغون» (٢٦) . وقد تخطى جدول الاعمال كثيرا اطار تبادل المعلومات . وتناول الكلام اعداد عمليات تخريبية كبيرة اقترح الصهاينة القيام بهـا ضد القوات المسلحة البريطانية في فلسطين لاجبار لندن على الغاء منع هجرة اليهود

بالجملة الى فلسطين . وقبل ذلك ، كان نشطاء «ارغون» والمنظمة المتطرفة للغاية ، «فريق شتيرن» («لوخمى حيروت اسرائيل») التى اقامت هى ايضا صلة مع الابفير ، قد فجروا ثكنات عسكرية بريطانية فى فلسطين واحرقوا الصهاريج المحملة بالبترول ، وعطلوا خطوط انابيب البترول . وفى نشاطهم التخريبى التهويلى الابتزازى لم يترددوا عن تفجير الباخرة «باتريا» وعلى متنها مئات من المهاجرين اليهود فى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٠ فى مرفأ حيفا ، وذلك بعد ان رفضت الادارة الاستعمارية البريطانية السماح لهؤلاء المهاجرين بدخول فلسطين . وقد قام الارهابيون الصهاينة بهذه العملية الاجرامية لكى يتهموا بريطانيا بهلاك المهاجرين ، ضحايا النازية ، ويجبروا بالتالى الحكومة البريطانية على الغاء منع الهجرة (٢٧) .

ومما يدل على نفاق الصهاينة ان الوفد الرسمى عن المنظمة الصهيونية العالمية برئاسة وايزمان اجرى فى الوقت نفسه حقا وفعلا مفاوضات فى لندن مع الحكومة البريطانية حول انشاء تشكيلات يهودية خاصة فى قلب القوات المسلحة البريطانية فى فلسطين (٢٨) . وفى هذه الاثناء ، ارسل قائد «ارغون تسفاى ليومى» بيغين ، ورئيس «لوخمى حيروت اسرائيل» شتيرن (وبعد موته ، شامير) الجديد تلو الجديد من الممثلين الى فرع الابفير فى اسطمبول (الى حيث نقل من جينيف المقر العام «لموساد») لاجل رسم التدابير المشتركة فى الشرق الادنى ولاجل تنسيق الاجراءات لتعزيز هجرة اليهود من البلدان الاوروبية التى احتلها الهتلريون الى فلسطين .

وعندما كان الهتلريون يرسلون سفن النقل التى تحمل مهاجرين يهودا مختارين بعناية ودقة من اكثر اليهود يسرا من بلدان اوروبا الوسطى الى الشرق الادنى ، كانوا يضمون اليهم بدأب وانتظام عددا كبيرا من عملاء مصالح المخابرات الالمانية . وقد حدث ذلك ، مثلا ، لدن ارسال اليهود من براغ عبر رومانيا الى فلسطين على متن السفينة «ساكاريا» فى شباط (فبراير) ١٩٤٠ (٢٩) . ان نجاح العملية قد دفع الهتلريين الى القيام لاحقا بعمليات فى هذا الاتجاه . وفى انتقاء الجواسيس النازيين لارسالهم الى

فلسطين كان يضطلـع بدور نشيط موظف من موظفى الغستابو البارزين فى المجر هو الصهيونى باندي غروس (وهو ايضا اندور دييرد) . ولكن ليس دائما كان النجـاح يحالف العمليات . ففى سنة ١٩٤١ ، تلقت «الانتلليجنس سرفيس» البريطانية معلومات عن علاقات الصهاينة مع رجال الغستابو ، ولذا كان عملاؤهـا فى اسطمبول على اتم اليقظة . وفى شباط (فبراير) ١٩٤٢ ، علموا ان الباخرة «ستروما» المتجهة من قسطنتسـا (رومانيا) الى الشرق الادنى ، وعلى متنها ٧٦٠ مهاجرا يهوديـا ، بينهم عدد كبير من الاولاد ، كانت تنقل ايضا جواسيس الغستابو . وعندما اقتربت «ستروما» من البوسفور ، تلقى كاناريس الذى كان يستفيد على نطاق واسع من العملاء المزدوجين ، نبأ عاجلا يفيده ان الانجليز قد اكتشفوا سره . وفى ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٤٢ ، نظم بابن ، السفير الالمانى فى تركيا ، وكلايبر ، مستشار السفارة الالمانية ، والجاسوس الصهيونى الوثيق الارتباط بفرع الابفير فى اسطمبول ، الملقب «اياكوف» ، — وذلك بناء على تعليمات من الابفير — اغراق «ستروما» . وفى الليل ، حين كانت السفينة راسية فى البوسفور ، اطلق عليها طوربيد عن كثب من زورق حربى لا يحمل اية علامة . وقد افلح الصيادون فى انقـاذ اثنين فقط من اصل المهاجرين الـ٧٦٠ (٣٠) . ومع ذلك استمر التعاون بين الصهاينة والهتلريين فى العالم العربى .

٤ ـ العراق والسياسة «الاسلامية» للامبريالية الالمانية عشية الحرب العالمية الثانية

منذ اواخر القرن التاسـع عشر ، اخذت الامبريالية الالمانية تخصص للعراق قدرا كبيرا من الانتباه والاهتمام فى سياستهـا العدوانية فى بلدان الشرق . وليس من باب الصدفـة ان تكون سكة حديد بغداد — هذه السلسلة الفولاذية التى اراد بها كروب وسيمنس ومانسمان والطغمة العسكرية البروسية ان يقرنوا شعوب الشرق الاسلامى بعربة الامبريالية الالمانية ويفتحوا لانفسهم طريقا الى الجزيرة العربية والخليـج العربى — قد حملت اسم عاصمة

العراق . وقد اشتد هذا الاهتمام على الاخص عشية الحرب العالمية الاولى ، عندما بدأ استثمار حقول البترول الفائقة الغنى فى منطقة الموصل وكركوك فى شمال العراق ، الذى كان آنذاك جزءا من الامبراطورية العثمانية . وبعد الحرب العالمية الاولى صار العراق اول بلد عربى اقامت معه المانيا الفيمارية علاقات قنصليـــة ثم علاقات ديبلوماسية . وفوق اراضى العراق ، مر اول خط جوى عابر لآسيا اقامته الشركة الالمانية «لوفتهانزا» وفى اوائل الثلاثينيـات حاول الرأسمـــال الالمانى من جديد ان يلعب الدور الحاسم فى صناعة العراق البترولية .

ومنذ سنة ١٩٣٢ وحتى بداية الحرب العالمية الثانية ضمنـا كان فريتس غروبا المذكور سابقا رسول المانيا فى بغداد ؛ وكان اوفر الديبلوماسيين والجواسيس الالمان خبرة وكان يتكلم العربية بطلاقة ، واقام خلال عقود من السنين اتصالات مـــع كثيرين من رجال الدولة والمجتمـع فى الشرق الاسلامى . وقد اشتد نشاط غروبا على الاخص بعد وصول النازيين الى الحكم . وعلق الزعماء النازيون آمالا كبيرة على ان يساعدهم توطيد نفوذهم فى العراق الذى كان مرتبطا بعلاقات تعاهدية مـــع مصر والعربية السعودية واليمن وتركيا فى تعزيز مواقعهم فى عموم العالم الاسلامى .

فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ حدث انقلاب عسكرى فى بغداد جاءت بنتيجته الى الحكم حكومة حكمت سليمان التى كان الرئيس الجديد لهيئة الاركان العامة بكر صدقى يضطلع فيهـــا بالدور الرئيسى ، الامر الذى ضمن امكانيات اضافية لاجل اشتداد نشاط الديبلوماسية الالمانية النازية سواء فى العراق او فى بلدان الشرق الاسلامى المجاورة . وبالاعتمـاد على مساندة الملك غازى الاول ، بدأت حكومة حكمت سليمان تنتهج نهجا معاديا للانجليز على المكشوف ، وتتجه نحو التقارب مع المانيا الهتلرية . وفى هذا المجال اضطلعت المسألة الفلسطينية بدور كبير لان حكام العراق الجدد كانوا يعتبرون ان دعمهم لنضال الشعب العربى الفلسطينى ضد الامبريالية وضد الصهيونية سيسهم فى رص القوى القومية فى العراق ، وفى توطيد مواقعهم داخل العراق وفى الشرقين الادنى والاوسط .

فور وصول حكومة حكمت سليمان وبكر صدقى الى الحكم ، بدأت مفاوضات مكثفة مع غروبا حول توريد كميات كبيرة من الاسلحة الى العراق . ولهذا الغرض تم التوصل الى اتفاقية بتأسيس كونسورسيوم خاص من كبريات شركات الصناعة الحربية في المانيا .

وقد قامت علاقات مؤتمنة وسرية جدا بين الرسول الالمانى والجنرال بكر صدقى الذى كسب شهرة مؤسفة مخزية فى الشرق العربى بدوره فى قمعه بالحديد والنار انتفاضة الاشوريين فى شمال العراق سنة ١٩٣٣ والقبائل الشيعية فى اواسط الفرات فى ربيع وصيف ١٩٣٦ . وبما ان غروبا كان يعرف جيدا ما يلازم بكر صدقى من تحرق الى السلطة ومن شغف بالمغامرات ، فقد كان يشجع بجميع الوسائل طموحه الى اقامة ديكتاتورية عسكرية احادية فى العراق ، وبتوصية من السفارة الالمانية ، اخذت الصحافة النازية تمدحه بطبل وزمر بوصفه «رجل العراق القوى» و«المكافح ضد المستعمرين البريطانيين» . وقد كرس كبير خبراء غوبلز فى شؤون الدعاية فى الشرق الاسلامى الصحفى باول شميتس (الذى اضاف الى كنيته «القاهرى») فى كتابه «الحركة الاسلامية ! دولة الغد العالمية ؟» صفحة كاملة لبكر صدقى ناعتا جلاد الاشوريين والشيعيين «بالشخصية البارزة» فى «حركة التحرر فى الشرق الاسلامى» (٣١) .

كانت المفاوضات بشأن توريدات الاسلحة ذريعة ملائمة لاجل لقاءات مؤتمنة وسرية ، يومية تقريبا ، بين غروبا ورئيس الاركان العامة العراقية . ومن نتائج هذه المفاوضات ، دعوة العقيد فى هيئة الاركان العامة الالمانية هينس الى زيارة العراق فى ربيع ١٩٣٧ . وقد عهد بكر صدقى الى هينس بمهمة غير عادية وسرية جدا ، قوامها وضع خطة للدفاع عن كردستان العراقى فى حال تدخل القوات المسلحة البريطانية المهاجمة من منطقة الخليج العربى وفى حال استيلائها على القسمين الجنوبى والاوسط من العراق حتى بغداد ضمنا . ولاداء المهمة ، قام العقيد هينس بجولات مديدة فى ربوع كردستان دارسا بدقة وامعان ، لا منطقتى الموصل والسليمانية وحسب ، بل ايضا القطاعات ذات الاهمية الستراتيجية الخاصة من الحدود العراقية الايرانية . كذلك زار سرا المناطق

الحدودية فى كردستان الايرانى . وعلق اهمية كبيرة على دراسة امكانية توزيع المدفعية الثقيلة الالمانيـة فى المناطق الجبلية من كردستان .»

وقد اعترف فريتس غروبا فى مذكراته المنشورة سنة ١٩٦٧ «شعوب وبلدان الشرق» بان وضع خطة للدفاع عن كردستـان العراقى دون اقتحام محتمل من جانب القوات المسلحة البريطانية لم يكن سوى ستار للنوايـا الحقيقية لرئيس الاركان العامـة العراقية . فقد تبين ، وهـو الكردى من حيث القومية ، انه كان يفكر فى تأسيس كردستان مستقلة تتألف من الاراضى الكردية التى تشكل اجزاء من تركيا وايران والعراق . ذلك كان السبب الحقيقى للجولات السرية التى قام بها العقيد فى الاركان الالمانية هينس فى المناطق والمعابر الجبلية فى كردستان العراقى والايرانى (٣٢) .

ان هذه الواقعة العسكرية السياسية التى لم يرد لهـا ذكر فى تقارير غروبـا والتى بقيت بالتالى غير معروفة تقريبـا فى الاوساط العلميـة ، تتسم باهمية كبيرة . ذلك ان وضع بكر صدقى وهينس ، بمساهمة غروبـا النشيطة ، لخطـة تأسيس كردستان المستقلة قد جرى فى الوقت الذى كانت فيه الديبلوماسية البريطانية تعمل بجهد وتوتر على انشاء كتلة من بلدان الشرقين الادنى والاوسط كانت تحسب ان تستغلها سواء ضد دول «المحور» (محور برلين - روما - طوكيو) او ضد الاتحاد السوفييتى . وفى ٩ تموز (يوليو) ١٩٣٧ تم التوقيع فى قصر سعد آباد بطهران على معاهدة بين افغانستان وايران وتركيـا والعراق دخلت تاريخ العلاقات الدولية تحت اسم حلف سعد آباد . كانت هذه المعاهدة تنص على عدم التدخل فى الشؤون الداخلية ، وعدم السمـاح فى اراضيها بنشاط معاد للمشتركين فى المعاهدة .. والخ . . وفى لندن حسبـوا ، وليس بدون مبرر ، ان تتمكن الديبلوماسيـة البريطانية ، بواسطة الحلف ، من ان تخفف التناقضات بين ايران والعراق ، بين العراق وتركيا ، وان تضطلع بالتالى بدور المصالح والحكم ، وتعزز نفوذها فى الشرق الاسلامى ، وتضعف فى الوقت نفسه نفوذ المانيا النازية المتعاظم فى تركيا وايران .

ومن الجلى تماما انه لم يكن من شأن تنفيذ خطة بكر صدقى

(الامر الذى كان بالطبع قليل الاحتمال) وحسب ، بل ايضا وحتى من شأن المعلومات عن الاجراءات لاجل تنفيذها ان تفجر حلف سعد آباد وان تضعف كثيرا مواقع المبادرة اليـــه ، بريطانيا العظمى ، فى الشرقين الادنى والاوسط . وكل هذا كان من شأنه ، بلا ريب ، ان يسهم فى تحقيق خطط النازيين الالمــان البعيدة المدى فى هذه المنطقــة . ان دعـــم الرسول الالمانى فى بغداد لهذه الخطة الاستفزازية هو برهان جلى اضافى على الطرائق الوقحة واللامبدئية التى لجأت اليهــا الديبلوماسية النازية فى العالم الاسلامى . فان النازيين كانوا يؤكدون برياء ونفاق للاوساط الحاكمة فى تركيا وايران دعمهم التام لها ، ولكنهم كانوا فى الوقت ذاته يشتركون فى رسم خطط مغامرة من شأنهــا ان تثير حريق حرب كبيرة فى الشرقين الادنى والاوسط . ولم يقتصر النازيون على تسعير اوار التناقضات المسيحية الاسلامية والتناقضات اليهوديــة العربية ، بل شرعوا يتلاعبون ايضا بشكل خارق المخاطر على التناقضات بين الاكراد من جهة ، والعرب والاتراك والايرانيين من جهة اخرى .

كان العملاء البريطانيون يتتبعون بكل يقظة دسائس غروبا ، وبخاصة ، علاقاته مع رئيس الاركان العامة العراقية . وفى ١١ آب (اغسطس) ١٩٣٧ ، بعد مرور شهر على توقيع حلف سعد آباد ، اغتيل بكر صدقى ؛ وبعد خمسة ايام ، سقطت حكومـــة حكمت سليمان ، وعادت الى الحكـم الكتلة الموالية لبريطانيا العظمى . وفى نيسان (ابريل) ١٩٣٩ ، لقى الملك غازى الاول مصرعه فى حادثة سيــارة وقعت فى ظروف غامضة جدا ؛ وكان الملك غازى الاول يعادى النهـج الموالى للانجليز على المكشوف الذى انتهجه رئيس الوزارة الجديد نورى السعيد علما بان نورى السعيد سبق ان اقام اتصالات سرية فى سنة ١٩١٤ مع القنصل العام البريطانى فى القاهرة الجنرال كيتشنر .

بعد اغتيال بكر صدقى وسقوط حكومـــة حكمت سليمان ، ضعفت كثيرا مواقع المانيا فى بغداد . وفى هذه الاحوال كان من المهم بخاصة للهتلريين ان يستغلــوا القضية الفلسطينية لاجل مواصلة تأزيم العلاقات العربية الانجليزية وبعث نفوذهم فى العالم العربى . وفى اواخر ١٩٣٨ واوائل ١٩٣٩ ، اجرى غروبـــا بلا

انقطاع مفاوضات مع الوزراء العراقيين بشأن مساندة المانيا للسياسة التى تسلكها البلدان العربية فى القضية الفلسطينية .

والى جانب النشاط الديبلوماسي عززت المانيا الهتلرية النشاط الجاسوسى والتخريبى فى العراق . وفى غضون سنة ١٩٣٨ زار الملحق العسكرى الالمانى فى تركيا ، روده ، العراق مرارا . وكانت تهمه على الاخص «حالة الجيش العراقى ودرجة تأثير الانجليز فيه ، وحالة الطرق من بغداد فى اتجاه البصرة ، وكذلك فى اتجاه خانقين على الحدود الايرانية» (٣٣) . وقد اتسمت باهمية خاصة الزيارة التى قام بها الى بغداد فى السنة ذاتها قائد الابفير ، الاميرال كاناريس ، اذ انه استأجر العملاء بكل همة ونشاط بين الشخصيات الاجتماعية والسياسية فى العراق .

كذلك العالم الاثرى الالمانى يوردان الذى كان يشغل منصب المستشار فى دائرة عاديات العراق ويشرف «بموجب الجمع بين وظيفتين» على الفريق العراقى فى الحزب القومى الاشتراكى (النازى) قام بنشاط كبير فى العراق .

ومع ذلك ، ضعفت مواقع الالمان فى العراق بكل جلاء فى اواخر ١٩٣٨ واوائل ١٩٣٩ . ولهذا فتشت الديبلوماسية الهتلرية ببالغ الهمة والجهد عن رأس جسر «احتياطى» فى الشرق العربى . ورأس الجسر هذا كان لا بد ان تصبحه العربية السعودية برأى «المستشرقين» في وزارة الخارجية الالمانية وفى الابفير . وفى سنة ١٩٣٧ اقيمت مع العربية السعودية اتصالات على صعيد النضال المشترك نفسه ضد الاستعمار الصهيونى لفلسطين الذى غدا مفتاحا مشتركا اصيلا حسب الهتلريون ان يفتحوا به ويحطموا ابواب الشرق الاسلامى التى اغلقها الامبرياليون البريطانيون باحكام بعد الحرب العالمية الاولى . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٣٩ اقيمت رسميا العلاقات الديبلوماسية بين المانيا والعربية السعودية . وبموجب الجمع بين وظيفتين صار غروبا رسول المانيا فى جده . وفى برلين علقوا على هذا الحدث اهمية كبيرة نظرا للنفوذ الدينى والسياسى الذى يتمتع به ابن سعود فى العالم الاسلامى . وفضلا عن ذلك ، حسبوا فى برلين ان جميع العاملين فى السفارة الالمانية فى بغداد ، بمن فيهم ممثلو الابفير السريون

العديدون ، سيتمكنون من الانتقال الى جده اذا ما نشبت حرب عالمية وتبعها قطع العلاقات الديبلوماسية مع العراق (الامر الذى كان محتملا جدا بعد وصول نورى السعيد الى الحكم) .

فى كانون الثانى (يناير) ١٩٣٩ طار غروبا من بغداد الى جده لاجل تسليم اوراق اعتماده . وقد وضعوا تحت تصرفه طائرة للنقل من احدث طراز كانت آنذاك تتواجد فى الغرب هى الطائرة «يونكرس-٥٢» . وفى الطريق ، عرج غروبا على القاهرة حيث اجرى مفاوضات مع قائد الوفد الفلسطينى الذاهب الى مؤتمر لندن المخصص للقضية الفلسطينية ، وتلقى تمنياته «بدعم مصالح الشعب الفلسطينى اثناء المفاوضات مع ابن سعود» . وفى كانون الثانى وشباط (يناير وفبراير) ١٩٣٩ تم التوصل فى سياق مفاوضات مديدة مع يوسف ياسين ، كبير مستشارى الملك ، ثم مع الملك ابن سعود نفسه ، الى اتفاقية تتعهد بها المانيا بان تساند بجميع الوسائل نضال الشعب العربى الفلسطينى ضد الصهاينة والمستعمرين البريطانيين . وقد اكد ابن سعود انه يعتبر القضية الفلسطينية قضية حيوية لجميع العرب ، وطلب ارسال كميات كبيرة من السلاح الالمانى الى العربية السعودية ، على ان يحيل قسم منها الى العرب الفلسطينيين والى مفتى القدس شخصيا الذى كان ابن سعود يعتبره من اقرب اصدقائه . وعدا ذلك تم التوصل الى اتفاقية تمهيدية بشأن بناء مصنع للخراطيش فى العربية السعودية . وقد طلب ابن سعود من غروبا ان ينقل الى الحكومة الالمانية ان العربية السعودية ، فى حال نشوب حرب عالمية ، «ستحتفظ فى جميع الظروف بالحياد الحسن الالتفات حتى وان لم تستطع ان تقدم الدعم لالمانيا» (٣٤) .

وتطويرا للاتفاقية التى تم التوصل اليها فى ايار (مايو) ١٩٣٩ وصل الى المانيا خالد الهدى ، — وهو من اقرب مستشارى الملك — بصفة مبعوث فوق العادة . وفى حزيران (يونيو) ١٩٣٩ استقبله هتلر فى برختسهادن ، واعلن ان «لالمانيا والعرب اعداء مشتركين» ، ووعد بان يقدم للعرب الدعم الشامل بما فيه الدعم العسكرى . وفى سياق الحديث كله ، اكد بجميع الوسائل احترامه العميق للاسلام وعطفه على المسلمين . وتعهدت الحكومة الالمانية

بان تمنح العربية السعودية قرضا قدره ٦ ملايين مارك لاجل شراء الاسلحة . واهدى ابن سعود ٤ آلاف بندقيـــة من احدث طراز (٣٥) . وهكذا تسنى للامبرياليين الالمان قبـــل بدايـــة الحرب العالمية الثانية بشهرين ان يشقوا طريقـــا لانفسهم الى العربية السعودية .

وبقدر ما كانت تقترب الحرب العالمية الثانية ، كان الصراع من اجل العالم الاسلامى يشتد اكثر فاكثر . شكلا كان هجوم المانيا الهتلرية على بولونيا فى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ سبب بداية الحرب العالمية الثانية . اما فى الواقع فان سعى دول «المحور» الى زحزحة الاخصام من افريقيا الشمالية ، ومن بلدان الشرق الاسلامى سببا من اهم اسباب نشوب الحرب .

وقد عثر فى الارشيفات النازية على وثيقة سريـــة مؤرخة فى ٢ كانون الثانى (يناير) ١٩٣٨ تؤكد ان القمة الحاكمة فى المانيا الهتلرية ، بمن فيها قادة اكبر الاحتكارات الالمانية ، كانت تدعى بقسم كبيـــر من الشرق الاسلامى (٣٦) . وفى ٧ آب (اغسطس) ١٩٣٩ قال غورنغ فى حديث مع مندوبى بريطانيـــا العظمى : «الشرقان الادنى والاوسط انما هما منطقة اقتصادية طبيعية لالمانيا تشكلان قضية ذات اهمية حيويـــة بالنسبة لها» . وموه غورنغ ادعاءاته «بضرورة مقاومة انتشار الشيوعيـــة» ، وطالب باعتبار الشرقين الادنى والاوسط «منطقة نفوذ لالمانيا» (٣٧) .

ومنذ الايـــام الاولى بالذات من الحرب العالمية ، حين كان ينبغى ، حسبما يخيل ، ان يتركز انتبـــاه القيادة الهتلرية على العمليات الحربية فى بولونيا وعلى الوضع الحربى والسياسى البالغ التعقد فى اوروبا ، كانوا فى برلين لا يتغاضون عن الشرق الادنى .

ففى خريف ١٩٣٩ تلقى هتلر مذكرة عنوانها واسع الدلالة — «السياسة وتسيير العمليات الحربيـــة فى الشرق الادنى» . هذه المذكرة وضعها البروفسور اوسكار نيدرماير ، العقيد والمبعوث المكلف بمهمات خاصة لدى هيئة اركان القيادة العليـــا للقوات المسلحة الالمانية . وقد سبق له ، كما اشرنا من قبل ، ان شق لنفسه طريقا عبر تركيا وايران الى افغانستان ، ابان الحـــرب العالمية الاولى ، وسلم حاكم افغانستان الامير حبيب الله رسالة

من غليوم الثانى ورسالة من السلطان التركى ، وحاول اقناع حاكم افغانستان باقتحام الهند . والآن حاول هذا البروفسور — الجاسوس ان يبرهن فى مذكرته انه من الضرورى لالمانيا ان تضـــع تحت اشرافها كل المنطقة الواقعة بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربى . واوصى بالقفقـــاس كرأس جسر ومنطلق للاستيلاء على المنطقة . ومن القفقاس كان على الفرق الالمانية ان تشق لنفسها طريقا الى منطقة الموصل خلال معبر ريفاندوز . وكان نيدرماير يرى ان من شأن الاستيلاء على العراق ، ان يجعل الالمان ، لا مالكين للبترول وحسب ، بل ايضــــا اسيادا لعموم الشرقين الادنـــى والاوسط (٣٨) .

وفى الوقت نفسه تقريبا سلموا هتلر مذكرة وضعها بروفسور مستشرق آخر سبق ان عرفه القراء ، هو ماكس اوبنهايم ، مستشار غليوم الثانى فى الشؤون الاسلامية فى سنة ١٨٩٨ . وقد حاول اوبنهايم ان يبرهن فى المذكرة ان احد الاهداف الاساسية التى تبتغيها المانيا من الحرب يتلخص فى «تجميد القوات المسلحـــة البريطانية فى الشرق الادنى ، وتصعيب استيراد البترول ، وحرمان الاسطول الحربى والتجارى البريطانى بالتالى من الوقود ، وقطع المواصلات البريطانية فى منطقة قناة السويس ، واخيرا ، القضاء على السيادة البريطانية فى الشرق الاسلامى» (٣٩) .

احدثت مذكرتا نيدرماير واوبنهايم انطباعا كبيرا . ففى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ اى بعد مرور شهر على بداية الحرب العالمية الثانية ، ارسل هتلر الى هيئة الاركان العامة مذكرة شخصية عن اهداف المانيا فى الحرب . ومن المؤسف انه لم يتسن حتى الآن العثور على هذه الوثيقة الطريفة . ولكنه معلوم انها كانت اساسا لاجل الامر الذى وقعــــه فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٩ القائد الاعلى للقوات المسلحة البرية الالمانية الفلدمارشال براوخيتش . وفى هذا الامر انيط بهيئة الاركان العامة ان تضع بالتفصيل ومن جميع النواحى خطة لعملية هجوم واسعة اسمها الاصطلاحى «الجنوب — الشرق» وتقضى بان تشق تشكيلات المانية من الدبابـــــات والمدرعات طريقا لنفسها الى العراق عبر بلغاريا وتركيا . ولتحقيق هذه الخطة عقد رئيس هيئة الاركان العامة الجنرال كولونيل هالدر

فى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٩ مداولة كبيرة مخصصة للعراق . وفى هذه المداولة اشترك عدد من الديبلوماسيين ورجال المخابرات وموظفى المصلحة العملياتية فى الاركان العامة ، من ذوى الخبرة فى العمل فى البلدان الاسلامية . وقد تناول الكلام اعداد خطط عملياتية لاجل وصول القوات المسلحة الالمانية الى العراق وغيره من البلدان العربية (٤٠) .

تم تنفيذ توجيهات هتلر وامر براوخيتش . ففى شباط (فبراير) ١٩٤٠ عقد هالدر مداولة مستطيلة جديدة مخصصة للشرق الادنى . وفى الاشهر الثلاثة المنصرمة ، حسّن العاملون فى الاركان العامة الهتلرية خطة براوخيتش الاولية . وبينما لم يكن امر براوخيتش الاول الصادر فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٩ ينص الا على وضع خطة عملية «الجنوب — الشرق» اى خطة اقتحام العراق عبر بلغاريا وتركيا ، بحثت المداولة الاخيرة كذلك خطة عملية ثانية — خطة عملية «القفقاس» التى تنص على اقتحام العراق من الشمال الشرقى ، عبر القفقاس وايران (٤١) .

هكذا تحققت افكار مذكرتى نيدرماير واوبنهايم . والواقع ان التقرير فى مداولة شباط (فبراير) فى هيئة الاركان العامة وضعه واحد من اقرب معاونى هالدر ، هو الجنرال ميت ، يدل على الاهمية التى انيطت بعملية «القفقاس» .

تنبغى الاشارة الى ان الخطة كانت موضع بحث عند هالدر فى شباط ١٩٤٠ اى قبل شهرين من اقتحام القوات المسلحة الالمانية للدانمارك والنروج ، وقبل ثلاثة اشهر من اقتحامها لهولندا وبلجيكا وفرنسا . كان العاملون فى هيئة الاركان العامة الالمانية غارقين لما فوق رؤوسهم فى غمرة الهموم والقضايا والمشاكل ، ومع ذلك عكفت هيئة الاركان العامة بكل جد وسرعة وهمة ، تنفيذا لتوجيهات هتلر والاحتكارات الالمانية ، على تخطيط احتلال الشرق الاسلامى . وهذا ما يؤكد مرة اخرى دور هذه المنطقة فى نشـــوب الحرب العالمية الثانية .

فى شباط (فبراير) ١٩٤٠ لم تحظ خطة اقتحام الشرق الادنى بالمصادقة النهائية فى المداولة المعقودة فى هيئة الاركان العامة . فقد تبين ان هجوم القوات المسلحة الالمانية فى اتجاهين — من

الشمال الغربى ومن الشمـــال الشرقى - لا يكفى لاحتلال الشرق الادنى كله بسرعة . فتقرر اضافة رأس جسر ثالث - هو الاتجاه من الجنوب الغربى . وامر هالدر الجنرال ميت ان يعدل خطة اقتحام البلدان الاسلامية ، بحيث تهاجم التشكيلات الالمانية من المدرعات والدبابات فى ثلاثة اتجاهات - عبر بلغاريا وتركيا الى العراق ، عبر منطقة ما وراء القفقاس وايران الى العراق ، عبر ليبيا ومصر وفلسطين الى شرقى الاردن والعراق . وهكذا صار العراق النقطـة المركزية فى ستراتيجية الجنرالات الالمان المتراكزة الثلاثيـــــة الاتجاه (٤٢) . وبجانب الجنرالات بذل الديبلوماسيون والجواسيس الالمان قصارى الجهد لتنفيذ الخطط العدوانية للاحتكارات الالمانية فى الشرق الادنى . وقد اولوا العراق اهتماما خاصـــا ايضا نظرا لثرواته البترولية وموقعه الستراتيجى ، فى وسط الشرقين الادنى والاوسط .

فى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ، اى فور بداية الحرب العالمية الثانية ، قطع العراق علاقاته الديبلوماسية مع المانيا تحت ضغط بريطانيـــا ، الامر الذى كان لا بـــد له ، برأى المستعمرين البريطانيين ، ان يضعف مواقع اعدائهم فى عموم العالم العربى لان السفارة الالمانية النازية فى بغداد برئاسة غروبا كانت قد امست من زمان مركزا للمؤامرات ضد البريطانيين فى الشرق الاسلامى . وعدا ذلك ، لم تتنفذ خطة غروبا القاضية بالانتقال مع جميـــع العاملين فى السفارة ، الى العربية السعوديـــة . فان البريطانيين البعيدى النظر ارسلوا جميع العاملين فى السفارة الالمانيـــة الى ايطاليا عن طريق بيروت والاسكندرية .

فى السنوات الاولى من الحرب ، كان وضع العراق السياسى والاقتصادى متوترا جدا . فان الامزجة المعادية للامبرياليـــة ، المتسمـــة بالعداء للانجليز ، كانت تشتد باستمرار . وفى هذه الحال ، لم يستطع الاقطاعى والرجعى نورى السعيـــد ان يحتفظ بالسلطة . وفى آذار (مارس) ١٩٤٠ صار رشيد عالى الكيلانى الذى يحظى بتأييد قسم كبير من الجيش رئيسا للوزارة . وسرعان ما اشتركت الديبلوماسية الالمانية فى اللعبة . فان السفير الالمانى فى انقره فون بابن قد اقام اتصالا مع مندوبى الحكومة العراقيـــة

الذين وصلوا الى انقره ، ووعدهم بالدعم الاقتصـــادى والسياسى والعسكرى الشامل فى حال وقوف العراق ضد انجلترا .

كذلك ايطاليا الفاشية ، حليفة المانيا النازية ، عززت كثيرا نشاطها فى الشرق العربى وبخاصـــة فى العراق . ولهذا طلبت الحكومة البريطانية من الكيلانى ، فى حزيران ١٩٤٠ ، اى بعد دخول ايطاليا الحرب ، قطع العلاقات الديبلوماسية مع ايطاليا ، فاثار هذا الطلب ترددات جدية فى بغداد خصوصا وان الحكومة التركيـــة المرتبطة مع العراق بحلف سعدآباد المعقود عام ١٩٣٧ ، رفضت طلبا مماثلا تقدمت به بريطانيا واوجدت بالتالى سابقة ملائمة لاجل السلطات العراقية .

فى تموز (يوليو) ١٩٤٠ ، زار الجاسوس الانجليزى الشهير العقيد نيوكومب بغداد . وكان نيوكومب ابان الحرب العالمية الاولى يعمل بقيادة لورنس ويقوم باعمال التخريب على سكة حديد الحجاز . وقد حاول ان يحمل حكومة رشيد عالى الكيلانى على قطع العلاقات الديبلوماسية مع ايطاليا مستغلا لهذا الغرض معارفه القديمة . الا ان الحكومة العراقية عرضت الصفقة التالية . فقد وافقت ، لا على قطع العلاقات الديبلوماسية مع ايطاليا التى كانت قد اثارت كبير الاستياء فى العالم العربى بسبب اعمالها الوحشية فى ليبيا وحسب ، بل ايضا على اعلان الحرب على ايطاليا ، شرط ان تعد الحكومـــة البريطانية وعدا قاطعا بتأسيس دولة عربية مستقلة فى فلسطين وتمنع فورا هجرة اليهود الى فلسطين (٤٣) . وهذا العرض هـــو دليل آخر على ان مصير عرب فلسطين كان آنذاك ايضـــا يشغل كثيرا بال العرب فى العالم اجمع .

الا ان تشرشل الذى كان قد اصبح للتو رئيسا لوزراء بريطانيا العظمى ، رفض الاقتراح العراقى رفضا قاطعا . وبعد الحرب فقط ، صار معلوما ان تشرشل قد عقد اجتماعا سريا مع رئيس اللجنـــة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية وايزمن قبل ذلك بنصـــف سنة ، اى فى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٩ عندما كان وزير البحرية الحربية البريطانية . فردا على قول وايزمن : «بعد الحرب سنؤسس فى فلسطين دولة يتراوح عدد سكانهـــا بين ٣ و٤ ملايين يهودى» ، اجاب تشرشل : «طبعا . انا موافق تمامـــا على

هذا» . وبذلك جاء تشرشل في ١٩٣٩-١٩٤٠ يعمق ويشدد مأساة الشعب العربي الفلسطيني التي بدأت بوعد بلفور في سنة ١٩١٧ بانشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين . وهكذا ، عاد دور كبير في تأزم العلاقات البريطانية العراقية في تلك السنين ، لا الى السياسة الاستعمارية البريطانية في العراق وكره الشعب العراقي للمستعمرين البريطانيين وحسب ، بل ايضا الى تحالف الامبريالية البريطانية مع الصهاينة ، وتعويلهم على تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وكل هذا استغله النازيون الالمان على نطاق واسع ، رغم انهم اسهموا هم انفسهم سرا بقسط كبير في توطيد مواقع الصهاينة في فلسطين المعذبة .

في غضون سنة ١٩٤٠ كلها ، اعد الامبرياليون الالمان ونفذوا عمليات هجومية ضد القوات المسلحة البريطانية والفرنسية في اوروبا الغربية ولكنهم لم ينسوا لحظة ممتلكات بريطانيا وفرنسا والاراضي الخاضعة لانتدابهما في العالم العربي . وفضلا عن التغلغل في العراق وفلسطين ، حاول الهتلريون ان يعززوا مواقعهم في مصر وبخاصة في سوريا . ذلك ان سوريا كانت تشغل المواقع الاساسية في الطرق الى بترول الموصل وفي مشارف قناة السويس . ولكن تحقيق خططهم الاغتصابية المتعلقة بسوريا كانت تصعّبه علاقات الهتلريين مع الفاشيين الايطاليين ومع المستعمرين الفرنسيين الذين اتخذت حكومتهم برئاسة الماريشال بيتان من فيشي مقرا لها والذين كانت قواتهم لا تزال تحتل سوريا ولبنان بعد هزيمة فرنسا واستسلامها في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ .

وهكذا تشابكت التناقضات القومية الاجتماعية والدينية والتناقضات بين الامبرياليين في الشرقين الادنى والاوسط عند بداية الحرب العالمية الثانية في كبة معقدة ، زائدة شدة على شدة من الوضع المرهق الذي عاناه ملايين المسلمين فيما مضى خلال قرون من جراء اضطهاد الاقطاعيين الاتراك والاقطاعيين المحليين والكومبرادوريين المحليين ، وعانوه خلال العقود الاخيرة من السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية من جراء تفاقم استثمار وطغيان المستعمرين الغربيين والصهاينة .

٥ ــ فشل الخطط الاغتصابية للفاشية الالمانية
فى الشرق الاسلامى ابان الحرب العالمية الثانية

منذ بادئ بدء الحرب العالمية الثانيـــة ، اى عندما اقتحمت الفرق الالمانية بولونيا ، وخاضت الاوساط الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا «الحرب الغريبة» قبيحة الصيت ضد المانيا ، متظاهرتيـن فى الواقع بخوض العمليات الحربية فى اوروبا الغربيـــة ، بدأت بين برلين وروما مفاوضات مكثفة بصدد دخول ايطاليا الحرب . وفى ٢٦ آب (اغسطس) ١٩٣٩ ، اى قبل ستة ايام من بدايــــة الحرب ، اصر هتلر فى رسالة الى موسولينى على ان تشرع ايطاليا فى تعبئة جزئية ، وتقوم بمناورات واسعة النطاق فى اثيوبيا التى تحتلها وفى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط لكـــى تجمد بالتالى فى هذه المنطقة قوات الحلفاء الغربيين البريـــــة والبحرية ، ولاسيما منها قوات بريطانيا . وفى سياق المفاوضات اللاحقة بين ديبلوماسيى البلدين ، اكد الجانب الايطالى غير مرة ان الاعتراف بهيمنة مواقع ايطاليا فى مصر ومنطقة قناة السويس والجزيرة العربية ولبنان وحوض بحر ايجه شرط من اهم شروط اشتراكها فى الحرب . وهذه المسألة كانت موضع بحث مفصـــل فى ١٨ آذار (مارس) ١٩٤٠ اثناء اجتمـــاع الديكتاتورين هتلر وموسولينى .

سعيا لحمل ايطاليا الفاشية على دخول الحرب ، ضمن هتلر والقيادة النازية الالمانية تنفيذ هذا المطلب . وفى الاشهر الاولى التى اعقبت دخول ايطاليا الخرب (١٠ حزيران - يونيو ١٩٤٠) ، كفت المانيا موقتا عن القيام باى نشاط فى بلدان الشرق . ولجنة الهدنة ، التى انشئت فى بيروت بعد استسلام فرنسا للاشراف على تنفيذ شروط الهدنة فيما يتعلق بهذه المنطقة ، وضعت تحت مراقبة ايطاليا .

ولكن حين اتضح فى اواخر صيف ١٩٤٠ ان عملية «الاســـد البحرى» — اى خطة انجاز الحرب فى الغرب بالنزول فى بريطانيا — ستمنى بالفشل ، قرروا فى برلين ان ينشطوا سياستهم فى الشرق الادنى محاولة منهم لتسديد ضربة الى العدو البريطانى من طرف آخر ، من الطرف الآسيوى . وقد سجل هالدر فى «مفكرته الحربية»

انه بحث مع براوخيتش بالتفصيل فى ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٤٠ التدابير التى يجب اتخاذها لتنشيط العمليات الحربية ضد بريطانيا ، نظرا لفشل واستحالة النزول فى بريطانيا . وقد تقرر ان تشمل التدابير التى يتعين على القوات المسلحة الالمانية ان تنفذها على الفور ما يلى : «الهجوم على الانجليز فى منطقة حيفا ؛ الهجوم على قناة السويس» (٤٤) . وتدل وثائق كثيرة لهيئة الاركان العامة الالمانية ولوزارة الخارجية الالمانية على انه كان ينبغى تنفيذ هذه الخطط ، لا عبر مصر وحسب ، بل ايضا عبر سوريا .

وللحيلولة دون تعقد العلاقات مع ايطاليا ، حاولت الهيئات الديبلوماسية الالمانية والهيئات الجاسوسية الالمانية فى الآونة الاولى من تنفيذ هذه الخطط ان تنسق جزئيا اعمالها مع الايطاليين . ذلك انهم ظلوا فى روما يصورون موسولينى بصورة «حامى» الاسلام . وكانت محطة الاذاعة الايطالية القوية فى بارى تذيع يوميا مدة ٤-٥ ساعات باللغة العربية وتذكر مستمعيها العرب بدأب وانتظام بان موسولينى تمنطق «بسيف اسلامى» فى سنة ١٩٣٧ عندما زار طرابلس الغرب ، وانه وعد بالنضال من اجل حرية المسلمين (٤٥) . وبعد مفاوضات طويلة بين المانيا وايطاليا بصدد السياسة فى آسيا ، خلص الطرفان الى القول بعقلانية نشر وثيقة خاصة بشأن الموقف من بلدان العالم العربى وشعوبه ، الامر الذى كان لا بدّ له ان يحفز نهوض الحركة المعادية للانجليز فى هذه البلدان . وقد حلت هذه المسألة نهائيا فى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠ اثناء اجتماع هتلر وموسولينى فى منطقة معبر برينر .

تنفيذا لهذا الاتفاق ، اعدت المانيا وايطاليا بيانا مشتركا بدعمهما لحركة التحرر الوطنى العربية وبضمان استقلال البلدان العربية بعد الحرب . وهذا البيان سلمه فايتسيكر ، نائب وزير الخارجية الالمانية فى ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠ ، الى كمال حداد ، الامين الشخصى والوكيل المفوض لمفتى القدس امين الحسينى ؛ وكان امين الحسينى قد ارسله بمهمة خاصة الى برلين وروما . وقد جاء فى الفقرة الاخيرة من هذا البيان الذى اذيع فى

اليوم نفسه من محطة الاذاعة فى برلين باللغة العربية : يوسع البلدان العربية ان تعتمد مستقبلا ايضا فى نضالهـا من اجل الاستقلال على دعم المانيا التام . ان المانيا تدلى بهذا البيـان بالاتفاق التام مع حليفتها الايطالية . كذلك اذاع راديو بارى فى اليوم نفسه نص البيان واوضح الفقرة الاخيرة كما يلى : يوسع البلدان العربية ان تعتمد مستقبلا ايضا فى نضالهـا من اجل الاستقلال على دعم ايطاليا التام . ان ايطاليا تدلى بهذا البيـان بالاتفاق التام مع حليفتها الالمانية . وبهذه الصيغة الثانية احيل نص البيان الصادر فى ٢٣ تشرين الاول ١٩٤٠ الى كمال حداد فى روما باللغة الايطالية (٤٦) .

كل هذا يدل على ان التطاحـن بين الحليفتين – المانيـا وايطاليا – بسبب النفوذ فى بلدان العالم الاسلامى قد دخل مرحلة جديدة . ولكن هذا لم يمنع جهاز الدعاية وجهاز التجسس فى كل من البلدين من الاستفادة الى اقصى حد من البيان لاجل تقويـة الحركة المناهضة للانجليز فى بلدان العالم العربى ، علما بـان الايطاليين اولوا مصر اهتماما خاصا لان قوات المارشال غراتسيانى المرابطة فى ليبيا بدأت فى ايلول (سبتمبر) ١٩٤٠ هجومـا من منطقة سيدى بّرانى على المواقع الانجليزيـة فى جوار الحدود المصرية .

فى خريف ١٩٤٠ ، بدأت الاوساط العسكرية الالمانية تهتم كبير الاهتمام باستخدام رأس الجسر فى الشرق الادنى لاجل توجيه ضربة جديدة الى العدو البريطانى الذى استطاع ان يحـول دون اقتحام بريطانيا مباشرة .

فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ وكانون الثانى وشبـاط وآذار (يناير وفبراير ومارس) ١٩٤١ ، كانت مسألة الموقف من حركة التحرر الوطنى العربية وبخاصة من سوريا موضع مناقشات ومباحثات عديدة فى الاوساط الحاكمة الالمانية . وفى حديث مع احد القادة بوزارة الخارجية الالمانية – ميلخرس – فى ١٥ كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ ، اعلن ممثل القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية العقيد لوسبرغ ان هيئة الاركان العامة تعلق اهميـة بالغة على احتلال العالم العربى كله وتعتبر «ابن سعود عاملا قيما

جدا فى هذه اللعبة» . وقد تناول الحديث مشروع تأسيس دولة اسلامية تابعة تمتد من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربى (وطبعا بحماية المانيا) برئاسة ابن سعود .

ولكن وزارة الخارجية الالمانية عارضت هذا المشروع بحزم وعزم . فان تحقيق هذا المشروع ، كما يتضح من المذكرات السرية التى وجهها فيرمان ، نائب وزير الخارجية الالمانية ، الى ريبنتروب ، وزير الخارجية الالمانية ، كان مستحيلا للاسباب التالية : اولاً ، كانت ايطاليا تعارضه قطعا لانها كانت تدعى بالاستيلاء على قسم من هذه الاراضى ؛ ثانيا ، من شأن ذلك ان يخلق تعقيدات فى العلاقات مع المستعمرين الفرنسيين الذين اتخذوا من فيشى مقرا لهم ، والذين كانوا يدعون بالحفاظ على سيادتهم فى سوريا ولبنان ؛ ثالثا ، من شأن دعم حركة التحرر الوطنى العربية ، وان شكلا ، ان يحرم الديبلوماسية الالمانية فى انقره حرية المناورة كما يعتقد فيرمان وفون بابن لانه «. . . سيتعين فى ظروف معينة اعطاء تركيا قسما من سوريا» (٤٧) .

هذه هى الديبلوماسية الهتلرية بوجهها الحقيقى ، وهذا هو ثمن تأكيدات ممثليها على سعى الاوساط الحاكمة الالمانية الى دعم حركة التحرر العربية . يرد عفوا فى البال اجراء مقارنة مع التعهدات الانجليزية بدعم حركة التحرر الوطنى العربية فى سنتى ١٩١٥ و١٩١٦ ومع التوقيع فى الوقت نفسه على اتفاقية سايكس – بيكو المخزية فى ١٩١٦ ووعد بلفور فى سنة ١٩١٧ .

وبينما اقترح فيرمان تحويل سوريا الى موضوع للمساومة مع المستعمرين الفرنسيين ومع الاوساط الرجعية فى تركيا ، آملا ، حسبما يبدو ، فى ان يحمل تركيا بذلك على دخول الحرب الى جانب دول «المحور» ، كان لاوبنهايم رأى مغاير . ففى مذكرة جديدة بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤١ ، ارسلها الى ريبنتروب وهتلر ، حاول ان يبرهن انه يجب على الحكومة الالمانية ان تركز جلّ اهتمامها على مصالحها الخاصة فى سوريا لان سوريا تشغل موقعا مركزيا فى الشرق الادنى . واقترح اوبنهايم الاسهام فى تأسيس دولة عربية كبيرة فى الشرق الاسلامى وكتب صراحة يقول : «فى هذه الدولة سنلعب منذ بادئ بدء الدور السائد» (٤٨) .

وهكذا نحو ربيع ١٩٤١ ، كانت المسألة السورية ، بل المسألة العربية كلها موضع بحث نشيط جدا فى الاوســاط الحاكمة فى المانيا الهتلرية . كانت هناك وجهتا نظر — اما تحويل البلدان العربية الى موضوع للمساومة اثناء المفاوضات مع ايطاليا وفرنسا وتركيا ، واما انشاء محمية المانيـــة فى الشرق الادنى من عدد من الدول والاراضى العربية . وقد سبق ان اشرنا الى ان هيئة الاركان العامة الالمانية كانت تؤيد وجهة النظر الثانية وانها كانت تميل الى وضع هذه المحمية تحت سلطة الاقطاعيين السعوديين الاسمية .

نحو ربيع ١٩٤١ اشتد الاهتمام بالشؤون العربية فى اوساط الجنرالات الالمان لجملة من الاسباب الستراتيجية . وفى ٥ شباط (فبراير) ١٩٤١ ، ارسلت القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية (التى تأتى ، كما هو معلوم ، فوق هيئة الاركان العامة وفوق قيادة القوات المسلحة البرية) مذكرة الى ريبنتروب اصرت فيهـــا على تنشيط السياسة الالمانية فى العالم العربى بسرعــــة وحدّة . وبالفظاظة البروسية المحضة ، اعرب الفلدمارشال كيتل واعوانــه عن الاستياء من الاتفاقية الالمانية الايطالية المعقودة سنة ١٩٤٠ ، والتى منحت ايطاليا حرية التصرف فى عموم حوض البحر الابيض المتوسط ، وطالبوا بالغائها حالا . ان سعى الطغمة العسكريـــة الالمانية الى حرية التصرف فى الشرق العربى كان وثيق الصلـــة باعداد العدوان على الاتحاد السوفييتى وكذلك باحداث العراق .

ففى النصف الثانى من سنة ١٩٤٠ ، ازداد الوضع السياسى والاقتصادى فى العراق تعقدا . وتعاظمت امزجـــة العداء للانجليز فى البلد ، واشتدت دسائس العملاء النازيين والفاشيين . وفى الوقت نفسه تنشطت الامبريالية البريطانية كثيرا فى سعيها الى الاستفادة من موارد البترول وطرق النقل فى العراق لاجل نقـــل القوات المسلحة من الهند الى الشرق الادنى . ثم ان فون بابن الذى اقام اتصالات مع الممثلين العراقيين فى انقره حاول بجميع الوسائل ان يستحثهم على القيام بعمل مسلح ضد بريطانيا . الا ان رئيس الوزارة العراقية رشيد عالى الكيلانى وقادة الجيش العراقى طالبوا المانيا ، من جهتهم ، بضمانات سياسية وعسكريـــة على السواء ، قبل ان يوافقوا على هذا العمل المسلح . ففى كانون الثانى

(يناير) ١٩٤١ ، مثلا ، اثناء جولة جديدة من المفاوضات الالمانية العراقية السرية فى العاصمة التركية ، طالب الجانب العراقى ، رداً على اقتراح فون بابن بالعمل على الفور ضد بريطانيـــا ، لا بمساعدة عسكرية ومالية كبيرة وحسب ، بل ايضا بتعهد المانيا رسميا بتحرير سوريا كليا من قوات الاحتلال التابعـــة لفيشى وبانشاء حكومة وطنية فى سوريا (٤٩) .

ولكن حكام المانيا كانوا يضمرون نوايا مغايرة تماما حيـــال سوريا ، ولهذا رفضـــوا فى برلين حتى ان يسمعوا باستقلال سوريا . اما فيما يخص العراق ، فقد جاء فى التوجيهات الى فون بابن ان مهمته الرئيسية «كسب ثقة الحكومة العراقية لكى يسدد العراق الضربة فى الوقت الذى يجعل فيه الوضع الحربى والسياسى العام تلك الضربة مناسبة . وحين تطأ قواتنا الارض العربية ، او حين تحل لحظة انحلال الامبراطورية البريطانية ، فان العراق سيتمكن من تقديم خدمات ثمينـــة لنا» (٥٠) . وهكذا كانوا فى برلين يخصصون للقادة العراقيين دور عملاء للاحتكارات الالمانية والطغمة العسكرية الالمانية .

ان هذه الاعمال التى قامت بها الديبلوماسية الالمانية كانت تتطابق كليا مع نظرات هتلر الى دور شعوب الشرق الادنى ومكانها فى ستراتيجيـــة دول «المحور» . فقد تكلم هتلر فى ٢٢ آب (اغسطس) ١٩٣٩ امام قادة كبريات التشكيلات فى القوات المسلحة الالمانية ، فأعلن بوقاحة : «اننا سنحث العرب فى المستقبل ايضا على الاضطرابات . وينبغى لنا ان نحاكم مثل الاسياد ونرى فى هذه الشعوب فى افضل الاحوال انصاف قرود مدهونة باللـــك يلزم السوط حيالها» (٥١) .

ولكن حين كانت الدوائر المعنيـــة فى برلين تبحث مختلف الصيغ للاستيلاء على الشرق العربى ، كانوا فى لندن ايضا على احتراس ويقظة . وكان العملاء البريطانيون مطلعين على المفاوضات بين رشيد عالى الكيلانى وممثليـــه وبين المفوضين الهتلريين . ولهذا تسنى للديبلوماسييـــن والجواسيس البريطانيين فى ٣١ كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ اسقاط حكومة رشيد عالى الكيلانى . وفى آذار (مارس) استدعى وزير الخارجية العراقيـــة الجديد الى

القاهرة وكان قد وصلها وزير الخارجية البريطانية آنذاك انطونى ايدن . وقد فسر ايدن المعاهدة الانجليزية العراقية لعام ١٩٣٠ تفسيرا حرا جدا وطلب عمليا ، باسم تشرشل ، الحق فى احتلال العراق كله من قبل القوات البريطانية . وفى الوقت نفسه كانت السفارة البريطانية فى بغداد تحيك شتى الدسائس الراميـــة الى عزل قيادة الجيش العراقى عن الرأى العام العراقى ، والى تحويل العراق من جديد ، بحجة «انقاذ العراق من الخطر الالمانى» ، الى شبه مستعمرة بريطانية كما كان الحال قبل سنة ١٩٣٠ .

جاء رد الفعل فى برلين على احداث العراق حادا جدا . فـــان القمة الحاكمة الهتلرية لم ترغب فى الاعتراف بانها فوتت فرصـــة مغرية لاستغلال رأس الجسر العراقى فى النضال ضـــد العدو الانجليزى فى الشرق العربى . وبعد ستة ايام من سقوط حكومة رشيد عالى الكيلانى ، انعقدت فى ٦ شباط (فبراير) ١٩٤١ ، فى مقر اركان الابفير فى برلين ، مداولة سريـــة لقيادة المخابرات العسكرية وكبار المسؤولين بوزارة الخارجية الالمانية . وتناول البحث الوضع فى العراق وفى الشرق الادنى اجمالا . والقى غروبا التقرير الرئيسى ؛ وكان غروبا قد اصبح ، بعد بدايـــة الحرب وسفره الاضطرارى من بغداد ، رئيسا «للجنة العربية» فى وزارة الخارجية الالمانية . كذلك كان يتحمل شخصيا المسؤوليـــة عن الحفاظ على الاتصالات مع الشخصيات الموالية لالمانيا فى العراق وسائر البلدان الاسلامية . وبالاتفاق مع ريبنتروب ، اقتـــرح الاميرال كاناريس وضع خطـــة موحدة للاجراءات السياسيـــة والديبلوماسية والدعائية والتخريبية فى الشرق العربى . وعهد الى غروبا بتنسيق اعمال الابفير ووزارة الخارجية الالمانية فى هذه المنطقة . كذلك تقرر تشديد النشاط الرامى الى اعداد انتفاضات معادية للانجليز فى العراق وفلسطين وشرقى الاردن (٥٢) .

كانت الابفير ووزارة الخارجية على السواء تعلقان آمالا كبيرة على مفتى القدس الحاج امين الحسينى الذى كانت الديبلوماسيـــة الالمانية تقيم معه علاقات وثيقة منذ سنة ١٩٣٧ . وفى ربيـــع ١٩٣٩ فر امين الحسينى من فلسطين الى لبنان ؛ ومنذ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ عاش فى بغداد . واستغل المفتى مشاعر

العطف العميق فى العالم العربى بأسره ولاسيما بين سكان العراق ، على نضال عرب فلسطين التحررى ، فقام بنشاط دعائى وسياسى كبير . وانشأ فى بغداد هيئة اركان تابعة له ضمت مستشارين فى الشؤون السياسية والدينية وفى شؤون السياسية الخارجية ، وفى شؤون الصحافة والدعاية ، واخذ يتدخل فى شؤون العراق الداخلية . وقد اعلن المفتى بعـــد فترة وجيزة من وصوله الى بغداد ، مخاطبا فريقا من الساسة العراقيين : «لقد اقترفتم خطأ كبيرا بقطع العلاقات الديبلوماسية مع المانيا» . وتحت قيادته انشئت «لجنة تعاون البلدان العربية» التى انضم اليها بعض من زعماء المنظمات القومية العربيـــة فى العراق وسوريا وفلسطين وشرقى الاردن . ورغم استياء انجلترا الكبير ، اضطرت الحكومة العراقية ، نظرا لبالغ شعبية شعار تحرير فلسطين ، الى منح المفتى سنويا ورسميا معونة مالية مجانية قدرها ١٨ الف جنيه استرلينى ، عدا مبلغ الف جنيه استرلينى كانت تدفعه له شهريا بصـــورة سرية . ولكن ايرادات المفتى لم تقتصر على ذلك . فمنذ سنـــة ١٩٣٩ اخذ يتلقى سنويا من المانيا معونة سرية قدرها اكثر من مائة الف جنيه استرلينى . كذلك كانت تتدفق عليـــه معونات مالية مجانية عن طريق السفارة الايطالية فى بغداد ، التى كانت لها مصلحة كبيرة فى توسيع الدعايـــة ضد الانجليز فى الشرق العربى (٥٣) . وقد اتاح الاتصال الوثيق مع المفتى للهتلريين ان يقوموا بالنشاط الهدام فى الشرق الادنى . وتدقيقـــا لخطط المداولة التى انعقدت فى مقر الابفير ، قدم ماكس اوبنهايم فى الشهر ذاته مذكرة الى غابيخت ، نائب وزير الخارجية الالمانية ، كتب فيها : «فضلا عن ازاحة الامير عبد الله الموالى للانجليز فى شرقى الاردن ، يجب تنظيم فتنـــة فى فلسطين . ومن الصائب وضع المفتى على رأس الحكومة الجديدة» (٥٤) .

فى ٥ آذار (مارس) ١٩٤١ ، احيلت الى هتلر مذكرة غروبا : «اهمية البترول لاجل العمليات الحربية لدول المحور» . وقد جاء فيها : «ان هجوم دول المحور برا على قناة السويس (اسطمبول — السويس ٢٥٠٠ ك م) لا يمكن ان تقوم به غير وحدات آليـــة بمساندة الطيران . ولكنها مرهونة بالتزويد بالوقود . وبما ان نقل

الوقود الضرورى بحرا او جوا غير ممكن ، فانه يتعين استغلال مصادر البترول فى العراق . ولهذا يجب الاستيلاء على مصـــادر البترول هذه وكذلك على خطوط انابيب البترول ، اولا الخط الذى ينتهى فى طرابلس ، ثم الثانى الذى ينتهى فى حيفا ، واخيرا ، على مصانع تكرير البترول فى طرابلس وخانقين وحيفا» . وختاما اكد غروبا ان الشرط المسبق لشن العمليات الحربية فى الشرق الاسلامى هو امتلاك مناطق البترول فى العراق . وهكذا وضعت مسألة الاستيلاء على العراق فى جدول الاعمال من جديد (٥٥) .

احدثت مذكرة غروبا انطباعا كبيرا فى الاوساط الحاكمـــة الالمانية خصوصا وانها كانت تعكس رأى قادة هيئة الاركان العامة والقيادة العليا فى القوات المسلحة الالمانية . وتدخل ريبنتروب فى اللعبة ، متخوفا ، وليس بدون مبرر ، من ان التباطؤ وبعض التردد اللذين ابدتهما دائرته فى الشؤون العربية وبخاصـــة فى المسألة العراقية ستثير استياء هتلر الجدى فيلقى عليه المسؤولية عن تمكن الانجليز من اخذ الثأر فى بغداد .

فى ٢١ آذار (مارس) ١٩٤١ ، اصدر ريبنتروب تعليمـــات الى جهازه ومندوبيه السريين فى الشرق العربى «ببذل كل ممكن لتأمين دخول العراق الحـــرب فى القريب العاجل الى جانب دول المحور» (٥٦) . وفى ٢٤ آذار ، انعقـــدت عند فيرمان ، نائب ريبنتروب ، مداولة سرية اشترك فيها قادة وزارة الخارجية وهيئة الاركان العامة والاميرال كاناريس . وكانت فى جدول الاعمـــال مسألة واحدة هى اعداد وتنفيذ مجموعة واسعـــة من الاجراءات الضرورية لاجل استثارة نزاع انجليزى عراقى . وتناول البحث القضايا المتعلقة بارسال السلاح سرا الى العراق ، وتنظيم انتفاضات فى فلسطين وشرقى الاردن (كانت مذكرة اوبنهايـــم قد اقترحت القيام بها) لاجل تجميد التشكيلات العسكرية الانجليزية المتواجدة هناك ، وكذلك القيام باعمال تخريبيـــة فى سائر مناطق الشرق العربى . وجرى فى المداولة توزيع الادوار بين جميع الهيئـــات المعنية . كذلك تقرر بدء مفاوضـــات مع السفير اليابانى فى برلين ، الجنرال اوسيما ، بشأن استخدام سفن اليابان المحايدة

آنذاك وبريدها الديبلوماسى لاجل ايصال السلاح والذخائـــــر والديناميت الى الشرق الادنى (٥٧) .

كان المستعمرون البريطانيون يتتبعون بانتباه الوضـــع فى الشرق الادنى ، ودسائس الدول الفاشيـــة وعملائها الكثيرين فى العراق وسائر البلدان العربية . واخذت السفارة البريطانيـــة فى بغداد تطالب بالحاح بالاستعاضة عن جميع كبار الموظفين ذوى الميول الوطنية . وبحجـــة خطر الحرب من جانب دول «المحور» ، ارادات الاوساط الحاكمة البريطانيـــة ان تعيد العراق الى زمن الانتداب ، وان تفرض من جديد فى العراق حقوقها الاستعمارية .

كل هذا قابلته الاوساط المعادية للاستعمار ، وفى المقام الاول بينها اوساط الضباط العراقيين ، بمقاومة متعاظمة .

فى ليلة الاول الى الثانى من نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، حدث انقلاب فى بغداد . ففر العملاء الانجليز . وتشكلت حكومة برئاسة رشيد عالى الكيلانى الذى كان يتمتع بدعم قسم كبير من الجيش . فى صباح الثانى من نيسان هرب الى البعثة الاميركيـــة فى بغداد وصى العرش العراقى عبد الاله ، مرتديا لباسا نسائيا ؛ وكان قد اطيح به ليلا ، وكان عميلا قديما واخطر عميل للامبرياليـــــة البريطانية فى العراق . اسرع السفير الاميركى كنابنشو بالموافقة على منحه ملجأ فى مبنى البعثة . وسرعان ما عمد كنابنشـــو ، بعد التشاور مع السفارة البريطانية ، الى لف عبد الاله فى سجادة كبيرة واخفائه فى سيارة السفارة . ثم ساق السفير الاميركى نفسه السيارة واخذ معه زوجته «لاجل التمويه» ، كما كتب فى تقرير رسمى ، ونقل عبد الاله الى القاعدة العسكرية البريطانيـــة فى الحبانية ؛ ومن هناك نقلوا عبد الاله على الفور الى الشعيبة (٥٨) .

ان تصرفات كنابنشو الوقحة هذه التى تخالف القانون الدولى قد حظيت بتحبيذ وزارة الخارجية الاميركيـــة وانقذت عميلا من اكره عملاء الامبريالية فى العالم العربى . بعد فترة وجيزة اعاد البريطانيون عبد الاله الى منصبه ، فأغرق العراق فى الدماء على امتداد ١٧ سنة ، حتى ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، وكان من اهم منفذى السياسة الاستعمارية البريطانية فى الشرق العربى . ان انقاذ جلاد الشعب العراقى هذا فى سنة ١٩٤١ هو من الوقائـــع

المميزة فى ميدان «الصداقة» الاميركية العربية التى سنعود اليها لاحقا بمزيد من التفصيل .

ان احداث نيسان (ابريل) ١٩٤١ قد ركزت انتباه الاوساط الحاكمة فى الكتلتين الامبرياليتين على بغداد من جديد . وسعت كل كتلة الى استغلال هذه الاحداث فى مصلحتها . بعد مرور يومين على الانقلاب ، وصل الى بغداد السفير البريطانى الجديد كورنوولليس . ان تعيينه هو بالذات فى ذلك الوقت فى هذا المنصب كان يدل على مقاصد الحكومة البريطانية بقدر لا يقل عن التوجيهات السرية التى تلقاها . فان هذا الموظف القديم فى الجهاز الاستعمارى البريطانى فى السودان ومصر قد ترأس فى حقبة من الزمن ابان الحرب العالمية الاولى «المكتب العربى» فى القاهرة ، مركز المؤامرات واعمال التخريب البريطانية فى الشرق العربى . وفى الثلاثينيات كان «مستشارا» لدى وزير الداخلية العراقى ، اى انه كان يشرف على كل الجهاز البريطانى لمكافحة الجاسوسية ، لا فى العراق فقط ، بل ايضا فى البلدان المجاورة للعراق . وقد اكتشف المؤلف فى مواد السفارة البريطانية السابقة فى بغداد كنيات عشرات وعشرات من الشخصيات البارزة فى الشرق العربى حاول عملاء كورنووللیس اجبارها ، بالتهويل والاستفزازات ، على التعاون . وتلقى كورنووللیس من ايدن توجيها دقيقا بعدم الاعتراف بحكومة رشيد عالى الكيلانى وبالاسهام فى اسقاطها . ومن الطريف ان كنابنشو قد شغل ، تحت ضغط الديبلوماسية البريطانية ، موقف «عدم الاعتراف» بحكومة رشيد عالى الكيلانى ، واتهم الحكومة العراقية فى اوائل نيسان باللجوء الى طرائق «غير دستورية» للوصول الى الحكم .

فى غضون الاسبوع الاول من نيسان ، احتدم صراع حاد فى الاوساط الحاكمة البريطانية حول كيفية التخلص من حكومة رشيد عالى الكيلانى . فان تشرشل الذى كانت تهمه كثيرا مصالح المساهمين فى «شركة البترول الانجلو — ايرانية» وطبعا فى «شركة نفط العراق» قد طالب بالتدخل المسلح على الفور . اما ايدن الذى اخذ الوضع الدولى بالحسبان ، فقد دعا الى الاحتراس . والموقف نفسه ، ولكن لسبب آخر ، وقفه آمر القوات المسلحة البريطانية

فى الشرقين آلادنى والاوسط الجنرال ويفل ، واثبت انه لا تتوفر له لا القوى ولا الامكانيات ، فى زحمة العمليات الحربية ضد رومل فى مصر وضد ليست فى اليونان ، لفتح جبهة جديدة — فى العراق . الا ان وجهة نظر تشرشل ، الذى كان يمثل مصالح اشد الاوساط الاستعمارية والبترولية البريطانية اغراقا فى الرجعية ، هى التى كانت لها الغلبة . كما كان ينبغي التوقع .

وفى ٨ نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، كما يشهد احد المؤلفين الاساسيين لتاريخ الحرب العالمية الثانية من عدة مجلدات «الستراتيجية الكبرى» ، البروفسور باتلر ، قدمت لجنة التخطيط الحربى السياسى لدى وزارة الحربية البريطانية تقريرا اوصت فيه «باتخاذ اية تدابير لاجل اسقاط حكومة رشيد عالى وكذلك بالطلب من قيادة القوات المسلحة البريطانية فى الهند بارسال فصيلة من العساكر الى البصرة على الفور» .

فى ٨ نيسان مساء ، صادقت وزارة الحربية على الاقتراح بانزال قوات فى البصرة و«باتخاذ اية تدابير لاسقاط رشيد عالى» . وهكذا شرعت الامبريالية البريطانية فى احتلال العراق . وقد تم ذلك شكليا لاجل استخدام طرق مواصلاته . اما فى الواقع فكان يدور الحديث فى استعباد البلاد من جديد . ومن الطريف فى هذا الصدد اعتراف باتلر ، بالاعتماد على دراسة الارشيفات ، بان المستعمرين البريطانيين كانوا يعتزمون القيام بذلك فى صيف سنة ١٩٤٠ ، اى فى زمن وجود حكومة رشيد عالى الكيلانى الاولى ، «الشرعية» فى الحكم ، ولكن هجوم القوات الايطالية على حدود مصر الغربية حال دون ذلك . ان رأى واحد من اكبر الشخصيات العسكرية فى بريطانيا العظمى هو اللواء فوللر يدل على موقف الاوساط الحاكمة البريطانية الحقيقى من حكومة رشيد عالى . فقد نعت رئيس الوزراء ، ورجل الدولة والشخصية الاجتماعية المعروفة فى الشرق العربى ، رشيد عالى الكيلانى بانه «عميل المانى مأجور» (٥٩) .

فى نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، انتقل الفاشيون الالمان ايضا الى مرحلة جديدة من العمليات الحربية فى الشرق العربى . ومع الاشارة الى ذلك ، يجب التنويه بان الانقلاب المعادى للامبريالية فى العراق

قد قامت به في اول نيسان (ابريل) ١٩٤١ قوات وطنية ، وليس البتة عملاء الالمان . فان الانقلاب قد فاجأ لندن وبرلين على السواء . ولهذا جاءت التدابير المرسومة في المداولة عند فيرمان في ٢٤ آذار (مارس) متأخرة بكل جلاء . ويقينا ان الفاشيين الالمان حاولوا على الفور ان يستغلوا احداث بغداد في مصلحتهم وان يدفعوا رشيد عالى الكيلانى الذى اجروا معه مفاوضات طوال اكثر من سنة الى نزاع حربى مع بريطانيا العظمى . فمن شأن ذلك ان يجمد القوات البريطانية في الشرق الادنى ويسهل على الفلدمارشال ليست الهجوم في البلقان ، وعلى الفلدمارشال رومل الهجوم في مصر ، ويفسح المجال امام الالمان الى بترول العراق .

ولكن تحقيق الخطط الالمانية توقف فجأة ، لا بسبب الوضع الحربى الستراتيجى في اوروبا والشرق الادنى وحسب ، بل ايضا من جراء مقاومة . . . الحلفاء الايطاليين . ففى غضون السنة التى انقضت بعد الاتفاقية المعقودة بين هتلر وموسوليني ، تغيرت نسبة القوى في داخل الكتلة الفاشية تغيرا جذريا . ففى سنة ١٩٤١ منيت القوات الايطالية مرتين بالهزيمة على الجبهة الليبية المصرية وتكبدت خسائر فادحة في اليونان والبانيا . وفى ربيع ١٩٤١ ، منى الايطاليون بالهزيمة في افريقيا الشمالية الشرقية ، ودخلت القوات البريطانية والاثيوبية اديس ابابا . وفى الوقت نفسه تقريبا - في ٢٨ آذار (مارس) ١٩٤١ ، منى الاسطول الايطالى في المعركة البحرية والجوية قرب رأس ماتابان بهزيمة ماحقة . ولهذا تخوف الفاشيون الايطاليون من ان موقف رشيد عالى الكيلانى ونشاطه ضد بريطانيا ، في ظروف توطد مواقع المانيا كثيرا سواء في داخل «المحور» او في شرق البحر الابيض المتوسط ، سيؤدى الى قيام المانيا بفرض رقابتها دون منازع على القسم الاكبر من الشرق الادنى بما في ذلك على بترول العراق الذى كان الفاشيون الايطاليون هم ايضا يطمعون فيه . وعدا ذلك ، كان من شأن وقوف العراق بنشاط الى جانب المانيا ان يسفر على الفور عن قيام علاقات ديبلوماسية بين برلين وبغداد وان يحرم ايطاليا بالتالى من افضليات وامتيازات لا مراء فيها بوصفها الممثلة الوحيدة لدول «المحور» ، لا في العاصمة العراقية وحسب ، بل ايضا في عموم

الشرق العربى . ولهذا اعرب السفير الايطالى فى بغداد ، بتوجيه مباشر من تشيانو (وزير الخارجية الايطالية) وموسولينى ، لرشيد عالى الكيلانى عن عطف دول «المحور» ، ولكنه اوصى فى الوقت ذاته بالتحلى بالتمالك والسعى الى تأجيل النزاع المسلح مع بريطانيا العظمى .

وقد اثار ذلك بالغ الاستياء فى برلين حيث كانوا لا يعتزمون البتة ، منذ اوائل سنة ١٩٤١ ، كما تدل المراسلات بين كيتل وريبنتروب ، مراعاة حسابات وآمال الشريك المستضعف ، سواء فى شؤون الشرق الادنى او فى الكثير من الشؤون الاخرى . وفى ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، اتخذت فى مداولة كبيرة انعقدت عند ريبنتروب ومخصصة كليا للشؤون العربية ، جملة من القرارات البعيدة المدى . فقد كلفوا سفير المانيا فى روما ، مثلا ، بان يصر نيابة عن هتلر على ان يقوم الديبلوماسيون الايطاليون فى بغداد بفعاليات حازمة للغاية ، كما تقرر توصية حكومة رشيد عالى الكيلانى رسميا «بالشروع فى مقاومة بريطانيا العظمى مقاومة مسلحة» باقصر الآجال . وصدرت الاوامر الى جهاز وزارة الخارجية الالمانية ببذل نشاط هدام كبير فى جميع البلدان العربية ، بما فيها المغرب والجزائر وتونس . وفضلا عن ذلك امر ريبنتروب بتحقيق هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع المصالح الديبلوماسية لاسبانيا والبرتغال (٦٠) .

وهكذا ازدادت صفوف «محررى» البلدان العربية . فالى هتلر وموسولينى وبيتان انضم فرانكو وسالازار . وجميعهم يداهنون ويتحايلون ويكذبون ويتآمرون ويزيفون الانباء بعضهم على بعض ، منتهكين التعهدات الرسمية الفخمة والاتفاقيات الشفوية والمعاهدات الموقعة فيما يتعلق بمناطق النفوذ فى العالم العربى . ولم يتجنب ذلك الاعوان الفيشيون . فان ريبنتروب قد وعد هؤلاء ، مقابل استكانتهم فى اوروبا ، بحفظ بقايا الممتلكات الاستعمارية الفرنسية ، وفى المقام الاول بينها فى العالم العربى ، ولكنه شرع يقوم بنشاط كبير فى «ضياعهم» — اى فى افريقيا الشمالية ، مختارا لنفسه جلادى شعوب افريقيا فرانكو وسالازار كحليفين !

بيد ان ريبنتروب لم يكن يثق ، لا فى تشيانو ولافال

وحسب ، بل ايضا فى زملائه بالذات . ولهذا اعطى فيرمان ، فى المداولة المذكورة المعقــودة فى ٩ نيسان (ابريـــل) ١٩٤١ ، تعليمات بانشاء هيئة استخبارات خاصة بوزارة الخارجيـــة ، عن طريق اعادة تنظيم «اللجنة العربية» التى يرأسها غروبـا ، على ان تعمل هذه الهيئة بصورة مستقلة عن الابفير وعـــن «مصلحة الامن» (س د) لدى س‌س وعن مكتب العلاقات الخارجية (برئاسة بولى) فى الحزب العمالى القومى الاشتراكى الالمانى . وامر ريبنتروب بتزويد جميع عملاء هيئة الاستخبارات الجديدة باحدث الاجهزة اللاسلكية لاجل الحصول على معلومات عن الوضع فى الشرق الادنى قبل منافسيه .

اما ان هؤلاء ، لم يكونوا مجرد منافسيـــن ، بل ايضا اعداء الداء ، فيتبيّين من مذكرات جاسوس محنك مثل فون بابن . فقـــد كتب فون بابن معددا مختلف فروع المخابرات الالمانية : «ان عمل هذه الهيئات لم يكن احد ينسقه اطلاقا وكانت دائما تقطع الطريق بعضها على بعض . وفى تركيا بلغ التنافس بينها الى حد انها كانت تشى الى البوليس التركى بعمـــلاء منافسيها» (٦١) . وفى «اللعبة» العراقية انخرط كذلك بهمـــة ونشاط الريخسمارشال غورينغ ، القائد الاعلى للقوات الجويـــة الحربية الالمانيـــة . فبناء على تعليماته ، تم اعداد «وصـــف طيرانى جغرافى للعراق» صدر بالامضاء «سرى» فى سنة ١٩٤١ واعيد طبعـــه فى سنة ١٩٤٢ ، حين حسب الهتلريون ان يشقوا طريقا لانفسهم الى العراق عبـــر القفقاس . هذا «الوصف» عبارة عن مجلد كبير القياس مؤلف مـــن ٢٤٠ صفحة ومزود بشتى الرســـوم والمخططات وبخرائط كثيرة للمطارات وباحات الانزال ، وبصور المـــدن ، وحتى بصور ابرز العمارات ؛ كذلك يتضمن معطيات عـــن المناخ والتربة والحرارة والضغط الجوى ، ومعلومـــات عن اتجاهات الريـــاح وقوتها ، وعواصف الرمال ، واخلاق وعادات سكان المدن وبخاصـة السكان الرحل . وقد الحق «الوصف» بكتاب محادثات المانى عربى يتضمن عبارات لا تمت بصلة الى الطيران مثـــل : «ارفع يديك !» ، «اسير» ، «خادم» «خلاص !» . ومن هنا ينجـــم ان «اللوفتوافه» (الطيران الحربى الالمانى) لم يكن يستعد لعمليـــات القصـــف وحسب ، بل ايضا لعمليات الانزال فى العراق .

ان الجواب عن السؤال - باى نحو تمكن الهتلريون من اجراء تصوير شمسى جوى يمثل هذه الدقة لبلد بكامله بنحو غير ملحوظ - بسيط جدا . حسبنا ان نذكر بالخط الجوى برلين - اثينه - انقره - بغداد - طهران - كابول ، الذى انشأته شركة الطيران المدنى الالمانية «اللوفتهانسا» ، قبل وصول النازيين الى الحكم ، ثم بشعبته بغداد - بوشير - كاراتشى ، لكى يتضح لنا كل شيء . وفى تلك السنوات كتبت الصحافة الالمانية كثيرا عن رسالة الطيران الالمانى «التمدينية» وعن مساهمته الى اقصى حد ، كما زعمت ، فى تطور العراق وايران على الصعيد الاقتصادى . اما فى الواقع ، فان طيارى «اللوفتهانسا» كانوا اسلاف الطيار الجاسوس الاميركى باورس (الذى اسقط مع طائرته فوق اراضى الاتحاد السوفييتى) وزملائه الذين قاموا بعد مرور ٢٥ سنة بتحليقات لصوصية على متن طائراتهم الاستكشافية الفاضحة السمعة من طراز «او -٢» فوق المنطقة ذاتها تقريبا .

كان نيسان (ابريل) ١٩٤١ شهرا خارق التوتر فى بغداد . فان الديبلوماسية الانجليزية والشبكة الواسعة من العملاء الانجليز قد بذلتا قصارى الجهد على الاعداد لاسقاط حكومة رشيد عالى الكيلانى . والتحقت طائرات جديدة بالوحدات الجوية الانجليزية المرابطة فى الحبانية (بجوار بغداد) وفى الشعيبة (بجوار البصرة) . واخذت القوات الانجليزية التى احتلت البصرة تتلقى المدد بلا انقطاع . وبحجة الدفاع دون هجوم المانى ، اعدت الامبريالية البريطانية بكل همة ونشاط تدخلا مسلحا واعادة النظام الاستعمارى فى العراق .

الا ان اعمال المستعمرين البريطانيين وعملائهم الوقحة عززت امزجة العداء للبريطانيين فى العراق ، الامر الذى استغله العملاء الالمان الى اقصى حد فاخذوا يطبقون بجميع الطرق والوسائل القرارات المتخذة فى المداولة عند ريبنتروب فى ٩ نيسان (ابريل) . وتحت ضغط برلين ، اشتركت الديبلومارسية الايطالية ايضا فى اللعبة بنشاط . واثناء المفاوضات التى اجراها فى اسطمبول وطهران المندوبون الالمان مع مندوبى رشيد عالى الكيلانى ، والتى اجراها السفير الايطالى فى بغداد ، تلقت الحكومة

العراقية وعدا رسميا بالحصول على مساعدة كبيرة بالسلاح والذخائر والطيران والضباط والتكنيكيين . وقد اخذت الحكومة العراقية تعهدات دول «المحور» هذه بالحسبان . بيد ان الوثائق الديبلوماسية الالمانية تدل على ان الجنرالات الالمان وهتلر شخصيا كانوا يشكون فى الامكانية الفعلية لمد العراق فى الوقت المناسب بالاسلحة والذخائر والرجال فى ظروف الحياد التركى . ذلك انه لم تكن ثمة مواصلات برية مباشرة مع العراق . ولكن هذا لم يكن يشغل كثيرا بال الاوساط الحاكمة الالمانية ؛ فان المسألة بنظرها كانت تتلخص لا فى تنفيذ التعهدات ، بل فى حث العراق على القيام بعمل سافر ضد بريطانيا التى تحتل جنوب العراق ، فى ايار (مايو) من سنة ١٩٤١ بالضبط ، اى عندما كانت فرق رومل تشق لنفسها طريقا من ليبيا الى مصر ، وعندما كانت فرق ليست تستعد لقفزة الى جزيرة كريت . فى مثل هذه اللحظة كان من المرغوب فيه بخاصة ان يجتذب العراق نحوه طائرات الانجليز ودباباتهم .

ومع ذلك ، لم يكن العراق هو الذى بدأ العمليات الحربية . ففى ٢ ايار ١٩٤١ ، شنت القوات الانجليزية المتواجدة فى الحبانية ، بامر من تشرشل ، عمليات حربية ضد القوات العراقية التى كانت تحاصر هذه القاعدة الحربية الانجليزية – الحبانية ، الامر الذى اثار كبير الارتياح والرضى فى برلين . «بدأت العمليات الحربية بين العراق وانجلترا !» . هكذا كتب هالدر فى يومياته باحتفال ومهابة فى الثانى من ايار (مايو) . ومما له دلالته ان الصحافة الانجليزية ، بما فيها «التايمس» التى تعتز بموضوعيتها ، تسرعت الى اعلام القراء بان القوات العراقية هى التى فتحت النار . ولكن الحقيقة اعيدت فيما بعد .

دارت رحى معارك طاحنة فى جوار بغداد ضد الطائرات الانجليزية ووحدات المدرعات والدبابات الانجليزية . وكانت القوات العراقية لا تملك كل ما يلزم . وكانت الحكومة العراقية تذكر روما وبرلين يوميا بالتعهدات المقطوعة . وفى ٣ ايار ١٩٤١ ، عرض السفير الايطالى فى بغداد حديثه مع رشيد عالى الكيلانى وابلغ روما ان رئيس الوزارة العراقية قال فى سياق الحديث :

«قررت حكومتى ان تتخذ موقفا صلبا مـــن انجلترا بالاعتماد على التعهدات بالمساعدة التى اعطتها المانيا وايطاليا» (٦٢) . وبعد ١٦ سنة — فى سنة ١٩٥٦ — قال رشيـــــد عالى الكيلانى ، العجوز والمريض ، المقيم فى القاهرة ، فى حديـــــث مع المستشرق برخولتس : «لو ان الالمان نفذوا تعهداتهم وارسلوا لنا الطائرات والمستشارين والاسلحة الموعودة ، لكننا احرزنا النصر وطردنـــا الانجليز ، لا من العراق فقط ، بل ايضا من عموم الشرق الادنى . فمع برلين كان الاتفاق تاما ودقيقا على كل شيء : الخطط ، الآجال ، حجم المساعدة . ولكنهم خانونا . . .» (٦٣) .

فماذا جرى فعلا ؟ اولا ، ان حكام المانيا الذين وعدوا حكومـة رشيد عالى الكيلانى بالمساعدة لم يكونـــوا على استعداد للوفاء بتعهداتهم . وفى اواخر آذار (مارس) ١٩٤١ ، اى قبل الانقلاب فى بغداد ، كانت الحكومة التركية قد رفضت نهائيا تلبيـــة الطلبات المتواصلة الملحة من جانب السفارة الالمانية بالسماح للقطارات الالمانية الموسوقة بالاسلحة والذخائر المعدة لاجل العراق بالمرور عبر اراضيها . ولـــم يبق غير امكانية واحــــدة ، هى استغلال احتياطيات المعدات الحربية الفرنسية الموجودة فى سوريا ، بعد استسلام فرنسا ، تحت رقابة الجنرال الفيشى دونيتز . ولكنـــه ينبغى لهذا الغرض موافقة الاعوان الفرنسيين . وفـــى ١١ ايار ١٩٤١ ، اثناء زيـــارة دارلان ، رئيس حكومـــة فيشى ، الى برختسغادن ، تم الاتفاق بينه وبين هتلر على ان تؤمن حكومـــة فيشى ، مقابل تخفيض التعويضات الفرنسية المدفوعـة لالمانيا بعد استسلام فرنسا ، ومقابل الافراج عن قســـم من اسرى الحرب الفرنسيين ، الشروط والظـــروف الضرورية فى ممتلكاتهـــا الاستعمارية فى افريقيا الشمالية وفى الشرق الادنى لاجل تحويلهـــا الى رؤوس جسور للعمليات العدوانية التـــى ستقوم بها الدول الفاشية ، كذلك كان الاتفاق ينص على ارسال ثلاثـــة ارباع الاحتياطيات الفرنسية المتواجدة فى سوريا من الاسلحة والذخائـــر الى العراق ؛ وعلى تحويل حلب الى قاعدة لاجل القوات الجويـــة الحربية الالمانية ؛ وعلى وضع عقد وخطوط المواصلات السورية تحت تصرف القيادة الالمانية لاجل شن العمليات الحربية ضـــد

القوات المسلحة الانجليزية فى العراق . وفى الوقت نفسه ارسل الى بيروت ودمشق السفير ران بوصفه مفوضا مطلق الصلاحية لريبنتروب ، وعلى طائرته الشخصية ، لكى ينظم مع السلطات الفرنسية ارسال المعدات الحربية التى تنازلت عنها فرنسا على سكة حديد بغداد الى العراق عبر الاراضى التركية . هذا الحل وعدوا فى انقره بالامتناع عن معارضته . وهكذا حسبت الامبريالية الالمانية ان تستغل ، لاجل الوصول الى البلدان العربية ، سكة حديد بغداد التى سبق ان بدأ الاحتكاريون الالمان بناءها لهذا الغرض فى اواخر القرن التاسع عشر .

ولكن حتى بعد توقيع الاتفاق فى برختسغادن ، لم يتلق العراق تقريبا المساعدة العسكرية ، رغم النداءات اليائسة المنطلقة يوميا من بغداد ، لان العراق اخذ يتعرض منذ اواسط ايار لهجمات القوات المسلحة الانجليزية ، لا من الحبانية والشعيبة فقط ، بل ايضا من شرقى الاردن . وهذه المماطلة الجديدة يفسرها جزئيا قيام مفاوضات وقحة فى روما وبرلين بشأن استغلال ثروات البلدان العربية . ويتبين من وثائق الارشيف الديبلوماسى الالمانى انه لم يتم التوصل الى اتفاق الا فى اواسط ايار ١٩٤١ : فقد تقاسمت ايطاليا والمانيا مناصفة اسهم «شركة نفط العراق» وكل البترول العراقى . ولكن هذا لم يكن يكفى النازيين الالمان . ففى ١١ ايار ، عاد غروبا الى بغداد بوصفه سفيرا المانيا ، واشترط تقديم مساعدة عسكرية واسعة من جانب المانيا بموافقة الحكومة العراقية على احتلال حقول البترول فى الموصل وسكة حديد بغداد موقتا (٦٤) . ونظرا للوضع الحربى الكارثى بالنسبة للعراق ، اضطر رشيد عالى الكيلانى الى الموافقة ، ولكن قيادة الجيش العراقى اعترضت على هذه الموافقة . فتظاهر الهتلريون بانهم لم يعرفوا بهذا الاحتجاج . ومنذ ١٣ ايار ، بدأت القوات المسلحة الالمانية ، وفى المقام الاول بينها الطيران ثم وحدات خاصة من الجيش الالمانى تشن العمليات الحربية ضد القوات المسلحة الانجليزية فى العراق .

ولكن نحو اوائل الثلث الثالث من ايار ١٩٤١ اخذ الوضع الحربي في عموم حوض القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط

يصبح اكثر فاكثر توترا واقل ملاءمة لبريطانيا العظمى . ففى آذار ونيسان (مارس وابريل) ١٩٤١ ، هزمت القوات المسلحة الالمانية والايطالية المتواجدة فى افريقيا الشمالية بقيادة رومل القوات المسلحة الانجليزية فى برقة ، وطوقت طبرق ووصلت الى حدود مصر . ووقع فى الاسر قائد القوات المسلحة الانجليزية فى مصر الجنرال اوكونور وقائد القوات المسلحة الانجليزية فى برقة الجنرال نيم . واستغل غوبلز والمخابرات الالمانية هذه الانتصارات لتعزيز اعمال الدعاية والتخريب فى مصر والبلدان المجاورة لها . وآنذاك بالذات توطدت اتصالات النازيين مع انور السادات وعدد من ضباط الجيش المصرى المرتبطين به . وطفقت الاذاعات باللغة العربية من راديو برلين وبارى تدعو المصريين الى الانتفاض على «المضطهدين الانجليز» .

وفى الوقت نفسه ، بدأ فى نيسان (ابريل) ١٩٤١ الهجوم الالمانى فى البلقان — فى يوغوسلافيا واليونان . وقد منيت القوات المسلحة الانجليزية التى ارسلت الى هناك بهزيمة ماحقة . ونحو اواخر نيسان احتل الهتلريون اليونان تطبيقا منهم لخطة «ماريتا» وفرضوا رقابتهم على بحر ايجه . وببالغ الجهد وبثمن خسائر كبيرة استطاعت القيادة الانجليزية ان تسحب قسما كبيرا من القوات المهزومة الى مصر ، تاركة فى اليونان المعدات الحربية كلها تقريبا . ان هذه الاحداث ، كما كان ينبغى التوقع ، قد اسهمت فى تعزيز النفوذ الالمانى فى البلدان الاسلامية وفى تقويض مواقع بريطانيا العظمى فيها باطراد .

وبقيت جزيرة كريت التى تتواجد فيها وفرة من الموانىء والثغور الملائمة وبضعة مطارات كبيرة احد الحصون الاخيرة للقوات المسلحة البريطانية وبخاصة للقوات المسلحة الجوية والقوات المسلحة البحرية ، فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط . وفى اواخر نيسان ، اى فور بداية جلاء القوات الانجليزية من اليونان ، امر هتلر بوضع خطة لاحتلال كريت ؛ وقد اسميت هذه الخطة اصطلاحا خطة «مركورى» («عطارد») . وفى هذه العملية كان ينبغى ان تشترك فى المقام الاول القوات المسلحة الجوية الالمانية ووحدات من المظليين الالمان . بدأت معركة كريت في ٢٠ ايار

واستمرت بشدة متعاظمة طوال اسبوع . ونحو اواخر ايار اضطرت القيادة البريطانية الى التخلي عن كريت . وبلغت الخسائر البريطانية في مجرى القتال من اجـل هذه الجزيرة المهمة من الناحيـة الستراتيجية اكثر من ٥ آلاف قتيل و١٢ الف اسير . كذلك تكبد الاسطول البحري الحربي البريطاني خسائر كبيرة .

ان الاستيلاء على كريت ، الذي قامت بـه في المقام الاول وحدات من المظليين ، كان انتصارا كبيرا احرزتـه المانيا على الصعيد الستراتيجي والسياسي . فقد بسط السيادة الالمانية فـي بحر ايجه وفي القسم الشمالي من شرق البحر الابيض المتوسط . ولكن الالمان اضطروا الى دفع ثمن باهظ جدا لقاء ذلك . ففـي معركة كريت خسر الطيران الالماني ٢٢٠ طائرة ، كما اصيبـت ١٤٤ طائرة المانيـة باضرار . ولقي اكثر من ٥ آلاف مقاتل مصرعهم ، واكثرهم من جنود نخبة الوحدات المظليـة ، الامر الذي حد كثيرا من استخدامها في السنوات التالية من الحرب .

هكذا كان الوضع الحربي فـي الشرق الادنى عندما بدأت العمليات الحربية في العراق ، اضافة الى الجبهة الليبية — المصرية والجبهة البلقانية — الايجية .

في ٢٣ ايار ١٩٤١ ، وقع هتلر التوجيه رقم ٣٠ وعنوانـه «الشرق الاوسط» . وكان مخصصا بكليتـه للعراق وعمليات القوات المسلحة الالمانية بالارتباط مع النزاع الانجليزي العراقي . ان اعداد هذه الوثيقة قد سبقته مفاوضات مديدة مـع رجال حركة التحرر العربية ، الذين اضلهم الديبلوماسيون والمستشرقون وممثلو الاوساط الحاكمة في الدول الفاشية باعمالهم السياسية والدعائيـة والذين وجهوهم نحو الاعتماد على المانيا وعلى ايطاليا جزئيا في نضالهم ضد المستعمرين الانجليز والفرنسيين .

ففي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ كتب مفتي القدس امين الحسيني ، اثناء اقامته في بغداد ، رسالة الى هتلر تحدث فيها عن عزم العرب على النضال ضد بريطانيا اذا ما ضمنت لهـم المساندة المادية والمعنوية . وقد جاء في جواب فيتزيكر ، نائب وزيـر الخارجية الالمانية ، المكتوب بتكليف من هتلر ، بتاريخ ٨ نيسان (ابريل) : «اذا اراد العرب ان يبدأوا الحرب ضد انجلترا ، ففـي

وسعهم الاعتماد على المساعدة المالية والحربية من جانب المانيا التى تميل الى الاشتراك فى الاستعدادات الحربية بتقديم الاسلحة لهم . ان توريدات الاسلحة لا تتوقف الا على امكانية ايجاد سبل مأمونة لاجل ايصالها» (٦٥) . اما كيف كان النازيون يقدرون بالفعل دور الشرق العربى فى خططهم الهجومية ، فيدل عليه الحديث الذى جرى كذلك فى نيسان بين ريبنتروب وقادة الشعبة السياسية بوزارة الخارجية الالمانية . فقد اكد ريبنتروب ان مهمة الديبلوماسيين الالمان والمصالح المختصة الالمانية فى البلدان العربية تتلخص قبل كل شيء فى «تنظيم اعمال التخريب فى فلسطين وشرقى الاردن والعراق وانشاء مراكز لجمع المعلومات فى جميع بلدان المشرق» (٦٦) .

فى ٣ ايار (مايو) ١٩٤١ ، اى فى اليوم التالى لنشوب النزاع الانجليزى العراقى المسلح ، قدم ريبنتروب الى هتلر مذكرة اكد فيها انه يمكن استغلال هذا النزاع ، بنفع كبير ، لاجل تحويل العراق الى قاعدة لشن الحرب ضد انجلترا والى مركز لانتفاضة مقبلة ضد انجلترا فى عموم الشرق العربى (٦٧) .

ان جواب فيتزيكر على رسالة امين الحسينى الى هتلر ، وحديث ريبنتروب مع قادة وزارة الخارجية الالمانية ، ومذكرته الى هتلر ، — كل هذا كان وثيق الارتباط بخطط فتوحات الطغمة العسكرية الالمانية فى الشرق الاسلامى . فقد سبق لهيئة اركان القائد العام الاعلى للقوات المسلحة الالمانية ان بحثت فى اواخر آذار (مارس) وحبذت الاقتراحات الواردة فى مذكرة الاميرال كاناريس السرية «اجراءات الابفير المخططا لها فى الشرق الادنى» . وقد جاء فى هذه الوثيقة ان اهم الاجراءات فى سياق النصف الاول من سنة ١٩٤١ تشمل : انشاء شبكة جاسوسية متشعبة ، ولاسيما فى تركيا ومصر وسوريا والعراق ؛ استثارة انتفاضات ضد الانجليز فى فلسطين وشرقى الاردن والعراق ، مع الحد الاقصى من تطبيق اعمال التخريب ضد المؤسسات والمواصلات الحربية الانجليزية ؛ تزويد المنتفضين فى فلسطين وشرقى الاردن بالاسلحة والذخائر عن طريق الابفير ، واتخاذ اجراءات مماثلة فى

العراق بالاتصال الوثيق مع عملاء المخابرات العسكرية اليابانية (٦٨) .

هذا هو سابق تاريخ التوجيه رقم ٣٠ . ان التأخر فى توقيعه يفسره اشتداد العمليات الحربية على الحدود الليبية المصرية وفى اليونان وفى حوض بحر ايجه وفى كريت . وقد اكد هتلر فى هذه الوثيقة : «ان الحركة العربية هى حليفنا فى الشرقين الادنى والاوسط . وفى هذا الصدد تتسم الانتفاضة فى العراق باهمية خاصة . فهى تعزز خارج الحدود العراقية القوى المعادية لانجلترا ، وتشوش المواصلات ، وتجمد القوات والسفن الانجليزية ، ملحقة بذلك ضررا بالقوات الانجليزية فى سائر مسارح الحرب . ولهذا قررت ان اعجل تطور الاحداث عن طريق دعم العراق» (٦٩) . ثم وردت فى الوثيقة تعليمات بمنح العراق المساعدة الفورية بتوريدات الاسلحة وبالعمليات الحربية من جانب القوات الجوية الحربية الالمانية ، وبارسال بعثة عسكرية .

عهد برئاسة البعثة التى اطلق عليها الاسم الاصطلاحى «الاركان الخاصة – ف» الى جنرال الطيران غ . فلمى الذى عمل زمنا طويلا كمدرب عسكرى فى تركيا والذى كان يعتبر فى المانيا الفاشية خبيرا فى شؤون الشرق . وقد عرض التوجيه رقم ٣٠ مهمات «الاركان الخاصة – ف» بصورة مفصلة جدا . كان عليها ان تساند القوات المسلحة العراقية ، وتقيم اتصالات عسكرية الطابع مع جميع القوى المعادية لانجلترا خارج العراق ؛ وتحصل على اكثر ما يمكن من المعلومات عن الوضع فى عموم المنطقة وتكتسب الخبرة فى تسيير العمليات الحربية فى ظروف الشرق الخاصة المتميزة لاجل نقل هذه الخبرة الى القوات المسلحة الالمانية . وكان على جميع العسكريين والوحدات العسكرية المرسلة الى العراق بما فيها اركان المواصلات فى سوريا ان توضع تحت تصرف رئيس البعثة العسكرية التى اخضعت بدورها مباشرة لرئيس هيئة اركان القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية . وكان ينبغى اعتبار جميع اعضاء البعثة العسكرية موقتا من عداد المتطوعين . وكسابقة لهذا الحل ، ذكر التوجيه الفيلق الفاشى «كوندور» (هذه التشكيلة الجوية الهتلرية التي اقترفت المآثم والمجازر ابان الحرب

الاهلية فى اسبانيا ١٩٣٦-١٩٣٨ ، قد استخدمها الفاشيون لاجل اعداد ملاكات الضباط ، الالمانية منها ام الفرنكوية الاسبانية ؛ وفيها تدرب ٥٦ الف ضابط وصف ضابط) . وجاء فى التوجيه رقم ٣٠ انه ينبغى لاستعمال القوات الجوية الحربية فى العراق ، عدا اداء المهام الحربية ، ان يسهم فى تقوية معنويات القوات المسلحة العراقية والشعب العراقى وعزمها على المقاومة .

وكان ينبغى ان يجرى ارسال الاسلحة الالمانية الى القوات المسلحة الالمانية والعراقية باشراف القيادة العامة العليا للقوات المسلحة الالمانية مباشرة .

ولم يهمل التوجيه قضايا الدعاية . فقد كان الباب السادس منه مخصصا للدعاية . وقد اشير فيه الى ان الاشراف العام على الدعاية يناط بوزارة الخارجية بالتعاون مع قسم الدعاية الحربية فى هيئة اركان القيادة العامة العليا للقوات المسلحة الالمانية . وعرض هذا الباب الفكرة الاساسية التى يجب ان تسترشد بها الدعاية الالمانية فى بلدان الشرق الاسلامى : «ان انتصار بلدان المحور سيجلب لشعوب الشرق الاوسط التحرر من النير الانجليزى وبالتالى الحق فى تقرير المصير . ولهذا يجب على من يحب الحرية ان ينخرط فى النضال ضد انجلترا» . وفى الباب نفسه اشير الى انه لا يجوز اتخاذ اجراءات دعائية ضد السلطات الفيشية فى سوريا (٧٠) .

لقد جاء عرض التوجيه رقم ٣٠ بمثل هذا التفصيل لانه عكس الخطط العدوانية للفاشية الالمانية حيال بلدان الشرق الادنى وشعوبه . فان هذه الوثيقة تبين بصورة ساطعة باى وقاحة سافرة وازدراء مكشوف كان النازيون ينظرون الى العرب بوصفهم ممثلى «عرق ادنى» ، وتتلخص مهمتهم فى الاسهام فى تحقيق خطط السيطرة والتحكم التى تحوكها الاحتكارات الالمانية فى سعيها الى زحزحة المنافسين الانجليز من الشرق الاسلامى . وينزع التوجيه اغطية النفاق والرياء التى كانت تتستر بها الدعاية الالمانية فى محاولتها لتصوير هتلر بحامى الاسلام . وان خطا واحدا يتبدى فى خطط التخريب التى وضعها رئيس الابفير كاناريس ومذكرات ريبنتروب وخطابات غوبلز الدعائية وتوجيه هتلر رقم ٣٠ . ولا

بد من الاشارة الى ان العــــرب لم يؤمــــروا بالانتفاض الا على المستعمرين البريطانيين . وكان على الدعاية الالمانية ان تستنكف عن القيام باية اعمال من شأنها ان تعزز الحركة المعادية للامبريالية فى سوريا ، لان السلطات الفيشيـــة التى عقدت صفقة مخزية مع الفاشية الالمانية كانت تسود فى سوريا حتى اواسط سنة ١٩٤١ ضمنا . ولم تكن هذه الصفقة تستهدف قمع نضال الشعب الفرنسى بالذات ضد الفاشية وحسب ، بل كانت تستهدف ايضا صيانـــة السيادة الوهمية لجنرالات وقناصـــل فيشى على سوريا ولبنان وافريقيا الشمالية الغربية ، الامر الذى كان لا بد له ان يؤمــن مصالح الاحتكارات الفرنسية والالمانيـــة والمقاصد الستراتيجية لهيئة الاركان العامة الالمانية .

وقبل توقيع التوجيه رقم ٣٠ ، ارسلـــت القيادة الفاشية الى العراق تشكيلة من الطائرات الحربية ، ثم فصيلة صغيرة من القوات الخاصة سحبتها من قوام تشكيلة خاصة فى فرقة «براندينبورغ» التى اعدتها القيادة الالمانية للقيام باعمال تخريبية بتكليف مــن قيادة الابفير . وفى اواخر سنة ١٩٤٠ ، اخذوا يشكلون فى قوام الفرقة «لواء عربيا» ضموا اليه اسرى الحرب العرب المأسورين اثناء هزيمة القوات الفرنسية فى اوروبا واثناء الهزائم التى منيت بهـــا القوات الانجليزية فى مصر . كذلـــك قامت السلطات الالمانية بالدعاية بين الطلاب العرب الكثيرين الذيـــن كانوا يتعلمون فى الجامعات الالمانية سعيا منها الى حملهــم على الانضمام الى «اللواء العربى» (٧١) .

فى ٢١ ايار (مايو) ١٩٤١ ، طار الجنرال فلمى مع ضباط من هيئة الاركان الى العراق عن طريق سوريا لكـــى يترأس قيادة الوحدات المسلحة الالمانية المتواجدة فى العراق ، والرئيسى ، لكى ينسق اعمال القوات المسلحة العراقية التى تقاوم الوحدات الجوية والبرية المدرعة من الجيش البريطانى الذى انطلــق شرقى الاردن والبصرة باتجـــاه بغداد . ومنذ ١١ ايار ، كان كذلك فى بغداد السفير غروبا الذى عاد من جديد الى العراق باشارة من هتلــر وبدعوة من رئيس الوزارة العراقية رشيد عالى الكيلانى .

ولكن هيئة اركان فلمى لم تستطع ان تصل الى العراق عن طريق دمشق وحلب .

تأخر الهتلريون عن تقديم المساعدة العسكرية الى العراق لانشغالهم فى اعداد عملية من اكبر عمليات انزال جنود المظلات فى الحرب العالمية الثانية — عملية احتلال جزيرة كريت — وفى المفاوضات مع تركيا بشأن ارسال القطارات الالمانية على سكة حديد بغداد ، وفى المماحكات مع الايطاليين حول مصير البترول العراقى . اما المستعمرون الانجليز ، فقد تصرفوا بمزيد من العزم والاستهداف . ففى ١٧ ايار اى قبل يوم من انزال اولى الفصائل الالمانية فى منطقة الموصل ، قطعت الوحدة العسكرية الانجليزية التى اقتحمت العراق من شرقى الاردن سكة حديد بغداد — الموصل فى سامراء واندفعت صوب بغداد من الشمال . وجميع هذه الوقائع تؤكد ان الامبرياليين الانجليز والالمان على السواء كانوا لا يهتمون الا بتحقيق خططهم الهادفة الى الاستيلاء على العراق والى اخضاع سائر البلدان العربية ، وانهم كانوا لا يبتغون البتة حماية العراق من المستعمرين الانجليز (كما كان يزعم الفاشيون) او من الاستعباد الهتلرى (كما كان يدعى تشرشل) .

ولم تبرر آمال الهتلريين فى ان تؤدى الانتفاضة التى نشبت فى فلسطين فى ايار (مايو) ١٩٤١ بمشاركة المفتى النشيطة الى تقييد ايدى المستعمرين البريطانيين والى اضعاف ضغطهم فى العراق (فهكذا بالذات وصف غروبا هذا الحدث فى برقيته العاجلة بتاريخ ١٧ ايار) (٧٢) .

فى ٢٧ ايار ١٩٤١ ، اضطر رشيد عالى الكيلانى الى الهرب من بغداد . وقبل يوم من ذلك ، غادر غروبا ايضا العاصمة العراقية وراح الى كركوك . وقد كتب فى مذكراته انه كان قد اتفق مع رئيس الوزارة العراقية على تنفيذ الخطة التى سبق ان اعدها فى سنة ١٩٣٧ العقيد الالمانى هاينس بتكليف من بكر صدقى ، رئيس هيئة الاركان العامة العراقية آنذاك . وكان من المرتأى ان يذهب رشيد عالى الكيلانى مع الوزراء الى كركوك وان ينظم هناك مع الالمان الدفاع عن كردستان ضد القوات الانجليزية المهاجمة من منطقة بغداد . ومن هنا ينجم ان فكرة الدفاع عن كردستان التى

اعرب عنها بكر كانت ذات اهمية فعلية بالنسبة للريخ الهتلرى . ولهذا السبب بالذات كانت الخطة التى وضعها هاينس محفوظة بامان فى صندوق السفارة الالمانية الحديدى . ولكن قطار رئيس الوزارة العراقية ، كما كتب غروبا بأسى وكآبة فى مذكراته ، لم ينطلق من بغداد باتجاه الشمال ، بل انطلق باتجاه الجنوب الشرقى نحو الحدود الايرانية (وقد اسرع رشيد عالى الكيلانى فى عبورها) ، لان الموظفين العراقيين الذين رشاهم الانجليز ضللوا رئيس الوزارة العراقية اذ افادوه ان الطريق الى كركوك قد قطعتها القوات البريطانية (٧٣) .

فى اول حزيران (يونيو) احتلت القوات البريطانية بغداد ، ونحو ١٨ حزيران احتلت العراق كله . وخلال سنوات وسنوات خنق جيش الاحتلال الانجليزى من مائة الف رجل حرية هذا البلد العربى العريق واستقلاله . كتب المؤرخ العراقى غائب فرمان : «بعد هزيمة الكيلانى ، شرع الانجليز يفرضون سلطتهم فى العراق بمزيد من السفور والقساوة . وملأت العساكر الانجليزية البلاد بأسرها . . . وحلت ازمان عصيبة» (٧٤) . وفى المعارك ضد المستعمرين الانجليز ، بلغت خسائر العراقيين ٤٩٧ قتيلا و٦٨٦ جريحا ، و٥٤٨ مفقودا . وزج بعدد كبير من العراقيين فى المعتقل . ولكن الهتلريين اعتبروا انهم لم يخسروا . فقبل استسلام الحكومة العراقية بيوم واحد ، اى فى ٣٠ ايار ، كتب الجنرال هالدر فى يومياته بسرور وارتياح : «المعارك فى العراق اجبرت الانجليز على نشر قواتهم فى مرحلة بداية عمليتنا الرامية الى الاستيلاء على كريت ونشوء وضع عسير نسبيا علينا فى افريقيا الشمالية» (٧٥) .

كانت القيادة الانجليزية تسعى من زمان الى فرض رقابتها على كل ساحل المشرق ، فاستغلت تواطؤ الهتلريين مع سلطات فيشى الاستعمارية ، وادخلت قواتها فى حزيران (يونيو) ١٩٤١ الى سوريا ولبنان (مع قوات فرنسا الحرة) . وهكذا ، ادى الاشتباك بين الانجليز والالمان فى الشرق الادنى الى اعادة بسط سيطرة المستعمرين على العراق والى بسطها على سوريا ولبنان .

اعتبر الهتلريون خسارتهم فى الشرق الادنى مجرد اخفاق

تكتيكي . وحسب هتلر والقيادة العليا اخذ الثأر في هذه المنطقة بعد النصر على الاتحاد السوفييتي .

ومعلوم ان النصف الاول من سنة ١٩٤١ قد انقضى بالنسبة لالمانيا الفاشية تحت شعار الاستعداد المحموم للهجوم على الاتحاد السوفييتي . ولكنه معلوم بصورة اقل ان هتلر قد صادق في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، اى قبل ١١ يوما من الهجوم على الاتحاد السوفييتي ، على التوجيه السرى رقم ٣٢ «الاجراءات التمهيدية لاجل المرحلة ما بعد «بربا روسا» (و«بربا روسا» ، كما سبق ان قلنا ، هى خطة الهجوم اللصوصي الغادر على الاتحاد السوفييتي) . ولكن هتلر الذى درس تاريخ الحملات الصليبية ، والذى اشاع على نطاق واسع انه ، حسب زعمه ، اعتنق الاسلام على غرار القيصر الالماني غليوم الثاني ، لم يعتزم حرق بخور المديح امام صلاح الدين الايوبي الذى انتصر على الصليبيين . وفضلا عن ذلك ، اعتبر انه سيكون اوفر حظا من الامبراطور فريدريك ، الذى لم يعش حتى النصر على العرب والذى لم يفتح سوريا ومصر . وكان هتلر يحسب ان يقتحم الشرق العربي بعد النصر على الاتحاد السوفييتي ويفعل هناك ما لم يستطع ان يفعله فريدريك هوهنشتاوفن (بربا روسا) . ولهذا ليس من قبيل الصدفة ظهر الاسم الاصطلاحي «بربا روسا» . وفي التوجيه رقم ٣٢ بتاريخ ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، اوضح هتلر : «ان النضال ضد المواقع البريطانية في البحر الابيض المتوسط وفي آسيا الغربية سيستمر عن طريق هجمات متراكزة تقام من ليبيا على مصر ، ومن بلغاريا على تركيا ومن القفقاس على ايران» (٧٦) . وهكذا رفعت «الى المستوى اللازم» خطة «الجنوب — الشرق» التى بدأ وضعها باشارة مباشرة من هتلر فور بداية الحرب العالمية الثانية .

وقد تضمن التوجيه رقم ٣٢ فقرة خاصة اسمها واسع الدلالة — «استغلال حركة العرب التحررية» . ففي الوثائق العلنية ، والاذاعات باللغة العربية من برلين ، ومقالات الدعاة الالمان كان الكلام يتناول الصداقة المنزهة بين الالمان والعرب وتقديم المساعدة الشاملة للعرب في نضالهم التحريري ضد المستعمرين الانجليز . اما التوجيه السرى ، فقد افصح بكل جلاء عن هدف

الامبرياليين الالمان الحقيقى . جاء فى هذه الوثيقة : «ان وضع انجلترا فى الشرقين الادنى والاوسط فى حال هجوم المانى كبير سيكون اشد خطرا اذا تقيدت قوات بريطانية كبيرة فى اللحظة اللازمة باضطرابات العرب وانتفاضاتهم . وجميع الاجراءات الحربية والسياسية والدعائية الضرورية لهذا الغرض انما يجب تنسيقها بدقة فى المرحلة التحضيرية» (٧٧) .

حسب هتلر وجنرالاته ان ينفذوا جميع خطط الفتوحات فى الشرق الادنى بعد النصر الخاطف على الاتحاد السوفييتى . ففى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ هاجم الهتلريون الاتحاد السوفييتى . وبدأت الحرب الوطنية العظمى ، حرب الشعب السوفييتى ضد المانيا الهتلرية ؛ ان هذه الحرب لم تغير طابع الحرب العالمية الثانية تغييرا جذريا وحسب ، بل ومصائر البشرية . وعلى جبهات الحرب الوطنية العظمى لم تقاتل القوات المسلحة السوفييتية من اجل شرف وطنها واستقلاله وحسب ، بل ايضا من اجل حرية شعوب الشرق بما فيها شعوب البلدان الاسلامية . وهذا ما تؤكده وثائق المانية صارت معروفة منذ امد قريب .

ففى كتاب من عدة مجلدات اسمه «اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية» وصدر فى فرانكفورت على الماين سنة ١٩٦٥ ، ورد جدول طريف عنوانه «اعادة تنظيم القوات البرية بعد نهاية الحملة الشرقية» . وضع الجدول فى ١٥ تموز (يوليو) ١٩٤١ بتأثير الانتصارات الموقتة التى احرزتها القوات الفاشية فى الجبهة السوفييتية . وقد جاء فى الجدول ، مثلا ، ان القيادة الالمانية ارتأت ان تفرز ، بعد النصر على الاتحاد السوفييتى ، ١٤ فرقة لاجل احتلال الشرقين الادنى والاوسط ، بينها ٤ فرق من المشاة و٤ فرق من الدبابات وفرقتان مدرعتان ، و٤ فرق من الرماة الجبليين . وكان التوجيه رقم ٣٢ بتاريخ ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ بصدد اقتحام بلدان الشرقين الادنى والاوسط «بعد انجاز خطة «برباروسا»» ينص على دخول القوات المسلحة الالمانية الى هذه المنطقة من ثلاث جهات — عبر مصر وتركيا وما وراء القفقاس . كذلك اولى التوجيه المذكور الاتجاه الاخير اهتماما خاصا ، اذ كان يتعين تسديد الضربة الاساسية منه . وفى المجلد

الاول من «اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية» وردت «خطة الهجوم عبر القفقاس – العملية من منطقة القفقاس الشمالى عبر سلسلة جبال القفقاس وايران الشمالية الغربية بغية الاستيلاء على معبرى راوندوز وخانقين على الحدود الايرانية العراقية» . وفى هذه الوثيقة الطريفة جاء بكل صراحة : «ان هدف العملية هو الاستيلاء على مناطق البترول القفقاسية واحتلال المعابر على الحدود الايرانية العراقية نحو ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ لاجل مواصلة التقدم نحو بغداد» (٧٨) . وهكذا لم يعد يتناول الكلام مساعدة «الاخوة» العرب ، بل تناول باللغة العسكرية الوجيزة احتلال كل العراق الشمالى والاوسط بما فيه بغداد .

وفى تحقيق جميع خطط النازيين الاغتصابية فى الشرق العربى ، كان يخصص دور كبير للجنرال فلمى ومرؤوسيه . ففى الثانى من حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، اى بعد فشل الخطط النازية الرامية الى استغلال النزاع الانجليزى العراقى ، استدعى من سوريا الى برلين حيث بدأت اعادة تشكيل هيئة اركانه . وقد جاء فى الفقرة «استغلال حركة العرب التحررية» فى توجيه هتلر رقم ٣٢ المذكور انه يناط «بهيئة الاركان الخاصة – ف» تنسيق جميع العمليات والاجراءات فى الشرق العربى .

ولهذا الغرض يوضع تحت تصرفها «اكفأ الخبراء والعملاء» (٧٩) . وفى ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ وقع هتلر على التوجيه رقم ٣٢ – أ ، الذى اكد على اهمية «هيئة الاركان الخاصة – ف» ، وامر بانزالها فى رأس سونيون بجوار اثينا وتضمن امرا الى هيئة اركان القيادة العامة العليا للقوات المسلحة الالمانية باعداد توجيه مسهب «بصدد نشاط الجنرال فلمى ومرؤوسيه لاحقا» (٨٠) . ان كون هتلر قد وقع هذا التوجيه قبل يوم واحد من الهجوم على الاتحاد السوفييتى يدل على مبلغ الاهمية التى كان يعلقها على هذه التشكيلة ، وعلى انه ربط كل نشاطه اللاحق بنجاح تنفيذ الخطة اللصوصية «بربروسا» التى ستفتح ، كما كان يحسب هتلر وجنرالاته ، الطريق امام الفرق الالمانية عبر القفقاس الى بلدان الشرقين الادنى والاوسط . وقد عيّن الرائد ريكس – ماير الذى سبق ان خدم فى نطاق الابفير فى تركيا

وفلسطين والعراق ، رئيسا لهيئة اركان الجنرال فلمى . كذلك ارسل بمأمورية الى «الاركان الخاصة — ف» بصفة ضابط فى ميدان الشؤون ذات الاهمية الخاصة الخبير فى الشؤون الاسلامية نيدرماير الذى يحمل رتبة «عقيد» واللقب العلمى «بروفسور» .

فى اواخر آب (اغسطس) واوائل ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، قام فريتس غروبا ، مفوض وزارة الخارجية الالمانية للشؤون العربية ، الذى شغل هذا المنصب بعد فراره من بغداد فى اواخر ايار (مايو) ١٩٤١ ، بزيارة «الاركان الخاصة — ف» فى رأس سونيون ، بتكليف من ريبنتروب . وقد اجرى غروبا احاديث مديدة مع الجنرال فلمى وريكس — ماير ونيدرماير ، وعلى اثرها قدم لريبنتروب وهيئة الاركان العامة اعتباراته بصدد تدقيق وتوسيع وظائف «هيئة الاركان الخاصة — ف» . وقد كانت هذه الاعتبارات موضع استغلال فى «تعليمات الخدمة الى «الاركان الخاصة — ف» التى وضعت بتكليف من هتلر ووقعها الجنرال فارليمونت ، نائب رئيس هيئة اركان القيادة العملياتية فى الجيش الالمانى فى ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ؛ وكانت هذه «التعليمات» طوال سنة اساس كل نشاط الهيئة . وبموجب هذه الوثيقة ، خولت «الاركان الخاصة — ف» حقوق «هيئة مركزية تهتم بجميع مسائل العالم العربى التى تتعلق بالجيش الالمانى» (٨١) .

ان المطبوعات الالمانية الغربية الحديثة تحذو الآن حذو الجنرال تيبليسكيرخ ، صاحب كتاب «تاريخ الحرب العالمية الثانية» الصادر فى بون سنة ١٩٥٤ ، اذ تجهد لتصوير «هيئة الاركان الخاصة — ف» بانها كانت مؤسسة قليلة الفعالية ، ومؤسسة دعائية فى المقام الاول ، وانها لم تكن تشرف على بعض عمليات التجسس فى البلدان العربية الا فى عدد من الاحوال ، وانها لم تكن بالتالى تشكل خطرا خاصا على شعوب الشرق الاسلامى . ولكن الفقرة الثانية من «تعليمات الخدمة» بتوقيع فارليمونت والباب الثالث من التقرير السرى الذى وضعه غروبا عن زيارته الى رأس سونيون — ناهيك عن كل نشاط الجنرال فلمى ومرؤوسيه لاحقا — يدحضان كليا هذه المزاعم . ذلك انه ادرجت فى قوام «هيئة الاركان الخاصة — ف» فى ايلول (سبتمبر)

«التشكيلة ٢٨٨» السرية المشكلة فى بوتسدام من وحدات من فرقة التخريب المذكورة آنفا «براندنبورغ» التى سبق ان بدأوا فـــى اواخر سنة ١٩٤٠ يشكلون فيها «اللـــواء العربى» . ونحو ايلول ١٩٤١ ، كانت «التشكيلة ٢٨٨» تضـــم ٢٢٠٠ جندى وضابط . وفيما بعد ، اى بعد ارسالها الى رأس سونيون ، ازداد عدد افرادها كثيرا ؛ وقد انضمت اليها وحدات كثيرة من مختلــف الاسلحة ، مزودة باحدث الاسلحة والذخائر والمعدات . ومن الطريف بخاصة ان ثلاث سرايا من «التشكيلة ٢٨٨» كانت مؤلفــة من ٥٠٠ الماني فلسطينيين . كان هؤلاء ابناء المستوطنين الالمان ، الكاثوليـــك والبروتستانت ، الذين نزحوا الى فلسطين فى زمن القيصر غليوم الثانى نتيجة للنشاط الدعائى الشديد الذى كان يقوم به الفرسان الهيكليون وسائر الجمعيات الدينية داعين الالمان الى «الاقامة فى ارض الميعاد حيث ولد المسيح وعاش وتألم» . وبتأثير الدعايـة الدينية والمساعدة الماديـــــة من جانب «الآباء» الكاثوليـــــك والانجيليين ، وبالدعم الفعال من جانب القنصلية العامـة الالمانية فى القدس ، انشأ هؤلاء النازحون بضعة مقامات زراعية زارهـــا غليوم الثانى سنة ١٨٩٨ اثناء اقامته فى فلسطين (٨٢) . وبعـد وصول الفاشيين الى الحكم ، دعى ابناء النازحيـن ، الذين يعرفون الوضع فى فلسطين معرفة جيدة والذيـن يجيدون اللغة العربية ، الى الجيش الالمانى بوصفهم من الرعايا الالمان ، وجرى ضمهم الى فرقة «براندنبورغ» ثم نقلهم الى «التشكيلة ٢٨٨» وادراجهم فـــى «الفيلق الخاص – ف» . وفى قوام القوات المسلحة الخاضعـة لهذا الفيلق ، كانوا يستعدون للقفز على فلسطين بوصفهم طليعة الجيش الالمانى . وفى هذه الاثناء ، بيعت بيوتهم ومقاماتهم فى فلسطين من اليهود الالمان الذين ارسلوا الى فلسطين بنتيجة التواطؤ بين اعوان هملر والصهاينة . وقد دفع الصهاينة ثمن هذه الصفقـــة بالعملة الصلبة التى حصلوا عليها من بيع البضائع الالمانيـة التى تلقوها بموجب الاتفاقية الالمانية الصهيونيـــة «هآفارا» . وكان اليهود الالمان مجندين فى فصائل «الهاغانا» و«ارغـــون» ، وكانوا يهيئون فيها توجيه ضربـــة الى ظهور اولئك العرب الفلسطينيين الذين كان مفتى القدس امين الحسينى يعدهم بالخلاص من النيـــر

الانجليزى والصهيونى بفضل تدخـــل حامى الاسلام ادولف هتلر والمتمنطق «بسيف الاسلام» بينيتو موسولينى .

وقد تكاملت الوحدات الاخرى فى «التشكيلـــة ٢٨٨» بجنود الفيلق الاجنبى المأسورين اثنـــاء المعارك فى فرنسا وافريقيا الشمالية (علما بان الذين كانوا منهم يعرفون اللغـــة الفرنسية او الانجليزية قد اعيروا انتباها خاصا) وعن طريق تجنيد «المتطوعين» من الطلاب العرب الذين يتعلمون فى المانيا وايطاليا . وفـى هذه المسألة تجلى نفاق النازيين الالمان والفاشيين الطليان . فعشيـة الحرب العالمية الثانية طرح الديبلوماسيون العراقيون والمصريون فى روما وبرلين وانقره على زملائهم الالمان والايطاليين السؤال التالى : ماذا سيحل بالطلاب العرب فى المانيا وايطاليا اذا ما اجبر الانجليز بلدانهم بعـــد نشوب الحرب على قطـــع العلاقات الديبلوماسية مـــع المانيا وايطاليا وعلى اعتقال رعايـــا دول «المحور» . كان جواب ريبنتروب وتشيانو وحيد الدلالة : بما ان قادة بلديهما اصدقاء للعرب على المكشوف ، فانهـم لن يقتدوا ، طبعا ، بمثال المستعمرين الانجليز ، وسيؤمنون فى جميع الاحوال للطلاب العرب الفرص الضرورية لمواصلة الدراســة فى الجامعات الالمانية والايطالية . ولكنهم شرعوا منذ سنـــة ١٩٤١ يجندون الطلاب العرب «كمتطوعين» فى «التشكيلة ٢٨٨» . ولتشجيع حركة «التطوع» ، امر ريبنتروب بحرمان جميع الطلاب العرب الذيـــن يتعلمون فى الجامعات الالمانية من المنح الدراسية وجميع الاعانات الاخرى . ولتضليل السكان العرب فـــى الشرق الادنى ، والطلاب واسرى الحرب والمتطوعين المنقولين بمساعدة فون بابن مـــن سوريا عبر تركيا الى اليونان ، والساعين الى النضال بالسلاح من اجل تحرير سوريا ولبنان من النير الاستعمارى الفرنسى ، اعلن عن تشكيل «الفيلق العربى» باشراف مفتى القدس . وقد ارسلوا رجال هذا الفيلق الى رأس سونيون لاجل الخدمة فـى «المفرزة التعليمية الالمانية العربية» ، كما صاروا يسمون باللغة العربية «التشكيلـة ٢٨٨» .

فى سياق النصف الثانى من سنة ١٩٤١ ، قامت «هيئة الاركان الخاصة – ف» فى رأس سونيون ، والسفـــارة الالمانية فى انقره

برئاسة فون بابن ، وشبكة عملاء الابفير فى ايران والعراق وسوريا وشرقى الاردن وفلسطين ومصر بنشاط دعائى وتخريبى محموم . وفى رأس سونيون كان عدد متزايد ابدا مـــن الوحدات والمفارز الداخلة فى قوام «التشكيلة ٢٨٨» تقوم يوميا تقريبـا بتدريبات ومناورات حربية ؛ وكان عملاء الابفير يقومون باعمال التخريب فى البلدان العربية ، وكانت محطات الاذاعة فى برلين ورأس سونيون وباری تدعو العرب الى الانتفاض فورا على المستعمرين الانجليـــز والفرنسيين . وفى الوقت ذاته ، كانت تجرى فى برلين وروما مفاوضات مع مفتى القدس امين الحسينى الذى كـــــان يطمح الى اعتراف قادة دول «المحور» به قائدا روحيا لجميع المسلمين فـى الشرقين الادنى والاوسط ، ومع رشيد عالى الكيلانى الذى كان يصر على اعتباره رئيسا للحكومة العراقيـــــة فى المنفى . وكان هذان القائدان العربيان يحاولان حمـــل ريبنتروب وتشيانو على اصدار بيان خاص باعلان استقلال العراق و«سوريا الكبرى» التى كان مـن المزمع ضم فلسطين ولبنان وقسم من شرقى الاردن اليها . ولاجل تنسيق جميع هذه الاعمال والاجراءات وتسوية الخلافات بين المانيا وايطاليا ، الطامعتين بفرض الحماية العليـــا على مسلمى الشرق الادنى ، وازالة جميع التناقضات المتفاقمة اكثر فاكثر بيـــن المفتى ورشيد عالى الكيلانى ، انشئـــت فى وزارة الخارجيـــة الالمانية ، كما سبق ان ذكرنا ، «اللجنة العربية» برئاسة غروبا . وكان غروبا يتجوب بلا انقطاع بين اثينا وروما وبرليـن ، ويعقد مداولات مطولة مع ممثلى هيئة اركان القيادة العامة العليا الالمانية ، ويهيىء المذكرات الى ريبنتروب عن نتائج المفاوضات . وكانـــت الامبريالية الالمانية تستعد بنشاط واستهداف الى القفزة على الشرق الادنى آملة ان تقوم بها بعد تنفيذ خطة «بربار وسا» .

الا ان هزيمة القطعان الالمانية الفاشية فى معركة موسكو فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ أجلت تنفيذ هـــذه الخطط البعيدة المدى . وبما ان الضربة المباشرة ، الجبهوية ، الموجهة الى القوات المسلحة السوفييتية لم تسفر عن ابادة الجيش الاحمـر والاستيلاء على موسكو ولينينغراد ، فقد اخذوا يميلون فى الاوساط الحاكمة فى المانيا الى توجيه الضربة الحاسمـــة فى سنة ١٩٤٢ فى الاتجاه

الجنوبى الشرقى ، وشق طريق الى القفقاس الشمالى والى ما وراء القفقاس (ارمينيا وجورجيا واذربيجان) لاجل الوصول ، كما اشير فى التوجيه رقم ٣٢ ، الى الشرق الاوسط ، مع القيام فى الوقت نفسه باختراق من بلغاريا عبر تركيا الى بغداد ، ومن ليبيا عبر مصر وفلسطين كذلك الى عاصمة العراق . ونحو اوائل شباط (فبراير) ١٩٤٢ ، جمعوا فى برلين ، من عموم اوروبا التى احتلها الالمان ، الاختصاصيين فى شؤون البترول ، وانشأوا هيئة اركان «بترولية» من المهندسين والجيولوجيين وخبراء المالية لاجل ادارة جميع المؤسسات البترولية فى الشرقين الادنى والاوسط . وقد دقق امر من ريبنتروب بتاريخ ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢ ان المقصود الاستعداد لاستغلال «القطاعات البترولية فى مختلف مناطق الشرق العربى وايران (كركوك ، وخانقين ، وعبادان ، والكويت ، والبحرين) وكذلك خطى انابيب البترول الى طرابلس وحيفا ومصفاتى البترول فى هاتين المدينتين» (٨٣) .

وفى الوقت نفسه تسارع اعداد الاجراءات السياسية . ففى ٧ شباط (فبراير) ١٩٤٢ صادق ريبنتروب على مقترحات غروبا الواردة فى مذكرته . وقد جاء فى هذه المذكرة انه سيصار فى تبيليسى ، فور استيلاء القوات المسلحة الالمانية عليها ، وباشراف القيادة الالمانية ، الى انشاء «حكومات لاجل العراق وسوريا الكبرى وايران» يتعين عليها ان تقدم للسلطات الالمانية اقصى المساعدة للاستيلاء على بلدان الشرق الاسلامى واحتلالها واستثمار ثرواتها البترولية (٨٤) .

وفى ٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٢ ، وقع هتلر التوجيه رقم ٤١ – اى الامر بالهجوم الصيفى . وقد جاء فيه ان المهمة الرئيسية التى تواجه القوات المسلحة الالمانية هى الهجوم فى الاتجاه الجنوبى الشرقى لاجل الاستيلاء على مصادر البترول القفقاسية واختراق القفقاس (٨٥) .

وقد حلل القائد العسكرى السوفييتى البارز ، مارشال الاتحاد السوفييتى ، فاسيليفسكى ، هذا التوجيه وكتب يقول : «باختراق القفقاس ربطت الزمرة الهتلرية امر اجتذات تركيا التى لا تشغل موقف حسن الجوار من الاتحاد السوفييتى الى الحرب الى جانب

المانيا ، وكذلك امر الاستعداد لاقتحام الشرق الادنى» (٨٦) .

ولاجل الاستيلاء على القفقاس ، ومواصلة توسيع العدوان في اتجاه بلدان الشرقين الادنى والاوسط ، خصصت قيادة الجيش الالماني خيرة وحدات الدبابات والوحدات الجبلية التي تدربت تدربا خاصا لاجل العمليات الحربية في المناطق الجبلية العالية وفي صحارى آسيا . وفي تموز (يوليو) ١٩٤٢ ، ضموا هذه الوحدات الى مجموعة الجيوش «أ» التي كان يرأسها الفلدمرشال ليست . ولاجل اختراق القفقاس وضعت خطة معقدة اسميت اصطلاحا «ايدلفيس» . وكانت هذه الخطة تنص ، كما قرر توجيه هتلر رقم ٤٥ بتاريخ ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٤٢ ، على احتلال القفقاس الشمالي وزحف المجموعة الشرقية من القوات الالمانية بمحاذاة ساحل بحر قزوين الى باكو ، وزحف المجموعة الغربية بمحاذاة ساحل البحر الاسود الى توابسه ، واخيرا ، عبور سلسلة القفقاس الكبرى مع الخروج الى مناطق تبيليسي وكوتاييسي وسوخومي (٨٧) . وكان من المرتأى بعد ذلك الشروع في مهاجمة الشرق الاوسط .

وبما ان هجوم مجموعة الجيوش «أ» في تموز (يوليو) ١٩٤٢ بدأ وتطور بموجب الخطة ، فقد تقرر في الجلسة الموحدة لقادة هيئة الاركان العامة الالمانية ودائرتي ريبنتروب وكاناريس انه آن الاوان لاستخدام الوحدات المسلحة في «هيئة الاركان الخاصة – ف» . وفي ٥ آب (اغسطس) ١٩٤٢ ، بدأ نقل هذه الوحدات من رأس سونيون الى رومانيا عبر بلغاريا . وفي ٢٠ آب ١٩٤٢ ، اتخذت هيئة اركان القيادة العامة العليا الالمانية قرارا بالشروع في تحويل «هيئة الاركان العامة – ف» الى فيلق ذي مقصد خاص هو الفيلق «ف» وتقله الى احتياطي مجموعة الجيوش «أ» في ستالينو (دونيتسك ، الاتحاد السوفييتي) . وكان من المرتأى ، بعد دخول القوات المسلحة الالمانية الفاشية الى تبيليسي ، البدء بنقل وحدات الفيلق «ف» على السكة الحديدية عبر روستوف الى القفقاس وما وراء القفقاس لكي يشرع الفيلق على الفور في التقدم نحو ايران الغربي والعراق ، مع الوصول الى البصرة وبغداد . وهناك كان عليه ان ينضم الى قوات رومل التي كانت تحسب ان تعبر قناة السويس في خريف ١٩٤٢ . ومنذ ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢ دخل الفيلق

«ف» رسميا قوام مجموعة الجيوش «أ» ، رغم انه كان يخضع عمليا لهيئة اركان القيادة العليا الالمانية . وكانت فى الفيلق «ف» مفارز ووحدات من جميع اصناف السلاح . وكانت كل كتيبة من كتائبه الثلاث مزودة بالسيارات وتوازى فوجا من حيث عدد رجالها ومن حيث تسليحها ومن حيث امكانياتها التكتيكية والنارية . وكانت الكتيبة الثالثة تتألف كليا من العرب (العراقيين والسوريين والفلسطينيين والاردنيين والمغاربة) . وكان الفيلق يضم كتيبة خاصة من الدبابات وفرقة من المدفعية الثقيلة ، وفصيلة من الطائرات ، ومفارز اخرى . وكان الفيلق مجهزا كليا بالآليات . وكان عدد افراده الاولى زهاء ٦ آلاف جندى وضابط . وبعد نقله الى القفقاس ، ضموا اليه كتائب اضافية من الدبابات وفوجا من الخيالة (٨٨) . وفضلا عن الاعداد الحربى والسياسى ، كان ملاك الفيلق «ف» يعكف على دراسة الجغرافية والظروف الطبيعية فى عموم منطقة الشرقين الادنى والاوسط ، ويدرس عددا من اللغات الشرقية .

وكانت صورة «اكليل بيضوى الشكل ، وفى الاكليل نخلة مائلة ، وشمس صاعدة فوق رمل الصحراء الاصفر ، وفى اسفل صورة الصليب المعقوف الاسود» العلامة المميزة للفيلق «ف» . وكانت القيادة النازية تعتبر انه يجب على هذا الفيلق ان يكون تشكيلة ضاربة هاجمة وفى الوقت نفسه تشكيلة سياسية تخريبية ، تنطلق فى طليعة فرق الدبابات الهتلرية من مجموعة الجيوش «أ» التى كانت تأمل ان تشق طريقا لها عبر ما وراء القفقاس الى الشرق الاوسط .

علق هتلر على عمليات الفيلق «ف» قدرا كبيرا من الاهمية الى حد انه امر فى ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ : «بدءا من كانون الثانى (يناير) ١٩٤٣ يجب نقل ثمانى تشكيلات آلية صالحة للخدمة فى الظروف الاستوائية من الغرب الى الشرق - الى جبهة القفقاس» اى لاجل تعزيز الفيلق «ف» الذى يمكن تحويله الى جيش مستقل اذا توفرت الظروف الملائمة . ان هذا الامر لم يدل على الاهداف الحقيقية من مجموعة الجيوش «أ» وحسب ، بل سدد ضربة الى خطط الحليف الايطالى الذى حسب ان يستخدم قواته والفيلق الافريقى بقيادة

روميل لاجل اقتحام مصر وتحويلها الى مركز رئيسى لعملياته الهجومية فى الشرق . زد على ذلك ان الفاشيين الايطاليين عولوا فى هذه الحال على مفتى القدس امين الحسينى الذى تأزمت علاقاته مع رشيد عالى الكيلانى وحماته الفاشيين الالمان الذين لم يرغبوا فى الاعتراف بالمفتى رئيسا لمسلمى الشرقين الادنى والاوسط ، تأزما حادا فى سنة ١٩٤٢ . وهكذا عول النازيون على فيلقهم الشرقى كما كانوا يسمون بصورة غير رسمية الفيلق «ف» وعلى شق طريق الى طهران - بغداد ، لانهم كانوا يحسبون ان يبدأوا من هناك بالضبط النضال من اجل السيادة على بلدان الشرق الاسلامى .

ان ظهور الفيلق الخاص «ف» على الحدود الايرانية العراقية كان يشكل خطرا جديا للغاية على شعوب الشرقين الادنى والاوسط . وباعتقاد كيتل وريبنتروب وكاناريس ، كان ينبغى تحويل الآلاف من صف الضباط والجنود فى قوامه الى آمرين صغار وضباط للمفارز التى كان من المرتأى تشكيلها فى بلدان الشرق الاسلامى . وهذه المفارز كان ينبغى ان تتألف من عشرات الآلاف من العرب والاكراد والاتراك والايرانيين الذين اضطهدهم المستعمرون الانجليز والفرنسيون وفرضوا عليهم سيادتهم خلال سنوات وسنوات ، والذين ضللتهم وخدعتهم اعمال التخريب الايديولوجى التى قام بها الدعاة الفاشيون والاعمال الهدامة التى قام بها عملاء الابفير ، ونداءات ودعوات الزعماء المسلمين الذين هاجروا فى زمن الحرب الى برلين وروما وأملوا فى التوصل ، بمساعدة بلدان «المحور» ، الى التحرر من النير الاستعمارى الانجلو-فرنسى . اما فى الواقع ، فان اقتحام الجيوش الهتلرية التى كان يجب ان يسير فى طليعتها الفيلق «ف» للشرق الاوسط كان من شأنه ان يعنى حلول امبرياليين اشد جشعا وضراوة ووحشية وتعطشا للدماء من الامبرياليين الانجليز والفرنسيين . وفى هذه الحال ، كان لا بد ان تجد شعوب الشرق الاسلامى نفسها لسنوات عديدة فى السجن الفاشى الرهيب .

ولكن الفيلق الخاص «ف» لم يستطع ان يشق طريقا لنفسه الى الشرق الاوسط . ففى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢

خاضت وحداته التى تقدمت على الجناح الشمالى من جيش الدبابات الالمانى الاول رحى القتال ضد الوحدات السوفييتية من فيلـــق الخيالة الكوبانى الرابع . وفى غمار قتال عنيـــد ودموى فى اتجاه نالتشيك – اوردجونيكيدزه ، اوقفت القوات المسلحة السوفييتية قوات مجموعة الجيوش «أ» . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٢ بدأت تشكيلات هذه المجموعة تتراجع وتنسحب .

الا ان القيادة الالمانية التى ظلت تعلـــق الآمال على استخدام الفيلق «ف» قررت ان تسحب بسرعة وحداته المستضعفة مـــن منطقة المعارك . وفى اواخر كانون الاول بدأت هيئة اركان القيادة العامة العليا للقوات المسلحة الالمانيـــة ، بالاتفاق مع وزارة الخارجية وبمصادقة هتلر مفاوضات مع الايطالييـــن بشأن ارسال الفيلق «ف» الى تونس ، آملا فى استخدامـــه فى منطقة اسلامية اخرى – اى فى افريقيا الشمالية . وفـــى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٣ ، جرى تحويل الفيلق «ف» من جديد الى «الاركان الخاصة – «ف»» وفى شباط (فبراير) جرى نقلـه جوا الى تونس وعلى رأسه الجنرال فلمى . وفى تونس بدأ من جديد تأليف تشكيلة عسكرية كبيرة بفضل المدد من عداد المغاربة والتونسيين الذين ضللتهم الدعاية الفاشية ، ومن بعض مجموعات العـــرب من بلدان الشرق الاوسط . وآنذاك تحققت رغبة مفتى القدس اذ اطلق رسميا على الفيلق «ف» اسم «الفيلق العربى» . ولكن المجموعة الايطاليـــة الالمانية المؤلفة من ٢٥٠ الف رجل والتى كان الفيلق من عدادها ، استسلمت فى ايار (مايو) ١٩٤٣ عند رأس بون بعد ان وقع فى كماشة بين قوات الجيش الانجليزى الثامن المهاجم من ليبيا ، والقوات الانجلو-اميركية ووحدات «فرنسا الحرة» المهاجمة من الجزائر .

هكذا انتهى وجود الفيلق «ف» الذى علقـــت عليه الاوساط الحاكمة فى المانيا الفاشية آمالا كبيرة جدا . وفى المعارك الطاحنة فى جوار ستالينغراد وفى القفقاس الشمالى وفـــى قوس كورسك هزمت القوات المسلحة السوفييتية واسرت ومحقـــت التشكيلات الضاربة الفاشية الالمانية التى كانت موجهة ، بموجب خطـــة «بربا روسا» ، لا الى احتلال الاتحاد السوفييتى وحسب ، بل ايضا الى احتلال بلدان الشرق الاسلامى واستعباد شعوبها .

فى سياق القرن العشرين حاول الامبرياليون الالمان مرتين — فى عهد غليوم الثانى وفى عهد هتلر — ان يستولوا على الشرقيـن الادنى والاوسط ، ويمتلكوا البترول العربى والايرانى ويستعبدوا ملايين المسلمين . ولكن هاتين المحاولتين منيتا بالفشل . وقد كانت الهزيمة الثانية نتيجة مباشرة لسحق الآلة الحربية الالمانية وابادتها فى الجبهة السوفييتية .

الفصل الثامن

عدوان الامبريالية الاميركية على ايران

١ ـ تسرب الراسمال الاميركي الى ايران في القرن التاسع عشر . دور المرسلين

نتيجة للمناقشة الضارية التي نشبت في الاوساط الحاكمة الاميركية بعد الثورة الايرانية سنة ١٩٧٩ حول معرفة «من المذنب في ضياع ايران» ، سنحت للرأي العام الاميركي والعالمي فرصة الاطلاع على الكثير من الوثائق والمواد التي تكشف تاريخ النضال الذي خاضته فيما وراء الكواليس وزارة الخارجية الاميركية والمركب العسكري الصناعي ومصالح المخابرات الاميركية لاجل تحويل ايران الى رأس جسر بالغ الاهمية للامبريالية الاميركية في العالم الاسلامي. وقد اضطرت هذه المعلومات واشنطن الرسمية الى الاعتراف ، وان جزئيا ، بدور الولايات المتحدة الاميركية في الانقلاب الدموي الذي وضع الشاه محمد رضا بهلوي وحاشيته العسكرية والبوليسية في دست الحكم في سنة ١٩٥٣ . وفي هذه الحال يجهدون في واشنطن لتقديم البرهان ، اولا ، ان المسؤولية عن ذلك تقع على الادارات الاميركية السابقة ، وثانيا ، ان الاميركيين لم يظهروا في ايران الا بعد الحرب العالمية الثانية وان الرغبة في تأمين وصول البترول الايراني بلا خلل ولا عائق الى حلفاء الولايات المتحدة الاميركية في الناتو واليابان كانت السبب الوحيد لاهتمامهم بايران .

ولكن الوقائع التاريخية والبحوث الجدية والوثائق الارشيفية تدحض هذه المزاعم ، وتبين بصورة مقنعة ان التسرب الاميركي الى ايران قد بدأ منذ ١٥٠ سنة ، وقررته في البدء مصالح تجار الافيون المغرضة ، وفيما بعد ، مصالح احتكارات السكك الحديدية والاحتكارات البترولية ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين ،

الخطط الحربية الستراتيجية التى حاكتها الاوساط الحاكمة الاميركية ولاسيما منها المركب العسكرى الصناعى .

فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، اوضحنا بالتفصيل مصلحة الاوساط الحاكمة الاميركية فى اوائل القرن التاسع عشر فى التجارة غير اللائقة ولكن المفيدة جدا ، تجارة الافيون مع الصين . ولكن قسما كبيرا من الافيون الذى كان يستحصل عليه الاميركيون فى ازمير لم يكن تركى الاصـــــل بل ايرانى الاصل . وبعد ان امّن الاميركيون لانفسهم منافع خاصة بفضل المعاهدة المعقودة مع تركيا سنة ١٨٣٠ ، ووضعــوا تحت رقابتهـــم المرافئ التركيـــة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ثم مرافئ مسقط فى الخليج العربى التى كان يجرى عبرها تصدير الافيون الايرانى ، بدأوا يتسربون مباشرة الى ايران . ولكنهم واجهوا فى هذا البلد مقاومة حازمة من جانب المنافسين البريطانيين فقرروا فى الآونة الاولى ان يموهوا الصراع من اجل النفوذ فى ايران بستار مدارس المرسلين وغيرها من نقاط الارتكاز .

فى اوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، كما يبين المؤرخ الايرانى كيانفر ، حمل المرسلون الاميركيون الشاه محمد على اصدار فرمان بفتح مدرسة اميركية فى مدينة اورميا (حاليا رضايه) (١) . وفى سياق القرن التاسع عشر فتحت الارساليات البروتستانتيـــة الاميركية عشرات المدارس فى ايران وحولتها الى مراكز لاعداد المثقفين الموالين للاميركيين . ان العلمــــاء والكتاب الاجتماعيين والصحفيين الاميركيين يمدحون بشتى الوسائل نشاط المرسلين الاميركيين التنويرى فى ايران خلال تلك السنوات . الا ان الوقائع المتوفرة لدينا تؤكد خلاف ذلك . فان الثورى الديموقراطى الارمنى البارز نالبانديان كتب فى اواسط القرن التاسع عشر عن نشاط المرسلين الاميركيين فى الشرق الاوسط : «انهم ناهبو حريـــة اعتقاد الآخرين . . . وهم يعتصرون آخر قطرة من القوة المعنوية والعقل الحر لكى يضطهدوا ضحيتهم الى مــــا لا حدّ له . ولهذا سيعتبرون على الدوام عثا يلسع البشرية التعيسة . الحرية ليست سوى طعم فى صنارة الواعظين البروتستانت . الويل للغشيم الذى يعلق فى طعمهم ! فالعبودية نصيبه الابدى !» (٢) .

هكذا كان فجر تدخل الاميركيين «الثقافى» فى ايران . وقد اوجد نشاط المرسلين المقدمات لاجل تسرب الاميركيين السياسى فى ايران . وفى ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥٦ تم التوقيع على معاهدة اميركية ايرانية بشأن الصداقة والتجارة أمنت امتيازات كبيرة للتجار وارباب العمل الاميركيين .

ومن جراء المقاومة الفعالة التى ابدتها الديبلوماسية البريطانية لم تفلح الولايات المتحدة فى فتح سفارة لها فى طهران الا فى شباط (فبراير) ١٨٨٣ . وفى الحال انخرط السفير الاميركى الاول بنيامين بنحو نشيط فى الصراع السياسى الداخلى فى ايران ، مقيما الاتصالات مع زعماء الاكراد والاشوريين ، الامر الذى استثار كبير الاستياء فى اوساط رجال الدين الشيعيين . وكان بنيامين يطبل ويزمر فى طهران لصداقته المنزهة لايران ، ولكنه كان فى الوقت ذاته ينظر بتعال وازدراء الى ايران وثقافتها العريقة . وفى احد تقاريره الى وزارة الخارجيـــة الاميركيـــة نعت الايرانيين «بالشعب المباع والمتعصب» (٣) . وبدأ خلفه ، ونستون ، يسعى بكل حزم لحمل الشاه ناصر الدين على منح الرأسمال الاميركى امتياز بناء السكة الحديديـة من طهران الى بوشير حيث سبق ان افتتحت فى سنة ١٨٨٤ قنصلية اميركية . الا ان المنافسين البريطانيين كشفوا امام الملأ نظام الرشوات التى حصل ونستون بواسطتها على الامتياز . ومن جراء الفضيحة الناشبة ، اضطر ونستون الى مغادرة ايران . وحصل السفير الاميركى الجديد برات من الشـــاه على امتيـــاز بالتنقيب عن البترول فى القسم الجنوبى الغربى من ايران واقنع ناصر الدين بتوقيع رسالة سرية اعدها الى الرئيس الاميركى تتضمن طلبا بالسماح بتوظيف الرساميـــل الاميركية فى ايران ودعوة الى «انقاذ ايران من بريطانيا وروسيا» (٤) .

منذ اوائل القرن العشرين – فى عهد رئاسة تيودور روزفلت ، اخذ التوسع الاميركى فى ايران يشتد . كذلـــــك تعاظم نشاط المرسلين والديبلوماسيين والتجـــــار والماليين والمهندسين والبتروليين . وقد قال تيودور روزفلت مستحثا اياهم على اجتراح «مآثـــر» جديدة فى البلدان المستعمرة والتابعـــة : «المجـــد

للمرسلين ، المجد للجنود ، المجد للتجار الذين يفعلون فى ايامنا الكثير الكثير لحمل النور الى زوايا الارض المظلمة» (٥) .

٢ ـ محاولة فرض الرقابة المالية على ايران
فى اوائل القرن العشرين . بعثة مورغان شوستر .

شنت الولايات المتحدة الاميركية فى سنة ١٨٩٨ اول حرب فى عهد الامبريالية ـ الحرب الاسبانية الاميركية ـ فاستولت على كوبا وجزر الفيليبين ورقع من الاراضى فى المحيط الهادى ، وعززت مواقعها فى الصين وسرعان ما تحولت الى دولة استعمارية عدوانية . وفى الوقت نفسه قوت الاحتكارات الاميركية تسربها فى الشرقين الادنى والاوسط حيث حاولت ان تستغل الثورة التى نشبت فى كل من تركيا وايران بتأثير من الثورة الروسية سنة ١٩٠٥ والتى وجهت رأس حربتها الى الحكومتين الاقطاعيتين القديمتين وثيقتى الارتباط بالدول الاستعمارية الاوروبيـــة . وكانت هذه الدول تستهدف التدخل فى اقتصاد هذين البلدين وسياستهما تحت شعار توطيد استقلالهما . ففى سنة ١٩١٠ ، مثلا ، حصل الاميرال كولبى تشيستر من الحكومة التركية ، بمشاركة نشيطة وفعالة من جانب وزارة الخارجية الاميركية ، على امتيازات احتكارية فى ميدان السكك الحديدية وميدان استخراج الخامات ، شملت قسما كبيرا من تركيا .

وفى سنة ١٩١٠ ايضا ، حملت الديبلوماسية الاميركيـــة الحكومة الايرانية على دعوة مستشارين ماليين اميركيين الى ايران . وبمبادرة شخصية من الرئيس الاميركـــى تافت ، عُيِّن مورغان شوستر رئيسا لهذا الفريق من المستشارين ؛ وكان شوستر قد شغل فى غضون ١٠ سنوات مناصب بارزة فى الادارة الاستعمارية الاميركية فى كوبا والفيليبين . ومما له دلالته ان اربعة من خمسة اميركيين كان يتشكل منهم فريق شوستر ، كانوا يعملون برئاسته فى كوبا وفى الفيليبين . وحين وصل شوستر الى ايران ، عينوه فى منصب كبير خازنى البلد ، ونال الحق فى رقابة جميع عمليات الحكومة المالية والنقدية ، بما فى ذلك جباية الضرائب والتفتيش

والمحاسبة . ومذ ذاك ، لم يبق بوسع اية وزارة ايرانية ان تقوم باية عمليـــة مالية بدون توقيـــع كبير الخازنين . وقد لاحظ الديبلوماسيون الاجانب ان شوستر «بدأ يتمتع بحقوق اكبر من حقوق وزير المالية وكل مجلس الوزراء فى ايران» (٦) . وفى ١٣ حزيران (يونيو) ١٩١١ مرر شوستر عبر المجلس قانـــون اعادة تنظيم مصلحة المالية فى ايران ، وبدأ ، بمساعدة فعالة من جانب السفير الاميركى فى طهران راســـل ، يستعيض عن الموظفين الايرانيين بموظفين اميركيين وانجليز ، وحاول ان يضـــع تحت رقابته مصلحة الجمارك الايرانية . وفي سنة ١٩١١ ايضا ، شرع شوستر فى مفاوضات مع الاوساط المالية الانجلو-اميركية بشأن الحصول على قرض ضخم جدا بمقاييس ذلك الزمن ، قدره ٥ ملايين جنيه استرليني ، شرط ان يوضع اقتصاد ايران تحت رقابـــة اصحاب المصارف الغربيين لمدة ٤٠ سنة لضمان تسديده . وقد حللت مجلة اميركيـــة نافذة فى ذلك الحين نشاط شوستر فكتبت تقول : «ان بلاد فارس ستحكم من نيويورك» (٧) .

وبعد فترة وجيزة رأى الامبرياليون الاميركيون ان الرقابـــة المالية لا تكفى لفرض السيادة الاميركية التامة على ايران بمساندة فعالة من جانب السفير الاميركى راسل . ففى خريف ١٩١١ ، طالب شوستر بانشاء صنف جديد من القوات المسلحة فى ايران ، هو درك المالية ، وبوضعه تحت قيادته الشخصية . وقد انشىء هذا الدرك رسميا لاجل جباية الضرائب ؛ اما فى الواقع ، فقد تحول الى دعامة عسكرية لشوستر والاحتكاريين الاميركيين فى ايران . وانشأ شوستر وراسل اولى فصائل درك المالية من ٢٠٠٠ عنصر ، وطلب من الحكومة الايرانيـــة زيادة عدد عناصر هذا الدرك الى ١٥٠٠٠ عنصر . وفى الوقت نفسه طالب الاميركيون بتصفية الوحدة العسكرية النظامية الوحيدة آنذاك فى ايران هى لواء القوزاق . ولو تحققت هذه الخطط ، لخضعت ايران ، لا للرقابة المالية وحسب ، بـــل ايضا للرقابة العسكرية من جانب الولايات المتحدة الاميركية .

لاجل التغلب على معارضة انجلترا ، توصل شوستر الى تعيين الملحق العسكرى الانجليزى فى ايران الرائد ستوكس رئيســـا للدرك . وتبين وثائق الارشيف ان كـــل نشاط هذا الجاسوس

الانجليزى خلال سنوات وسنوات «قد اكسبه شهرة واضحة تماما كمتآمر ، وسياسى محتال ، وكاره ضار للروس» (٨) .

نحو اواخر ١٩١١ ، كانت البعثة المالية الاميركية تضم ١٤ موظفا استعماريا محنكا من الفيليبين وكوبا ، وكان درك المالية فى ايدى ٤ ضباط اميركيين سبق ان كوفئوا بالاوسمة والمداليات اثناء الاستيلاء على جزر الفيليبين وقمع حركة التحرر الوطنى بلا رحمة فى هذه البلاد .

وتدريجيا شرع شوستر ، كما اعترف بنفسه فى كتابه ذى العنوان الواسع الدلالة - «خنق بلاد فارس» - يجمع فى يديه جميع ازمة ادارة البلد ، دون ان يأبه البتة بالحكومة . وكان شوستر يجرى المفاوضات بشأن القروض ، وامتيازات بناء السكك الحديدية ، وشراء الاسلحة ، دون ان يطلع الوزراء على نواياه . وخلافا للقوانين الايرانية ، انشأ محكمة خاصة برئاسة اميركيين لاجل الفصل فى قضايا الموظفين الايرانيين الذين يخالفون اوامره وتعليماته . ولاجلهم بنى فى طهران سجن خاص . وانشأ شوستر مصلحة اخبارية خاصة به ، سبقت انشاء «سافاك» (مصلحة الامن العام فى عهد شاه ايران) . وكان الافراد الذين رشاهم واشتراهم يستمعون خلسة الى احاديث الوزراء الايرانيين ، ويسرقون الوثائق ، وما الى ذلك .

ويحاول شوستر فى كتابه ان يبرهن ان كل نشاطه كان يرمى الى خير ايران . اما فى الواقع ، ففى ايلول (سبتمبر) ١٩١١ ، زيدت كثيرا الضرائب على ذبح المواشى ، واللحم ، ومنتجات التبغ ، والاصباغ . وقد تردى وضع ايران الاقتصادى كثيرا وبدأت المجاعة فى عدد من المدن . وتعاظمت كثيرا ديون ايران للمصارف الاجنبية . وفى طهران وتبريز ومشهد ، نشبت اضطرابات شعبية ، لا ضد السلطات الايرانية وحسب بل ايضا ضد شوستر واعوانه مباشرة . وظهرت فى الصحف الايرانية مقالات تفضح شوستر . وقد اثار النبأ القائل ان شوستر افرغ الخزينة الايرانية كليا واستدان من مصرف شاهينشاه اكثر من ٤٠ الف تومان استياء بالغا بين كبار رجال الدين فى العاصمة وفى بازار طهران . وحدثت اعتداءات على اعضاء البعثة الاميركية .

فى كانون الثانى (يناير) ١٩١٢ ، اخذت الحكومة الايرانيـــة بالحسبان الوضع السياسى الداخلى والصدى الدولى لنشاط البعثة الاميركية ، فقررت اقصاء شوستر من منصبه ، وصفت البعثة المالية الاميركية . وهكذا انتهت بالاخفاق بالنسبة للاميركيين اول محاولة منهم لاستعباد ايران . وبعد الاطلاع على كتاب «المسألة الايرانية والحرب» الذى وضعه العالم الفرنسى والمستشار القانونى لحكومة ايران خلال زمن مديد ديمورنى وكرس قسما كبيرا منه لنشاط شوستر ، استنسخ لينين من الكتاب الفقرة التالية : «الرقابة على مالية الدولة ، التى ارادوا التوصل اليها ، صارت صيغة جديدة للحماية المموهة ، الدارجة الى اقصى حد فى الوقت الحاضر» . والى جانب هذا المقتبس ، كتب لينين : «حسنا قيل» (٩) .

بعد مرور ١٠ سنوات على فشل بعثة شوستر ، قامت الامبريالية الاميركية بمحاولة جديدة لتثبيت اقدامها فى ايران .

٣ ـ خطط الرقابة على ايران فى العشرينيات . بعثة ميلسبو الاولى

فور انتهاء الحرب العالمية الاولى ، انخرطت الاحتكارات البترولية الاميركية بنشاط فى الصراع من اجل الثروات البترولية فى بلدان الشرقين الادنى والاوسط . وقد اكتسب هذا النشاط طابعا بالغ التحدى فى سنة ١٩٢١ ، عندما صار هاردينغ ، صنيعة الاحتكارات البترولية الاميركية ، رئيسا للولايات المتحدة . ففى غضون سنة ١٩٢١ ، جرت فى واشنطن وطهران مفاوضات مكثفة غايتها منح الشركة البترولية الاميركية «ستاندارد اويل» امتيازا احتكاريـــا باستكشاف واستخراج البترول فى جميع اقاليم ايران الشمالية الخمسة . وقد اشترك عن الجانب الاميركى فى المفاوضات اشتراكا نشيطا ديكتاتور ايران المالى السابق مورغان شوستر والمستشار المالى فى وزارة الخارجية الاميركية ارتور ميلسبو . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢١ صادق المجلس الايرانى على هذا الامتياز تحت ضغط الديبلوماسية الاميركية والعملاء الاميركيين .

ولكن سرعان ما انتقلت الديبلوماسية البريطانية تحت ضغط

شركة البترول الانجلو-ايرانية الى الهجوم المعاكس ضد المنافسين الجدد . ولاجل القضاء على معارضة البريطانيين ، تنازل رجال المال الاميركيون ، خلافا للتعهدات المهيبة ، عن نصف اسهم الشركـــة الجديدة لمدراء شركة البترول الانجلو-ايرانية ، وهذا ما اثار كبير الاستياء في ايران ، فاضطرت الحكومة الايرانية في آذار (مارس) ١٩٢٢ الى الغاء امتياز «ستاندارد اويل» . وفهموا في واشنطن انه ينبغي اتخاذ وسائل قوية المفعول لاجل بسط الرقابة على البترول الايراني . وتقرر الاستفادة من تجربة مورغان شوستر في الظروف الجديدة . وبعد مشاورات مع اصحاب الشركات البترولية والرئيس هاردينغ ، حظيت وزارة الخارجية الاميركية بموافقة الحكومة الايرانية على تعيين ارتور ميلسبو ، الممثل غير الرسمي للشركة البترولية «سينكلر» في وزارة الخارجية الاميركيـــة ، في المنصب المؤسس حديثا في ايران ، منصب كبير اداريي المالية في ايران . وان العقد الاميركي الايراني الذي يحدد حقوق وواجبات القائد الجديد لمصلحة المالية قد وضع قصدا وعمدا بنحو غامض ومائــــع بحيث يتيح لميلسبو التدخل بنشاط في عموم الحياة الاقتصادية في ايران .

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ ، وصل ميلسبو الى طهران على رأس بعثة من ١٤ اختصاصيا اميركيا كانوا بمعظمهم قد عملوا قبل ذلك في البلدان المستعمرة والتابعة ، وانخرط على الفور في الصراع من اجل منح الشركات البترولية الاميركية امتيازا جديدا بالبترول في ايران الشمالية . وبما ان شركة «ستاندارد اويل» كانت قد اساءت الى سمعتها بعلاقاتها مع شركة البترول الانجلو-ايرانية التي كان اسمها يثير كره الشعب الايراني عن حق وجدارة ، فقد اعطيت الشركة الاميركية «سنكلر» ، كما كان ينبغي التوقع ، امتياز البترول في ايران الشمالية . وفي الوقت نفســـه ، بدأ ميلسبو ومعاونوه يجهدون لمنح الشركة الاميركية الكبيرة «اولن» امتيازا شاسعا لبناء السكك الحديدية وطرق السيارات في عموم اراضي ايران . وقد نال الاميركيون هذا الامتياز في سنة ١٩٢٤ . وبعد فترة وجيزة انشئت مصلحة خاصة للسكك الحديديـــة في ايران ، وصار الاميركي كولند رئيسها . وكان تحت رئاسة كولند ١٠ خبراء اميركيين في شؤون السكك الحديدية . ولكن نشاط

ميلسبو والديبلوماسية الاميركية لم يقتصر على ذلك . ففى سنوات ١٩٢٣ و١٩٢٤ و١٩٢٥ ، تم تعيين اميركيين فى وظيفـــة رئيس دائرة الايرادات الداخلية بوزارة المالية ، ووظيفة رئيس خزانة هذه الوزارة ، ووظائف مدراء المالية فى أهم اقاليم ايران — فارس واذربيجان وكرمان وخوزستان وغيلان . وبما ان نشاط الاميركيين العاصف فى صناعة الاستخراج وبناء السكـــــك الحديدية وطرق السيارات فى المناطق الايرانية ذات الاهمية الستراتيجية ، ورواتب الخبراء الاميركيين الخارقة العلو كانت تتطلب اموالا طائلة ، فقد طفق ميلسبو ومعاونوه يفرضون ضرائب جديدة . ومن سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٨ ، ازدادت مداخيل الميزانية الايرانية ١٠٠٪ . ولكن هذا لم يكن نتيجة لنشاط الخبراء الاميركيين الناجح ، كما حاول ميلسبو ان يقنع القراء بذلك فى كتابه «العمل الاميركى فى ايران» (١٠) ، بل نتيجة لزيادة الضرائب المباشرة وغير المباشرة زيادة هائلة . ففى هذه السنوات ، ازدادت الايرادات من ضرائب التبغ الى ثلاثة امثال ، ومن مختلف رسوم الطرق والنقليات الى اربعة امثال ، ومن احتكار الشاى والسكر الى مثلين . وكل هذا حل ، بالطبع ، عبئا مرهقا على كواهل الشغيلة وصغار التجار وارباب العمل . وقد ازداد الوضع تعقدا حين فرض ميلسبو فى سنة ١٩٢٥ ضريبة واحدة على الطرق وكذلك ضريبة على عيدان الثقاب .

ان المبالغ الضخمة المحصلة من جراء زيادة استثمار الجماهير الشعبية فى ايران زيادة كبيرة كانت تنفق فى المقام الاول ، بدعم فعال من جانب ميلسبـــو ، على الجيش والبوليس . وفى سنوات قيادة ميلسبو للماليـــة الايرانية ابتلـــع الجيش والبوليس ٤٥—٥٠٪ من نفقات الميزانية . وفى الوقت نفسه انخفضت الاعتمادات على حاجات الصحة والتعليم . حسبنا القول ان الميزانية التى اعدها ميلسبو لسنة ١٩٢٥ لم تخصص لشؤون الصحة سوى ٠,٣٪ من نفقاتها . فلا غرابـــة اذا كانت اوبئة الكوليرا تنشب فى البلاد باستمرار ، واذا كان ٣٣٪ من سكانهـــا ، حسب معطيات الاطباء الايرانيين ، يعانون من امراض العيون ، علما بان هذه النسبة بلغت ٥٠٪ فى القسم الاوسط والقسم الجنوبى من ايران .

وبالسير على طرائق مورغان شوستر ، كان ميلسبو يتدخـــل

بصفاقة وغير تكلف فى حياة ايران الداخلية السياسيــة . وكان يحاول بشتى الوسائل ان يدرأ تصفية نظام الامتيازات فى ايران . وفى سنة ١٩٢٤ ، عندما قامت حركة جماهيرية فى البلاد تطالب باعلان الجمهورية بدافع الاستياء من انحطاط آل القجار المعنوى والسياسى ومن استخذائهم امام الاحتكارات البريطانية والاميركية ، عارض ميلسبو هذه الحركــة بحزم وعزم . وكتب : «ان قيــام الجمهورية سيعنــى ثورة جديدة . . . ويؤدى الى الاضطرابات والتعقدات . والحال ان العرش هو الافيد بالنسبة لشعب لا خبرة له فى الحكم الذاتى» (١١) . وحين تلقى ميلسبو انباء تفيد ان موظفى اغلبية الوزارات الايرانية يستعدون اثناء الانتخابات الى المجلس لدعم المرشحين التقدميين الذين يعارضون آل القجار وحماتهــم الامبرياليين ، استحصل على امر يمنع عشرات الآلاف من الموظفين الايرانيين من الاشتراك فى انتخاب نواب المجلس .

كانت النتائـج الاقتصادية لنشاط بعثة ميلسبو وخيمة جدا بالنسبة لايران . ففى سياق العشرينيات ، انخفضت مزروعات التبغ ٤٠٪ ، وغلة القطن ٤٣٪ ، واقفرت الاراضى الصالحة للزراعة فى عدد من الاقاليم . ونظرا لخطر المجاعــة ، تعين شراء المؤن فى الخارج . وكل هذا ادى الى استياء بالغ ، والى بداية اضطرابات واسعة ضد الاميركيين ، لم يكن من النادر ان سار على رأسها رجال الدين الشيعيون . وتكاثرت حالات الاعتداء على رجال البعثة الاميركية وعلى الديبلوماسيين الاميركيين . وفى سنة ١٩٢٤ تعرض للضرب حتى الموت نائب القنصل الاميركى الرائد ايمبرى الذى كان يؤدى مهمات حساسة في تركيا والعراق وايران بتكليف من مصلحــة المخابرات الاميركية . وبناء على مطالبة ميلسبو القاطعة ، أعدم الجندى الايرانى مرتضى المتهم بالاشترك فى ضرب ايمبرى رميــا بالرصاص بحضور جميع اعضاء السفارة الاميركية فى طهران . ومع مر السنين ، ازداد عدد الاعمال المعادية للاميركيين .

ان عقم الطرائق المالية والاقتصادية التى طبقتها بعثة ميلسبو ، وتدخل ميلسبو بوقاحة وخشونة فى شؤون ايران الداخليــة ، ومحاولاته الصفيقة لوضع ايران تحت رقابة الاحتكارات الاميركية ، وتفاقم سخط الجماهير الشعبية الواسعة ورجال الدين والرأي العام

فى ايران تفاقما هائلا ، ان كل هذا قد اجبر الحكومة الايرانية على فسخ العقد مع ميلسبو ومعاونيه فى آب (اغسطس) ١٩٢٧ . وهكذا اخفقت المحاولة الاميركية الثانية لاستعباد ايران .

٤ ـ محاولة تحويل ايران الى شبه مستعمرة ابان الحرب العالمية الثانية . بعثة ميلسبو الثانية

بعد طرد بعثة ميلسبو فى سنة ١٩٢٧ ، هبط النفوذ الاميركى فى ايران هبوطا شديدا . ولكن هذا لم يعن ان واشنطن عدلت عن توطيد مواقعها فى ايران . وقد جاء فى مذكرات كوردل هل الذى كان خلال سنوات عديدة وزيرا للخارجيـــــة الاميركية ان ايران بالذات كانت بين جميع بلدان الشرقين الادنى والاوسط وافريقيا الشمالية تشغل مكانا خاصا فى خطط وزارة الخارجية والبيت الابيض (١٢). وفى سنوات الحرب العالمية الثانية ، قررت الاحتكارات الاميركية انه آن الاوان لاخذ الثأر من اخفـــــاق اواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات .

منذ اواخر سنة ١٩٤١ ، وبخاصة فى النصف الاول من سنة ١٩٤٢ اخذ الرعايا الاميركيون يشغلون مناصب كثيرة فى جهاز الدولة الايرانية . وفى تموز (يوليو) ١٩٤٢ وصل الى طهران بضعة جنرالات اميركيين ، وذلك رسميا لاجل «الاغراض العسكرية العلمية ولاجل دراسة مسائل النقل» . امــــــا فى الواقع ، فان كل قوى الديبلوماسية الاميركية والاوساط الماليـــــة ، ومصلحة الخدمات الستراتيجية – سالفة مصلحة المخابرات المركزية – كانت موجهة فى تلك المرحلة الى اجلاس صنيعتها ، قوام السلطنة – فى كرسى رئيس الوزارة الايرانية . وبما ان بريطانيا التى كانت من قبـــــل تناضل ضد النفوذ الاميركى فى ايران اخذت تتزايد تبعيتها حيال المعونة العسكرية والاقتصادية الاميركية ، فقد استغلت الاوساط الحاكمة الاميركية ذلك بنحو صار معـــــه قوام السلطنة فى آب (اغسطس) ١٩٤٢ رئيسا للوزارة الايرانية .

ولقد سجل قوام السلطة واخوه الاكبر وثوق الدولة صفحات سوداء عديدة في تاريخ استعباد وطنهما من قبل الامبريالية الاميركية

والامبريالية البريطانية . فان قوام السلطنة الذى صار للمرة الاولى وزيرا فى سنة ١٩١١ كان صاحب المبادرة الى دعوة بعثة مورغان شوستر التى حاولت ان تضع ايران تحت رقابـــة الاحتكارات الاميركية . وحين كان وثوق الدولة رئيســا للوزارة فى السنوات الاولى التى اعقبت الحرب ، وقع فى سنة ١٩١٩ مع بريطانيا العظمى اتفاقية جعلت ايران ضيعة للاحتكارات الاميركية . وفى سنة ١٩٢٠ اضطر وثوق الدولـة الى التخلى عن منصبه نظرا للسخط الشديد فى اوساط الرأى العام الايرانى وفى صفوف قسم من رجال الدين ، ولكنه استطاع ان يساعد قوام السلطنة ، بعد الغاء هذه الاتفاقية ، على شغل منصب رئيس الوزراء فى سنة ١٩٢١ . ويستفاد من شهادة المناضل المعروف ضد الامبريالية حسين مكى ان قوام السلطنة قبض فى سنتى ١٩٢١ و١٩٢٢ رشوات بالغة من شركتى «ستاندارد اويل» و«سينكلر» لقاء الوعد بمنحهما امتيازات رابحة فى ايران الشمالية (١٣) . وفى سنة ١٩٢٢ توصل قوام السلطنة الى دعوة بعثة ارثور ميلسبو المالية الاولى الى طهران .

وحين اصبح قوام السلطنة من جديد رئيسا لوزراء ايران فى آب (اغسطس) ١٩٤٢ ، فتح الابواب على مصاريعها امام البعثات السياسية والمالية والعسكرية الاميركيـــة . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ ، صار الاميركى شيريدان القائد الفعلى لوزارة التموين . وفى تشرين الاول وتشرين الثانى (اكتوبر ونوفمبر) ١٩٤٢ ، وصلت الى طهران بعثتان عسكريتان اميركيتان احداهما برئاسة العقيـــد شفارتسكوبف الذى دعى «لقيادة الدرك الايرانى» ، والثانية برئاسة الجنرال ريدلى الذى اشرف على اعادة تنظيم الجيش الايرانى . وفى خريف السنة ذاتها ، سنة ١٩٤٢ ، شغل العقيد الاميركى تيمرمان وظيفة المدير العام لمصلحة الشرطة . وفى الوقت نفسه تقريبا ، شغل الاميركيون وظائف كبار المستشارين فى وزارتى الصحــــة والزراعة ، كما عُيِّن هارولد غريشام رئيســـا لمصلحة الجمارك المركزية فى ايران .

وكل هذا لم يكن سوى البداية . ففى واشنطن استنتجوا انه ينبغى ان يرسلوا الى طهران رجلا ينســـق نشاط جميع هؤلاء المستشارين والاداريين الاميركيين العديدين ويوجه عملهم بموجب

خطة واحدة موضوعـــة فى وول ستريت والبنتاغون . وفى آب (اغسطس) ١٩٤٢ ، وافق قوام السلطنة على ارسال بعثة سياسية واقتصادية الى ايران ، مخولة صلاحيات واسعة جـــدا ، ويتعين عليها ان تكون شكلا ورسميا بعثة مالية . وقد عينوا رئيســـا للبعثة . . . ارثور ميلسبو . وفى خريف ١٩٧٨ ، نشرت جامعـــة ستينفورد الاميركية كتابا احدث ضجة كبيرة عنوانه «ايران فى عهد بهلوى» . وفى هذا الكتاب افرط كبار علماء الغرب ، بوحى من الدولارات البترولية الايرانية ، فى مديح حكم هذه السلالة فى غضون ٥٠ سنة . وقد اتيحت لمؤلفى هذا الكتاب الفرصة للحصول على كثير من الوثائق الديبلوماسية السرية ، واستطاعوا ، مثلا ، ان يستغلوا تسجيل الحديث بين الشاه رضا والسفير الاميركى فى سنة ١٩٢٧ لمناسبة ابطال العقد المعقود مع بعثة ميلسبو ، ولمناسبة رحيل ميلسبو بصورة اضطرارية من طهران . وقد اوضح الشاه رضا قراره بكون ميلسبو «لم يأبـــه البتة لكرامة الدولـــة الايرانية» (١٤) .

ومما له دلالته ان الحكومة الاميركية قد ارسلت ميلسبو بعد طرده من ايران ، بصفة مشرف على مالية هايتى التى كانت تحتلها آنذاك القوات المسلحة الاميركية . وقد ضغط ميلسبو بمكبس الضرائب ضغطا هائلا ، الامر الذى ادى فى سنة ١٩٢٩ الى نشوب انتفاضة معادية للاميركيين فى هايتى والى طرد ميلسبو مرة اخرى . ومع ذلك ، عينوا ميلسبو ، نظرا للخدمات التى قدمها للاحتكارات الاميركية ، فى معهد بروكينغس فى واشنطن الذى كان ولا يزال فى غضون سنوات عديدة يضع خطط التوسع الاستعمارى الجديد الاميركى . وفى هذا المعهد بالذات ، رسمـــوا فى سنتى ١٩٧٦ و١٩٧٧ ستراتيجية الولايات المتحدة الاميركية فى الشرق الاوسط ؛ وعلى اساس هذه الستراتيجية قامت صفقة كدب ديفيد .

فى خريف ١٩٤٢ نقل ارثور ميلسبو من معهد بروكينغس حيث اشترك بصورة قيادية فى وضع خطط التوسع الاميركى ابان الحرب وبعد الحرب فى آسيا ، الى المكتب الفخم لكبير اداريى المالية فى ايران . وفى كتاب «الاميركيون فى بلاد فارس» الذى اصدره معهد بروكينغس في سنة ١٩٤٦ ، تحدث ميلسبو بالتفصيل عن اعداد

بعثته الجديدة فيما وراء الكواليس ، وعن الاحاديث السرية العديدة التى اجراها فى وزارة الخارجية وفى وزارة الحربية فى واشنطن وفى وول ستريت فى نيويورك ، وعن التوجيهات التى تلقاها من قادة الحكومة الاميركية وكبريات الاحتكارات الاميركية . وكانت هذه التوجيهات تنص على بسط الرقابة الاميركية التامة فى ايران . وكانوا فى واشنطن يدركون صعوبة المهمة الموضوعة امام ميلسبو ، ولهذا تقرر دعم مواقعـــه ، لا بوسائل الديبلوماسية ومصلحـــة المخابرات والمصارف وحسب ، بل ايضا . . . بالدبابات والمدافع .

وفى اواخر شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٢ ، بدأت القوات المسلحة الاميركية تدخل ايران بدون اى مبرر شرعى . ونحو ربيع ١٩٤٣ ، اكتمل فيلق الاحتلال الاميركى بقيـادة اللواء كونولى ؛ وقد اسمى هذا الفيلـــق «قيادة الخليج العربى» ، ومنح شعارا متحذلقا ومتصنعا - سيف عربى احدب مرفق بنجمة اميركية بيضاء خماسية الاطراف على خلفية درع اخضر (اى اسلامى) . ان ادخال فيلق اميركى من ٣٠ الف رجل الى ايران بصورة رسمية قد برره الاميركيون ، طبعا ، بالحرص على امن ايران وبضرورة ضمان العمل العادى لخط النقل عبر ايران الذى كانوا يرسلون عليه من الخليـج العربى الى القفقاس الاسلحة والمعدات لاجل الجيش الاحمر بموجب الاتفاقية الاميركيـــة السوفييتية «لندـليز» («الاعارة والتأجير») .

ولكن الرأى العام الايرانى لاحظ آنذاك ان جيش الاحتلال الاميركى لم يفعل غير ان عقد الوضع فى البلاد منذ خريف ١٩٤١ ، اى بعد القضاء على «الطابور الخامس» الفاشى فى ايران ، وبعد ضمان سيادة ايران بموجب المعاهدة الحليفية الانجليزية السوفييتية الايرانيـــة بتاريخ ٢٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٢ . وبالفعل ، اوقفت القوات المسلحة السوفييتية فى ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ الهجوم الهتلرى فى القفقاس الذى لم يكن يبتغى الاستيلاء على باكو وحسب ، بل ايضا على طهران ، وبدأت فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٢ تصفية الجيش الالمانى الفاشى المؤلف من ٣٣٠ الف رجل المطوق فى ستالينغراد وجوارها . وهكذا ضمنت القوات المسلحة السوفييتية سلامة ايران وامنها . ونحو خريف ١٩٤٢ ، كـــــان الوضع السياسى الداخلى فى ايران قد استقر نوعا ما . فان شاه ايران الجديد محمد رضا ،

الذى اقسم اليمين فى المجلس على الوفاء للدستور الايرانى ، قد اضطر الى القول فى خطابه انه سيحكم البلد بموجب القوانين التى اقرها وسيقرها المجلس . وللمرة الاولى خلال سنوات عديدة استعاد المجلس حقه فى توصية الشاه بالمرشح لرئاسة الوزراء .

فما الداعى فى هذه الاحوال الى ادخال فيلق اميركى كبير الى ايران بصورة غير شرعية ؟ الجواب عن هذا السؤال تعطيه مقالة الصحفى الاميركى المعروف ، المحرر فى المجلة النافذة «نيشن» ، اوسوالد هاريسون ؛ فقد كتب فى سنة ١٩٤٣ يقول : «لقد فرضنا الحماية على ايران وقمنا بذلك بنحو هادئ وغير ملحوظ الى حد اننا ارسلنـــا الى هناك الآلاف من المدنيين والكثير من المواد الحربية ، واثرهم راح جيش احتلالى كبير اسمــه «قيادة الخليج العربى» (١٥) . وهكذا حسبت واشنطن نحو اوائل سنة ١٩٤٣ ان تحول ايران الى محمية بمساعدة قوام السلطنة وارثور ميلسبو والجنرال كونولى .

فى الاول من شباط (فبراير) ١٩٤٣ شغل ارثور ميلسبــو وظيفة المدير العام لمالية ايران ، وهى وظيفة لا ينص عليهــا الدستور الايرانى . ورغم انه كان يتعين على ميلسبو ، بموجب شروط العقد ، ان يحصر نشاطه فى المسائل الداخلة فى صلاحية وزارة المالية ، شرع المستشارون الاميركيون الذين يشغلــون مناصب ذات رواتب كبيرة جدا فى الدوائر الاخرى يقدمون لميلسبو التقارير عن عمل «وزاراتهم» . وهكذا بدأ تطبيق خطة الاحتكارات الاميركية ، وقوامها فرض الرقابة ، بمساعدة بعثة ميلسبو ، على عمل اهم الدوائر الحكومية فى ايران . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٣ ، عمد رئيس الوزراء قوام السلطنة ، لكى يسهل على ميلسبو اداء مهمته ، الى اعادة تنظيم الحكومة ، بان اشرك فيها عددا من الاشخاص المرتبطين بالولايات المتحدة الاميركية . وفضلا عن ذلك ، الغيت وزارة العمل والاقتصاد التى كان بوسعها ان تحول دون تحقيق خطط مليسبو البعيدة المدى .

بموجب شروط العقد ، لم يكن النظام المصرفى الايرانى يخضع لرقابة ميلسبو ، ولكن كبير الخزان الاميركى كلوس كان يرفض ان يدفع النقود من الخزانة بموجب اي من شيكات الوزارات والدوائر

الوزارية الايرانية اذا لم تكن تحمل تأشيرة ميلسبو . وبواسطة هذا الاسلوب خضع كل باب النفقات فى الميزانية الايرانية لاشراف البعثة الاميركية دفعة واحدة .

بعد مرور شهر ونصف شهر على بداية العمل ، حصل ميلسبو والسفارة الاميركية من المجلس الايرانى على قانون بشأن القروض لشراء المواد والمعدات الحربية فى الولايات المتحدة الاميركية لاجل الجيش الايرانى والدرك الايرانى بما قيمته ٢٥ مليون ريال . وفى الوقت نفسه تقرر الشروع فى اعادة تسليح الجيش الايرانى والدرك الايرانى بالسلاح الاميركى المعيارى . ولتوفير قاعدة مادية لهذا الاجراء الغالى جدا ، طرح ميلسبو امام الحكومة الايرانية مسألة الحصول على قرض من الولايات المتحدة الاميركية .

وهكذا اتجهت بعثة ميلسبو منذ خطواتها الاولى نحو ارساء اساس لصرح السيادة الاميركية على اقتصاد ايران وماليتها وقواتها المسلحة فى المستقبل .

والى جانب الشؤون العسكرية ، قررت بعثة ميلسبو ان تفرض رقابتها على قضية التموين ذات الاهمية الحيوية بالنسبة لايران . وبموجب تعليمات من ميلسبو ، رفع المستشار الاميركى فى وزارة التموين شيريدان سعر الخبز ٥٠٪ ، وادخل نظاما جديدا لبطاقات التموين وامر باحالة جميع احتياطيات الطحين ، لا الى اصحاب المخابز ، بل الى مصنع الخبز الخاضع لرقابته والتابع لمستودع الحبوب فى طهران . وبدأ هذا المصنع يصنع الخبز الاميركى وليس الفطير والارغفة الايرانية التقليدية . وقد اضطر ميلسبو ذاته الى الاعتراف بان «خبز مستودع الحبوب كان دائما منخفض النوعية ، رطبا ، قاسيا ، ذات قشرة مثل الاسمنت لا يتألف من الشعير وحسب ، بل ايضا من قطع من التبن والحصاة والرمل» . ومع تزويد سكان البلد بهذا الخبز ، توصل ميلسبو فى الوقت نفسه الى زيادة اسعار مشتريات القمح والشعير زيادة كبيرة . وبهذا التدبير ، أمّن ميلسبو لنفسه مساندة الملاكين العقاريين الذين كانت لهم آنذاك الاغلبية الساحقة فى المجلس . وهذا ما اتاح له طرح مسألة تخويل بعثته صلاحيات استثنائية ، وذلك ، كما اعترف بنفسه ،

لاجل «الحصول على سلطـــة ديكتاتورية على الزراعة والصناعـــة والتجارة» (١٦) .

استثار مشروع القانون بمنح ميلسبو صلاحيات استثنائية فى اوائل نيسان (ابريل) ١٩٤٣ اضطرابات كبيرة جدا فى طهران . وقد عارض التجار ورجال الدين التعسف الاميركى . وعلى سبيل الاحتجاج استقال وزير المالية صالــح . واخذت جرائد طهران تنشر بدأب وانتظام مقالات الاحتجاج على الخطط الاميركية الهادفـــة الى فرض السيادة على اقتصاد البلد . وفى ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، عندما بدأ المجلس يناقش مشروع القانـــون بشأن صلاحيات ميلسبو ، توقفت التجارة فى بازار طهــران ، واغلقت المتاجر والدكاكين فى العاصمة . واتخذت غرفة التجارة فى طهران قرارا رسميا بالاحتجاج . واثناء صلوات الجمعة ، ندد رجال الدين فى كثير من جوامع العاصمة بالتعسف الاميركـــى تنديدا حادا . وتجمعت فى الشوارع جمـوع الشعب اعرابا عن السخط على المطالب الاميركية الخطرة . وبملء الحق والصواب لاحظت الحولية الايرانيــة «بارس» لعام ١٩٤٣ ان «خطر فتنة هائلـــة قد نشب» . وبناء على طلب ميلسبو ، اغلقت السلطات العسكرية عددا من الجرائد الايرانية التقدميـــة وختمت مقراتها بالشمع الاحمر .

وفى هذه الاحوال ، ارجـــأ المجلس التصديق على الصلاحيات الاستثنائية رغم غضب السفــارة الاميركية ، وقررت الديبلوماسية الاميركية ان تؤمن لنفسها مساندة بريطانيا العظمى . ولهذا الغرض منح البريطانيون مكانا واحدا فى بعثة ميلسبو ، ومقابل هذا ، دعمت السفارة البريطانية بنشاط وهمة مشروع الصلاحيات الاستثنائية . وفى ٤ ايـــار (مايــو) ١٩٤٣ (١٣ ارديبخشت ١٣٢٣) ، صادق المجلس ، رغم بالغ سخط الرأى العام الايرانى ، على قانون مشؤوم بالنسبة لاقتصاد البلاد يمنح مدير المالية العام ميلسبو صلاحيات استثنائية .

وعلى الفور استغل ميلسبو صلاحياته فى اتجاهين . فقد حمـل المجلس على تصديق المعاهدة التجارية الاميركية الايرانية الموقعة فى واشنطن فى ٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ . وكانت هذه المعاهدة مجحفة بايران الى حد ان الحكومة الايرانية اخفتها بفائق العناية عن

الرأى العام الايرانى لانها حرمت ايران الايرادات الجمركية وفتحت السوق الايرانية امام البضائع الاميركية . والاتجاه الثانى فى نشاط ميلسبو كان اداريا وسياسيا . فقد انشأ مصلحة تثبيت الاسعار ، وهى مصلحة ضخمة كانت تضم اكثر من ٨٠٠ موظف ويشرف عليها الاميركيون وتتدخل فى وظائف جميع الوزارات والدوائر الوزارية الايرانية . ونحو صيف ١٩٤٣ اتضح فشل نشاط وزارة التموين التى كان يشرف عليها المستشاران الاميركيان شيريدان وفيفيان . فمن اصل ٧٥٠ مليون ريال انفقتها هذه الوزارة على تخزين المؤن ، بلغت الخسارة ٥٨٠ مليون ريال فى السنة المالية ١٩٤٢-١٩٤٣ ! لان اغلبية المؤن لم يتم شراؤها الا على الورق ! ولهذا بدأت المجاعة فى ايران . ورغم ان غلة سنة ١٩٤٣ كانت جيدة ، فان نشاط المستشارين الاميركيين من وزارة التموين ومن مصلحة تثبيت الاسعار اسفر عن احباط تخزين الحبوب اذ لم يتم سوى تخزين ٣٠٪ فقط من الكمية الواجب تخزينها .

ان عددا من كبار اصحاب المقامات الايرانيين ، ومنهم مثلا الحاكم العام لاذربيجان الايرانية وخراسان ، قد انقذوا سكان اقاليمهم من الجوع لمجرد انهم رفضوا قطعا تنفيذ تعليمات ميلسبو ومصلحة تثبيت الاسعار ومصلحة الحبوب والخبز التى اسسها الاميركيون حديثا . ولم تصدق بلدية طهران وعود الاميركيين بصدد تزويد السكان بالخبز ، بل فتحت مخابز ودكاكين خاصة بها لاجل خبز وبيع اصناف الخبز التقليدية من السكان عوضا عن «الخبز الاميركى» الردئ .

وفى هذه الاثناء واصل ميلسبو «اعادة تنظيم» الجهاز الادارى الايرانى . فدعى عشرات من المستشارين الاميركيين الجدد وبدأ باشرافهم تأسيس دوائر جديدة ومنها مثلا مصلحة النقل والطرق الكلية القدرة . وزيدت الاعتمادات لاجل الدرك الايرانى الخاضع لرقابة الاميركى شفارتسكوبف الى تسع مرات ، والاعتمادات لاجل الجيش الخاضع لرقابة الاميركيين ايضا الى مرتين . ولتمويل هذه الاجراءات ، عقد ميلسبو صفقة مجحفة خارق الاجحاف بايران مع شركة البترول الانجلو-ايرانية . فقد تقاضى عن سنة سلفا بدل ايجار من هذه الشركة قدره ٤٠٠ مليون ريال انفقها على تنفيذ

الخطط الاميركية ، وسمح بالمقابل لادارة شركة البترول الانجلو-ايرانية ، من باب التعويض ، ان تبيع البنزين الايرانى من سكان ايران باسعار مضاعفة !

ان نشاط المستشارين الاميركيين ، وخراب البلد قد اثارا فى اوساط الرأى العام الايرانى بالغ السخط . وقد نشرت جريدة «خور» بتاريخ ٣ تموز (يوليو) ١٩٤٣ صورة كاريكاتورية ذات دلالة واسعة جدا . ففى هذه الصورة ظهر فلاح ايرانى فى البسة ممزقة مرقعة وعلى ظهره ورأسه ورقبته مستشارون اميركيون . وتحت ثقلهم انحنى الفلاح وتقوس الى حد انه لم يبق بوسعه ان يمشى الا بالاعتماد على العصا .

ردا على استياء المجلس والرأى العام من طرائق المستشارين الاميركيين ونتائج نشاطهم ، صرح ميلسبو بوقاحة ان سبب الاخفاقات الرئيسى يكمن . . . فى قلة عدد افراد البعثة الاميركية وعدم كفاية الصلاحيات الاستثنائية . وزعم ان الثورة تتهدد البلاد اذا لم يتغير كل هذا وفقا لمطالبه . واعلن ميلسبو بالاقوال ان بعثته لا تهتم الا بتوطيد اقتصاد ايران ولا تعتزم التدخل فى شؤونها الداخلية ، ولكنه كتب فى كتاب «الاميركيون فى بلاد فارس» الصادر عام ١٩٤٦ والمزود بعنوان اضافى صفيق «مختبر لاجل الامية الجديدة» يقول : «استقلال بلاد فارس وسيادتها هما فى افضل الاحوال املان او وعدان ؛ وهما غير واقعيين ولا يمكن ان يكونا واقعيين . . . وفى الشؤون الداخلية الفارسية على وجه الضبط يجب التدخل» (١٧) .

وعلى نتائج هذا التدخل تدل الارقام التالية : فى السنة الاولى من تحكم الاميركيين بلغت ديون الحكومة للمصرف الوطنى ٣٨٨٠ مليون ريال . وفى سنة ١٩٤٣ بلغ عجز الميزانية الايرانية ١,٥ مليار ريال . ومن جراء اشراف الاميركيين على النظام المالى ، نشأت فوضى لا سابق لها . وقد كتبت جريدة «اتفاقات» فى ١٣ آذار (مارس) ١٩٤٤ عن حق وصواب ان المستشارين الاميركيين شوشوا الامور الى حد ان افضل خبراء المال لن يتمكنوا من فك عقدها .

فى غضون سنتين من تحكم الاميركيين فى ايران وعلى رأسهم ميلسبو ، ارتفعت علامة الاسعار من ٣٣٩ نقطة الى ١١٠٨ نقاط

(باعتبار ان اسعار سنة ١٩٣٦ تبلغ ١٠٠) . وفى ١٩٤٣ و١٩٤٤ ، لم يحصل سكان الكثير من المقاطعات والمدن فى ايران على الاقمشة والسكر وغير ذلك من بضائع الضرورة الاولية . وازدهر فى ايران الفساد ، والمضاربة بالمؤن وبضائع الضرورة الاولية . وفى هذه الاعمال السوداء ، لعب الاميركيـــون دورا نشيطا وفعــالا . وفى ١٦ نيسان (ابريـــل) ١٩٤٤ افادت جريدة «اقدام» عن رشوات ببضعة ملايين من الريالات تقاضاها رئيس مصلحة تثبيت الاسعار لمب ورئيس مصلحة توزيع البضائع فرغوسون .

ان تدخل ميلسبو فى شؤون ايران السياسية ومحاولاته لتوجيه سياسة ايران الخارجية فى وجهة العداء للاتحاد السوفييتى ، وتدهور الاقتصاد من جراء مكائد المستشارين الاميركيين — كــل هذا ادى الى استياء جميع فئات الشعب الايرانى بما فيها الاوساط النافذة من رجال الدين الشيعيين ، الى حد ان المجلس الايرانى اضطر فى ٨ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٥ الى اقرار قانون بحرمان ميلسبو من صلاحياته الاستثنائيــة . واثر ذلك ، اتخذت حكومة البيات قرارا باقالة ميلسبو ، فاضطر الى مغـــادرة ايران فى شباط (فبراير) ١٩٤٥ .

وهكذا انتهى نشاط بعثة ميلسبو الثانية . ولكن هذه البعثة ، خلافا للاولى ، اتاحت للامبرياليين الاميركيين توطيد مواقعهــم فى ايران ، وخلق المقدمات لاجل تدخلهم بنحو متعاظم ابدا فى شؤون ايران الداخلية بعد الحرب العالمية الثانية .

٥ — التعويل على تأزيم العلاقات الايرانية السوفييتية بعد الحرب العالمية الثانية

فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بدأت الاوساط الحاكمــة الاميركية ترسم سياســة بعيدة المــدى حيال ايران تبتغى بضعة اهداف — ومنها اضعاف الحركة الديموقراطية والمعادية للامبريالية التى قويت كثيرا فى ايران كما فى جميع بلدان آسيا وافريقيا ، بفضل انتصار الحلف المعادى للفاشية ، برئاسة الاتحاد السوفييتى ، على الفاشية الالمانية والفاشية الايطالية والعسكرية اليابانية . كذلك

كانت واشنطن تبتغي هدفا لا يقل شأنا هو تقويض علاقات الصداقة الايرانية السوفييتية . وفضلا عن ذلك ، سعت الاحتكارات الاميركية الى ازاحة المنافسين البريطانيين من ايران ، وفي المقام الاول بينهم شركة البترول الانجلو-ايرانية الكلية الجبروت ، وفرض رقابتها على احتياطيات البترول الايراني الفائقة الغنى .

ولهذا الغرض ، كان من الضروري في المقام الاول ان توضع مقاليد الحكم في ايران في ايدي اناس مرتبطين بالولايات المتحدة وثيق الارتباط . وليس البتة من قبيل الصدفة ، اصبح قوام السلطنة رئيسا للوزارة من جديد في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ . وكان قوام السلطنة شخصية كريهة بنظر الوطنيين الايرانيين . ولهذا لم يستطع هذا السياسي الداهية والوقح واللامبدئي ان يبقى في السلطة سنتين ، حتى اواخر سنة ١٩٤٧ ضمنا ، الا بفضل ضغط الديبلوماسية الاميركية الهائل ، ومساعدة بريطانيا العظمى التي كانت تأمل في خنق الحركة المعادية للامبريالية في ايران بواسطة قوام السلطنة ، وبفضل مراوغته ودهائه . وفي هذه الحقبة من الزمن نشبت في البلاد بضع ازمات حكومية حادة من جراء السياسة المعادية للشعب التي سار عليها صنيعة الاحتكارات الاميركية هذا . ولاجل الاحتفاظ بكرسي رئاسة الوزراة ، عدل قوام السلطنة الحكومة خمس مرات ، مقدما استقالته شكلا ، ومتوصلا بمساعدة الاميركيين الى تكليفه من قبل الشاه من جديد بتأليف الحكومة .

ولتضليل الرأي العام حاول قوام السلطنة ان يخلق انطباعا مفاده انه يناضل ضد الرجعية في داخل البلاد وانه يجهد في الوقت ذاته لتوطيد عرى الصداقة مع الاتحاد السوفييتي . ولهذا الغرض ، رفع موقتا ، بامر منه ، منع نشاط بعض الجرائد التقدمية ، وسمح بنشاط عدد من الاحزاب والمنظمات والنقابات التقدمية ، وعزل رئيس الاركان العامة الجنرال ارفا ، ثم اعتقل في ربيع ١٩٤٦ مع عدد من الرجعيين من امثال سعيد ضياء الدين ، والامامي . وفي الوقت نفسه ، سافر قوام السلطنة على رأس وفد ايراني في شباط (فبراير) ١٩٤٦ الى موسكو لاجراء مفاوضات . وبنتيجة هذه المفاوضات تم التوقيع في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ على اتفاقية سوفييتية ايرانية كان من الممكن ان تصبح خطوة مهمة في طريق

تطوير الاقتصاد الايرانى وتحسين العلاقات بين البلدين باطراد :
ولكن اجراءات قوام السلطنة هذه فى حقل السياسة الداخلية والسياسة الخارجية لم تكن ، كما بينت الاحداث اللاحقة ، سوى ستار احتاج اليه لاجل تقوية سلطته وتعزيز مواقع الاميركيين فى ايران .

فقبل ذاك بزمن قصير ، فى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٦ ، تقدمت الحكومة الايرانية ، بناء على ايعاز من واشنطن ، بشكوى على الاتحاد السوفييتى امام مجلس الامن لهيئة الامم المتحدة لمناسبة مرابطة القوات المسلحة السوفييتية فى ايران . والواقع ان مرابطة القوات المسلحة السوفييتية التى دخلت ايران فى آب (اغسطس) ١٩٤١ بموجب المادة ٦ من المعاهدة السوفييتية الايرانية لعام ١٩٢١ لاجل تحاشى اقتحام القفقاس من الاراضى الايرانية من قبل القوات المسلحة الالمانية الفاشية والمخربين الالمان ، قد اكدتها المعاهدة الانجليزية السوفييتية الايرانية بشأن الحلف الموقعة فى طهران فى ٢٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٢ . وقد نصت هذه المعاهدة على ان القوات المسلحة السوفييتية تتعهد «بحماية ايران بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفها من كل عدوان من جانب المانيا او اى دولة اخرى» . وبموجب هذه المعاهدة ، كان على القوات المسلحة السوفييتية ان تغادر ايران فى موعد لا يعدو ٦ اشهر على نهاية الحرب العالمية (١٨) . وبما ان استسلام اليابان ، حليفة المانيا الهتلرية ، قد تم التوقيع عليه فى الثانى من ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥ ، فقد استعدت القوات المسلحة السوفييتية لمغادرة ايران فى الموعد المقرر — اى نحو نيسان (ابريل) ١٩٤٦ .

منذ اواخر سنة ١٩٤٥ ، اخذت الديبلوماسية الاميركية تهيىء لعودة قوام السلطنة الى الحكم ، وسعت فى الوقت ذاته الى خلق ازمة فى العلاقات الايرانية السوفييتية لكى تسهل على صنيعتها تطبيق اجراءات ترمى الى تقوية النفوذ الاميركى الى اقصى حد . ولهذا الغرض ، سحبت الحكومة الاميركية ، اولا ، فى ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥ قواتها من ايران التى كانت هناك ، كما سبق ان اشرنا ، بدون اى مبرر ودون اية اتفاقيات دولية . ثانيا ، كما يشهد المؤرخ الانجليزى البارز الفل-ساتون فى كتابه «البترول

الايراني . اضواء على تاريخ «سياسة القوة» (١٩) ، طلبت الحكومة الاميركية من ايران ، بصورة انذارية ، تقديم شكوى على الاتحاد السوفييتي في مجلس الامن . وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ اضطر مجلس الامن ، رغم الضغط الهائل من المندوب الاميركي ، الى الاكتفاء باتخاذ قرار اشير فيه الى استعداد الاتحاد السوفييتي وايران لتسوية المسألة عن طريق المفاوضات الثنائية . وفي اواخر آذار (مارس) ١٩٤٦ اي بعد ان اعلن قوام السلطنة نفاقا ورياء في موسكو عن رغبته في تطوير علاقات الصداقة الايرانية السوفييتية الى اقصى حد ، وعندما كان جلاء القوات السوفييتية من ايران يجري على قدم وساق ، تقدمت الحكومة الايرانية من جديد ، تحت ضغط الولايات المتحدة الاميركية ، بشكوى على الاتحاد السوفييتي امام مجلس الامن . وفي ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ ، بعد توقيع الاتفاقية الاقتصادية السوفييتية الايرانية ، تقدمت الحكومة الايرانية من مجلس الامن ببيان تفيد فيه ان الحادث قد انتهى وانها تسحب بالتالي شكواها . ولكن السفير الاميركي الجديد في طهران الين طالب في اوائل ايار (مايو) بان يتقدم قوام السلطنة من جديد بشكوى على الاتحاد السوفييتي امام مجلس الامن . وفي ٦ ايار تلقى مجلس الامن بيانا جديدا من الحكومة الايرانية تشير فيه الى انها لا تعرف ما اذا كانت القوات السوفييتية قد سحبت من ايران . وفي ٢١ ايار ، ادلى المندوب الايراني في هيئة الامم المتحدة ، بناء على تعليمات شخصية من قوام السلطنة ، ببيانين . في الاول اعلن رسميا ان جميع القوات المسلحة السوفييتية قد انسحبت من ايران ، وفي البيان الثاني الذي ادلى به في الجلسة ذاتها افاد ان بيانه الاول غير صحيح !

ورغم ان الحكومة الايرانية لم تطرح هذه القضية فيما بعد ، الا ان «المسألة الايرانية» ظلت خلال بعض الوقت في جدول اعمال مجلس الامن بناء على اصرار الولايات المتحدة . وان الاطلاع على الخطط الاميركية حيال ايران في ١٩٤٦ و١٩٤٧ يعطي الجواب عن السبب الذي دفع الولايات المتحدة الى اجبار قوام السلطنة على لعبة غير لائقة في مجلس الامن والحط من سمعة ومكانة ايران في المسرح الدولي .

في حزيران (يونيو) ١٩٤٦ ، القى السفير الاميركي في طهران الين خطابا كبيرا ، خالف فيه بكل فظاظة قواعد الرسميات الديبلوماسية وسيادة ايران اذ دعم فيه على المكشوف اشد الشخصيات الايرانية اغراقا في الرجعية وشجع محرري الجرائد الرجعية على شن حملة معادية للديموقراطية ومعادية للاتحاد السوفييتي . وتطويرا لهذه «النصيحة» اعلن قوام السلطنة في ٢٩ حزيران من السنة نفسها انشاء حزب خاص به ، سماه على سبيل الاستفزاز بالحزب «الديموقراطي» . ومنذ الايام الاولى ، اخذت تنتسب الى هذا الحزب عمليا العناصر الاقطاعية الرجعية ، اعضاء الكتلة المغرقة في الرجعية مثل حزب «عدالت» . وبدأت حملة هوجاء ضد القوى الديموقراطية حقا في البلاد ، وبدأ سحق الحركة النقابية .

ان دين اتشيسون الذي كان من اشد الديبلوماسيين الاميركيين عدوانية ، والذي اشترك بنشاط في انشاء الناتو ، والذي شغل بعد الحرب العالمية الثانية منصب نائب وزير الخارجية الاميركية ثم منذ سنة ١٩٤٩ منصب وزير الخارجية ، قد خصص في مذكراته المسماة بادعاء وحذلقة «حضرت لدن الانشاء» مكانا كبيرا لتاريخ رسم السياسة الاميركية حيال ايران وتطبيقها . وهو يحكي عن لقاءاته العديدة في صيف وخريف ١٩٤٦ مع السفير الايراني في الولايات المتحدة الاميركية حسين علا . يبدو ان اتشيسون تصرف باسم الرئيس الاميركي ترومان ، وطلب من الحكومة الايرانية ارسال الدرك الايراني ووحدات من الجيش الايراني باسرع نحو الى اذربيجان الايرانية لاجل سحق القوى الديموقراطية في هذا الاقليم . واعرب وزير الخارجية الاميركية بوقاحة عن الامل في ان يؤدي هذا الاستفزاز الى تأزيم العلاقات السوفييتية الايرانية ، وينزل ضربة بالحركة الديموقراطية في ايران ويفتح الطريق امام الرأسمال الاميركي . (٢٠)

في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ بدأت قوات الشرطة الايرانية ووحدات من الجيش الايراني ، بايعاز من واشنطن وبأمر من رئيس الوزراء قوام السلطنة التنكيل بلا رحمة ولا شفقة بالمشتركين في الحركة الديموقراطية في اذربيجان المناضلين من اجل الحق في ان يكونوا مواطنين كاملي الحقوق في ايران ، وفي تعليم اولادهم

بلغتهم الام ، وفى صيانة عاداتهم الثقافية والدينية . اخذوا يعتقلونهم ويعدمونهم رميا بالرصاص ويشنقونهم فى الشوارع . وقد تكلم رجل الدولة الاميركى البارز هنري وولس ، نصير روزفلت ، امام مؤتمر الحزب التقدمى الاميركى في نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، فقال بمرارة : «اخجل من الاعتراف بان قوات الشرطة الايرانية كانت اثناء عملياتها ضد الشعب الايرانى تحت امرة الجنرال الاميركى شفارتسكوبف . وبقيادته وبامر من السفير الاميركى الين ، اعلن الحزب السياسى المعارض الرئيسى فى ايران خارج القانون ، وزج بالقادة النقابيين فى السجون ، وجرت عمليات الاعدام بالجملة ، وسيقت آلاف العائلات بالعنف الى المعتقلات» (٢١) .

اعتقلوا وعذبوا وزجوا فى المعتقلات اكثر من ٢٠ الفا من الديموقراطيين والوطنيين فى ايران ، ولكن قوام السلطنه اخلى سبيل الجنرال ارفا وسائر الرجعيين من السجن . وبعد ذلك ، قرر الاميركيون انه آن الاوان للشروع فى تحقيق المهمة الثانية وهى التوصل الى الغاء الاتفاقية الايرانية السوفييتية المعقودة فى ٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ ، والتى كانت ترمى الى توطيد اقتصاد ايران . وفى ١١ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ ، دعا السفير الاميركى الين علنا الاوساط الحاكمة الايرانية الى القيام بذلك واكد رسميا انها ستحظى بكامل مساندة الولايات المتحدة الاميركية .

وفى الوقت نفسه فرض الاميركيون فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٧ اتفاقية جديدة بشأن دعوة بعثة عسكرية اميركية كبيرة الى ايران . وفى السنة ذاتها ، فرض على ايران قرض اميركى مجحف ، استعبادى . وبدأت الديبلوماسية الاميركية والاحتكارات الاميركية فى تحقيق خطة لفرض الرقابة الاجنبية على اقتصاد ايران وسياستها ، محسوبة لمدة ٢٠—٣٠ سنة ؛ وهذه الخطة عرضها ارثور ميلسبو فى كتابه «الاميركيون فى بلاد فارس» . وقد صرح ميلسبو بوقاحة فى هذا الكتاب ان «بلاد فارس تتواجد فى كثير من النواحى فى تلك المرحلة من التطور التى بلغتها انجلترا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر» . ثم زعم ان «بلاد فارس وليدة مكرهة على العيش قبل الآوان عيشة الراشد» (٢٢) . وتعليلا لخطة فرض الحماية الاميركية على ايران ، حاول ميلسبو ، بتحبيذ الين وشفارتسكوبف واتشيسون ،

ان يبرهن انه ينبغى تصفية كل صناعة فى ايران وتحويل البلد الى رأس جسر حربى وذيل للاحتكارات الاميركية يقدم لهـا الخامات والمنتوجات الزراعية . ولهذا الغرض ، اخذوا يرسلون البعثـات الاميركية ، من عسكرية وبوليسية ومالية ، الى ايران . ولهذا الغرض خنق قوام السلطنـة الديموقراطية الايرانية ، وقطـع العلاقات الاقتصادية مع الاتحـاد السوفييتى ، وأزم العلاقات الايرانيـة السوفييتية .

٦ ـ خطط استعباد ايران فى السنوات الاولى بعد الحرب العالمية الثانية

فى السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ، سار التسرب الاميركى فى ايران بوتائر متسارعة فى عدة اتجاهات . ففى سنة ١٩٤٦ ، اى فى مرحلة مشؤومة جدا بالنسبـة لملايين المسلمين الايرانيين ، مرحلة وزارة قوام السلطنة ، وقعت اتفاقية بين الحكومة الايرانية والشركة الاميركيـة «موريسون ـ نادسن» بشأن وضع خطة سباعية لتطوير ايران . وفى سنة ١٩٤٧ كانت الخطة جاهزة . وكانت تتميز بسمتين : فانها قد نصت على تطوير الزراعة فقط ، وارتكزت بقدر كبير على قروض البنك الدولى للانشاء والتعمير . الا ان البنك ـ وكان آنذاك يخضع كليـا لرقابة وول ستريت ـ رفض منح القروض اللازمة ، لان البترول بقى كما من قبل فى ايدى الانجليز بينما طرد صنيعـة الاميركيين قوام السلطنة من منصب رئيس الوزراء طردا . ولهذا كان لا بدّ من اعادة النظر فى الخطة . وفى سنة ١٩٤٨ وقعت الحكومة الايرانية عقدا بوضع خطة سباعية جديدة ، ولكن مـع شركـة اميركية اخرى ، هى «اوفرسيـز كونسالتانتس» التى يرأسها ماكس تورنبرغ نائب رئيس الاحتكار البترولى «ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا» . وهكذا اخذ واحد من قادة شركة من اكبر الشركات البترولية الاميركية يضع خطة لتطوير اقتصاد ايران . وحتى دين اتشيسون يعترف فى مذكراته بان خطة تورنبرغ لم تكن واقعية . ويروى اتشيسون بصفاقة انه عندما وصل شاه ايران الى الولايات المتحدة اميركية عام ١٩٤٩ للحصول

على قرض بملايين الدولارات لاجل تنفيذ هذه الخطة ، افهموه بوضوح ان الاحتكارات الاميركية لن تعطى الـ١٠٠-١٥٠ مليونا من الدولارات المطلوبة طالما البترول ليس في ايدى الاميركيين وطالما السلطة في ايران ليست بكليتها في يد الشاه . ويؤكد اتشيسون ان تعهد الشاه ذاته «بتحويل ايران الى قلعة للغرب» لم يغير موقف واشنطن (٢٣) . ان الاخفاق فيما يتعلق بالقرض قـــد اضعف بعض الشيء المواقع الاميركية في ايران حيث كانت تتعاظم في تلك الاثناء موجة جبارة من الحركة المعادية للامبرياليـــة تدفقت تحت شعار تأميم البترول الايرانى وتصفية شركة البترول الانجلو-ايرانية التي يكرهها الشعب باسره .

في خريف ١٩٤٩ ، انشأ النواب ذوو المزاج الوطنى في المجلس والشخصيات الاجتماعية التقدمية برئاسة محمد مصدق منظمة الجبهة الوطنية التي اشتهرت فيما بعد . وقد طالبت هذه المنظمة بالغاء نتائج الانتخابات المزيفة الى المجلس في حلقته السادسة عشرة ، وبحرية الصحافة ، وبالغاء الاحكام العرفية المطبقة في طهران بعد محاولة اغتيال الشاه التي اوعزت بها المصالح الجاسوسية الاميركية المختصة . وقد اضطرت الحكومة الايرانية الى اخذ مطلب الرأى العام بعين الاعتبار . وبنتيجة الانتخابـــات الجديدة اصبح نواب الجبهة الوطنية الكتلة الاكبر نفوذا في المجلس . ومن على منبر المجلس طالب مصدق بتصفية شركة البترول الانجلو-ايرانية وتأميم البترول الايرانى بدون تأجيل . في ذلك الوقت كانت مطالب مصدق تعرب عن ارادة الملايين من الايرانيين . وهبت البلاد الى النضال من اجل الاستقلال السياسي والاقتصـادى . وقامت البروليتاريا الايرانيـــة بمظاهرات واضرابات جماهيرية تحت شعار النضال ضد الاستعمار .

كل هذا اخـــاف عن جدّ ، لا مساهمى الشركـــة البريطانيين وحسب ، بـل ايضا الاوساط الحاكمة الاميركية . وفي واشنطن تقرر اتخاذ تدابير مضادة عاجلة . ففى سنة ١٩٥٠ عين الديبلوماسى الماكر والوقح واللامبدئى هنرى غريدى سفيرا اميركيا جديدا في طهران . وقبل ذلك كان سفيرا في آثينا ولعب دورا مشؤوما جدا في خنق حركة التحرر الوطنى للشعب اليونانى . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٠ تم التوقيع على اتفاقية اميركية ايرانية بشأن تطبيق

«النقطة الرابعة من برنامج ترومان» فى ايران . ولتحقيق هذا البرنامج ارسلت الولايات المتحدة الاميركية الى ايران بعثة خاصة بلغ عدد افرادها نحو اوائل سنة ١٩٥٠ اكثر من ١٢٠ شخصا . وكان للبعثة فروع فى تبريز ورست ومشهد وكرمنشاه واصفهان وشيراز واهواز وكرمان وغيرها من المدن . وكان رجال البعثة المطلقو الصلاحية يتدخلون بلا تكلف فى شؤون البلد الداخلية .

نتيجة لتطبيق الخطة السباعية التى وضعها ماكس تورنبرغ ، ونتيجة لنشاط البعثة الاميركيـــة لاجل تطبيق «النقطة الرابعة من برنامج ترومان» تردى من جديد بشكل حاد وضع ايران الاقتصادى . ففى سنة ١٩٥١ بلغ استيراد البضائع الاميركية الى ايران ٢٠ مثل الصادرات الايرانية الى الولايات المتحدة الاميركية . وادى استيراد الاقمشة الاميركية الرخيصة وغيرها من سلع الصناعة الخفيفة الى خراب مؤسسات الصناعة الخفيفة الايرانية والحرف . واغلقت المئات من المعامل الصغيـــرة ومن المؤسسات والمشاغل الحرفية . ومن جراء المزاحمة الاميركية ، كما لاحظت جريدة «اطلاعات» فى ٨ شباط (فبراير) ١٩٥٠ ، بقى ٣٠ الف حائك فى يزد وحدها بلا عمل واخذوا يعانون الفقر . ولقـد احس الشعب الايرانى بأسره نتائج المزاحمة الاميركية والقيادة الاميركية للخطة السباعية . وعن هذا شرع رجال الدين الشيعيون البارزون يتحدثون فى الجوامـع وفى الاجتماعات الحاشدة . وكان آية الله ابو القاسم كاشانى ملهمهم ، وقد سبق له فى العشرينيات ، عندما كان من انشط المشتركين فى الانتفاضة المعادية لبريطانيا فى العراق ، ان حكم عليه غيابيا بالموت وفر الى ايران . وقد اضطر رئيس الوزارة الايرانية الجديد رازمـــــار فى البيانات التى ادلى بها فى حزيران وايلول (يونيو وسبتمبر) ١٩٥٠ الى الاعتراف بان عدد العاطلين عن العمل فى ايران يربو على ٥٠٠ الف شخص وان وضع البلاد الاقتصادى يتردى والفقر يتفاقم اكثر فاكثر ويوما بعد يوم .

وفى الوقت نفسه تعاظم نشاط الديبلوماسية الاميركية الرامى الى توطيد النفوذ الاميركى باطراد فى صفـــوف القوات المسلحة الايرانية . وفى ٢٣ ايار (مايو) ١٩٥٠ تم التوقيع فى واشنطن على اتفاقية اميركية ايرانية جديدة «بشأن التعاون فى اغراض الدفاع»

نصت على توسيع نشاط البعثة العسكرية الاميركية فى ايران ، وزيادة عدد افرادها ، وتوريد كميات جديدة من الاسلحة والذخائر الحربية . وكان المستشارون العسكريون الاميركيون يراقبون الجيش والدرك والبوليس في ايران . والى كل وحدة وكل مؤسسة تعليمية عسكرية أرسل ضباط اميركيون لتوجيه نشاطها .

ومع ذلك ، كان مزاج العداء للامبريالية يشتد فى ايران . ونحو نيسان (ابريل) ١٩٥٢ ، وقع زهاء مليونى شخص فى ايران على نداء ستوكهلم الذى وجهه مجلس السلم العالمى من اجل منع السلاح الذرى . ولكن جل الاهتمام كان يتركز على النضال من اجل تأميم البترول الايرانى ، من اجل تصفية حصن الاستعمار ، شركة البترول الانجلو-ايرانية . الا ان الامبرياليين البريطانيين هددوا ايران على المكشوف من جهتهم باستعمال القوة . وارسلوا الى الخليج العربى سفنهم الحربية . ان المؤرخين والصحفيين والديبلوماسيين الاميركيين يجهدون بجميع الوسائل للبرهان على ان الحركة المعادية للامبريالية فى ايران لم تكن موجهة الا ضد بريطانيا العظمى وشركة البترول الانجلو-ايرانية . ولكن الوقائع تدل على ان هذه الحركة كانت تتسم آنذاك بطابع العداء للولايات المتحدة الاميركية . ففى كانون الثانى (يناير) ١٩٥١ بدأت مظاهرة جماهيرية معادية للولايات المتحدة الاميركية فى مدينة بندر شاهبور بعد وصول سفينة اميركية اليها محملة بالاسلحة . وقد حاصر سكان المدينة برئاسة رجال الدين المرفأ . ورفض عمال المرفأ تفريغ السلاح الاميركى ومنعوا من دخول المرفأ مندوبى السفارة الاميركية الذين قدموا من طهران . وفى اوائل سنة ١٩٥١ ، الغى رئيس الوزارة الايرانية رازمار ، تحت ضغط الامزجة المعادية للاميركيين ، الاتفاقية مع الشركة الاميركية «اوفرسيز كونسالتانتس» ، وعرض على المستشارين الاقتصاديين الاميركيين المشرفين على تطبيق الخطة السباعية مغادرة البلاد . كذلك صرح رازمار ان ايران لن تسعى مستقبلا الى نيل المساعدة الاميركية واستدعى من الولايات المتحدة الاميركية فريقا كبيرا من الضباط الايرانيين المرسلين الى هناك لاجل التدرب . وعدا ذلك ، منع رازمار اعادة اذاعة برامج محطة «صوت اميركا» . وقد وصف

اتشيسون هذه الاحداث فى مذكراته ونعتهـا «ببوادر العاصفة» . وحلل العالم السوفييتى ، البروفسور ايفانوف هذه الاحداث وقال ان سياسة رازمار كانت عقبة جدية امام تحقيق الخطط الاميركية حيال ايران . واشار الى «ان كل هذا ادى الى تطبيق طريقة الاقصاء البدنى التى غالبا ما تطبقها الديبلوماسية الامبرياليـة الاميركية . ففى ٧ آذار (مارس) ١٩٥١ اغتيل الجنرال رازمار . . .» (٢٤) . واصبح حسين علا رئيسـا للوزارة وقد سبق له ان اسهم فى اوائـل العشرينيات فى دعـوة ميلسبو الى ايران ، وان كان سفيرا فـى واشنطن فى اواخر الاربعينيات ، وان بادر منذ سنة ١٩٥٠ ، عندما كان وزيرا للخارجية ، الى التوقيع على سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية والعسكرية غير المتكافئة بين ايران والولايات المتحدة الاميركية .

ولكن آمال الاوساط الامبرياليـة فى ان يتمكن حسين علا من كبح ضغط الشعب الايرانى المطالب بتأميم البترول ، او على الاقل من تأمين انتقال الرقابـة على البترول من الانجليز الى الاميركان ، منيت بالفشل . ففى ربيع ١٩٥١ بدأ شغيلة البترول اضرابا عاما دعمه شغيلة البلاد بأسرها . كذلك طالبت الاوساط العليا من رجال الدين فى ايران بتأميم البترول . ووقـع سبعة من آية الله فتوى اعلنوا فيها ان «دعم الحركة من اجل تأميـم البترول واجب دينى على كل مسلم ايرانى» (٢٥) . وكانت الجبهة الوطنية تنسق النضال فى المجلس من اجـل التأميـم . وفى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٥١ اضطرت حكومة حسين علا الى الاستقالـة . وفى ٢٩ نيسان صادق المجلس على تعيين زعيم الجبهة الوطنية محمد مصدق رئيسا للوزارة الايرانيـة . وفى ٢ ايار (مايو) ١٩٥١ صادق المجلس على قانون تأميم البترول الايرانى وعموم اموال شركة البترول الانجلو-ايرانية . وبدأ عهد جديد فى تاريخ ايران .

٧ – النضال ضد حكومة الجبهة الوطنية وعلى راسها مصدق

ان النبأ القائل بتأليف حكومة الجبهـة الوطنية فى ايران وعلى رأسها مصدق وبتأميم صناعة البترول فى ايران قد استثـار بالغ

السخط في الاوساط الحاكمة في بريطانيا العظمى والتيقظ والحذار في واشنطن . وهذا الاختلاف في تقييم احداث ايران نجم عن واقع ان الاحتكارات البترولية الاميركية كانت تحسب في الآونة الاولى ان تزحزح البريطانيين وتفرض رقابتها على البترول الايراني وتحتكر بالفعل استخراج البترول وتكريره ونقله وبيعه في عموم العالم الاسلامي .

ولكن سرعان ما اخذ النشاط المشتد الذي بذله مصدق لتطبيق القانون التاريخي بتصفية شركة البترول الانجلو - ايرانية وبتأميم البترول الايراني يثير في واشنطن المزيد والمزيد من السخط . وطفقوا في واشنطن يخافون من ان يمارس مثال ايران تأثيرا قويا في بلدان الجزيرة العربية حيث كان من الممكن ان يؤدي التأميم الى عواقب وخيمة بالنسبة للاحتكار البترولي الاميركي العملاق «ارامكو» . ولهذا شرع موقف الاوساط الحاكمة الاميركية من مصدق وحكومة الجبهة الوطنية يتزايد عداء اكثر فاكثر ويوما بعد يوم . وقد خصص اتشيسون في مذكراته فصلين للعلاقات الاميركية الايرانية في سنتي ١٩٥١ و١٩٥٢ . ان اتشيسون يتهكم بصراحة وصفاقة على الزعيم الايراني وينعته بالمهرج والاقطاعي الرجعي والمهووس . ويصف بالتفصيل كيف رسمت وزارة الخارجية والبيت الابيض الخطط لاستغلال الوضع المعقد في ايران لاجل عزل مصدق وتدبير الانشقاق في الجبهة الوطنية ، ولاجل توطيد المواقع الاميركية في ايران في آخر المطاف (٢٦) .

بعد مرور ثلاثة اسابيع على وصول حكومة مصدق الى الحكم ، سلم السفير الاميركي غريدي الحكومة الايرانية مذكرة اشير فيها الى ان الولايات المتحدة الاميركية تنظر الى تأميم صناعة البترول نظرة سلبية للغاية . وفي اواخر ايار (مايو) ارسل الرئيس الاميركي ترومان رسالة شخصية الى مصدق يطالب فيها بالشروع في مفاوضات مع انجلترا لاجل تسوية النزاع البترولي . ان تدخل الولايات المتحدة الاميركية بصفاقة ووقاحة في شؤون ايران الداخلية ، ومحاولتها اجبار الحكومة الايرانية على الاستسلام امام شركة البترول الانجلو - ايرانية المكروهة استثارا بالغ الاستياء والسخط في اوساط الرأي العام الايراني . وفي اواخر ايار (مايو) ١٩٥١ ، انعقد في طهران

المؤتمر الاول للجمعية الوطنية للنضال ضد شركة البترول الانجلو - ايرانية . واعرابا للحكومة عن كامل الدعم لها فى النضال من اجل تأميم صناعة البترول ، اتخذ المؤتمر قرارا بتسمية الجمعية باسم جديد هو الجمعية الوطنية للنضال ضد الشركات البترولية الامبريالية . وبذلك اشير الى ضرورة النضال ، لا ضد انجلترا وحسب ، بل ايضا ضد الولايات المتحدة الاميركية . واخذ الشعب الايرانى يدرك بوضوح متزايد ابدا مبلغ الخطر الذى تشكله سياسة الولايات المتحدة الاميركية على استقلال وطنه . وعلى هذا تدل المظاهرة المهيبة امام مبنى المجلس فى ٢٩ ايار (مايو) ١٩٥١ ، لمناسبة ذكرى مرور ١٨ سنة على توقيع المعاهدة الاستعبادية بالنسبة لايران مع شركة البترول الانجلو - ايرانية . وفى الاجتماع الحاشد الذى انتهت به المظاهرة ، اتخذ ٨٠ الف شخص قرارا يطالب الحكومة والمجلس قطعا بالنضال ، لا ضد الامبريالية الانجليزية وحسب ، بل ايضا ضد الامبريالية الاميركية .

فى هذه الاثناء ظلت الديبلوماسية الاميركية تدعم سياسة المستعمرين البريطانيين فى مسألة البترول بهمة ونشاط . وفى ٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ ، اصدرت محكمة لاهاى الدولية التى راجعها الاحتكاريون الانجليز قرارا يمنع الحكومة الايرانية فعلا عن تطبيق قانون تأميم البترول الايرانى . وبعد اربعة ايام ، اى فى ٩ تموز ، سلم غريدى مصدق رسالة جديدة من ترومان . وقد اصرّ الرئيس الاميركى على ان تنفذ الحكومة الايرانية بلا قيد ولا شرط قرار محكمة لاهاى . وعدا ذلك ، طالب ترومان بشكل خشن جدا من مصدق استقبال ممثله الشخصى الذى كان عليه ان يقوم بدور الوسيط بين الحكومة الايرانية ووفد من شركة البترول الانجلو - ايرانية . وهكذا حاول الامبرياليون الاميركيون ، رغم احتجاج الحكومة الايرانية الرسمى ، ان يفرضوا على الحكومة الايرانية قرار محكمة لاهاى الدولية ، الذى كان غير شرعى لان المحكمة انشئت لاجل البت فى النزاعات بين الحكومات بينما النزاع الانجلو - ايرانى كان خلافا بين ايران وشركة خاصة شكلا ورسميا هى شركة البترول الانجلو - ايرانية . وفضلا عن ذلك فرض البيت الابيض على ايران اجراء مفاوضات مع شركة البترول الانجلو - ايرانية بمشاركة الوسيط الاميركى .

كذلك امر ترومان ، دعما لمطالبه ، بارسال بضع سفن حربية من قوام الاسطول السابع الاميركي الى السواحل الايرانية .

ويصف اتشيسون في مذكراته بالتفصيل كيف جرى اعداد سفر الممثل الشخصي لترومان الى طهران ، وكيف رسم البيت الابيض ووزارة الخارجية مختلف الصيغ والحلول الرامية الى حمل مصدق على الاستسلام والى احلال النفوذ الاميركي في ايران محل النفوذ البريطاني . وفي ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ ، وصل الممثل الشخصي للرئيس ترومان الى طهران . وقد استقبلته مظاهرة احتجاج شعبية من ١٠٠ الف شخص . وقد طالب المتظاهرون بتطبيق قانون تأميم صناعة البترول ، وبرحيل الوسيط الاميركي على الفور من ايران ، وبسحب السفن الحربية الاميركية والانجليزية من الخليج العربي وبحر العرب . ولكن الجنرال زاهدي ، وزير الداخلية الايرانية ، امر بتوجيه فصائل البوليس والوحدات العسكرية ضد المتظاهرين ارضاء للامبرياليين الاميركيين . وقد ادى التنكيل بالمتظاهرين الى مقتل اكثر من ١٠٠ شخص وجرح اكثر من ٥٠٠ . واعلنت حالة الطوارئ في طهران ، واغلقت قرابة ٢٠ جريدة تقدمية ، وجرت اعتقالات بالجملة . وردا على ذلك ، قامت في كثير من المدن الايرانية مظاهرات اتسمت بطابع العداء السافر للاميركيين . واضطرت الحكومة الى احالة الضباط المسؤولين عن اعمال القتل بالجملة الى المحاكمة . واضطر الجنرال زاهدي الى الاستقالة ، رغم ما ابداه السفير الاميركي غريدي من دفاع نشيط عنه .

ومن جراء سخط الرأي العام الايراني ، ونهوض الحركة المعادية للامبريالية نهوضا واسعا ، ودعم رجال الدين لها برئاسة آية الله كاشاني ، رفضت حكومة مصدق العرض الانجلو – اميركي بشأن طرائق تسوية النزاع البترولي كما رفضت القرض الجائر الذي عرضه البنك الاميركي للاستيراد والتصدير .

وفي هذه الاحوال ، انتقلت الاوساط الحاكمة في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية الى الهجوم السافر على ايران . وقد طالب مندوبا الدولتين الامبرياليتين في مجلس الامن بان توافق ايران على وضع صناعة البترول تحت رقابة شركة دولية . وتتضمن مذكرات اتشيسون تفسيرا لهذا المطلب . يتبين ان وزارة الخارجية الاميركية

كانت قد وضعت آنذاك خطة لبسط رقابة الشركات البترولية الاميركية على ايران . وكخطوة اولى ، ورد الاقتراح بانشاء شركة دولية . الا ان مصدق رفض قطعا هذا المطلب فى كلمته الدرامية فى مجلس الامن وفى التلفيزيون الاميركى . ولذا تقرر فى لندن وواشنطن فرض الحصار المالى والاقتصادى على ايران . فان شركات البترول البريطانية والاميركية لم تمتنع عن شراء البترول الايرانى وحسب ، بل اجبرت الشركات البترولية فى فرنسا وايطاليا واليابان ، بممارسة ضغط هائل عليها ، على فسخ الصفقات مع ايران . وعندما بدأت الحكومة الايرانية المفاوضات مع ممثلى هيئات التجارة الخارجية فى البلدان الاشتراكية بشأن توريد البترول الايرانى الى اوروبا الشرقية ، طالبت السفارة الاميركية فى طهران بشكل انذارى الحكومة الايرانية بوقف المفاوضات . ومن جراء الحصار الامبريالى على البترول الايرانى ، توقف استخراج البترول كليا تقريبا فى ايران منذ اواسط سنة ١٩٥١ . وفى النصف الثانى من سنة ١٩٥١ ، وعموم سنة ١٩٥٢ ، والنصف الاول من سنة ١٩٥٣ ، لم تستخرج ايران غير جزء من عشرين جزءا من متوسط استخراجها السنوى من البترول فى السنوات السابقة . وفى الوقت نفسه فرضت الحكومة البريطانية حظرا على الحسابات الايرانية فى المصارف البريطانية ، واوقفت الحكومة الاميركية جميع انواع المساعدة الى ايران ، بما فيها التعهدات بموجب «النقطة الرابعة من برنامج ترومان» . وبخلق ازمة اقتصادية ومالية فى ايران على هذا النحو ، نظمت الديبلوماسية الاميركية والمخابرات الاميركية فى تموز (يوليو) ١٩٥٢ ازمة سياسية بالغة الحدة . وبأمر منهما اجبر الشاه والتكتلات الرجعية فى المجلس مصدق على تقديم استقالته فى ١٧ تموز ١٩٥٢ . وفى اليوم التالى عيّن كبير عملاء الامبريالية الاميركية فى ايران ، قوام السلطنة ، رئيسا للوزارة الايرانية . وما ان صار قوام السلطنة رئيسا للوزارة للمرة السادسة بعد الحرب العالمية الثانية حتى اتخذ الاجراءات لقمع الحركة المناهضة للامبريالية ؛ فبأمر من السفير الاميركى الجديد فى طهران ، هندرسون ، تلقى الدرك والقوات المسلحة امرا باستعمال السلاح بهمة وفعالية ضد المتظاهرين .

ردا على ذلك ، هبّ الشعب الايرانى الى الكفاح السافر ضد

الامبريالية الاميركية وصنيعتها . ففي ٢١ تموز (يوليو) ١٩٥٢ بدأ اضراب عام فى طهران ، واغلقت جميع المؤسسات الانتاجية وغير الانتاجية والمتاجر والبازارات ابوابها . وقد لعب الفريق المناهض للامبريالية من رجال الدين الشيعيين برئاسة آية الله كاشانى دورا كبيرا فى تعبئة سكان طهران واستنهاضهم الى النضال ضد قوام السلطنة ومن اجل عودة مصدق الى منصب رئيس الوزارة . وقد كتب كاشانى فى نداء الى الرأى العام الايرانى : «يريد الاجانب بمساعدة قوام ان يسددوا ضربة الى اسس الدين وحرية البلد واستقلاله ويعيدوا الامة الاسلامية الى براثن العبودية . ان النهج الذى سلكه الانجليز فى غضون القرون فى ايران والذى طرح مهمة الحيلولة دون الامة الاسلامية ودون ان تصبح سيدة مصيرها انما يسير عليه اليوم قوام السلطنة» (٢٧) . ومن جراء كل هذا ، بدأت تنعقد فى اكبر ساحات المدن اجتماعات حاشدة كان المشتركون فيها يطالبون باستقالة قوام على الفور وبطرد العملاء الانجليز والاميركيين من البلاد . وبامر شخصى من قوام ، دفعت وحدات من القوات الآلية ضد المتظاهرين . وفتحت الدبابات والمدافع النار . وقد قتل زهاء ١٠٠ شخص وجرح اكثر من ٨٠٠ . ولكنه استحال اغراق الحركة المناهضة للامبريالية فى الدماء . ففى مساء ٢١ تموز (يوليو) اضطر قوام الى تقديم استقالته . وفى الليل فر بذعر الى بغداد . وفى اليوم التالى – فى ٢٢ تموز – صار مصدق من جديد رئيسا للوزارة الايرانية ، وشغل فيها فى الوقت نفسه منصبا اساسيا هو منصب وزير الدفاع . وفى ٣ آب (اغسطس) اقر المجلس قانونا بمنح مصدق صلاحيات استثنائية لمدة ٦ اشهر . وخسرت الامبريالية الاميركية معركة اخرى من اجل السيادة على ايران .

٨ ـ المؤامرات الاولى ضد حكومة مصدق

ان فشل المحاولة الاميركية لاسقاط حكومة الجبهة الوطنية برئاسة مصدق فى تموز (يوليو) ١٩٥٢ قد اجبر الاوساط الحاكمة الاميركية على اعادة النظر فى السياسة حيال ايران . فقرروا فى واشنطن ان يعملوا فى آن واحد فى اتجاهين . من جهة ، على الجبهة

الديبلوماسية مع الامبرياليين البريطانيين لاجل استخدام عملائهم الى اقصى حد فى ايران ، ولاجل اجبار الانجليز فى الوقت ذاته على التنازل فى صالح الاحتكارات الاميركية عن اكبر حصة ممكنة فى استثمار البترول الايرانى . ومن جهة اخرى ، قيام وكالة المخابرات المركزية وفرسانها ذوى الاجور الرفيعة – فرسان «الرداء والخنجر» – بنشاط سرى فى غاية الشدة .

يحكى اتشيسون فى مذكراته عن المفاوضات الانجلو – اميركية التى جرت على اعلى المستويات ، فى آب (اغسطس) ١٩٥٢ ، فى لندن وواشنطن ، بمبادرة من رئيس الوزارة البريطانيـة ونستون تشرشل . وآنذاك اقترح تشرشل على الرئيس الاميركى ترومان تنسيق اعمال البلدين فى المسألة الايرانية تنسيقا تاما . وسرعان ما وافق رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، وصاحب «مذهب ترومان» السيئ الشهرة الذى نادى رياء ونفاقا بان هدفه تقديم المساعدة الشاملة الى بلدان وشعوب الشرقين الادنى والاوسط ، على الاقتراح ببدء النضال المشتـرك ضد الشعب الايرانى وحكومته الشرعيـة التى يرأسها مصدق . والامر الوحيد الذى اختلفت فيه مواقف قائدى «الديموقراطيتين الاطلسيتين» الاميركية والبريطانيـة كان نصيب مشاركة الاحتكارات البترولية الاميركية فى الارباح الخياليـة التى تبتزها شركة البترول الانجلو – ايرانية . فان تشرشل قد اعتبر ان المبلغ الذى طالب به الجشعون الاميركيون لقاء مشاركتهم فى اسقاط مصدق والغاء قانون سنة ١٩٥١ بتأميـم شركة البترول الانجلو – ايرانية كان باهظا جدا . ومع ذلك ، كما يعترف اتشيسون ووزير الخارجية البريطانية آنذاك ايدن فى مذكراتهما ، استمرت الاعمال المشتركة التى قامت بها بريطانيا واميركا لاجل نسف الاستقرار فى ايران وخنق اقتصادها وعزلها ، طوال النصف الثانى كله من سنة ١٩٥٢ بحزم وهمة .

ولا غرابة البتـة اذا ما كانت الاوساط الحاكمة فى الدولتين الامبرياليتين قد نسقت اعمالها . ولم تكن المسألة مسألة النضال من اجل البترول الايرانى وحسب . يجب ان لا يغيب عن البال انه كانت تقـوم صلة مباشرة بين احداث ايـران فى سنتى ١٩٥١ و١٩٥٢ ، ونضال الوطنيين الايرانيين التحررى من اجل الحق فى ان

يكونوا اسياد بلدهم وثرواته الطبيعية ، وبين الحركة التحررية المناهضة للامبريالية لدى شعوب العالم الاسلامي الاخرى ، وبينها العرب في المقـــام الاول . ولا ريب في ان وصول حكومة الجبهـة الوطنية المناهضة للامبريالية الى الحكم ، وقانون تأميم شركة البترول الانجلو - ايرانية الصادر فى ٢ ايار (مايـو) ١٩٥١ ، والمظاهرات الضخمة المعادية للاميركيين فى طهران فى ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ وبخاصة فى ٢١ تموز ١٩٥٢ ، قد كان لها تأثير جدى كبير فى حركة الشعب المصرى التحررية والثورة المصريـة فى ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ . وآنذاك بين الشعب الايرانى لسائر شعوب الشرقين الادنى والاوسط انه لا ينبغى ضرب المستعمرين وطردهم من اراضى هذه الشعوب وحسب ، بـل يمكن كذلك احراز النصر عليهـم . ولهذا اسرع تشرشل وترومان وايدن واتشيسون والانتلليجنس سرفيس البريطانية ووكالة المخابرات المركزية الاميركية فى آب (اغسطس) من السنة ذاتها الى اتخاذ قرار بتنسيق الاعمال ضد حكومة مصدق تنسيقا تاما .

ولكن احداث تموز (يوليو) ١٩٥٢ فى طهران والفشل المخزى الذى منيت به محاولة اعادة تعيين قوام السلطنة رئيسا للوزراء علمت الديبلوماسيين والجواسيس الاميركيين الكثير . ولهذا شرعوا فى واشنطن ، فضلا عن الهجوم المباشر على حكومة مصدق ، فى رسم خط سرى جدا فى السياسة الاميركية العدوانية حيـــال ايران ، لا تسلط عليه المطبوعات العلميـــة اى نور تقريبا حتى الآن . ففى آب (اغسطس) ١٩٥٢ ، عقد قادة وزارة الخارجية الاميركية ووكالة المخابرات المركزية مداولة سرية فى واشنطن لرسم جميع تفاصيل هذا الخط السرى فى المسألة الايرانية . وقد اشترك فى المداولة نائب وزير الخارجية الاميركيـــة بروس ، ومعاون وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط الجنرال بايرود ، ورئيس قسم المخابرات بوزارة الخارجية الاميركيـــة فى بلدان الشرق الاوسط تريزايز ، ومدير مصلحة مسائل الحرب النفسية الين ، وقادة وكالة المخابرات المركزية . ويستفاد من نبأ للصحيفة الاسبوعية الفرنسية الواسعة الاطلاع «تريبون دى ناسيون» ان المداولة استنتجت ان المحاولـة المباشرة لاستبعـــاد مصدق قد لا تؤدى الا الى نهوض جديـد فى

الحركة الوطنية والى استمرار تعاظم امزجـــة العداء للاميركيين فى ايران . ولهذا ، كمـــا اشير فى قرار المداولة ، «تتلخص المهمة الاساسية للممثلين الاميركيين فى ايـــران فى المرحلة العتيدة فى استثارة الانشقاق فى الجبهة الوطنية وفى الحركة الوطنية اجمـالا وعزل مصدق بالتالى وحرمانه مساندة الشعب» (٢٨) .

وتطبيقـــا لهـــذا القرار ، بدأ الديبلوماسيون والجواسيس الاميركيون فى ايران العمل بعناد واصرار على تأزيم التناقضات بين مختلف كتل الجبهة الوطنية فى المجلس . واقاموا اتصالا مع زعيم ما يسمى حزب الشغيلة فى ايران مظفر بغائى وزعيم ما يسمى حزب الحرية خيرى زاده ، المنضمين الى الجبهة الوطنية . ولاستمالة هذين الزعيمين فى الاتجاه اللازم ، اخذ العملاء الاميركيون يزودونهما بكل اجتهاد بمعلومات مزيفة عن «الخطر الشيوعى» على ايران وعن خطط مصدّق للقضاء على النظام الملكى فى البلاد لكى يصبح ديكتاتورا بلقب الرئيس . وفى الوقت نفسه كان العملاء الاميركيون يشتركون بنشاط فى اعداد مؤامرتين ، احداهما كانت تهيأ مع العملاء الانجليز والثانية كانت اميركية كليا .

كان نائب رئيس اركان الجيش الايرانى الجنرال عبد الحجازى والتاجران الكبيران الاخوان رشيديان رؤساء المؤامرة الاولى . ومن الجانب الانجليزى كانت قيادة المؤامرة فى يد العقيد اينفرس الذى نسق اعداد الانتفاضة فى طهران مع انتفاضة قبائل بختيار وكاشكاى فى جنوب البلاد فى آن واحد . ومن الجانب الاميركـــى كان يهيئ المؤامرة رئيس البعثـــة العسكرية الاميركيـــة فى ايران الجنرال زيمرمان . ويستفاد من انباء الجريدة الايطالية «بايزه سيرا» التى نشرت فى ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ رسالـــة كبيرة من بغداد عنوانها «قرر الاميركيون التخلص من مصدق» ان اعداد المؤامرة قد قطع من الاشواط بحيث ان العقيد الاميركـــى سبندلر وضع خطة عملية فى حال نشوب معارك فى الشوارع ضد سكان طهران . ولهذا اقيم اتصال سرى مع الحزب الموالى للفاشية «سومكا» .

ولكن المؤامرة اكتشفت بفضل يقظة الوطنيين الايرانيين وولاء رئيس مصلحة البوليس المركزيـــة الجنرال افشرتوس . ففى ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٢ تلا وزير الخارجية الايرانية حسين

فاطمى فى مؤتمر صحفى بلاغ الحكومة الايرانية بكشف مؤامرة ضد الحكومة اشترك فيها جنرالان ونائبان من نواب المجلس . واعتقل الجنرال حجازى والاخوان رشيديان . وفى مقالات مسهبة عن هذه المؤمرة ، منشورة فى ١٥ تشرين الاول فى جريدتى «كيهان» و«داد» ، وردت قوائم مفصلة باسماء المتآمرين . وقد اشير الى انه تم اعداد ٤٠ الف مجموعة من السلاح الاجنبى المصدر لاجل تحقيق الانقلاب . وفى بيان فاطمى الرسمى فى المؤتمر الصحفى قيل صراحة ان المتآمرين كانوا على اتصال وثيق مع سفارة دولة اجنبية . وبما ان مصدق لم يكن بعد آنذاك قد فقد الامل فى ان يفلح ، فى غمرة النضال من اجل تأميم شركة البترول الانجلو — ايرانية ، فى التوصل على الاقل الى تحييد الولايات المتحدة (ذلك ان ترومان ظل يرسل اليه رسائل الصداقة) ، فلم ترد اشارة الى دور الولايات المتحدة فى المؤامرة . وهذا ما استغله الدعاة والديبلوماسيون الاميركيون فحاولوا ان يثبتوا فيما بعد فى الكثير من المقالات والكراريس والكتب ان المتآمرين كانوا على ارتباط بالسفارة البريطانية فقط . ولكن الخبير الانجليزى المشهور بالشؤون الايرانية ، البروفسور الفل‌ساتون يقدم البرهان المقنع على ان الخيوط الكبرى لمؤامرة خريف ١٩٥٢ كانت تؤدى الى السفارة الاميركية فى طهران (٢٩) . ولهذا الرأى اهمية كبيرة لان اهلية الفل‌ساتون كبيرة ولا جدال فيها الى حد انه دعى فى سنة ١٩٧٨ الى الاشتراك فى البحث الجماعى المذكور آنفا «ايران فى عهد آل بهلوى» .

ان كشف مؤامرة حجازى — رشيديان قد اساء نهائيا الى سمعة بريطانيا وادى فى تشرين الاول ١٩٥٢ الى قطع العلاقات الديبلوماسية بين بريطانيا وايران وطرد الممثلين الرسميين الانجليز من ايران . ولكن السفارة الاميركية فى طهران والبعثة العسكرية الاميركية وبعثة تطبيق «البند الرابع من برنامج ترومان» واصلت نشاطها المتعدد الجوانب . ومرد ذلك الى ان مصدق لم يكن قد ادرك بعد آنذاك كل نفاق سياسة الولايات المتحدة حيال ايران . الا ان الاميركيين الذين اشتركوا مع الانجليز فى اعداد مؤامرة حجازى — رشيديان التى تتجه فى الظاهر نحو السفارة

الانجليزية استغلوا ذلك لكي يقوموا بنشاط بالغ في داخل المجلس بما فيه الجبهة الوطنية . وفي الوقت ذاتـــه كانوا يهيئون ببالغ السرية مؤامرة عسكرية جديدة سائرة على هدى الولايات المتحدة الاميركية كليا .

في كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) ١٩٥٣ كانت السياسة الاميركية في ايران موجهة في المقـــام الاول الى تقويض مواقع مصدق والى تعزيـــز سلطة الشاه . في البدء مني الاميركيـــون بالفشل . ففي ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ ، صادق المجلس ، رغم المقاومة الضارية من جانب النواب الرجعيين والموالين لاميركا ، على قانون بتمديد صلاحيات مصدق الاستثنائية لمدة سنة اخرى . وبما ان مصدق كان قد اكتشف العلاقات المشتدة بين المعارضة في المجلس وبلاط الشاه ، فقد استغل صلاحياته الاستثنائية وافاد في حديث مـــع الشاه في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، كما روى الشاه في مذكراته ، انه يعتزم اجراء استفتاء شعبي في مسألـــة صلاحيات المجلس في حلقته السابعة عشرة . وتحاشيا للمؤامرات ولتدخل البلاط في سياق الاستفتاء ، اقترح مصدق على الشاه ان يغادر البلاد موقتا . وفي ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٣ ابلغ رئيس المجلس النواب قرار الشاه بالسفر الى العلاج في اوروبا برفقة الشاهينة ثريا . الا ان المعارضة الرجعية التي نسق اعمالها مسبقا وزير البلاط المرتبط بالسفير الاميركي هندرسون ، الحت في الجلسة نفسها على عدم سفر الشاه . وفي الوقت نفسه ، جرت امام القصر مظاهرة ملكية لعرض العضلات اشترك فيها مع الرجعيين عدد كبير من العناصر المتفسخة طبقيا التي استأجرها الاميركيون بواسطة المنظمة الفاشية «سومكـــا» . وقد تكلم الشاه امام المتظاهرين فقال : «رغـــم ان صحتي تتطلب فعلا منذ بعض الوقت اجراء نهج علاجي في الخارج ، ومع اني قررت ، عملا بنصيحة الاطباء ، السفر اليوم الى اوروبـــا ، ارى ان شعبي لا يرغب في ان اغادر البلاد واسافر للعلاج . ولهذا لا مخرج لي غير تأجيل السفر» (٢٩ – أ) . وقد جـــاء مصدق الى القصر لتوديـــع الشاه رسميا فتعرض لاعتداء العلوج الميالين للفاشية واضطر الى البحث عن ملجأ في المجلس .

استغل الديبلوماسيون والجواسيس والمخربون الاميركيون في

ايران هذا النجاح المزدوج ، فشرعوا فى تحقيق الخطة المرسومة فى الجلسة السرية فى واشنطن فى آب (اغسطس) ١٩٥٢ .

بعد فشل مؤامرة حجازى – رشيديان ضد الحكومة فى خريف ١٩٥٢ عززت وكالة المخابرات المركزية كثيرا من نشاط مركز آخر مناهض للحكومة كان يعمل ضد مصدق فى سرية عميقة منذ خريف ١٩٥١ . وعلى رأس المتآمرين كان الجنرال فضل اللـه زاهدى . وبما ان هذا الرجل كان قد لعب دورا مؤسفا جدا فى سحق الحركة الوطنية فى ايران وفى استعباد ايران من قبل الامبريالية الاميركية ، فانه ينبغى تناول سيرة حياته بمزيد من التفصيل .

كان زاهدى عسكريا محترفا ، وكان قريبا لرضا شاه بهلوى . وقد اشترك فى العشرينيات اشتراكـــا نشيطا فى قمع انتفاضة غيلن . وفى غضون سنوات عديدة كان واليا على اقليم خوزستان . وفى سنة ١٩٤١ شغل منصب رئيس ادارة البوليس العامة . وكما تدل المقالة المسهبة والمزودة جيدا بالوثائق ، المنشورة عن زاهدى فى الجريدة الايطالية «افانتى» ، سبق له ان اقام اتصالا فى سنة ١٩٤١ مع مقيم هملر فى ايران فرانتس-ماير . وتؤكد الجريدة ان زاهدى ابلغ المانيا عن جميع خطط التعبئة فى ايران ، ومعلومات عن توزيع القوات المسلحة فى البلاد ، ومعلومات سرية عن جميع المنشآت والمواصلات العسكريــة . ومقابل ذلك ، وعد بمنصب «فوهرر ايران» بعد احتلال القوات المسلحة الهتلرية لايران (٣٠). وبالفعل ادرج ريبنتروب زاهدى فى قائمة اعضاء الحكومة الايرانية المقبلة ، القائمة التى اعدها غروبـا وهنتيغ فى وزارة الخارجية النازية فى ٧ شباط (فبراير) ١٩٤٢ بأمل انتصار القوات المسلحة الالمانية الفاشية فى هجوم الربيع والصيف من السنة ذاتهـا على الاتحاد السوفييتى .

وفى اوائل سنة ١٩٤٢ انشأ زاهدى فى الجيش ، بامر من فرانتس ماير ، فرعا للمنظمة القومية الفاشيـــة السرية «مليونه ايران» انضم اليـه جنرالات وضباط الجيش الايرانى ذوو الميول الفاشية . وكان على هذه المنظمة ان تهيئ فتنة فاشية فى طهران فى الايام التى تبدأ فيهـا القوات المسلحة الهتلرية الاقتراب من حدود ايران . وحسب السيناريو الذى اعده ماير ، كان على زاهدى

ان يطلب فور الفتنة المساعدة من المانيا وتركيا . وكان من المتفق عليه ان يمنح زاهدى تركيا فى المستقبل ، لقاء المساعدة التى تقدمها ، حقوقا خاصة فى كردستان الايرانية واذربيجان الايرانية . ومن باب العدالة يجب القول ان الحكومة التركية لم تكن تعرف شيئا عن هذه المفاوضات . وقد كان الجاسوس والمخرب المشهور ، والسفير الهتلرى آنذاك فى انقره فون بابن صاحب المبادرة الى القسم التركى من الخطة . وفى سنة ١٩٤٢ تقاضى زاهدى مبلغا ضخما من النقود من مصلحة المخابرات الالمانية مقابل موافقته على خطط ماير وباين . وبعد ان اعتقل الانجليز قسما من العملاء الالمان فى جنوب ايران تلقوا معلومات جزئية عن خيانة زاهدى . ولهذا اعتقلت المصلحة الانجليزية لمكافحة التجسس زاهدى فى سنة ١٩٤٢ ونقلته الى فلسطين .

بعد الحرب عاد زاهدى الى ايران . وفى سنة ١٩٤٩ عُيِّن من جديد رئيسا لدائرة البوليس المركزية . وبدعم من القوى الرجعية ، صار فى سنة ١٩٥١ وزيرا للداخلية . ولكنه طرد بخزى وعار من حكومة مصدق بعد ان نكلت قوى الامن ، بناء على امره ، تنكيلا وحشيا بمظاهرة شعبية من ١٠٠ الف شخص قامت احتجاجا على وصول الممثل الشخصى للرئيس ترومان الى طهران فى ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ .

وفى ذلك الوقت بالذات ، وصل الى طهران المقيم السابق لهملر فى ايران فرانتس ماير بوصفه ممثلا لبضع شركات كيماوية كبيرة فى جمهورية المانيا الاتحادية . واثناء لقاء سرى مع زاهدى طلب منه ان ينتقل الى خدمة المخابرات الاميركية ، والا فانه سيفضح كليا نشاطه التجسسى فى زمن الحرب العالمية الثانية . وبواسطة جاسوس هتلرى آخر ، هو فون بازيفيتس ، الذى سبق ان انتقل الى خدمة المخابرات الاميركية فى سنة ١٩٤٦ والذى كان آنذاك فى طهران بصفة مراسل لعدد من الجرائد الالمانية الغربية ، اقام زاهدى اتصالا وثيقا جدا مع مصلحة المخابرات المركزية وصار رئيسا للمركز الرئيسى المعادى لمصدق فى ايران .

وحسب شهادة البروفسور الفل-ساتون ، انشأ زاهدى فى سنة ١٩٥١ ، بامر من الاميركيين ، نادى الضباط المتقاعدين .

وفى هذا النادى بالذات جرى اعداد الانقلاب . ففى خريف ١٩٥٢ ، اى بعد فضح مؤامرة حجازى - رشيديان ، صرف من الجيش باشارة من مصدق ، اكثر من ٢٠٠ جنرال وضابط كبير . وهؤلاء كما يؤكد الفل-ساتون ، وسعوا وقووا كثيرا نواة المنظمة التآمرية التى يرأسها زاهدى (٣١) . وفى ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، قام المتآمرون ، بمشاركة زاهدى النشيطة ، بمحاولة لاغتيال مصدق ، ولكن المحاولة باءت بالفشل . واعتقل زاهدى وبعض اعوانه . ولكن سرعان ما اضطرت الحكومة الى اخلاء سبيل زاهدى تحت ضغط السفير الاميركى هندرسون .

فى آذار (مارس) ونيسان (ابريل) ١٩٥٣ ، تازم الوضع من جديد فى ايران . وشدد الامبرياليون الاميركيون نشاطهم فى ثلاثة اتجاهات : فقد واصلوا تصديع الجبهة الوطنية ، واعدوا محاولات جديدة لاغتيال مصدق واقرب اعوانه ، ونظموا انتفاضة واسعة قامت بها قبائل بختيار . وفضلا عن ذلك ، استغل الاميركيون على نطاق واسع العلاقات القديمة التى كانت للمخابرات البريطانية مع الاوساط العليا الاقطاعية من قبائل بختيار . وفى اواسط نيسان (ابريل) ١٩٥٣ ، قمعت القوات المسلحة الحكومية انتفاضة قبائل بختيار ، وسيق ابو القاسم بختيارى ، قائد الانتفاضة ، وصنيعة قصر الشاه ، الى طهران وزج به فى السجن . وفى الوقت نفسه اعتقل ابنا عم الشاهينة ثريا ، مجيد وامير بختيارى ، اللذان دعما الانفصاليين البختياريين . وفى ٦ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ ، تكلم مصدق فى الراديو فاتهم الاوساط المقربة من البلاط بالتدخل فى الشؤون السياسية وبمخالفة الدستور وبمساندة الانفصاليين والمتآمرين وسمّى مصدق افرادا من عائلة الشاه بصفة مذنبين ملموسين : والدة الشاه تاج كولوك ، واخوه الاصغر الامير مجيد رضا ، واخته الاميرة اشرف . وقد اتهم رئيس الوزراء هؤلاء الاشخاص بالصلة مع الجنرالات ذوى المزاج الموالى للامبرياليين .

ولقد استطاع مصدق ان يسمى المسؤولين الملموسين عن المؤامرة بفضل يقظة رئيس دائرة البوليس العامة الجنرال محمود افشرتوس وبفضل نشاطه الوطنى . وقد سبق ان حاول المتآمرون

فى شباط (فبراير) ١٩٥٣ تجنيده . وبعلم مصدق واصل الجنرال افشرتوس الاتصالات مع المتآمرين وظل يطلع رئيس الوزراء على جميع خططهم . وهذا ما اتاح تحاشى الاعتداء على مصدق ، وتجنب خطط الانقلاب العسكرى ، وقمع انتفاضة الانفصاليين فى الجنوب . ولكن وزير الداخلية الجنرال صادقى ، الذى كان له بحكم الوظيفة حق الاطلاع على جميع معلومات افشرتوس السرية ، خان الحكومة واعلم الامير على رضا عن دور افشرتوس . واذ ذاك اغتال المتآمرون الجنرال باشارة مباشرة من زاهدى ، وبموافقة وكالـة المخابرات المركزية . وسرعان ما اقتفى البوليس اثر المتآمرين واعتقل احد المشتركين فى الاغتيال — حسين خطيبى . اما زاهدى ، فقد اختفى فى احد القصور بضواحي طهران بصورة امينة ، وبمساعدة عملاء وكالة المخابرات المركزية ، ثم التجأ الى المجلس .

وفى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ نشرت جريدة «شاه باز» ، لسان حال الجمعية الوطنية للنضال ضد الامبريالية مقالة عنوانها «معلومات جديدة عن المؤامرة» جاء فيها ان السفير الاميركى لوى هندرسون ، ووزير البلاط سابقـا حسين علا ، وبعض نـواب المجلس ، وفريق كبير من الجنرالات والضبـاط ، من العاملين والمتقاعدين ، يهيئون انقلابا فى البلاد باشراف الجنرال زاهدى ، وان المتآمرين ارتأوا استخدام كتيبة المدرعات والدبابات بقيادة الرائد ماحين بى ، الوثيق الارتباط شخصيـا بزاهدى ، كقوة ضاربة .

ومع اعداد الانقلاب العسكرى ، بذلت الاوساط الحاكمة الاميركية قصارى الجهد لتأزيم الوضع الاقتصادى فى ايران واثارة الاستياء فى البلاد من حكومة مصدق ، وتعقيد الوضع داخل الجبهة الوطنية . ولهذا الغرض ، دعمت الولايات المتحدة وشجعت مقاطعة البترول الايرانى التى بدأت بها بريطانيـا منذ سنة ١٩٥١ . وحتى حين اعلنت حكومـة مصدق في نيسان (ابريـل) ١٩٥٣ ، رغم الوضع المالى الخارق المشقـة الذى كانت تعانيه من جراء ذلك ، تخفيض اسعار البترول الخـام المخصص للشارين السابقين من البلدان الغربية مقدار ٥٠٪ ، ادت الاعمـال المشتركة التى قامت بهـا بريطانيـا والولايات المتحدة الى فشل هذه الخطة ايضا . وفى

٢٦ ايار (مايو) ١٩٥٣ ارسل مصدق رسالة الى الرئيس الاميركي الجديد ايزنهاور طلب منه فيها ان تكف الولايات المتحدة الاميركية عن الاشتراك في مقاطعة البترول الايراني الاقتصادية او ان تقدم لايران مساعدة مالية على ضوء الوعود السابقة . الا ان ايزنهاور لم يرد على مصدق الا بعد شهر ، فقد بعث اليه برسالة جوابية رفض فيها جميع رغائب الحكومة الايرانية وطالب فيها فعلا بالاستسلام امام شركة البترول الانجلو - ايرانية . وقد حلل المؤرخ الايراني شمس الدين امير الله سياسة الولايات المتحدة حيال ايران في ربيع ١٩٥٣ فأشار الى ان مغزى مناورات ايزنهاور والجواسيس والديبلوماسيين الاميركيين كان يتلخص في «كسب الوقت باي ثمن كان والقيام بانقلاب ضد مصدق» (٣١ - أ) .

في اواخر ايار (مايو) ١٩٥٣ قام وزير الخارجية الاميركية جون فوستر دالس برحلة في بلدان آسيا . وقد رفض ، من باب التظاهر والتحدي ، زيارة ايران ، وعندما كان في الباكستان استدعى الى كاراتشي السفير الاميركي في طهران لوي هندرسون لاجل اعطائه التعليمات المفصلة بصدد الانتقال الى الاعمال الحاسمة ضد مصدق . وفي حزيران (يونيو) ١٩٥٣ ، نظم هندرسون «تسربا» للمعلومات . فقد نشرت الصحف الايرانية رسالة سرية ارسلها دالس الى السفير الاميركي في طهران تتضمن حملات خارقة الحدة على مصدق . وقد كان ذلك بمثابة دعوة سافرة الى الرجعية الداخلية للانتقال الى الاعمال الحاسمة ضد حكومة الجبهة الوطنية . وفي ١٣ تموز (يوليو) ١٩٥٣ كتبت الجريدة الواسعة الاطلاع «نيويورك بوست» في رسالة مسهبة من طهران تقول : «ان حكومة مصدق ستسقط في هذه السنة . . . اغلب الظن ان الجيش سيطيح بها . . . الجيش الايراني جيش باسل له صلات وثيقة بخاصة بالولايات المتحدة التي تزوده بالاسلحة الحديثة وتعلم رجاله» .

وبدأ هجوم الامبريالية الاميركية المباشر على مصدق .

في النصف الاول من سنة ١٩٥٣ ، بذل هندرسون ، ومقيمو وكالة المخابرات المركزية ، وممثلو الاحتكارات الاميركية قصارى الجهد ، تنفيذا منهم للقرارات التي اتخذتها المداولة السرية في واشنطن بصدد المسألة الايرانية في سنة ١٩٥٢ ، لكي يقوضوا

من الداخل كتلة الجبهـــة الوطنية فى المجلس ويصعّبوا عملها ، والرئيسى ، لكى يعزلوا مصدق . وفى هذا النشاط الهدام الاسود ، حاول الاميركيون بجميع الوسائل ، علنـــا وسرا ، ان يستغلوا العلاقات السرية بين البلاط والجنرالات وبين المقاومة فى المجلس .

ومع ذلك ، استطاع مصدق ان يحرز انتصارا جديا فى ٢٥ ايار (مايو) ١٩٥٣ . فقد صادق المجلس على مشروع قانـــون ينبغى بموجبه ان تعود كل المسؤولية عن قيادة الجيش الى وزير الدفاع اى الى مصدق الذى كان يشغل هـذا المنصب . وهكذا اخذ دور الشاه بوصفه القائد العام الاعلى للقوات المسلحة الايرانية يصبح اسميا اكثر فاكثر ، الامر الذى كان يهدد بفشل خطط جون فوستر دالس وهندرسون والجنرالين حجازى وزاهدى .

كذلك جاءت الانبـــاء عن تحسن علاقات ايران مـــع البلدان الاشتراكية وعن دعوة مصدق لوفد سوفييتى من اجل اجراء مفاوضات بشأن المسائل الاقتصاديـــة تثير القلق والاضطراب فى معسكر الرجعية الايرانية والعالمية . ويفيد الصحفى الاميركى اندريو تولى فى كتابه «وكالة المخابرات المركزية — التاريخ الداخلى» ان الخوف من احتمال تحسن العلاقات الايرانية السوفييتية همز الديبلوماسيين والجواسيس الاميركيين فى طهران حقـــا وفعلا . ولاحظت الجريدة الفرنسية الواسعة الاطلاع «تريبون دى ناسيون» فى مقالة كبيرة مخصصة للازمة الايرانية ان هندرسون كان يتقابل يوميا تقريبا فى حزيران وتموز (يونيو ويوليو) مـــع نواب المجلس وغيرهم من السياسيين الايرانيين ويخيفهم بخطر الشيوعية ، ويطالبهم بتعبئة جميع القوى لاجل اسقاط مصدق . وباللجوء على نطـاق واسع الى التهويل والاستفزازات والتهديدات والرشوة ، سعى هندرســون واعوانه ببالغ الهمة والنشاط للتأثير فى اعضاء الجبهة الوطنيـــة باغائى وخيرى زاده وكانات بادى (٣٢) .

وفى حزيران (يونيو) ١٩٥٣ ، نشأ فى المجلس وضع يستحيل فيه العمل العادى ، وذلك من جـــراء مؤامرات الاوساط الرجعية والديبلوماسية الاميركية . ففى الاروقة وحتى من على منبر المجلس بدأت تتعالى نداءات الى استقالـــة مصدق والى تحسين العلاقات الايرانية الاميركية بصورة جذرية .

وفى هذه الاحوال اقترح مصدق من جديد اجراء استفتاء فى مسألة حل المجلس نظرا لعجزه عن العمل واجراء انتخابات جديدة . وقد لقى هذا الاقتراح الدعم الكبير من جانب الرأى العام الايرانى والجماهير الشعبية . وفى ٢١ تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، اى فى يوم الذكرى السنوية للتنكيل الدموى الذى اقترفه فى سنة ١٩٥١ قوام السلطنة بحق الشعب الايرانى ، قامت فى طهران وغيرها من مدن ايران اجتماعات ومظاهرات جماهيرية اشترك فيها اكثر من ١٠٠ الف شخص . وقد طالبوا بحل المجلس الذى امسى وكرا للمؤامرات الاجنبيــة وبطرد المستشارين الاميركيين على الفور من ايران ، والغاء جميع الاتفاقيات التى كانت تنال ايران بموجبها «المساعدة» الاميركية السيئة الشهـــرة . وقد اتجه الغضب على الاخص ضد الممثليات الاميركية العديدة التى انشئت فى ايران لاجل الرقابـة على تقديم المساعدة بموجب «النقطة الرابعة من برنامج ترومـان» والتى تحولت من زمـان الى مراكز للتجسس الاميركى والدسائس الاميركية .

ودب القلق والاضطراب فى واشنطن . وارسلوا على جنـــاح السرعـة الى طهران الاختصاصى الكبير فى شؤون الشرق الاوسط بوكالة المخابرات المركزية كرميت روزفلت ، المشهور فى الاوساط الاستخبارية بلقب «كيم» . وقد خصص صاحبا البحث الرفيع المكانة عن الدور الفعلى الذى قامت به وكالـــة المخابرات المركزية فى السياسة الاميركية ، الداخلية والخارجية ،وايز وروس فى دراسة «الحكومة الخفية» بابا خاصا «لمآثر» وكالة المخابرات المركزية فى ايران . وبالاعتماد على وقائع ووثائق لا مراء فيها خلصا الى القول ان وزارة الخارجية الاميركية ووكالة المخابرات المركزية التى كان يشرف عليها الاخوان دالس بلا حسيب ولا رقيب ، قد عهدتا فى اواخر ربيع ١٩٥٣ الى كرميت روزفلت «القيام بعمليـــة لاسقاط مصدق» (٣٣) . ويؤكد المؤرخ اليابانى تابودزو اونو فى كتابه «الجواسيس القادمون من اميركا» استنتاج وايز وروس ، ويعيد الى الاذهان ان كرميت روزفلت ، حفيد الرئيس الاميركى تيودور روزفلت ، صاحب الشعارات القائلة انه ينبغى على الولايات المتحدة ان تنتهج السياسة الخارجية مع رفع هراوة كبيرة – قد سبق له ان

مارس نشاطه فى بلدان الشرقين الادنى والاوسط ابـان الحرب العالمية الثانيـة . وآنذاك ، كان موظفا نافذا فى وكالـة الخدمات الستراتيجية ، سالفة وكالـة المخابرات المركزية ، وزار ايران مرارا واقام فيهـا اتصالات وثيقة مع كبار الجنرالات ومـع اشد الاوساط اغراقا فى الرجعية .

ويؤكد وايز وروس واونو ان كرميت روزفلت وصل الى ايران فى حزيران (يونيو) ١٩٥٣ على رأس فريق كبير من الاختصاصيين بشؤون الشرق الاوسط فى وكالة المخابرات المركزية ، حاملا فى جيبه دفترا ضخما من الشكات سمح له باستعمالـه بلا رقيب ولا حسيب . وهذه المعلومات يؤكد صحتهـا فكتور مارتشيتى وجون ماركس اللذان نشرا فى سنة ١٩٧٤ كتابا مدويا اسمه «وكالـة المخابرات المركزية وعبادة التجسس» . وقد تضمن هذا الكتاب مواد فاضحة على درجة من القوة بحيث ان قادة وكالـة المخابرات المركزية حاولوا مرتين عن طريق الدعاوى القضائية الغالية التكاليف ان يمنعوا دار الطبـع والنشر «جوناتان كيب» عن نشره . وبعد الفشل ، توصلت وكالـة المخابرات المركزية فى سياق احدى المحاكمات القضائية ، الى قرار بنشر الكتاب مـع حذف فقرات كبيرة منه . وفى الدعوى القضائية التالية امكن لدار النشر والمؤلفين بعث قسم من الفقرات المشطوبة . وهذه الفقرات طبعت فى الكتاب بحرف عريض . اما الفقرات الاخرى المشطوبة بناء على طلب وكالة المخابرات المركزية وبمصادقة المحكمة ، فقد انعكست فى الكتاب عن طريق ابقـاء اماكن فارغة فى الصفحات . ان اجراء مقارنة بين الفقرات المطبوعة بالحرف العريض وبين الاماكن الفارغة فى الصفحات يتيح للقارئ ان يتفهم بنحو اكمل الكثير من الافاعيل المخزية التى اقترفتها وكالة المخابرات المركزية فى بلدان الشرق وبخاصة فى ايران (٣٤) .

ما ان وصل كرميت روزفلت الى طهران حتى انتقل الى النشاط السرى لكى يضلل وزارة الداخلية الايرانية . وبمساعدة عملاء وكالة المخابرات المركزية فى طهران ، اقام اتصالا وثيقا مع هندرسون واخصام مصدق البارزين . وفى ٣٠ تمـوز (يوليو) غادر كرميت روزفلت ايران رسميا لكى يعود اليها سرا بعد يومين .

... في الاول من آب (اغسطس) وصل الى طهران ضيف اميركى جديد هو الجنرال شفارتسكوبف . رسميا لم يزر طهران الا فى طريقه الى كاراتشي حيث كان ينبغي له ان يشرع في اداء واجباته كملحق عسكرى اميركى . وكانوا فى البيت الابيض يعتبرون شفارتسكوبف خبيرا بارزا في شؤون ايران ، ذلك انه ترأس فعلا من سنة ١٩٤٢ الى سنة ١٩٤٨ البوليس الايرانى والدرك الايرانى . وفضلا عن ذلك ، كما يلاحظ المؤرخ الايرانى المشهور امير الله فى كتابه «النظام السياسى والكونسورسيوم البترولى فى ايران» ، اولى شفارتسكوبف امر انشاء شبكة متشعبة من العملاء والجواسيس فى ايران قدرا بالغا من الاهتمام .

واول زيارة قام بها شفارتسكوبف عند وصوله الى ايران فى سنة ١٩٥٣ ، كما كان ينبغى التوقع ، انما قام بها الى معاونه القديم الجنرال زاهدى الذى سبق له ان استمالته وكالة المخابرات المركزية بمساعدة المقيمين السابقين لمصلحة المخابرات الهتلرية فى ايران فرانتس ماير وفون بازيفيتس . وقد نقل شفارتسكوبف الى زاهدى توجيهات الن دالس المباشرة والصريحة وقوامها تنفيذ خطة الانقلاب العسكرى على الفور . وفضلا عن ذلك ، سلم شفارتسكوبف زاهدى شبكة العملاء وجميع الاتصالات التى اقامها سلفا كرميت روزفلت . وهكذا تم تنسيق نشاط بضعة من خطوط المخابرات الاميركية والرجعية العسكرية اللتين كانتا تبتغيان هدفا واحدا هو الانقلاب العسكرى . ولم يكتف شفارتسكوبف بتزويد زاهدى واعوانه بتوجيهات الن دالس وقوائم عملاء كرميت روزفلت . وكما يجمع على القول اختصاصيون بارزون ، مثل العالم الايرانى امير الله ، والمؤرخين الفرنسيين بيار نور وجاك برجيه ، صاحبى كتاب «الحرب السرية الحقيقية» ، والصحفى الاميركى اندريو تولتى ، صاحب كتاب «وكالة المخابرات المركزية - التاريخ الداخلى» ، احال شفارتسكوبف الى زاهدى وسائر المتآمرين لاجل تمويل الانقلاب مبلغا ضخما من النقود - اكثر من ١٠ ملايين دولار . وهذا ما يؤكد صحته المستشار السابق فى شؤون الشرقين الادنى والاوسط بوكالة المخابرات المركزية فيلبور ايفلند فى كتابه الذى اثار ضجة «فى الرمال الوعسة . الفشل الاميركى فى الشرق الاوسط» (٣٥) .

ففي آب (اغسطس) طار شفارتسكوبف الى الباكستان ، ولكن ليس البتة لاجل العمل في السفارة الاميركية في كاراتشي بل لاجل اجراء مفاوضات مديدة مع الامير على رضا الذي اسرع الى الباكستان بذريعة صيد الفهود ، وقد اكدت المقالة المنشورة في الجريدة الفرنسية «تريبون دى ناسيون» انه تم نهائيا ، اثناء المفاوضات بين شفارتسكوبف وعلي رضا في الباكستان ، تنسيق خطة اعداد انتفاضة القبائل في المناطق الحدودية في اقليم بلوجستان الايراني ، الامر الذي كان لا بدّ له من ان يزيد وضع حكومة مصدق تعقدا على تعقد . (٣٦)

في ٣٠ تموز (يوليو) — اي في اليوم الذي طار فيه علي رضا «الى الصيد في الباكستان» ، طارت اخته الكبرى الاميرة اشرف الى سويسرا حيث كان ينبغي ان تجرى المفاوضات الحاسمة مع الاميركيين . وفي هذه الاثناء كان مصدق يواصل الاعداد بهمة ونشاط لاجراء الاستفتاء حول حل المجلس . وفي ٣ آب (اغسطس) جرى الاستفتاء في طهران ، وفي ١٠ آب في الاقاليم . وقد صوت بالموافقة على حل المجلس في حلقته السابعة عشرة ٢٠٤٩٠٠٠ شخص ، وضده ١٢٠٠ شخص . وقبل اعلان نتائج الاستفتاء النهائية ، طار مدير وكالة المخابرات المركزية الن دالس الى سويسرا . والى سويسرا استدعى هندرسون ايضا . وفي سويسرا على وجه الضبط اتخذ القرار بصدد يوم الانقلاب . ويؤكد اندريو تولّي صراحة ان القرار النهائي بصدد مواعيد الانقلاب قد اتخذه الن دالس ولوى هندرسون والاميرة اشرف بهلوي . وهذا ما يؤكده ايضا صديقا الن دالس القريبان ريتشارد وغليديس هاركنس ، اللذان نشرا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ثلاث مقالات في «ساتردى ايفنينغ بوست» بالعنوان المشترك «النشاط السري لوكالة المخابرات المركزية» (٣٧) .

وقد احيلت القرارات المتخذة في سويسرا الى الجنرال زاهدى في طهران عبر خطوط الاتصال التابعة لوكالة المخابرات المركزية علما بان زاهدى كان منذ ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥٣ يعيش سرا في شقة اميركي من موظفي بعثة تنفيذ «النقطة الرابعة من برنامج ترومان» . ويستفاد من انباء صحيفة «الموند» الفرنسية ان الجنرال

زاهدى كان على صلة دائمة مع المتآمرين ومع موظفى السفارة الاميركية فى طهران بواسطة ابنه اردشير زاهدى الذى كان يشتغل آنذاك فى بعثة «تنفيذ النقطة الرابعة من برنامج ترومان» ، والذى شغل فيما بعد مناصب ديبلوماسية رفيعة بينها منصب سفير ايران فى واشنطن (٣٨) . وقد اقيل من منصبه الاخير فى ١٧ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ اى بعد ان اضطر الشاه الى مغادرة ايران .

نحو ١٢ آب (اغسطس) كان المتآمرون قد اعدّوا لواء الرماة الجبليين الثانى فى الجيش الايرانى كقوة ضاربة فى الانقلاب العسكرى ، وكان قد انتهى نقل الجنرالات المتآمرين امان بور ومهوى وداد ستان الى النقاط الاساسية فى ايران .

فى مساء ١٢ آب ١٩٥٣ اعلن مصدق فى كلمة القاها فى راديو طهران عزمه على حل المجلس على اساس نتائج الاستفتاء الشعبى العام . وفى ليلة ١٢ الى ١٣ آب وقع الشاه سرا ، — وقد كان آنذاك فى مدينة رامسار على ساحل بحر قزوين — فرمانين — الاول باقالة محمد مصدق من منصب رئيس الوزراء ، والثانى بتعيين الجنرال فضل الله زاهدى فى هذا المنصب . وقد طار آمر حرس الشاه العقيد ناصرى ، رئيس «سافاك» لاحقا ، الى طهران حاملا هذين الفرمانين . فاصدر كرميت روزفلت وفضل الله زاهدى العاملان فى السر امرا بتطبيق خطة الانقلاب العسكرى .

٩ ـ انقلاب ١٩ آب ١٩٥٣

يجمع كبار الاختصاصيين فى تاريخ ايران وقضايا حق الدولة والدستور فى القول بان توقيع الشاه سرا على هذين الفرمانين حدث لا سابق له فى تاريخ ايران وفى تاريخ البلدان الدستورية على العموم . وهذا ما يؤكده ، مثلا ، المؤرخ الفرنسى المعروف فنسان مونتى فى كتابه «ايران» ، والمؤرخ الايرانى شمس الدين امير الله ، والمؤرخ الفرنسى هوبرت بيكته فى كتاب «الشرق من خلال الكوة الزجاجية فى السيارة» ، والمؤرخ الانجليزى الفل-ساتون (٣٩) . وفى جميع الكتب يشار الى ان الفرمانين المذكورين الموقعين سرا عن مصدق ، المعين رسميا رئيسا للوزارة ، وعن المجلس فى

حلقته السابعة عشرة الذى كان لا يزال يعمل ، كانا انتهاكا فظـا للدستور الايرانى لعام ١٩٠٦ وللاضافات المدرجة فيه بعد الحرب العالمية الثانية .

ويعرب المؤلفون المذكورون عن اقصى الاستياء لأن الاميركيين قد «عينوا» فى منصب رئيس الوزراء الجنرال زاهدى بالذات ، الذى ثبتت بحقه تهمة الاتصالات السرية مع المخابرات الفاشية ابان الحرب العالمية الثانية .

فى صباح ١٤ آب ١٩٥٣ ، اطلع ناصرى على الفرمانين الجنرال ماكلور ، رئيس فريق المستشارين العسكريين الاميركيين فى ايران . وباشارة من ماكلور وكرميت روزفلت ، بدأ المتآمرون يستجلبون القوات المسلحة الى طهران لاجل اعتقال مصدق وابرز اعضاء حكومته ورئيس هيئة الاركان العامة الجنرال رياضى فى الساعة الواحدة من ليلة ١٥ آب باشارة من صاروخ ابيض .

ولكن الرأى العام الديمقراطى فى طهران عرف بعض تفاصيل المؤامرة بفضل يقظة الوطنيين الايرانيين . وسرعان ما خرجت جموع السكان المستائين الى شوارع العاصمة واخذت تصرخ بشعارات معادية للشاه . وبدأ استقطاب القوى بين عساكر حامية العاصمة . وفى هذه الاحوال ارجأ المتآمرون الانتفاضة يوما بناء على نصيحة الجنرال ماكلور وكرميت روزفلت العامل سرا . وفى ليلة ١٥ الى ١٦ آب اعتقل حرس الشاه بضعة وزراء ، ووصل العقيد ناصرى الى مقر رئيس الوزارة وسلمه فرمان الشاه بعزله من منصبه . ولكن المؤامرة قمعت فى تلك الليلة . فان قسما من قوات المتآمرين قد تم نزع سلاحه . وبامر من مصدق والجنرال رياضى ، اعتقل العقيد ناصرى . وفى هذه الاثناء كان فضل الله زاهدى يواصل العمل سرا . وعند تلقى نبأ فشل المؤامرة ، طار الشاه مع الشاهينة ثريا من رامسار الى بغداد . ويؤكد المؤرخ الايرانى صاحب جام ان هذا القرار قد اتخذ بناء على توصية ملحة من زاهدى الذى تصرف حسب تعليمات كرميت روزفلت .

بعد الاقامة يومين فى بغداد طار الشاه وزوجته سرا على طائرة عادية الى روما . ويؤكد وايز وروس ان الن دالس طار من سويسرا الى روما لاجراء مفاوضات مع الشاه .

وفي هذه الاثناء كانت تدور مناقشات محمومة في البيت الابيض والبنتاغون ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية بشأن الوضع في ايران . واستخلاصا لرصيد هذه المناقشات كتب المؤرخ الاميركي البارز ريتشار كوتم في كتاب «النزعة القومية في ايران» ان واشنطن قد اعتبرت فشل مؤامرة ١٦ آب (اغسطس) ١٩٥٣ هزيمة خطيرة جدا تمنى بها السياسة الاميركية في الشرق . ولهذا تقرر القيام على جناح السرعة بمحاولة جديدة لاسقاط مصدق .

ان رأي البروفسور كوتم يتسم باهمية خاصة لأنه زار ايران في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ مع فريق من زملائه المختصين بشؤون ايران من جامعات الولايات المتحدة الاميركية ، بناء على تكليف شخصي من الرئيس كارتر ، لاجل «الاطلاع على الوضع» . وقد اكد البروفسور كوتم في استنتاجاته على فظاظة خطل السياسة الاميركية حيال ايران ، هذه السياسة التي عولت في السنوات الـ٢٥ الاخيرة على دعم النظام اللادستوري .

ويروي وايز وروس بالتفصيل كيف عمل موظفو السفارة الاميركية وقادة المصالح المختصة الاميركية في ايران بجهد وتوتر في يومي ١٧ و١٨ آب . وبامر من كرميت روزفلت ، انشئت في هذين اليومين في طهران «لجنة تنفيذية» سرية برئاسة الجنرال زاهدي . ويستفاد من شهادة المؤرخ الياباني تاتسودزو اونو ان ملايين الدولارات قد تم توزيعها بواسطة «اللجنة التنفيذية» في ١٧ و١٨ آب على الجنرالات وعلى الساسة الرجعيين من المبالغ التي جلبها الجنرال شفارتسكوبف الى طهران في اواخر تموز (يوليو) ١٩٥٣ .

وتنبغي الاشارة الى ان عملاء وكالة المخابرات المركزية العلنيين والسريين لم يكونوا وحدهم يتصرفون بنشاط في ايران في ذينك اليومين . ففي ١٧ آب ، اي في اليوم الثاني لفشل المؤامرة الاولى وفرار الشاه على عجل الى الخارج ، عاد لوي هندرسون بسرعة الى طهران بعد اشتراكه في المفاوضات السرية في سويسرا مع الن دالس والاميرة اشرف بهلوي . ان عودة هندرسون الى طهران قبل يومين من الانقلاب الثاني تكذب زعم بعض الدعاة الاميركيين بان وكالة المخابرات المركزية قامت بالانقلاب بمبادرتها الخاصة دون الاتفاق مع وزارة الخارجية والبيت الابيض .

في ١٨ آب ، زار هندرسون مصدق وقال له بوقاحة ان الحكومة الاميركية ستعارض بجميع التدابير بقاءه لاحقا في الحكم ؛ ثم اوصى السفير الاميركي رئيس الوزارة الايرانية باصرار بالاستقالة فورا (٣٩ — أ) .

في أواخر ١٩٥٢ واوائل ١٩٥٣ ، نشب خلاف بين مصدق وكاشاني ، نجم عن فوارق خطيرة في تكتيك مواصلة النضال ضد الامبريالية الغربية وبخاصة ضد الامبريالية الاميركية ، ورفض رئيس الوزراء دعم اقتراح آية الله بصدد عقد مؤتمر للبلدان الاسلامية في طهران لاجل انشاء منظمة اسلامية عامة للنضال ضد الاستعمار . ورغم هذا ، حذر كاشاني مصدق في رسالة بتاريخ ١٨ آب ١٩٥٣ (ولم تنشر نسخة مصورة عنها الا في سنة ١٩٧٩) بانه يجب عليه ان يتوقع محاولة جديدة لاجراء انقلاب برئاسة زاهدي (٤٠) . ولكن مصدق تقاعس عن العمل خوفا من اجتذاب جماهير شعبية واسعة الى النضال ضد الامبريالية . بينما غدا تصريح هندرسون اشارة لاجل المتآمرين .

وحل صباح اليوم المشؤوم على ايران ، يوم الثامن عشر من آب (اغسطس) ١٩٥٣ — (٢٨ مرداد حسب التقويم القومي الايراني) . يجمع جميع المؤلفين المذكورين اعلاه في القول ان كبير خبراء وكالة المخابرات المركزية في شؤون الشرق الاوسط كرميت روزفلت الذي لقب فيما بعد لقاء «مآثره» بلقب «المستر ايران» وأعطي منصبا رفيع الراتب ، منصب نائب لرئيس احتكار من اكبر الاحتكارات البترولية الاميركية — «غالف اويل» — قد اشرف شخصيا على اعمال المتآمرين . بأمر من زاهدي دخلت وحدات عسكرية برئاسة الجنرالات الخونة طهران . ودفع عملاء وكالة المخابرات المركزية الذين انفقوا تسعة ملايين دولار بالاضافة الى العشرة ملايين دولار التي وزعها شفارتسكوبف ، عصابات من العناصر المتفسخة طبقيا الى الشوارع برئاسة زعماء المجرمين واللصوص في طهران عبد الله نوري وطيب رضايه وشعبان الملقب «بيمخ» («بلا مخ») . وكما جاء في مقالة المستشرق المعروف اريك رولو ، كان يطيب لطيب رضايه ان يردد فيما بعد : «استطاع الشاه ان يعود الى ايران بفضلي وفضل شعبان بيمخ» (٤١) .

وفى الوقت نفسه ، خرج اعضاء الحزبين الموالين للفاشية «اريا» و«سومكا» الى الشوارع بامر من كرميت روزفلت .

حسب خطة موضوعة سلفا ، حطم اللصوص والاشقياء والفاشيون والعناصر المتفسخة طبقيا مقرات جميع الجرائد التقدمية ونهبوا المتاجر . وكل هذا جرى فى دوى وصخب الصياح بالشعارات الملكية . وفى هذه الاثناء استولت العساكر بقيادة الجنرالات الملكيين على البرق المركزى ومحطة اذاعة طهران ، وبدأت على الفور تذيع نداء الشاه وخطاب الجنرال زاهدى الذى اعلن نفسه رسميا رئيسا للوزراء .

بعد معركة دامية استمرت تسع ساعات اقتحمت الوحدات العسكرية بقيادة الجنرالات المتآمرين مقر مصدق رئيس الوزارة ، واعتقلته . وفى سياق الانقلاب العسكرى قتل فى طهران اكثر من ٣٠٠ شخص وجرح زهاء ١٠٠٠ شخص ، ومنهم سقط اثناء القتال من اجل مقر مصدق اكثر من ١٠٠ قتيل وزهاء ٤٠٠ جريح . واثناء العمليات الحربية ، وبخاصة اثناء اقتحام مقر رئيس الوزراء الذى بقى شرعا رئيسا للحكومة صادق المجلس على تعيينه ، كانت عساكر المتآمرين تتلقى الاوامر بلا انقطاع من الجنرال زاهدى . كذلك اقام زاهدى بدوره اتصالا لاسلكيا متواصلا مع كرميت روزفلت ورئيس فريق المستشارين العسكريين الاميركيين فى ايران الجنرال ماكلور ورئيس الادارة العامة «لتنفيذ النقطة الرابعة من برنامج ترومان» الجنرال وورن ، ورئيس فريق المستشارين العسكريين الاميركيين لدى الدرك الايرانى العقيد ماكلاند .

فى ١٩ آب اعتقل جميع وزراء حكومة مصدق وجميع المناضلين النشطاء فى الجبهة الوطنية . وقد اشتركت فى اعتقالهم وتعذيبهم وقتلهم عصابات المجرمين برئاسة طيّب رضايه وشعبان بيمخ اللذين رشاهما واستكراهما كرميت روزفلت . وانتقلت السلطة الى يد زاهدى . وفى ٢٠ آب زار مدير وكالة المخابرات المركزية الن دالس الشاه المقيم فى فندق «اكسلسيور» فى روما ، وهنأه «بالنصر» ورسم خطط «الحكومة الجديدة» . وفى ٢٢ آب ١٩٥٣ طار الشاه الى طهران . وفى ٢٦ آب سلموه رسالة التهانى الرسمية من الرئيس الاميركى ايزنهاور . وفى ٣١ آب اعلم هندرسون الجنرال

زاهدى ان الحكومة الاميركية منحت الحكومة الايرانية الجديدة مبلغ ٤٥ مليون دولار على سبيل «الهدية» . . .

وساد الابتهاج والتهليل فى الاوساط الحاكمة الاميركية . ونشرت الصحيفة الاسبوعية المقربة من البنتاغون «يونايتد ستيتس نيوز اند ورلد ريبورت» مقالة بعنوان «المساعدة الاميركية تعوّضت» جاء فيها : «الجيش الايراني والبوليس الايرانى اللذان دربهما الاميركيون راحا الى طهران فى سيارات شاحنة اميركية . . . بمساعدة الدبابات «شرمان» والسلاح المصنوع فى الولايات المتحدة الاميركية طرد العسكريون رئيس الوزارة مصدق واخذوا زمام السلطة في ايديهم» (٤٢) . وبمزيد من الوقاحة والصفاقة اعرب عن رأيه في سنة ١٩٥٤ الممثل البارز للبنتاغون ، الجنرال جورج ستيوارت ، فى جلسة لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الاميركى : «البنادق التى كان يحملها الجنود الايرانيون الذين اسقطوا مصدق وسيارات الشحن التى راحوا على متنها ، والسيارات المدرعة التى اقتحموا بواسطتها مقره ، ووسائط المواصلات التى أمنت المراقبة ، — كل هذا قدمه لهم الاميركيون بموجب برنامج المساعدة العسكرية . ولولا هذا البرنامج ، لكانت فى الحكم الآن ، اغلب الظن ، حكومة غير موالية للولايات المتحدة الاميركية» (٤٣) .

ان تصفية حكومة الجبهة الوطنية ، وتعيين زاهدى رئيسا للوزارة ، واحالة كامل السلطة الى الشاه ، — كل هذا لم يسهم فى تعزيز النفوذ الاميركى فى ايران تعزيزا بالغا وحسب ، بل اسهم ايضا فى اقامة كامل مراقبة الكونسورسيوم البترولى العالمى الذى كانت الاحتكارات الاميركية تلعب فيه الدور الرئيسى ، على موارد ايران البترولية .

كل هذا استثار احتجاجا جبارا من جانب الرأى العام الايرانى والفريق المعادى للامبريالية من رجال الدين الشيعيين . وقد ارسل كاشانى فى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٤ رسالة الى الامين العام لهيئة الامم المتحدة كتب فيها : «هدف هذه الرسالة اعلامك ان حكومة زاهدى قد داست مبادىء الدستور الايرانى والاحكام الاساسية فى ميثاق هيئة الامم المتحدة والاعلان العام لحقوق الانسان ، ولهذا تعتبر جميع قراراتها غير شرعية» . وعندما صارت شروط الاتفاقية

البترولية الجديدة التى فرضها الكونسورسيوم البترولى العالمى على ايران معروفة فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ نشر كاشانى البيان التالى : «بما ان الرأسماليين الاستعماريين الاميركيين سيتلقـون مئات الملايين من الدولارات من استغلال البترول الايرانى ، تفقد الامم المظلومة كل امل فى الحرية وتترسخ نهائيا فى موقفها السلبى من الغرب» . ثم اشير فى الرسالة الى ان الغرب ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية اللذان يزعمان انهما يناضلان ضد انتشار النفوذ الشيوعى فى العالم اجمع ، يجب ان يفهما ان «نشاطهما كظالمين استعماريين فى ايران ومصر والمغرب وفلسطين وغيرها من البلدان الضعيفة لا يفعل غير ان يعجل تقدم الشيوعية واحتمال نشوب نزاع عالمى جديد» (٤٤) .

ان هذه الاقوال تدحض زعم علم التاريخ الغربى ان جميـع رجال الدين الشيعيين الذين اعماهم الكره للشيوعية والذين كانوا يخافون من نمو الحركة الشعبية الواسعة فى ايران قد رفضوا دعم مصدق واسهموا بالتالى فى انقلاب سنة ١٩٥٣ .

ومنذ الانقلاب الذى دبرته الولايات المتحدة والرجعية المحلية فى ايران فى آب (اغسطس) ١٩٥٣ حتى الثورة الايرانية انقضى ٢٥ عاما . وقد كانت هذه الاعوام شاقة جدا على شعب ايران ، بلـد الثقافة العريقة البديعة . ففور انقلاب زاهدى الذى صـار فى آن واحد رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع ووزيرا للخارجية ووزيرا للداخلية ، وضع البترول الايرانى فعلا تحت رقابة الكونسورسيوم العالمى حيث كان الاميركيون يلعبون الدور الاول . وهكذا بـدأ الدفع بموجب الكمبيالة المسلمة من قبل الولايات المتحدة الاميركية عشية انقلاب ١٩ آب ١٩٥٣ . وفى عهد حكومة زاهدى انجزت اساسا المفاوضات بشأن اشراك ايران فى حلف بغداد الذى تكرهه شعوب الشرقين الادنى والاوسط — السنتو (حلف المعاهدة المركزية) . وبعد ان اضطر زاهدى الى الاستقالة فى نيسان (ابريل) ١٩٥٥ اثر فضح علاقاته مع المخابرات الاجنبية ، انجز خلفه فى منصب رئيس الوزراء حسين علا عملية ضم ايران الى حلف بغداد فى ١١ تشريـن الاول (اكتوبر) ١٩٥٥ . وقد سبق ان اسهم حسيـن علا فى العشرينيات فى دعوة «الديكتاتور المالى» الاميركى السيىء الشهرة

ارثور ميلسيو الى ايران . كذلك اشترك حسين علا بنشاط بالغ فى انقلاب سنة ١٩٥٣ . وبعد استقالته من منصب رئيس الوزراء فى سنة ١٩٥٧ ثبتت عليه تهمة اقامة علاقات وثيقة جدا مع الامبريالية الاميركية وتهمة اعداد الكتل الحربية . وقد ارسل حسين علا الى انقره كسفير لايران . وفى انقره بالذات وقع فى ٥ آذار (مارس) ١٩٥٩ ، بتكليف من الشاه ، الاتفاقية العسكرية والسياسية الاميركية الايرانية التى ربطت ايران بحلف بغداد و«مذهب ايزنهاور» .

وهكذا اسهم زاهدى وحسين علا ، اللذان وصلا الى الحكم بمساعدة وكالة المخابرات المركزية والسلاح الاميركى والدولارات الاميركية ، فى استعباد ايران اكثر من ذى قبل من جانب الامبريالية الاميركية وفى تحويل ايران الى رأس جسر بالغ الاهمية للامبريالية الاميركية فى العالم الاسلامى .

١٠ ـ ايران فى خطط الامبريالية الاميركية ومشاريعها الحربية الستراتيجية

بدأ اخضاع ايران لتحكم الطغمة العسكرية الاميركية فى الخمسينيات بعد انضمام ايران الى كتلة السنتو الحربية وبعد التوقيع فى ٥ آذار ١٩٥٩ على الاتفاقية الحربية الاميركية الايرانية التى منحت المستشارين والخبراء العسكريين الاميركيين العديدين تسهيلات وامتيازات لا سابق لها .

بذريعة تعقد الوضع فى الشرق الاوسط من جراء الحرب الهندية الباكستانية التى نشبت بقدر لا يستهان به بسبب من دسائس الديبلوماسية الاميركية ، تقدم الشاه فى سنة ١٩٦٥ ببرنامج لزيادة القوات المسلحة الايرانية زيادة سريعة . وآنذاك بالذات اتخذ قرار بشراء اعداد كبيرة جدا من الطائرات المقاتلات-قاذفات القنابل الاميركية الغالية الثمن من طراز «فانتوم» .

ونحو عام ١٩٧٤ كانت القوات الجوية الحربية الايرانية تملك اكثر من ٣٠٠ طائرة حربية اميركية الصنع . ومعلوم ان الشاه علل فى اواخر الستينيات واوائل السبعينيات ضرورة زيادة القوات الجوية

الحربية بالخطر الناجم ، بزعمه ، عن العراق المجاور . ولكنه مـن واسع الدلالة انه اعلن فى طهران وواشنطن عن توريدات جديدة من الطائرات الاميركية فى سنة ١٩٧٥ بالذات ، اى عندما تم التوقيع على اتفاقية ايرانية عراقية بشأن المسائل الحدودية والسياسية . وكان ينبغى ان يبلغ عدد طائرات سلاح الجو الايرانى ٥٠٠ طائرة ، اى اكثر مما لدى جمهورية المانيا الاتحادية وفرنسا !

فى الخمسينيات كان سلاح الجو الايرانى يتسلح بطائـرات اميركية من طراز «ف-٨٦» وفى الستينيات بطائرات من طـراز «فانتوم» ، اما فى اوائل السبعينيات ، فقد نشب فى طهران صراع حاد بصدد مسألة اى من احدث الطائرات الحربية الاميركية يجب ان تصبح اساس قوة السلاح الجوى الايرانى نحو اواخر السبعينيات . فى البدء فضلوا الشركة الاميركية «ماكدونل – دوغـلاس» التى استطاعت ان تحظى بموافقـة اقرب اصدقاء الشاه ، نائب وزير الحربية لشؤون التسلح ، الجنرال حسن طوفانيان ، هـاوى الرشاوى ، على شراء عدد كبير من الطائرات التى تنتجها هذه الشركة : «ف – ١٥ – ايغل» (٤٥) . وفى هذا الوقت ، دخلت «ساحة الوغى» شركة اميركية اخرى . هى شركة «غرومان» محاولـة ان تجعل طائرتها من طراز «ف – ١٤ – تومكت» اساس سـلاح الجـو الايرانى .

فى سنة ١٩٧٣ ، كانت شركة «غرومان» فى وضع فى منتهى المشقة . فعلى اثر العديد من الطوارىء التى منيت بهـا الطائرة (ف – ١٤) تقدم السيناتور بروكسماير فى لجنـة شؤون القوات المسلحة فى مجلس الشيوخ الاميركى باقتراح بالغـاء العقد التى وقعته القـوات البحرية الاميركيـة بشراء ٣٩٠ طائرة من طراز «ف – ١٤» بمبلغ قدره ٦ر٤ مليـارات دولار . وعلى الفور هبطت اسهم شركة «غرومان» فى بورصة نيويورك ، وخيم على الشركة خطر الافلاس .

ولكنه كان للمركب الصناعى العسكرى الاميركى مصلحة قصوى فى ازدهارها . ولهذا ظهر مشروع مفاده العمل بحيث تتقدم الحكومة الايرانية بطلب شراء عدد كبير من طائرات «ف – ١٤» ، الامر الذى يرفع سمعة الطائرة ويعزز وضع الشركـة المالى . وتـم الضغط

المناسب فى طهران . ولتعجيل الصفقة اجتذبت شركة «غرومان» ، كوسيط ، المدعو خوشنك ليوى ، الايرانى من حيث الاصل ، وصاحب مكتب خاص للوساطة فى بيع الاسلحة بولاية رود-ايلند . وكان خوشنك ليوى على صلة وثيقة بآمر القوات الجوية الايرانية الجنرال محمد حاتمى ، المتزوج من اخت الشاه فاطمة . كذلك استطاع ليوى ان يتصل بنائب وزير الحربية الايرانية حسن طوفانيان . وبالنتيجة اوقفت الحكومة الايرانية المفاوضات مع شركة «ماكدونل – دوغلاس» بصدد شراء الطائرة «ف – ١٥ – ايغل» ، وتلقت شركة «غرومان» طلبيتين بتوريد ٨٠ طائرة من طراز «ف – ١٤» بمبلغ اجمالى قدره ملياران و٢٠٠ مليون دولار . وفضلا عن ذلك ، منح بنك ايران الوطنى الشركة قرضا بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار . وكل هذا اتاح تجنب الافلاس . ولقاء هذه العملية المزدوجة تلقى الجنرالان حاتمى وطوفانيان ، بواسطة ليوى ، مبلغا ضخما قدره ٢٨ مليون دولار على سبيل «العمولة» . ولاجل هذه العمليات المالية ، اسس الجنرالان الايرانيان الهمامان ، بمشاركة نشيطة من اعضاء آخرين من عائلة الشاه ، شركة صورية خاصة فى طهران اسمها «اير تاكسى» . والى الحسابات الجارية لهذه الشركة بالذات ، كما أثبت التحقيق فيما بعد ، احيلت رشاوى شركة «غرومان» . وهكذا اندفعت الاوساط العليا الحاكمة الملكية بامر من واشنطن الى انقاذ عضو من اهم اعضاء المركب الصناعى العسكرى الاميركى ، عنينا به شركة «غرومان» .

جرى ذلك فى سنة ١٩٧٥ . وفى تلك السنة انخفضت الايرادات من البترول للمرة الاولى فى غضون خمس سنوات وبلغ العجز فى الميزانية الايرانية مليارين و٥٠٠ مليون دولار ، وبحثت الحكومة مسألة الحصول على قرض كبير فى الخارج ، بينما كان ٥٤٪ من سكان البلاد يعيشون فى اوضاع نعتت رسميا بانها «ادنى من عتبة الفقر» .

بعد المفاوضات السرية التى اجراها نيكسون وكيسنجر فى طهران فى ايار (مايو) ١٩٧٢ واجراها كيسنجر فى طهران فى سنة ١٩٧٦ ، اتخذت الادارة الاميركية قرارا تم تسجيله فى وثائق مجلس الامن الوطنى فى الولايات المتحدة الاميركية ، ومفاده ان التوريدات

الحربية الى ايران ، وبخاصة العتاد الجوى معفاة من جميع القيود التى فرضتها البنتاغون ، لاعتبارات السرية والامن ، على توريد التقنية الحربية الاميركية الى الخارج ، بما فى ذلك حتى الى بلدان الناتو (٤٦) . وبالنتيجة اصبح فى وسع ايران ان تسلح الطائرات من طراز «ف – ١٤» باحدث صاروخ سرى هو الصاروخ «فينيكس» القادر على اصابة ستة اهداف طائرة فى آن واحد . وتم التوقيع على اتفاقية بان تورد شركة «بوينغ» الى ايران ١٠ طائرات من طراز «اواكس» مزودة باجهزة فائقة السرية للتجسس الرادارى الالكترونى (وقد تسنى للشركة ان ترسل الى ايران ، قبل الثورة ، ٣ طائرات من هذا الطراز قيمة الواحدة منها زهاء ٢٠٠ مليون دولار) ، كذلك باعت هذه الشركة من ايران ٦ طائرات من طراز «سى – ٩ س» تستخدم لتزويد طائرات الانقضاض وقاذفات القنابل بالوقود فى الجو . ثم ان شركة «نورثروب» ، الوثيقة الارتباط ايضا بالمركب الصناعى العسكرى الاميركى ، صدرت الى ايران اكثر من ١٠٠ قاذفة قنابل من طراز «ف – ٥» . والشركة النافذة «بل هليكوبتر كومبانى» حصلت من نظام الشاه على طلبية خارقة الكسب والنفع لتقديم طائرات عمودية لانزال الجنود وطائرات عمودية مزودة بالمدافع .

ولعبت الاتفاقية الاميركية الايرانية السرية بشأن انشاء منظومة «آيبكس» فى ايران بمساعدة كبريات الاحتكارات الاميركية ، تلك المنظومة التى تشمل تجهيزات الكترونية لاجل الاتصال مع الاقمار الصناعية التجسسية الاميركية بغية مراقبة رقعة كبيرة من اراضى الشرق الاوسط ، دورا خاصا فى الخطط العدوانية للامبريالية الاميركية . ويستفاد من انباء المجلة الالمانية الغربية «آوسن بوليتيك» ان هذه المنظومة البالغة تكاليفها اكثر من ١٠ مليارات دولار كانت تلتقط وتحلل الاشارات الرادارية والصاروخية وغيرها من الاشارات على جميع الذبذبات (٤٧) . وتؤكد المجلة ان الصفقة المذكورة هى الوحيدة من نوعها لأنها كانت تنص على استخدام موظفى وكالة الامن الوطنى الاميركية التى كانت تشرف على الاسرار الحربية الاميركية المحفوظة باكبر قدر من العناية والصرامة .

ونظرا لبناء قوات جوية ضخمة بسرعة مع عدم وجود ما يلزم من التكنيكيين فى البلاد ، امتلأت ايران حقا وفعلا بالمهندسين

والتكنيكيين والمستشارين العسكريين الاميركيين باللباس العسكرى واللباس المدنى . ان قسمـــا كبيرا من اولئك الاميركيين البالـغ عددهم زهاء ٣٠ الفا ، الذين حاولوا استعمار ايران فى النصـــف الثانى من السبعينيات ، كان يخدم فى الظاهر ، ولكنه كان يأمر فعلا القوات الجوية الحربية الايرانية .

وهكذا استغلت الاوساط الحاكمة الاميركية النظام الذى انشىء بعد الانقلاب لاجل تحويل ايران الى حاملة طائرات برية هائلة ، الى ميدان شاسع لاجل اختبار المنظومات الجديدة من السلاح الجوى . وعشرات المليارات من الدولارات البترولية الضرورية ضرورة حيوية للشعب الايرانى لاجل انهاض الاقتصاد والثقافة ، استعملت لاجل انقاذ بعض الاحتكارات الصناعية الحربية الاميركية من الافلاس ، ولاجل اثراء الاوساط العليا المأجورة من البلاط واثراء الجنرالات .

ان الركض المحموم وراء التسلح الذى قام به نظام الشاه فى السبعينيات لم يقتصر على توسيع القوات الجوية توسيعا هائلا . فقد اعيرت القوات البرية كذلك قدرا كبيرا من الانتباه . ونحو اواسط السبعينيـات ، كانت هذه القوات تضم ٣ فرق من الدبابـــات ، وفرقـــة من قوات الانزال الجوى ولواء واحدا لاجل العمليـــات الخاصة .

ومنذ سنة ١٩٧٣ شرع نظام الشاه فى تجديد سلاح الدبابات تجديدا تاما . وكان ذلك المجال الوحيد من المشتريات الحربية الذى منى به الاميركيون بالهزيمة من جراء مزاحمة البريطانيين . فـــان الدبابات الاميركية الشائخـــة من طراز م – ٤٧ وم – ٦٠ اخذوا يستعيضون عنها تدريجيا بدبابات بريطانية من طراز «تشيفتن» . ونحو سنة ١٩٧٥ بلغ عدد الدبابات من هذا الطراز فى صفـــوف القوات المسلحة الايرانية ٧٦٠ دبابة ، مزودة بصورة اضافيـــة بمنظومة لازرية للتصويب . ولكنه تبين ان هذا ايضا لا يكفى . ففى ايار (مايو) ١٩٧٥ وقعت حكومة الشاه عقدا باستيراد ١٢٠٠ دبابة اخرى من طراز «تشيفتن» . واتفق الجنرال طوفانيان ، نائب وزير الحربية ، دون الضن بالنفقات (ومع تقاضى «العمولات» المناسبة) ، مع الموردين البريطانيين على صنع صيغة محسنة لهذه الدبابة هى الدبابة «تشيفتن-شير» المجهزة بدرع من نـــوع خاص وبمحركات

جديدة من طراز «رولس-رويس» . وهذه الصفقة وحدها كانت ستكلف الخزينة الايرانية اكثر من ٣ مليارات دولار . ان الاختصاصى فى شؤون القوات المسلحة الايرانية ، البروفسور كوترال من جامعة جورج تاون ، المشهور بعلاقاته الوثيقة مع محيط الشاه ، قد اكد فى كتابه «ايران تحت حكم آل بهلوى» ان قدرة القوات المدرعة الايرانية كان لا بد لها ، بعد انجاز القسم الثانى من توريد دبابات «تشيفتن» ان تبلغ ضعفى قدرة القوات المدرعة البريطانية وان توازى قدرة القوات المدرعة الفرنسية . وهذا فى بلد كان معظم سكانه يجوعون او كان يتهددهم خطر المجاعة ولم تكن ثمة مجارير فى كثير من دوائر عاصمته .

جرى اعداد القوات البرية الايرانية تحسبا للقيام مستقبلا بعمليات انزال . ولهذا الغرض كان فى الجيش ، كما سبق ان قلنا ، فرقة من قوات الانزال الجوى ولواء للعمليات الخاصة . وكانت قيادة القوات البرية تشمل قيادة جوية تحت تصرفها اكبر فيلق من الطائرات العمودية فى العالم ؛ فقد كان هذا الفيلق يتألف من اكثر من ٢٠٠ طائرة عمودية مجهزة بالمدافع و٢٨٧ طائرة عمودية لانزال القوات . وقد عاد صنعها بمليارات الارباح على العضو النافذ فى المركب الصناعى العسكرى الاميركى ، شركة «بل هليكوبتر كومبانى» التى استثار ممثلوها فيما بعد بسلوكهم الوقح والمتحدى فى اصفهان حيث انشأت الشركة مؤسسات للتجميع والتصليح استياء جميع السكان فى هذا المركز العريق للثقافة الايرانية .

ولاجل اعداد القوات المسلحة للقيام بعمليات هجومية ، انشأ نظام الشاه كذلك اكبر اسطول فى العالم من «الهوفركرافتات» اى من السفن ذات المخدة الهوائية .

وللمرة الاولى استخدمت القوات البرية الايرانية الطائرات العمودية والسفن ذات المخدة الهوائية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧١ ، عندما احتل الشاه فجأة ، عاملا بموجب اتفاقية سرية مع لندن وواشنطن ، جزر ابو موسى والطنب الكبير والطنب الصغير التى تخص امارتى الشارقة ورأس الخيمة العربيتين الصغيرتين . وقد اثارت هذه الخطوة العدوانية استياء بالغا فى العالم العربى ، وأدت الى قطع العلاقات الديبلوماسية بين العراق وليبيا من جهة

وايران من جهة اخرى ، وارجأ انضمام رأس الخيمة الى الاتحاد الجارى انشاؤه - الامارات العربية المتحدة .

وبمساندة خطط الشاه الاغتصابية ، حسبت الاوساط الحاكمة الاميركية ان تبلغ بضعة اهداف بضربة واحدة . ففى تلك الايام انتهى جلاء القوات المسلحة البريطانية من الخليج العربى ، واعلن استقلال المحميتين البريطانيتين قطر والبحرين ، وكان يجرى اعداد تحويل المحمية البريطانية الثالثة - ساحل الصلح - الى امارات عربية متحدة مستقلـــة . وفى عموم المنطقـة قويت امزجة العداء للامبريالية ، وتعاظمت مكانة العراق وجمهورية اليمن الديمقراطيـة الشعبية . وفى البحرين والامارات العربية المتحدة ، تناول البحـث مسألة اقامة العلاقات الديبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى .

وكل هذا استثار المخاوف فى واشنطن . ودفعت الولايـــات المتحدة الاميركية الشاه الى احتلال جزر ابو موسى والطنب الكبير والطنب الصغير وبذلك وضعت الساحل الجنوبى من مضيق هرمز تحت رقابة القوات المسلحة الايرانية المجهزة بالاسلحة الاميركية والخاضعة لقيادة المستشارين الاميركيين . وفى الوقت نفسه ، بدأ بناء قاعدة بحرية وجوية حربية هائلة فى بندر عباس على الساحل الشمالى من مضيق هرمز ، حسب تصاميم اميركية . وهكذا وقع تحت رقابة ايران وبالتالى تحت رقابة البنتاغون ، كل مضيق هرمز الذي يتسم باهمية ستراتيجية بالغة بوصفه اهم مخرج امام بترول الخليج العربى الى المحيط الهندى .

وكان ينبغى لذلك ، حسب مقصد الستراتيجيين الاميركيين ، ان يسهم فى القاء الوظائف العسكرية والسياسية التى كان يؤديها من قبل الضارى الاستعمارى البريطانى فى الخليج العربى على عاتق ايران . وكان على القوات المسلحة الايرانية فى جزر ابو مـــوسى والطنب الكبير والطنب الصغير ، والسفن الحربية والقوات الجوية فى مضيق هرمز ان تحول دون الاتصالات بين العراق وجمهوريـة اليمن الديمقراطية الشعبية ، وان تضغط كذلك على حكام البحرين وقطر والامارات العربية المتحدة للحيلولة دون قيام العلاقـــات الديبلوماسية بينها وبين الاتحاد السوفييتى .

وكان ينبغى لظهور القوات المسلحة الايرانية عند الساحـل

الجنوبى من مضيق هرمز ان يساعد الاوساط الحاكمة الاميركية فى تقوية نفوذها فى سلطنة عمان المهمة جدا من الناحية الستراتيجية (فهكذا اسميت منذ سنة ١٩٧٠ المحمية البريطانية مسقط) . وهناك ، كان العملاء البريطانيون قد قاموا بانقلاب قبل ذاك بسنة ، ووضعوا فى دست الحكم السلطان قابوس ، خريج كلية ساندهرست الحربية الانجليزية . ودفعت انجلترا محميتها السابقة الى جامعة الدول العربية والى هيئة الامم المتحدة ، وحاولت بذلك ان تحفظ بقايا نفوذها فى الجزيرة العربية واحتكار الشركات البترولية الانجليزية للتنقيب عن موارد عمان البترولية الغنية واستخراجها .

ان السيادة الدموية التى فرضها مالكو العبيد من مسقط على شعب عمان المحب للحرية خلال عقود كثيرة من السنين قد استثارت مقاومة ضارية . ولكن هذه المقاومة قمعت بمساعدة القوات المسلحة البريطانية . وبعد رحيل المستعمرين البريطانيين من منطقة الخليج ، اشتدت كثيرا الحركة التحررية فى عمان وبخاصة نضال شعب ظفار . وكانت قوات السلطان قابوس قليلة التعداد وغير مأمونة . ولم يكن من الممكن استخدام القوات المسلحة البريطانية على نطاق واسع فى عمان بسبب من مقاومة شغيلة بريطانيا . وكانت الاوساط الحاكمة الاميركية مشغولة بالحرب ضد الشعب الفيتنامى ، وقد ارسلت الى الهند الصينية جيشا اميركيا من نصف مليون رجل .

وفى هذه الاحوال ، عقد الشاه فى سنة ١٩٧٢ ، لما فيه رضى المعسكر الامبريالى ، اتفاقية سرية مع السلطان قابوس بشأن المواجهة المشتركة ضد شعب ظفار . وارسل الى القسم الجنوبى الغربى من عمان ، اى الى المناطق المتاخمة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وحدات كبيرة من القوات الايرانية ، البرية والجوية والبحرية . وهكذا استخدمت فرقة الانزال الجوى ولواء العمليات الخاصة اللذين شكلهما الشاه فى اوائل السبعينيات بتوجيه مباشر من واشنطن .

بقيت القوات المسلحة الايرانية فى ارض عمان العريقة اكثر من خمس سنوات . وغير مرة تغير عدد افرادها . يؤكد الاختصاصى الانجليزى المعروف فى شؤون الشرق الاوسط فريد هوليداى ان عددها فى تلك السنوات لم يقل عن عشرة آلاف رجل (٤٨) . وجاء

فى مقالة «ايران والعربية السعودية تتنافسان فى الصراع من اجل دور الدولة العظمى» ان عدد افراد القوات المسلحة الايرانية فى عمان بلغ فى بعض المراحل ٣٥ الفا (٤٩) . وانتهاكا للقانون الدولى ، اقتحمت الطائرات الايرانية اجواء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وقصفت بالقنابل مدنها وقراها الحدودية . وقصف الاسطول الايرانى بوحشية منطقة رايسوط مطلقا فى غالب الاحيان الف قذيفة فى اليوم . وقد اعترف البروفسور كوتريل ان الشاه حول عمان الى ميدان فريد لاجل اختبار احدث الاسلحة الاميركية ولاجل تدريب القوات المسلحة الايرانية على القتال . وكانت الوحدات من القوات المسلحة الايرانية العاملة في ظفار تتغير كل ثلاثة اشهر . وهذا الدوران الغالى التكاليف كان يبتغي هدفين – تحاشى تفاقم استياء الجنود الايرانيين من وظائف القمع ، وتعليم اكبر عدد ممكن من الجنود امر العمليات الحربية فى ظروف الجبال والصحارى .

ومما له دلالته ان اكبر عدد من الجنود الايرانيين واكبر كمية من العتاد الحربى الايرانى قد ارسلا الى ظفار فى ربيع ١٩٧٥ ، وفى ذلك الوقت ، امتلأت الصحف الاميركية بانباء عن اعداد واشنطن الخطط لاحتلال حقول البترول فى الكويت والعربية السعودية من قبل وحدات اميركية من قوات الانزال الجوى . وآنذاك ، اغتيل الملك السعودى فيصل الذى كان يعارض ديبلوماسية كيسنجر المكوكية الهادفة الى تحقيق تواطؤ مصرى اسرائيلى منفرد ، وذلك فى قصره بمدينة الرياض . وفي هذه الاحوال اسهم ترسيخ القوات المسلحة الايرانية عند المشارف الجنوبية من العربية السعودية ، بقسط لا ريب فيه ، فى تحقيق خطط الحرب النفسية ضد العرب ، التى كانت تحيكها البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية .

وحتى فى ربيع ١٩٧٨ ، عندما بدأ السخط الهائل فى صفوف الشعب الايرانى على الوضع فى البلاد وخضوع سياستها الداخلية والخارجية لمصالح الامبريالية الاميركية يتخذ شكل نضال سافر ضد النظام القائم ، ظل زهاء ١٠ آلاف من الضباط والجنود الايرانيين مرابطين فى ٦٢ قاعدة ومخفرا حربيا فى عمان (٥٠) . وقد اهرقوا الدماء لاجل تحويل عمان الى رأس جسر حربى ستراتيجى للامبريالية والرجعية الايرانية عند مشارف مضيق باب المندب .

ان التدخل الايرانى فى عمان قد ازهق ارواح الآلاف من العرب والايرانيين ، وكلف الخزينة الايرانية مليارات الدولارات ، واستثار الفرقة بين ايران وجاراتها العربيات فى الخليج . وهذا الارتياب المتبادل ادى الى سباق فى التسلح لم يشترك فيه وزراء الشاه وحسب ، بل اشترك فيه بنشاط ايضا شيوخ العربية السعودية وغيرها من الدول العربية . وكل هذا اغنى المركب الصناعى العسكرى الاميركى وقوى سواء تبعية ايران ام تبعية عدد من الدول العربية لسياسة واشنطن الخارجية والحربية . وفى الظروف الجديدة لجأت الامبريالية الاميركية الى تكتيك المستعمرين البريطانيين وقوامه تحريض السنيين على الشيعيين .

ان تحليل دور ايران ومكانها فى الخطط العالمية للاوساط الحاكمة الاميركية عند تخوم الثمانينيات تحليلا شاملا يستحيل بدون دراسة النشاط المحموم الذى بذله نظام الشاه لبناء القوات البحرية الهجومية دراسة مفصلة .

بمبادرة من الشاه ، اشترت ايران فى الستينيات المدمرة البريطانية الشائخة «ارتيميزا» والمدمرتين الاميركيتين «باير» و«بالانغ» . وهكذا حصلت الاوساط الحاكمة فى بريطانيا والولايات المتحدة على نفع ثلاثى — عوضا عن اتلاف هذه السفن ، باعتها من ايران ، وجنت ترساناتها ارباحا ضخمة من تحديث هذه السفن ، وبدأ ادخال عاملين اجانب ، وفى المقام الاول عاملين اميركيين ، فى القوات البحرية الايرانية . ومع هذه المدمرات اشترت ايران عددا كبيرا من سفن الدوريات ومن الفرقاطات . وكل هذا ، مع اسطول «الهوفركرافتات» المذكور اعلاه ، ادى الى انشاء اسطول بحرى حربى ايرانى شغل مواقع السيادة فى الخليج العربى .

ولكن هذا لم يكف الاحتكاريين الاميركيين . فنحو اوائل السبعينيات ، شرع الشاه ، بايعاز من واشنطن ، فى بناء اسطول حربى محيطى . وقد اوصى الشاه فى الولايات المتحدة على ثلاث غواصات طوربيدية ديزلية من طراز «تنغ» تبلغ ازاحة الواحدة منها ٢٤٠٠ طن ، وعمق غطسها العامل ١٨٥ مترا ومدى عملها القتالى ١٢٠٠٠ ميل ، وهذه الغواصات معدة للعمليات الهجومية فى المحيط

الهندى . ومما له دلالته ان الولايات المتحدة الاميركية ذاتها لم تكن تملك سوى ٦ غواصات من هذا الطراز .

ان قصة توصية الشاه فى اوائل السبعينيات على ست مدمرات صاروخية اميركية من طراز «سبروينس» تتسم بمزيد من الطرافة والاهمية . فان هذه السفن لم تكن مدمرات الا بالاسم ، بينما كانت فى الواقع طرادات تبلغ ازاحة الواحدة منها ٧٨٠٠ طن ، مزودة بصواريخ موجهة من طراز «سى سباروو» وصواريخ موجهة ضد الغواصات من طراز «اسروك» . وقد اجتازت كل المحيط الهندى بدون الحاجة الى التزود بالوقود اثناء سيرها . وكانت كلفة المدمرة الواحدة ١٠٠ مليون دولار . وفى اوائل السبعينيات ، كانت احدث طراز من السفن الحربية العائمة . وقد استطاعت القوات البحرية الاميركية ان تمرر عبر الكونغرس طلبا بخمس فقط من هذه المدمرات .

لقد اثار انشاء اسطول كبير مخصص للخليج العربى والمحيط الهندى ضرورة اعادة بناء القواعد البحرية الحربية القديمة وبناء الجديد منها . فمثلا ، بنى نظام الشاه ، بمساعدة اميركية ، قاعدة بحرية حربية كبيرة لمرابطة «الهوفركرافتات» فى جزيرة حرج ، وقاعدة للسفن العائمة الخفيفة فى جزيرة قشم ، وقاعدة للطائرات العمودية التابعة للقوات البرية والبحرية فى بوشير ، واخيرا ، قاعدة ضخمة للسفن الكبيرة و٦ غواصات خفيفة تمت التوصية عليها من المانيا الاتحادية وللطيران البحرى فى بندر عباس . وكلف بناء القاعدة الاخيرة وحدها الخزينة الايرانية ٨٠٠ مليون دولار . الا ان كل ذلك بدا لنظام الشاه غير كاف .

ونحو اواسط السبعينيات بدأ بناء اكبر قاعدة بحرية وجوية حربية فى آسيا كلفتها مليار دولار ، بوتائر سريعة ، وبموجب تصميم اميركى ، فى جهبهار على ساحل مكران من بحر العرب ، عند الحدود مع الباكستان . وكانت القاعدة معدة لاجل المدمرات الصاروخية من طراز «سبروينس» والغواصات من طراز «تنغ» ، وطائرات الاستكشاف البعيدة المدى من طراز «اوريون ب-٣» القادرة على البقاء فى الجو اكثر من ١٧ ساعة . ويؤكد البروفسور كوتريل انه كان المقصود من بناء القاعدة فى بندر عباس وبخاصة القاعدة

فى جهبهار ومن شراء الشاه لاحدث الاسلحة ان يتيحا له مراقبة مياه القسم الغربى من المحيط الهندى حتى جمهورية افريقيا الجنوبية ضمنا ، و«القيام بغارات على القاهرة ودلهى واسطمبول عند الاقتضاء» (٥١) .

ان بناء اسطول بحرى حربى هائل وعدد كبير من القواعد الغالية التكاليف قد اتاح فرصا اضافية لجنى الارباح من قبل اوساط الشاه العسكرية العليا الفاسدة . وفى سنة ١٩٧٦ انفجرت فضيحة ضخمة لأنه تبين ان المرتشي الاكبر فى الاسطول البحرى الحربى كان . . . قائده الاعلى الاميرال رضمى عباس اتاى . وفى سياق المحاكمة القضائية التى اضطر الشاه الى الموافقة على اجرائها ، ثبت ان الاميرال ونائبه وتسعة من كبار الضباط الآخرين قد قبضوا الرشاوى وبددوا ملايين الدولارات . وقد حكم على القائد الاعلى للقوات البحرية الايرانية بالسجن خمس سنوات وبغرامة قدرها ٣,٧ ملايين دولار . ومن الطريف ان هذه القضية نظر فيها مجلس اعلى لمكافحة الفساد برئاسة رئيس الوزارة الايرانية خلال سنين طويلة عباس هويدا ، الذى اعتقل فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٨ بتهمة الاختلاسات الهائلة والرشوة واعدم فى السنة التالية .

وقد سبق ان ذكرنا ان ثمن كل من المدمرات الاميركية الستة من طراز «سبروينس» عند التوصية عليها قد بلغ ١٠٠ مليون دولار وان مجمل قيمة الصفقة ، بما فيها قطع الغيار ، بلغ ٧٠٠ مليون دولار . وفى سنة ١٩٧٢ صار معلوما ان قيمة المدمرة الواحدة سترتفع الى ١٧٥ مليون دولار . لم تحتج الحكومة الايرانية على مخالفة العقد هذه . وفى اواخر سنة ١٩٧٥ اعلنت شركة «ليتون اندستريز» ان ثمن المدمرة الصاروخية من طراز «سبروينس» سيرتفع الى ٣٨٠ مليون دولار ، وفسرت ذلك بكون القوات البحرية الاميركية قد اضطرت الى رفض بعض من السفن من هذه الفئة التى اوصت عليها سلفا ، وان عدد السفن المباعة قد قل بالتالى ، وبما ان تكاليف البحوث العلمية واعمال التصميم والتجربة لم تتغير ، فان ثمن كل سفينة قد ارتفع .

كانت تلك مخالفة للعقد ولالتزامات الجانب الاميركى على درجة من الوقاحة بحيث ان الشاه اضطر الى التهديد برفض الطلبية .

ونتيجة لتدخل البنتاغون وسفر «كبير المرتشين فى ايران» الجنرال طوفانيان الى واشنطن تم التوصل الى حل وسط : فقد خفضت ايران طلبها من ٦ مدمرات الى ٤ ، ولكن شركة «ليتون اندستريز» لم تخفض الثمن . وكان على ايران ان تدفع ثمن ٤ مدمرات من طراز «سبروينس» ، عوضا عن الـ٧٠٠ مليون دولار المخططة فى عام ١٩٧٢ ثمنا لست مدمرات ، زهاء مليار ونصف مليار دولار ! (٥٢) .

هذه بعض خصائص بناء القوات المسلحة الايرانية فى السبعينيات ، وقد انفق الشاه لهذا الغرض اكثر من ٣٠ مليار دولار . ومن هنا ينجم انه تتوفر جميع الاسباب للقول ان نظام الشاه ساعد الاوساط الحاكمة الاميركية فى تحويل قسم معين من عبء المليارات والمليارات من الدولارات الموجهة الى تطبيق سياسة الاستعمار الجديد فى القسم الغربى من المحيط الهندى ، وفى حوض البحر الاحمر والخليج العربى من اكتاف المكلفين الاميركيين «المضربين» الى اكتاف الشعب الايرانى المعذب كثيرا . ان الطلبيات الايرانية الهائلة لاحدث اصناف الطائرات والسفن الحربية والصواريخ والتجهيزات الالكترونية ، كما اضطر البروفسور كوتريل الى الاعتراف بذلك ، قد عادت على المركب الصناعى العسكرى الاميركى بمليارات من الارباح ، ناهيك بانها ساعدت كبريات الشركات الاميركية فى اعداد احدث اصناف الاسلحة ، لان هذه الطلبيات كانت تعوض قيمة العمل العلمى الاختبارى الباهظ التكاليف . ان طلبات دفعات كبيرة من الاسلحة قد خفضت قيمة الاسلحة وزادت قدرة الشركات على المزاحمة ، الامر الذى ساعدها فى البقاء خلال المرحلة العصيبة من اواسط السبعينيات ، حين اضطرت البنتاغون الى تخفيض طلباتها موقتا لاعتبارات مالية واعتبارات سياسية داخلية (٥٣) .

لقد ساعد نظام الشاه الاوساط الحاكمة الاميركية على اداء مهمة حساسة اخرى ، وبالغة الشأن بالنسبة لها هو انه اخذ على عاتقه تزويد المعتدين الاسرائيليين وعرقيى جنوب افريقيا بالبترول ؛ فبتوجيه من واشنطن ، كانت ايران تؤمن ٩٠٪ من حاجات جمهورية جنوب افريقيا و٦٥٪ من حاجات اسرائيل الى البترول . وكان يجرى كذلك ضخ هذا البترول فى خط الانابيب الاميركى الاسرائيلى خليج

العقبة – المجدل ، ثم يوضع تحت تصرف الاسطول السادس الاميركى وقوات الغزاة الاسرائيليين المسلحة . ومعلوم على نطاق واسع ان ايران تعاونت سرا فى غضون عدد من السنين مع الديبلوماسية الاسرائيلية والجاسوسية الاسرائيلية لاضعاف الجبهة الموحدة للشعوب العربية ، المناضلة من اجل تطبيق القرارين رقم ٢٤٢ و٣٣٨ لمجلس الامن بصدد تحرير الاراضى العربية من الاحتلال الاسرائيلى .

فى غضون السبعينيات نسق نظام الشاه اعماله مع واشنطن لاعاقة التسوية السلمية فى آسيا الجنوبية . ومع الديبلوماسية الاميركية ، وفى عدد من الاحوال بامر مباشر من واشنطن ، تدخل نظام الشاه بلا تكلف فى سنتى ١٩٧٧ و١٩٧٨ فى نزاع القرن الافريقى ، لدعم الغزاة الصوماليين ولمنع تسوية النزاع سلميا . وفى ايار (مايو) ١٩٧٨ بدأ سافاك ، بامر من وكالة المخابرات المركزية ، حبك دسائس فى افغانستان موجهة ضد الشعب الافغانى وضد ثورته ، ثورة نيسان (ابريل) . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩ حيا الشاه نجاحات واشنطن فى عقد صفقة كمب ديفيد المنفردة .

وهكذا ، بعد انقلاب ١٩ آب (اغسطس) ١٩٥٣ ، حولت الامبريالية الاميركية ايران الى رأس جسر حربى سياسى من اهم رؤوس جسورها ، لا فى الشرق الاوسط وحسب ، بل ايضا فى المحيط الهندى وفى عموم آسيا . وكانت ايران الشاه حلقة مهمة للغاية فى سلسلة الكتل الحربية السياسية للناتو والسنتو والسياتو ، هذه السلسلة التى حاولت الاوساط الحاكمة الاميركية ان تقيد بها بلدان العالم الاسلامى وتعزلها عن الاتحاد السوفييتى . وصار نظام الشاه شريكا اصغر فى المركب الصناعى العسكرى الاميركى ؛ وقد انفقت المداخيل من مليارى طن من البترول تم استخراجها فى بحر ٢٥ سنة من باطن الارض الايرانية على شراء الاسلحة الاميركية واغناء الاحتكارات الاميركية وحاشية الشاه وبناء القوات المسلحة .

وكل هذا يوضح لنا لماذا كانت الاوسط الحاكمة الاميركية تتدخل فى شؤون ايران الداخلية بخشونة ووقاحة وخلافا للقانون

الدولى وميثاق هيئة الامم المتحدة ، وكانت على استعداد للتدخل المسلح فى خريف ١٩٧٨ لكى تخنق الثورة الايرانية وتحفظ نظام الشاه . ولم يحل دون التدخل المسلح الاميركى غير اتحاد جميع القوى التقدمية فى ايران على اساس النضال ضد نظام الشاه وضد الامبريالية الاميركية ، من جهة ، وغير تحذير القيادة السوفييتية فى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٨ بان الاتحاد السوفييتى لن يسمح بالتدخل المسلح الاجنبى .

١١ ـ نضال رجال الدين ضد محاولات استعباد ايران من قبل الامبريالية البريطانية والاميركية بعد الحرب العالمية الثانية

فى زمن الحرب العالمية الثانية ، بدأ الرجال البعيدو النظر من بيئة رجال الدين الايرانيين «يدقون جرس الانذار» بصدد سعى المستعمرين البريطانيين وسعى الامبرياليين الاميركيين الذين عززوا نفوذهم الى فرض رقابتهم على اقتصاد ايران وثقافتها وحياتها السياسية والاجتماعية . وفى سنة ١٩٤٣ نشر اصغر رجال الدين عمرا آنذاك فى البلاد ، سيد روح الله خمينى كتابه الاول «كشف الاسرار» ؛ وفيه انتقد انتقادا حادا سياسة محمد رضا بهلوى وطالب بالحد من سلطته ، وندد بالعلاقة بين بلاط الشاه والامبرياليين الغربيين .

فى السنوات التى اعقبت الحرب ، اى عندما شنت القوى الوطنية فى ايران برئاسة مصدق نضالا نشيطا ضد حصن المستعمرين الرئيسى — شركة البترول الانجلو-ايرانية ، دعمها بكل همة ونشاط رجل الدين الشيعى الرفيع المكانة ابو القاسم كاشانى ، الزعيم الروحى لحركة «فدائيان اسلام» التى حامت حولها الشكوك بالاعتداء على الشاه فى سنة ١٩٤٩ . وفى ٢٦ كانون الثانى (يناير) ١٩٥١ ، حين بلغ النضال ضد شركة البترول الانجلو-ايرانية الذروة ، انعقد فى اكبر جوامع طهران — مسجد شاه — اجتماع ضم ١٠ آلاف شخص ، وذلك استجابة لدعوة من كاشانى . وقد اتخذ الاجتماع قرارا يطالب بتأميم الصناعة البترولية فى عموم ايران . وبعد يومين وقع سبعة آية الله وعلى رأسهم كاشانى نداء الى المسلمين

الايرانيين يدعوهم الى اعتبار «دعم الحركة من اجل تأميم البترول الايراني والمساعدة فى تطبيق هذا الحلم فى الواقع واجبا دينيا على كل مسلم ايراني» . وفى اوائل شباط (فبراير) ١٩٥١ ، نشر كبير آية الله فى ايران خنصارى فتوى مسهبة تندد تنديدا حادا بالحكومة الايرانية التى «وزعت تركة شعبها على الاجانب وحولت هذا الشعب الى عبيد» (٥٣ — أ) . ان هذا الموقف الذى وقفه رجال الدين الشيعيون قد لعب دورا كبيرا فى واقع ان المجلس انتخب مصدق رئيسا للوزارة فى اواخر نيسان (ابريل) ١٩٥١ واقر قانونا بتأميم شركة البترول الانجلو-ايرانية ، وان الشاه اضطر على مضض الى المصادقة عليه . . ولا مناص من الموافقة مع الفل-ساتون الذى يعتبر ان صلابة موقف كاشانى الذى اصبح فى هذه الاثناء رئيسا للمجلس قد اسهمت بقدر لا يستهان به فى قرار مصدق بالامتناع عن قبول اتفاقية وسط مع الانجليز فى خريف سنة ١٩٥١ ، رغم الضغط الذى بدأ الامبرياليون الاميركيون يمارسونه فى ذلك الوقت (٥٤) .

ان انقلاب ١٩ آب (اغسطس) ١٩٥٣ قد استثار استياء هائلا فى الجماهير الشعبية الواسعة وقسم كبير من رجال الدين الشيعيين . ثم ان قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر سنة ١٩٦٢ والذى طبلت وزمرت له حاشية الشاه وحماتها الامبرياليون الاميركيون باعتباره مرحلة فى غاية الاهمية من «الثورة البيضاء» السيئة الصيت ، قد ادى الى حرمان ملايين الفلاحين من الارض والى املاقهم . وسعيا الى تحطيم مقاومة رجال الدين الشيعيين لهذا الاصلاح ، زار الشاه فى ربيع ١٩٦٣ مدينة قم والقى فيها خطابا ديماغوجيا واستفزازيا ضد رجال الدين الذين يقاومون تحقيق «الثورة البيضاء» . واحتج آية الله خمينى على سياسة حكومة الشاه وعلى الشاه شخصيا ، فاعتقل بامر من الشاه . وكان ذلك من اسباب الاضطرابات الدينية السياسية التى شملت قم وغيرها من مدن ايران فى ربيع ١٩٦٣ . واضطرت الحكومة الى الافراج عن روح الله خمينى . ولكنهم حذروه بصرامة من القيام مستقبلا باى حملة وتهجم على الشاه (٥٥) .

ولكن حكومة الشاه وقعت فى صيف السنة ذاتها اتفاقية جائرة مع الولايات المتحدة الاميركية بشأن حصانة العسكريين الاميركيين ،

اى بشأن عدم محاكمتهم امام المحاكم الايرانية . وفى شهر الحداد ، شهر محرّم ، عندما توافد مئات الآلاف من الحجاج الى قم ، القى فيهم آية الله خمينى خطبة كبيرة اذيعت للمرة الاولى فى الراديو وندد فيها بسياسة الشاه الخائنة . واثر اعتقال الزعيم الدينى الشعبى للمرة الثانية ، قامت فى قم وطهران وشيراز مظاهرات ضد الحكومة اسفرت عن مقتل وجرح مئات الوطنيين الذين واجههم البوليس والجيش . ونفى آية الله خمينى الى تركيا . وفى سنة ١٩٦٤ انتقل الى النجف حيث اشترك في غضون ١٤ سنة فى النضال ضد نظام الشاه . وبينما كان زعماء رجال الدين الشيعيين المتواجدون فى ايران امثال آية الله شريعة مدارى وآية الله كلبايكان ، يحصرون انتقادهم لنظام الشاه قبل كل شيء فى المطالبة بتغيير بعض القوانين وبالحد من سلطة الشاه ، طرح خمينى للمرة الاولى ، فى محاضراته وفى كتاب «توضيح المضايل» وبخاصة فى كتاب «حكومة الاسلام» ، مسألة ضرورة الاطاحة بالشاه . وفى تلك السنوات بالذات ، صاغ اسس بناء الجمهورية الاسلامية التى ستتيح ، برأى خمينى ، تطبيق مبادىء القرآن الكريم وانقاذ البلاد من التحكم الاميركى . وفى المحاضرات فى جامعة النجف ، وفى النداءات الموجهة الى الشعب الايرانى ، وفى الفتاوى المسجلة على اشرطة والتى كانوا يذيعونها فيما بعد فى جوامع ايران ، كان ينتقد بكل حدة «اصلاحات» الشاه ويدعو الى مقاطعة الاحتفال بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الملكية الايرانية ، ناعتا اياه «بالمهزلة المخزية» ، ومنع المؤمنين من الانضمام الى الحزب الوحيد الذى انشىء فى البلاد بأمر من الشاه فى سنة ١٩٧٥ – حزب «رستاخيز ايران» .

اما الزعماء المسلمون المعارضون المتواجدون فى ايران ، فقد كانوا باغلبيتهم يتمسكون فى مسائل السياسة الداخلية بمواقف اكثر اعتدالا . وكان كثيرون منهم يعتبرون فكرة الشكل الجمهورى للحكم غير مقبولة . ولكن بقدر ما كانت تتعاظم فى البلاد الحركة المعادية للامبريالية ، بقدر ما كانت افكار خمينى ودعواته تلقى صدى اوسع فأوسع . ومما له دلالته ان الشرارة التى استثارت الانفجار الذى تبعه خروج جماهير غفيره للغاية من السكان الى مسرح النضال السياسى انما كانتها المقالة المنشورة فى ٧ كانون الثانى

(يناير) ١٩٧٨ فى الجريدة الرسمية «اطلاعات» بقلم احد وزراء الشاه عن خمينى وتضمنت تهجمات فظة ضده . وفى اليوم التالى قامت فى مدينة قم ، بناء على دعوة من رجال الدين ، مظاهرة اشترك فيها اكثر من ٤٠٠٠ طالب ، وطالبوا بالغاء النظام الملكى الاستبدادى . ان احداث قم التى قتل فيها رجال البوليس والجيش وجرحوا مئات الناس ، كانت بالفعل بداية ثورة شعبية فى ايران . وكانت ذروتها المظاهرات الجماهيرية التى اشترك فيها ملايين الايرانيين فى ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ فى المدن الايرانية الرئيسية وانتهت فى ٨ ايلول (سبتمبر) «بيوم الجمعة الاسود» فى طهران .

كل هذا لم يخف محيط الشاه وحسب ، بل اخاف كذلك بعض ممثلى المعارضة السياسية الدينية فى البلاد . وحتى بازاركان ، مؤسس الحركة من اجل حرية ايران ، اعرب عن عدم موافقته على رأى آية الله خمينى حول الصلة المتبادلة الوثيقة بين النضال ضد الاستبداد والنضال ضد الامبريالية الاميركية .

ولكن آية الله خمينى شجب المعارضة المعتدلة . ففى نداء الى الشعب الايرانى كتبه فى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ فى باريس ، اكد انه : «لا فرق جوهريا بين انصار الحكومة واولئك الذين ، لاعتبارات الانتهازية وبحكم نفاقهم ، يثيرون الضجة ويتحدثون عن الانتخابات الحرة وتطبيق الدستور ؛ فان هدفهم المشترك يتلخص فى ابقاء الشاه وتخليد نهب ثرواتنا . يجب تحطيم سلاسل السيطرة والتحرر من وضع مخز يتأمر بنا فيه المستشارون الاجانب ، يجب تشجيع الانتفاضة العامة وابداء اليقظة حيال الاستفزازات» (٥٦) .

لم تر الديبلوماسية الاميركية وعملاء وكالة المخابرات المركزية فى ايران علائم العاصفة الزاحفة ، ولم يدركوا ان قضاء الشاه وسافاك على جميع الاحزاب السياسية بما فيها الاحزاب البرجوازية ، وحل النقابات ومطاردتها ، ومنع الاتحادات العلمية والثقافية ، — ان كل هذا قد خلق فراغا سياسيا تعاظم فيه كثيرا دور رجال الدين الشيعيين . ذلك ان الجوامع العشرين الفا كانت فى البلاد المكان الوحيد الذى يستطيع الايرانيون ان يجتمعوا فيه بحرية ويتبادلوا الآراء ويعبروا عن مشاعرهم وانفعالاتهم وسخطهم المشتد . وفى

اغلبية الجوامع كانوا يعرضون فى صلاة الجمعة رسائل ومواعظ خمينى او يستمعون اليها احيانا مسجلة على اشرطة ؛ وهذه الرسائل والمواعظ كانت تذاع من النجف فى غضون عدة سنوات من محطة اذاعية ضعيفة ، شبه حرفية ، قائمة فى هذه المدينة العراقية المقدسة بنظر الشيعة . ولكن الاوساط الحاكمة الاميركية كانت تعتبر ان قصر الشاه هو المركز الوحيد فى ايران ، وان الشاه محمد رضا بهلوى ذاته هو اله ايران الجديدة . واثناء الاحتفال برأس السنة فى طهران فى ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ، حين كانت البلاد تنوء تحت ثقل الارهاب الدموى ، صرح «المناضل من اجل حقوق الانسان» ، الرئيس الاميركى كارتر : «ان ايران قد تحولت الى جزيرة للاستقرار فى قسم من اشد اقسام الدنيا اضطرابا . وليس فى العالم كله امة اخرى اقرب الينا فى ميدان ضمان الأمن بصورة متبادلة ، وليس ثمة امة اخرى بوسع الولايات المتحدة الاميركية ان تبحث معها بمزيد من الثقة القضايا المشتركة . وليس ثمة كذلك زعيم آخر تجمعنا به مشاعر اعمق من الامتنان الشخصى والصداقة الشخصية» (٥٧) .

فى النصف الثانى من سنة ١٩٧٧ والنصف الاول من سنة ١٩٧٨ ظلت السفارة الاميركية فى طهران ترسل الى واشنطن تقارير عن الوضع السياسى فى ايران مكتوبة بالوان وردية ، وتشير الى الدور التافه الذى يضطلع به رجال الدين الشيعيون فى حياة البلاد .

مثلا ، فى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٩٧٨ ارسل الجواسيس والديبلوماسيون المقيمون فى مبنى السفارة الاميركية الفخم فى طهران الى واشنطن تقارير اشاروا فيها الى الاعمال والاضطرابات الجدية والخطيرة ضد الحكومة فى قم فى اوائل سنة ١٩٧٨ وابلغوا فيه انه «لا توجد» فى ايران «معارضة سياسية منظمة . . . ولا يوجد غير منظمات ارهابية صغيرة» . وفي برقية مسهبة مرسلة الى واشنطن فى اول شباط (فبراير) ١٩٧٨ اعربت السفارة الاميركية عن الاقتناع بان الامزجة المعارضة فى الاوساط البرجوازية الليبيرالية هى السبب الرئيسى للاضطرابات والقلاقل التى جرت آنذاك فى مختلف مدن البلاد . اما معارضة رجال الدين المنظمة ،

فليبس لدى السفارة ، كما جاء فى البرقية ، معلومات عنها جديرة بالانتباه (٥٨) .

ولكن ، فى اليوم التالى بالذات ، كما تدل الوثائق التى استولى عليها الطلاب الايرانيون فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٩ فى السفارة الاميركية فى طهران ، ارسلت السفارة الى واشنطن برقية مثيرة مدوية عرضت فيها اكتشاف عملاء وكالة المخابرات المركزية . فقد تبين ان اتباع آية الله خمينى انما هم «شيوعيون مقنعون او يساريون مصبوغون بالصبغة الماركسية» . وقد اضفى على البرقية قدر كبير من الاهمية بحيث ان نسخها أرسلت الى جميع السفارات الاميركية فى البلدان العربية وكذلك الى السفارات الاميركية فى لندن وباريس وتل ابيب وروما (٥٩) .

ان هذه البرقية تتسم بأهمية معينة لاجل فهم اطلاع الديبلوماسية الاميركية والمصالح المختصة وكذلك لاجل فهم ستراتيجيتها وتكتيكها فى مرحلة اختمار الثورة الايرانية . وفى غضون الستينيات والسبعينيات ، كانت الادارة الاميركية تتلقى الانباء والمعلومات الاساسية من الشاه ومن قادة سافاك التى كانت تعتبر فرعا اصيلا لوكالة المخابرات المركزية . فان الشاه ومرؤوسيه الذين كانوا يعرفون الكره البالغ الذى يكنه اسياد الولايات المتحدة الحقيقيون للشيوعية ، كانوا يسعون الى درء الاتصالات المحتملة بين العملاء الاميركيين وبين الاوساط المعارضة من رجال الدين وذلك باتهام رجال الدين بالانتماء السرى الى الشيوعية . وقد نجح الشاه فى حيلته هذه خلال عدة سنوات حتى اواسط سنة ١٩٧٨ .

فى صيف ١٩٧٨ ، حين كانت ايران على عتبة الثورة بكامل معنى هذه الكلمة ، اخذ كبار موظفى السفارة الاميركية يطمئنون رؤساءهم بانباء عميقة المغزى مفادها ان الشاه مستعد لاضفاء بعض الليبيرالية على نظامه ، وانه هو ومستشاريه قد رسموا تكتيكا جديدا يبشر بالكثير يتلخص جوهره فى احداث انشقاق فى الاوساط العليا من رجال الدين الشيعيين . وقد تقرر ، على ما يبدو ، تخويف هذه الاوساط بخطر الشيوعية ، وحمل رجال الدين البارزين فى ايران برئاسة آية الله شريعة مدارى على معارضة آية الله خمينى الذى

كان لا يزال فى المنفى . كذلك وضعت خطة تجعل عودته الى البلاد امرا مستحيلا (٦٠) .

ولكن «يوم الجمعة الاسود» فى طهران فى ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ وسائر المصادمات الدموية بين الجماهير الشعبية الواسعة ورجال الدرك والجيش قد اجبرت القسم النافذ من رجال الديـــن الايرانيين على دعم موقف خميني المعروض فى النداء المذكور آنفا الى الشعب الايرانى بتاريخ ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ . وهذا النداء سانـــده ببالغ النشـــاط آية الله طليقانى وآية الله منتظرى .

وقد اضطر آية الله شريعة مدارى الى التصريح بان تصفيــة النظام الاستبدادى هى الهدف الرئيسى لنضال الشعب الايرانـــى ورجال الدين ، وان الشعب سيبدأ «الجهاد ضد الحكومة» اذا لم يتوصل الى هدفه بالوسائل السلمية (٦١) .

وحتى اواخر سنة ١٩٧٨ تقريبا كان خبراء الشؤون الاسلامية والديبلوماسيون والجواسيس الغربيون ، وبخاصة الاميركيون منهم ، يميلون الى استصغار دور رجال الدين الشيعيين فى تعاظم النضال ضد الامبريالية وضد النظام الملكى فى ايران . وفى السنوات التالية بدأ تطرف فى الاتجاه المعاكس — نشر عدد لا يحصى من الكتب والكراريس والمقالات عن ظاهرة غريبة — عن «الانفجـــار الاسلامى» ، و«نهضة الاسلام» وما الى ذلك ، —وتصوير الاوساط العليا من رجال الدين الشيعيين وعلى رأسهم آية اللـــه خمينى ، بصورة خالقين للثورة على النظام الملكى فى ايران .

ولكن «واشنطن بوست» نشرت فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ بالذات رسالة مسهبة من طهران كتب فيها صاحبها بالاعتماد على احاديث كثيرة مع زعماء المعارضة وعلى مراقباته لتعاظم النضال ضد الامبريالية : «ليس من الواضح اطلاقا الآن ما اذا كان القادة المعتدلون سيتمكنون من ابقاء انصارهم تحت الاشراف . الحـــال بالعكس تماما . ينشأ انطباع مفاده ان رجال الدين الذين يرغبون فى التعاون مع الحكومة لا يستطيعون ان يفعلوا ذلك لأنه يتعين عـلى الزعماء الدينيين ابدا ودائما ان يلحقوا بالمطالب التى يتقدم بها اولئك الذين يجب عليهم نظريا ان يقودوهم» (٦٢) .

في سياق الاعمال الشعبية الواسعة التي جرت في تشرين الثاني وكانون الاول (نوفمبر وديسمبر) ١٩٧٨ في كثير من مدن البلاد ، اخذت تنتشر على نطاق اوسع فأوسع ، الى جانب المطالبة باقامة «الجمهورية الاسلامية» ، شعارات معادية للامبريالية : «ايها الاميركيون ، عودوا الى بلادكم !» ، «ايها الامبرياليون ، اخرجوا من ايران !» . . . ان تشابك امزجة العداء للنظام الملكي وامزجة العداء للامبريالية في الحركة الشعبية قد انعكس في التعبير الذي تميزت به اواخر سنة ١٩٧٨ : «الشاه الاميركي» . واخذت عمليات احراق المؤسسات الايرانية الاميركية تتسع باستمرار . وفي الاستثمارات البترولية اخذت تنتشر مناشير تطالب بطرد جميع الاجانب من البلاد . ومن خصائص النضالات الشعبية في اواخر سنة ١٩٧٨ ، كان الشكل الاصيل والفريد من اشكال النضال ضد الرأسمالية ، عنينا به احراق اكثر من الف فرع للمصارف كان المسلمون يرون فيها رمز نفوذ الغرب المفسد ، وكانت القوى اليسارية ترى فيها مخافر امامية للاستثمار الرأسمالي ، وكان السكان على العموم يرون فيها احد اسباب الفقر والبؤس المتفاقمين (٦٣) . ومما له دلالته ان احراق المصارف في طهران رافقه احراق ٩٠٪ من جميع الدور السينمائية التي كانت في السبعينيات تحفل على الاغلب بافلام اميركية تروج العنف والجنس .

وفي هذه الاحوال فهموا اخيرا في البيت الابيض ان ورقتهم الكاسبة الرئيسية في مواجهة حركة التحرر الوطني لشعوب العالم الاسلامي ، هي الشاه محمد رضا بهلوي ، قد فشلت ، فقاموا بالمحاولة الاخيرة لابقاء ايران كرأس جسر حربي ستراتيجي في غاية الاهمية للولايات المتحدة الاميركية .

وتحت ضغط هائل من واشنطن ، عيّن الشاه في آخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ بالذات واوائل كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ احد زعماء الجبهة الوطنية — بختيار ، رئيسا للوزارة ، واسرع بختيار الى الاعلان عن اعداد جملة من الاصلاحات السياسية والاقتصادية ؛ وعيّن الشاه مجلس وصاية على العرش وغادر «موقتا» البلاد في ١٦ كانون الثاني ١٩٧٩ . ومما له دلالته انه لم يعلن عن سفر الشاه في طهران ، بل

فى واشنطن ، ولم يعلنه شاهينشاه ايران نفسه ، بل وزير الخارجية الاميركية فنس .

ولكن هذه المناورة للامبرياليين الاميركيين وعملائهم فى ايران والبرجوازية الليبيرالية الايرانية فشلت هى ايضا . فان جماهير الشعب الواسعة لم ترغب فى الاعتراف «برئيس وزراء الشـــاه» وباصلاحاته . واضطرت الجبهة الوطنية الى فصل بختيار من قوامها . وفى ١٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ ، وجه خمينى ، الذى كان يقيم فى نوفل له شاتو بضواحى باريس ، نداء الى الشعب الايرانى اعلمه فيه عن تأسيسه لمجلس الثورة الاسلامية ، وانه عهد الى المجلس باجراء الانتخابات الى الجمعية التأسيسية ، واقرار دستور «الجمهورية الاسلامية» ، ونقل السلطة لاحقا الى البرلمان المقبل . واعلن هذا النداء ان الحكومة والبرلمان الموجوديـــــن آنذاك فى ايران غير شرعيين .

ردا على النداء ، انشئت فى طهران اللجنة الموقتـــة للثورة الايرانية ، التى اطلق عليها الشعب اسم «لجنة خمينى» . وهكذا تشكل فى البلاد ، الى جانب حكومة بختيار العاجزة ، مركز ثـــان للسلطة . وفى اول شباط (فبراير) ١٩٧٩ ، وصـــل خمينى الى طهران بعد بقائه فى الهجرة ١٤ سنة ، واستقبله ملايين الايرانيين المتحرقين الى مواصلة الثورة استقبالا مهيبا . وفى ٥ شباط اعلن خمينى عن تأليف حكومة ثورية موقتة برئاسة بازاركان ، مؤسس الحركة من اجل حريـــة ايران ، والذى اعلن انه مريد مخلص لآية الله خمينى . وفى تلك الايام ، كما اشار عن حق وصـــواب مراســل جريدة «غارديان» فى طهران ، «كانت ستراتيجية خمينى تنحصر فى التخلص من الحكومة التى يرأسها بختيار والتى كانـــت لا تزال قائمة اسميا ، بحرمانها من اساسها الدستورى ، وفـــى السعى فى الوقت نفسه الى اتفاق مع الجيش» (٦٤) .

ولكن مسألة السلطة حلّت بنحو آخر . ففى ٩ شباط (فبراير) ١٩٧٩ شنت وحدات من حرس الشاه هجوما على قاعدة تدريبيـــة للقوات الجوية بضواحى طهران كان رجالها قد اشتركوا فى العشية فى المظاهرات الشعبية ، الامر الذى استثار انتفاضة مسلحة فـــى العاصمة . فى تلك الليلة هبت فصائل المنظمات العسكريـــــة

السياسية الاسلامية الراديكالية من «المجاهدين» و«الفدائيين» الى القتال ضد حرس الشاه . ولكن رسل «لجنة خميني» اخذوا يجوبون في المدينة صائحين بلا انقطاع في مكبرات الصوت : «الامام لم يأمر بعد بالجهاد ، عودوا الى بيوتكم» . ولم يدع خميني السكان الى الكفاح المسلح الا عندما امرت القيادة العسكرية بتطهير الشوارع . وفي ١١ شباط (فبراير) تم سحق حرس الشاه ووحدات الجيش التي دعمته .

اتخذ المجلس الحربي الاعلى في ايران قرارا بحياد الجيش وبسحب جميع وحداته الى الثكنات ثم اعلن فيما بعد عن دعمه للثورة .

وهكذا حمل الشعور الثوري لدى الجماهير الشعبية هذه الجماهير الى تخطي اطر اشكال النضال التي اقرتها القيادة الدينية وقاد الى ضرورة اللجوء الى الانتفاضة المسلحة بوصفها الوسيلة الوحيدة التي يمكنها ان تؤدي الى اسقاط النظام القديم على الفور . وفي هذه الاحوال قرر خميني اعتبار احداث التاسع والعاشر والحادي عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٩ «الثورة الاسلامية» . وغادر الحلبة بختيار رئيس وزارة الشاه الاخيرة . وانتقلت السلطة بكاملها الى الامام خميني ومجلس الثورة الاسلامية والحكومة التي عينها برئاسة بازاركان . وبعد الاستفتاء الذي جرى بامر من خميني في آذار (مارس) ١٩٧٩ تم القضاء كليا على الشكل الملكي للحكم الذي دام في ايران ٢٥٠٠ سنة . وفي اول نيسان (ابريل) ١٩٧٩ نودي في جو رسمي مهيب بتأسيس جمهورية ايران الاسلامية . وهكذا منيت الامبريالية الاميركية في الصراع من اجل السيطرة على العالم الاسلامي بهزيمة شنعاء .

١٢ ـ الامبريالية الاميركية في مواجهة جمهورية ايران الاسلامية

اخذت الامبريالية الاميركية تعد عمليات العدوان والتخريب ضد جمهورية ايران الاسلامية ، كما تؤكد وثائق السفارة الاميركية في طهران وغيرها من المواد ، قبل اعلانها بزمن طويل . ففي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ ، اي فور انتقال آية الله خميني من العراق

الى فرنسا ، حاولت وكالة المخابرات المركزية والديبلوماسية الاميركية ان تقيم اتصالات سرية مع اقرب المحيطين به (بني صدر ، قطب زاده ، وغيرهما) ومع قائد الحركة من اجل حرية ايران بازاركان الذى ترأس فيما بعد الحكومة الثورية الموقتة . وفى مقالة اثارت الضجة ، عنوانها «ايران – السبيل الذى لم يسيروا فيه» ، ونشرتها المجلة الاميركية النافذة «فورين بوليسى» ، زعم السفير الاميركى السابق فى طهران ، ساليفن ، انه اصّر فى تشرين الثانى (نوفمبر) ۱۹۷۸ على ارسال رسول عن الحكومة الاميركية الى باريس لمقابلة خمينى . وكان على الرسول ان يخيف آية الله خمينى باحتمال وقوع مصادمات دامية بين القوات المسلحة وجماهير الشعب ، وان يستحصل على موافقته على انتقال السلطة بصورة سلمية الى زعماء المعارضة الذين اقامت السفارة اتصالا معهم . وبعد ذاك ، كان على الشاه ان يغادر البلاد وان يعود خمينى الى طهران وعلى الاميركيين ان يؤمنوا على الاقل حياد الجيش الايرانى فى المرحلة الانتقالية . وفضلا عن ذلك ، كان المقصود بالطبع ان تمتنع الحكومة عن اتخاذ موقف معاد للاميركيين . وفى كانون الاول (ديسمبر) ۱۹۷۸ حظيت هذه الخطة بالتحبيذ . واختير السفير الاميركى سابقا فى افغانستان والمستشار الاقتصادى الاميركى سابقا فى طهران ايليوت الذى يتكلم الفارسية بطلاقة رسولا لاجل اجراء المفاوضات مع خمينى .

ولكن بجيزينسكى ، معاون كارتر فى شؤون الامن القومى ، تخوفا من أن يسفر الامتناع عن دعم حليف الولايات المتحدة الرئيسى فى العالم الاسلامى – الشاه – عن تخويف قادة الانظمة المحافظة الاخرى التى تسترشد بواشنطن ، توصل فجأة ، فى اوائل كانون الثانى (يناير) الى رفض هذه الخطة . وأرسل الى طهران الجنرال هايزر ، نائب القائد العام الاعلى للقوات المسلحة التابعة للناتو فى اوروبا ، وقد سبق لهذا الجنرال ان عمل فى طهران . وكان عليه ان يحمل الجنرالات الايرانيين على دعم بختيار الذى عينه الشاه رئيسا للوزارة ، ودعم مجلس الوصاية ، الامر الذى كان لا بد ان يسهم ، لا فى صيانة النظام الملكى فى ايران وحسب ، بل ايضا فى صيانة سلالة بهلوى . وهكذا ، كما يؤكد ساليفن ، ضاعت

فرصة التفاهم مع خميني . وفي ليلة التاسع الى العاشر من شباط (فبراير) ١٩٧٩ اى بعد عودة خميني الى طهران ، وبعد ان ظهر في البلاد ازدواج السلطة ، ارسل بجيزينسكى عبر قناة الاتصال الدولية ، وبالنص السافر ، طلبا الى ساليفن : أوليس بوسع السفارة «ان تنظم انقلابا عسكريا بغية خنق الثورة ؟» . وقد جاء فى مقالة ساليفن : «آسف بالغ الأسف ، ولكن جوابى كان على نحو بحيث لا يجوز نشره في الصحف» (٦٥) .

بعد انهيار نظام الشاه وتصفية حكومة بختيار ، حاولوا فى واشنطن ان يطبقوا خطة ساليفن بعد تعديلها . وفى شباط (فبراير) ١٩٧٩ اعترفت الولايات المتحدة الاميركية بحكومة بازاركان وقامت بمحاولات نشيطة «لمد الجسور» مع عدد من رجال النظام الجديد البارزين . ويتبين من وثائق السفارة الاميركية ان الموظف المحنك فى وكالة المخابرات المركزية روترفورد قد اقام اتصالا مع بنى صدر ، المستشار المقرب لخميني ، والرئيس المقبل لجمهورية ايران الاسلامية ، وذلك فى كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ ، اثناء وجود بنى صدر فى المهجر واقامته فى باريس . وبعد عودة بنى صدر الى طهران ، وضعوا فى مقر هيئة اركان وكالة المخابرات المركزية فى لنغلى (الولايات المتحدة الاميركية) خطة سرية لمواصلة وتوسيع الاتصالات مع هذه الشخصية النافذة فى الجمهورية الجديدة . وبقصد السرية ، اسميت الخطة «عملية سد لور — ١» . وبناء على طلب من وكالة المخابرات المركزية ، اسس الصناعى الاميركى دون ميدس شركة تجارية كبيرة اسماها «كارفر اسوشييتس» ، وهذه الشركة ارسلت فى صيف ١٩٧٩ الى طهران ، بحجة اجراء مفاوضات مع وزارة التجارة الخارجية لاجل توقيع عقود مفيدة جدا لايران ، مندوبا عنها مطلق الصلاحية . . . هو روترفورد ! تقابل روترفورد ثلاث مرات مع بنى صدر — فى ٢٨ آب (اغسطس) و٢ و٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩ (٦٦) . وبما ان موظفى وكالة المخابرات المركزية استطاعوا ان يقضوا على قسم كبير من الوثائق اثناء اقتحام السفارة الاميركية ، فان تفاصيل المفاوضات بقيت مجهولة ، ولكنه يستفاد من المواد المنشورة فى واشنطن انها قوبلت بكبير الرضى والارتياح سواء فى لنغلى ام فى البيت الابيض .

وقـد بقى المزيد من المواد عن «عمليـــة سِرد بلود – ١» . فهكذا اسميت خطة اقامة الاتصالات السرية مع الشخصية البارزة من المعارضة ، واحد قادة الجبهة الوطنيـــة ، امير انتظام . وبعد تأسيس جمهورية ايران الاسلامية ، اصبح نائبا لرئيس الوزراء . ان دراسة المواد تبين ان انتظام صار مخبرا لوكالـــة المخابرات المركزية . فلم يكن يعلم الديبلوماسيين والجواسيس الاميركيين باستمرار عن نشاط حكومة جمهورية ايران الاسلامية وحسب ، بل ساعدهم كذلك فى شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٩٧٩ على فك التجهيزات السرية لمحطتى تجسس اقامتهما فى اوائل السبعينيات فى القسم الشمالى الشرقى من ايران وكالة الامن القومى الاميركية لاجل القيام بالتجسس الالكترونى على الاتحاد السوفييتى .

وفى تموز (يوليو) ١٩٧٩ ، عندما أُعفى امير انتظام من منصبه وعُيِّن سفيرا فى البلدان السكاندينافية مقره فى ستوكهلم ، ارسل القائم بالاعمال الاميركى فى طهران بروس لنغن رسالة طريفة جدا الى السفير الاميركى فى ستوكهلم ، اشار فيها الى ان امير انتظام هو صديق جيد للولايات المتحدة الاميركية وانه عُيِّن سفيرا فى ستوكهلم لاجل اقامة الاتصالات مع الحكومة الاميركية . ثـــم ان الموظف المسؤول فى السفارة الاميركية فى طهران ، شتمبل ، الذى كان يقيم الاتصالات مع انتظام بدأب ومثابرة حين كان عضوا فى الحكومة ، ارسل كذلك فى آب (اغسطس) ١٩٧٩ فى مأمورية الى ستوكهلم للهدف ذاته (٦٧) .

لم يكتف بجيزينسكى بالاتصالات عن طريق الوسطاء ، بل قرر كذلك ان يجرى شخصيا مفاوضات مع بازاركان وبخاصة مع النصير السرى للاتجاه الاميركى يزدى ، وزير الخارجية فى جمهورية ايران الاسلامية . ولهذا الغرض راح فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) الى الجزائر للاشتراك فى حدث «مفرح» جدا للاوساط الحاكمة الاميركية كما هو عليه الاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين لثورة التحرر الوطنى فى الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، علما بان وفدا ايرانيا ايضا اشترك فى هذا الاحتفال .

وهكذا قامت الاوساط الحاكمة الاميركية التى لم تستطع ان تنقذ عميلها فى ايران وفى العالم الاسلامى محمد رضا بهلوى وان

تحول دون انتصار الثورة الايرانية ، بمحاولة فى سنة ١٩٧٩ لنسف جمهورية ايران الاسلامية من الداخل عن طريق التواطؤ والتآمر مع ممثلى البرجوازية الليبيرالية البارزين ومع بعض قادة الحكومة .

وفى الوقت نفسه كانت تشتد الاتصالات مع المعارضة الرجعية وفى المقام الاول مع المعارضة الملكية التى وجد قادتها بعد انتصار الثورة الايرانية ملجأ فى فرنسا حيث كان يعيش على تخوم الثمانينيات اكثر من ٧٠ الف لاجئ ايرانى من مختلف الوجهات السياسية .

فى النصف الثانى من سنة ١٩٧٩ اقام عملاء وكالة المخابرات المركزية اتصالات سرية مع رئيس الوزارة الايرانية السابق امينى ، ومع آخر رئيس لحكومة الشاه بختيار ، ومع المدير السابق لشركة البترول الوطنية الايرانية نزيه . وفى الوقت نفسه اقيمت صلة مكثفة مع التكتلات الايرانية الملكية اليمينية المتطرفة وعلى رأسها اخت الشاه الاميرة اشرف بهلوى وابنتها آزاد شفيق التى تشرف على منظمة «ايران الحرة» . وكانت هذه المنظمة تضم كثيرين من الضباط السابقين فى حرس الشاه ؛ وكان هؤلاء فى الوقت ذاته اعضاء فى المنظمة العسكرية الارهابية «جيش ايران التحريرى» الذى له فروع فى مصر حيث كانت تعيش الشاهينة ديبا فرح وولى العهد الامير رضا الذى نودى به بعد وفاة والده فى سنة ١٩٨٠ «الشاه رضا الثانى بهلوى» ، وفى تركيا وفى عدد من بلدان الخليج العربى (٦٨) . ومن هذه المنظمة استمدت وكالة المخابرات المركزية ملاكات المخربين المرسلين الى ايران عبر الحدود التركية وسواحل الخليج العربى . وقد تعاون هؤلاء المخربون مع موظفى سافاك وسائر المصالح المختصة وضباط حرس الشاه السابقين ، المتخفين فى ايران ، وكذلك مع الاوساط العليا الاقطاعية القبلية فى عدد من القبائل المترحلة والقبائل المتحضرة فى جنوب وجنوب شرقى ايران .

وهكذا كانت الاوساط الحاكمة الاميركية تهيئ لجولة ثانية من الصراع من اجل رأس الجسر الايرانى فى العالم الاسلامى . وقد حاكت شتى الدسائس بمساعدة العملاء المأجورين و«الفكريين» فى اوساط البرجوازية الليبيرالية المتواجدة قرب دفة السلطة ،

واستغلت العلاقات المالية والاقتصادية الوثيقة التى بقيت للشركات متعددة القوميات مع قادة المؤسسات والدوائر الايرانية ، واضرمت بشتى الوسائل والى اقصى حد نيران الخلافات بين مختلف التكتلات السياسية والدينية . وفى الوقت نفسه كانت تهيىء عمليات واسعة الابعاد للتخريب والاقتحام والانتفاض تقوم بها عصابات وفصائل منظمات المهاجرين ، وتحبك الخطط لتدخل مسلح كبير .

وفى هذه الاحوال اتخذ الرئيس كارتر فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٩ قرارا بدعوة الشاه الهارب محمد رضا بهلوى الى الولايات المتحدة «لاجل العلاج» . وقد اتخذ كارتر هذا القرار رغم التحذيرات العديدة من السفارة الاميركية فى طهران ووزارة الخارجية الاميركية من ان هذا قد يسفر عن اخطر العواقب . وبالفعل استثار هذا القرار استياء هائلا فى ايران . فقد اعتبرت الاوساط الواسعة من الرأى العام الايرانى ، ورجال الدين ، والجماهير الشعبية سفر الشاه الى الولايات المتحدة اشارة الى ان الحكومة الاميركية اعتزمت بالتواطؤ مع الديكتاتور الدموى السابق ، على التدخـــل المسلح السافر . ولهذا ليس البتة من قبيل الصدفة تطابق حدثان كبيران فى تاريخ جمهورية ايران الاسلامية هما استيلاء الطلاب الايرانيين اعضاء «منظمة الطلاب المسلمين ، اتبـــاع نهج الامام خمينى» ، فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٩ ، على السفارة الاميركية فى طهران ، واستقالة حكومة بازاركان فى ٦ تشرين الثانى ، علما بان خونة قضية الثورة الايرانية مثل امير انتظام ويزدى وقطب زاده واتباعهم كانوا يشغلون مناصب بارزة فى هذه الحكومة (وفيما بعد ، نال هؤلاء العقاب) . وما لبث رجال الدين ان استغلوا فى مصلحتهم الوضع الناشىء . وانتقلت السلطة بكليتها ، لا فعليا وحسب ، بل رسميا ايضا الى مجلس الثورة الاسلامية . واقر الاستفتاء الجديد (٢ – ٣ كانون الاول – ديسمبر ١٩٧٩) الدستور الاسلامي الــذى ينص على تأسيس وظيفة «الفقيه» ، اى منصب الزعيم الدينى الاجدر الواقف فوق جهاز الدولة وجهاز الحكومة – وهذا المنصب شغلــه خمينى ، – وكذلك مجلس حماية الدستور لمراقبة نشاط الحكومة من وجهة نظر تطابقه مع قواعد الاسلام .

ان القبض على ٥٣ ديبلوماسيا اميركيا وتحويلهم الى رهائن ،

والاستيلاء على السفارة الاميركية بارضها الشاسعة حيث كانت تقوم ١٩ عمارة مختلفة ، وعلى المئات من الوثائق الديبلوماسيـــــة والجاسوسية تماما ، كل هذا استثار فى الولايات المتحدة فى البدء صدمة ، ثم زوبعة سياسية اشتدت كثيرا بعد مرور يومين عـــلى استقالة بازاركان .

ومن جديد ، كما منذ سنة ، احتدمت المناقشات فى البيـــت الابيض ووزارة الخارجية والبنتاغون وبخاصة فى الكابيتول حول المسؤول عن الاخفاق الضخم الجديد الذى منيت به السياســـــة الاميركية فى العالم الاسلامى . وبما ان «دعوة الشاه الى العلاج فى الولايات المتحدة الاميركية» كانت المفجّر الذى ادى الى الانفجار السياسى فى طهران فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ، فان هذه القضية قد شغلت فى الحال مكان الصدارة فى مناظرة حادة نشبت فى الصحف الاميركية والكونغرس الاميركى فى تشرين الثانى وكانـون الاول (نوفمبـــر وديسمبر) ١٩٧٩ . ان استشهادات كارتـــر وبجيزينسكى «بالمبادئ الاميركية للنزعة الانسانيـــة» ، التى استرشدت بها وزارة الخارجية الاميركية حسب زعمهما عندما منحت الشاه تأشيرة الدخول ، قد استثارت بالطبع ابتسامات الارتياب . ولكن التقرير السرى الذى اعده السيناتور عن ولاية ايداهو هنسين من اجل الكونغرس عن اسباب النزاع الاميركى الايرانى الجديـــد والذى نشرت مقتطفات منه فى الجريدة النافذة «واشنطن بوست» احدث انطباعات اكبر بكثير . فقد جاء فيه : «ان الاوساط المصرفية ، وبخاصة روكفلر ، قد لعبت الدور الاساسى فى السماح للشـــاه بالمجىء الى الولايات المتحدة» . وافاد التقرير ان قلعة روكفلر «تشيز مانهاتن بنك» استثارت قصدا وعمدا وضعا نزاعيا لكـــى تدرأ سحب مليارات الدولارات من حسابات الحكومة الايرانية فـى البنك المذكور . وجاء فى التقرير «ان الحكومة الايرانية الثوريـــة بدأت تسحب ودائعها ، الامر الذى «بشّر» البنك ضمنا بنضوب موارده نضوبا خطيرا» . واكد هنسين ان رد فعل كارتر على الاستيلاء على السفارة الاميركية — وهو تجميد الودائع الايرانية فى البنوك الاميركية — قد حال دون سحب الاموال من بنك روكفلر (٦٩) . والمعلوم ان حصة الاسد من مداخيل ايران من تصدير البتـــرول

وودائع «مؤسسة بهلوى» الشهيرة التى تخص عائلة الشاه كانت محفوظة فى «تشيز مانهاتن بنك» على وجه الضبط . وهذه المبالغ الهائلة التى تربو على ٢٥ مليار دولار كان يشرف عليها مجلس وصاية خاص كان يضم ، عدا الاخوة روكفلر ، وزير الخارجية الاميركية السابق وليم روجرس ، والمدير السابق لوكالة المخابرات المركزية والسفير الاميركى فى ايران ريتشارد هلمس ، وهنرى كيسنجر . وهذه المليارات كانت تعمل كرأسمال تسليفى فى المجال البنكى الصناعى فى كثير من البلدان الغربية وكانت تعود بمداخيل هائلة على المالكين الرئيسيين «لتشيز مانهاتن بنك» . وهى التى قررت «انسانية» روكفلر وكيسنجر اللذين اقنعا كارتر بالسماح للشاه فى المجىء الى الولايات المتحدة ، وباثارة ازمة فى طهران على هذا النحو .

واخذ المساهمون فى الشركات متعددة الجنسيات والاسياد الحقيقيون للمركب الصناعى العسكرى الاميركى (وهؤلاء «خسروا» من جراء الثورة الايرانية ١٥-١٨ مليار دولار) ، والبنتاغون ، ووزارة الخارجية ، ووكالة المخابرات المركزية ، يتتبعون بقلق متفاقم ابدا التفاعل المتسلسل فى العالم الاسلامى ، الذى جاء عاقبة للثورة الايرانية وبخاصة لاحداث ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) فى طهران . ثم ان كارتر ، بدافع منهم ، طلب بدوره من مجلس الامن الوطنى ولجنة رؤساء الاركان توصيات عاجلة بشأن التدابير التى من شأنها ، لا ان تساعد فى تحرير الديبلوماسيين الرهائن الاميركيين وحسب ، بل ايضا ان تحفظ مكانة الولايات المتحدة الاميركية ، المنهارة بسرعة فى آسيا وافريقيا .

ولكن فى النصف الثانى من تشرين الثانى تحولت الزوبعة فى العالم الاسلامى الى عاصفة فى اقصى القوة . ففى ٢٢ تشرين الثانى استولى المنتفضون المسلحون فى مكة على اكبر جامع فى العالم الاسلامى جامع «الحرم» حيث يوجد قدس اقداس الاسلام ، الكعبة ، واتهموا حكومة العربية السعودية بالاستخذاء امام الولايات المتحدة . وبعد يومين اقتحمت جموع من آلاف وآلاف المتظاهرين السفارة الاميركية فى اسلاماباد (الباكستان) ودمرت او احرقت جزئيا المراكز الثقافية الاميركية فى كاراتشى ودكا وكوالا لومبور

وجاكارتا . وآنذاك بالذات تقدم بجيزينسكى بنظرية مفادهـا ان العالم الاسلامى انما هو «قوس ازمات» او «قوس عدم استقرار» . اما فى الواقع ، فان مواقع الامبريالية الاميركية فى العالم الاسلامى هى التى لم تعد مستقرة .

وفى هذه الاحوال طرحت الاوساط الحاكمة الاميركية جانبـا البيانات السياسية الديماغوجية التقليدية عن «دعم الديمقراطيـة» و«العطف على الاسلام» و«انعدام المصلحة» فى الشؤون الآسيوية ، واخذت تستعمل تركة تيودور روزفلت اى «الهراوة الكبيرة» . ووراء ستار من التصريحات المنافقة عن ضرورة تأمين التزويد بالبترول من الخليج العربى بلا خلل ولا توقف (مع ان الولايات المتحدة كانـت تتلقى من هناك ٥٪ فقط من البترول الذى تستورده) ، دفـع الامبرياليون الاميركيون الى بحر العرب اسطولين من حامـلات الطائرات (الاسطول السابع الذى انتقل من المحيط الهادى والاسطول السادس الذى انتقل من البحر الابيض المتوسط) . وفى الوقت نفسه بدأوا يرسمون بسرعة محمومة «كريدو» («قانون ايمان ، مبدأ») رئاسى جديد – هو مذهب كارتر الذى اعتبر كل منطقة الخليج العربى «منطقة مصالح حيوية للولايات المتحدة» . وشنت الآلة الدعائيـة الاميركية الهائلة فى الولايات المتحدة ذاتها وفى اوروبا الغربية وفى بلدان العالم الاسلامى حملة معادية لايران لا سابق لقوتها ، ودعت الى تنظيم «حملة صليبية» ضد جمهورية ايران الاسلاميـة وحتى الى القضاء الجسدى على آية الله خمينى .

وفى واشنطن كان مجلس الامن القومى يجتمـع مرارا فى الاسبوع ، وكانت اللجنة الدائمة لتسوية الازمات تعقد المداولات يوميا تقريبا ، ووضعوا قيد الاستعداد القتالى وحدات فرقة المظليين والانزال رقم ٨٢ – اى طليعة قوات التدخل المسلح الاميركى .

وبما ان سنة ١٩٨٠ ، سنة الانتخابات كانت تقترب ، وبما ان السياسة الخارجية لادارة الديمقراطيين كانت تتعرض لحملات حادة من «الصقور» الجمهورية وتتهمها بالضعف والخمول ، فان مستشارى كارتر اصروا كذلك على القيام باعمال مخيفة ضد ايران لاجل «معاقبة» خمينى والتوصل الى تحرير الرهائن . كذلك شغل بجيزينسكـى ، مخترع «قوس عدم الاستقرار» ، موقف «الصقور» . ولكن البيت

الابيض تباطأ . وفي نيسان (ابريل) ١٩٨٢ فقط ، اى عندما نشرت مجلة «نيويورك تايمس ماغازين» احد الفصول الاولى من مذكرات بجيزينسكى تحت العنوان غير العادى «العملية الفاشلة — تقرير عن محاولة تحرير الرهائن فى ايران» ، اتضحت الاسباب التى حملت كارتر على الامتناع عن المجازفة فى القيام بعمل قمعى واسع الابعاد فى ايران .

وقبل ذاك ، فى سنة ١٩٧٩ واوائل سنة ١٩٨٠ ، كانوا يؤكدون ان كارتر استنكف عن القيام بهذا العمل بسبب المخاوف من ان يقوم الايرانيون باعمال القمع ضد الديبلوماسيين الرهائن ، وكذلك بسبب «النزعة الانسانية» الاميركية التى يعرفها الجميع . الا ان بجيزينسكى كشف الستار فى المقالة المذكورة اعلاه . يبدو انهم وضعوا فى واشنطن فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٩ خطة مفصلة لفرض الحصار البحرى الكلى على ايران وللاستيلاء على جزيرة حرج حيث تقع اهم مجموعة فى ايران لتصدير البترول ، وانهم درسوا صيغ عمليات ضخمة من القصف والانزال . ولكن ، كما يؤكد بجيزينسكى ، مستشهدا فى المقالة بيومياته فى ذلك الوقت ، لم يكن بوسع تنفيذ هذه الخطط ان يحرر الرهائن ، «الا انه كان بوسعه بالمقابل ان يخل بالنسبة الستراتيجية بين القوى فى هذه المنطقة ذات الاهمية الحيوية فى صالح الاتحاد السوفييتى ، باعطائه دفعة لتعاون عسكرى وسياسى ايرانى سوفييتى لا سابق له» . وفى المقالة ذاتها ، اشار معاون الرئيس الاميركى لشؤون الامن القومى ، بجيزينسكى قائلا : «خيل الىّ ان من الاهم انشاء ائتلاف اسلامى معاد للاتحاد السوفييتى ، فى حين ان عملا عسكريا تقوم به الولايات المتحدة ضد ايران كان من شأنه ان يحول دون ذلك» (٧٠) .

ولهذا ، بعد ترددات طويلة ومفاوضات عديدة واستعداد شامل ، تقرر فى واشنطن القيام بعملية «انقاذ» منسقة اطلق عليها الاسم السرى «ظفر النسر» . وفى اوائل نيسان (ابريل) ١٩٨٠ ارسلت وكالة المخابرات المركزية الى طهران بضعة عملاء خاصين فدرسوا جميع المشارف الى السفارة الاميركية واستأجروا العملاء من عداد الخونة المحليين ، واشتروا سيارات الشحن المعدة لنقل مفارز الهجوم التى كان عليها ان تنزل من الطائرات العمودية فى

ضواحي طهران وتندفع الى اقتحام السفارة مستعملة ايا من الاسلحة النارية ، وكذلك السلاح الكيمياوي عند الاقتضاء . وفي ليلة الرابع والعشرين الى الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٨٠ ، ارتفعت ٨ طائرات عمودية من طراز «سي ستاليون» من على متن حاملة الطائرات الذرية الاميركية «نيميتس» المرابطة في بحر العرب . وفي منطقة تورود الواقعة في الصحراء الكبرى ، كان على الطائرات العمودية ان تلتقي في مطار طبيعي مع ٦ طائرات للنقل من طراز «س-١٣٠» ، طارت من قاعدة رأس بناس المصرية وكانت على متنها فصائل للتخريب والهجوم . وفي الصحراء الايرانية كان على الطائرات العمودية ان تتزود بالوقود بصورة اضافية وتأخذ على متنها رجال فصائل التخريب والهجوم وتطير الى منطقة طهران حيث كان على فصائل المتدخلين ، بعد الهبوط ارضا ، ان تتخفى طوال اليوم . وعند فجر اليوم التالي كان ينبغي ان تتجه في سيارات الشحن الى مهاجمة السفارة الاميركية التي كان يتعين على العملاء الاميركيين المرسلين سلفا ان ينظموا في مشارفها اضطرابات في الشوارع تشبه احداث ١٩ آب (اغسطس) ١٩٥٣ .

ولكن الاخفاق رافق المخربين . فاثناء الطيران فوق الاراضي الايرانية تعطلت جزئيا محركات وتجهيزات طائرتين عموديتين ؛ واثناء التزود بالوقود في مطار بضواحي تورود ، اصطدمت احدى الطائرات العمودية بالطائرة المزوّدة «س-١٣٠» ، الامر الذي ادى الى نشوب حريق والى هلاك ٨ من رجال قوات الانزال . وبتوصية من رئيس لجنة رؤساء الاركان الجنرال جونس ومدير وكالة المخابرات المركزية ترنر ، صادق الرئيس كارتر على وقف عملية «الانقاذ» . وفي اليوم التالي اضطر وزير الدفاع براون الى الاعلان في مؤتمر صحفي عقد على جناح السرعة عن فشل عملية تخريبية حربية كبيرة جديدة ضد جمهورية ايران الاسلامية . وهذه المرة لجأ الوزير الاميركي الى الجمل والتعابير المنافقة عن دموع الرئيس وعن عدم رغبته في المجازفة بارواح الديبلوماسيين الاميركيين والسكان الايرانيين . اما في الواقع ، كما اكد المراقب الاميركي المطلع اندرسون في مقالة انتقادية حادة نشرتها «واشنطن بوست» ، فان سيناريو «عملية الانقاذ» اخذ بالحسبان انه سيقع بين الرهائن

الاقل ، وبين المنقذين في سياق تحريرهم ٢٠ ضحيــــة على ٥٣١
اكثر من ٥٠ ضحية . وقد حسب واضعو السيناريو ان بضع مئات من الايرانيين سيلقون مصرعهم اثناء «العملية» (٧١) . وفي سياق المناقشات العديدة التي جرت في الولايات المتحدة وفي اوروبـــا الغربية وفي كثير من بلدان العالم الاسلامي لمناسبة فشل العدوان الاميركي ، ارتفعت — وليس دون مبرر — اصوات رشيدة اعربت عن الشك في ان تكون الاشارة بوقف العملية (وقد صدرت قبــل اصطدام الطائرة العمودية بالطائرة المزوّدة بالوقود) لم تنجم الا بسبب تعطل محركات طائرتين عموديتين من طراز «سي ستاليون» . وانها لجديرة بالانتباه الجدي التأكيدات بان اخفاق العملية انما مرده الى حدوث فشل في تحقيق «اضافتين» في غاية الاهمية لم ينشر عنهما شيء حتى الآن ، هما خطة اغتيال خميني وخطة تنظيم انتفاضة في وسط طهران (٧٢) . أن تنفيذ هذين القسمين من المؤامرة قـــد استحال لاسباب مستقلة عن وكالة المخابرات المركزية .

ولكن فشل «عملية الانقاذ» هذا الفشل المخزي لم يعن البتة ان الاوساط الحاكمة الاميركية عدلت عن النضال ضد جمهورية ايران الاسلامية . ففي غضون سنوات ١٩٨٠-١٩٨٣ ، واصلت وكالـة المخابرات المركزية ولا تزال تواصل توجيه نشاط الجماعات المعارضة العديدة ، ولا سيما منها «جيش ايران التحريري» الذي انضمت اليه المنظمة الملكية العسكرية الجديدة «ازاديغان» برئاسة الجنرال اريانا . وقد حاولت وكالة المخابرات المركزية وسائر المصالـــح المختصة الاميركية ولا تزال تحاول ان تقيم اتصالات بين المعارضة القديمة — «اليمينية» الموجودة في باريس والمعارضة الجديدة — «اليسارية» برئاسة رئيس ايران السابق بني صدر الذي وصل الى باريس في خريف ١٩٨١ .

لعبت وكالة المخابرات المركزية دورا كبيرا في اعداد مؤامرة جديدة ضد ايران في نيسان (ابريل) ١٩٨٢ كان قطب زاده ، وزير الخارجية السابق في ايران و«الحائز على منحة دراسية» فيما مضى في دائرة لنغلي ، احد قادتها . وفي هذه المؤامرة اشترك ممثلـــو المنظمات «اليمينية» و«اليسارية» على السواء . وكان هدفها القضاء

جسديا على آية الله خمينى والقضاء فعلا على جمهورية ايران الاسلامية .

وقد سترت الاوساط الحاكمة الاميركية الاعمال الهدامة ، العدوانية ، ضد جمهورية ايران الاسلامية ببيانات اعلانية واسعة عن السعى الى النضال من اجل بعث الديمقراطية التى داسها رجال الدين الشيعيون ، وبالحرص على تأمين توريدات البترول بلا عائق ولا خلل الى الحلفاء فى الناتو والى اليابان من منطقة الخليج العربى ، بما فى ذلك من ايران .

اما فى الواقع فان الاوساط الحاكمة الاميركية لم يقلقها ذلك ، بل اقلقها احتمال نهضة جديدة فى الحركة المعادية للامبريالية ، التى هزت كل العالم الاسلامى فى ربيع ١٩٧٩ ، اى فى المرحلة الشعبية الشاملة الاولى من الثورة المعادية للامبريالية والمعادية للنظام الملكى فى ايران . ولدرء هذا الخطر الرهيب ، وللحيلولة دون اتجاه الانظمة المحافظة فى العالم الاسلامى وجهة الراديكالية ، ودون سحبها ، على مثال ايران ، مئات المليارات من الدولارات البترولية المتداولة فى النظام المالى الغربى والعائدة بمداخيل هائلة ، وكذلك للحيلولة دون رفض الطلبيات على احدث منظومات الاسلحة بمليارات الدولارات ، ودون الغاء الاتفاقيات بمنح الولايات المتحدة الاميركية القواعد الحربية ، تواصل الامبريالية الاميركية حربا غير معلنة ضد جمهورية ايران الاسلامية . وقد انشأت واشنطن ما يسمى «بقوات الانتشار السريع» من زهاء ٣٠٠ الف عنصر ، وشكلت القيادة المركزية التى يشمل «مجال عملها» ايران و١٦ بلدا اسلاميا آخر ، وجمعت فى مياه بحر العرب اسطولين من حاملات الطائرات ، واستثارت ولا تزال تستثير النزاعات بين ايران والبلدان العربية وسعت ولا تزال تسعى الى تأزيم العلاقات بين ايران والاتحاد السوفييتى .

هذا هو الجوهر الحقيقى لسياسة الولايات المتحدة الاميركية حيال جمهورية ايران الاسلامية وسائر بلدان العالم الاسلامى فى الثمانينيات من القرن العشرين .

الفصل التاسع

تحالف الصهيونية والامبريالية ضد شعوب الشرق الاسلامى

١ ـ منابع التحالف بين الصهاينة والامبرياليين

فى النصف الثانى من العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، عندما انتقلت الرأسمالية الى مرحلتها الاخيرة ، الامبريالية ، اخذت المنظمات القومية اليهودية فى اوروبا والولايات المتحدة تعــــزز نشاطها بسرعة وحدة . وبدأ الاستعداد الايديولوجى والسياسى والتنظيمى المشتد لتشكيل اشد اشكال الصهيونيـــــة خطرا على شعوب الشرق الاسلامى عنينا به الصهيونية السياسية . ففى شباط (فبراير) ١٨٩٦ نشر احد كبار ايديولوجيى هذا الاتجاه ، الصحفى من فيينا تيودور هرتسل كتابه «الدولة اليهودية» الذى صار ضربا من توراة للصهيونية . وقد تضمن الكتاب دعوة الى «بعث كيان الدولة اليهودية فى ارض الاجداد» اى فى فلسطين ، ذلك الكيان الذى قضى عليه منذ الفى سنة . ان الصيغة المغمضة قصـــدا وعمدا لطبيعة هذا «الكيان» السياسية والحقوقية ، اتاحت للصهاينة فيما بعد التلاعب بهذا الاصطلاح بمرونة وديماغوجية . فمن جهة ، توجهوا الى «المشاعر الانسانية» لدى الرأى العام الاوروبـــى والاميركى ، داعين اياه الى دعم انشاء «وطن قومى» لاجل «الشعب اليهودى المنهوك بالالام والبلايا التى يكابدها منذ الفى سنة» ، واضرموا من جهة اخرى فى الوقت ذاته المشاعر القوميـــة لدى فئات معينة من السكان اليهود داعين اياها فى النصف الاول من القرن العشرين الى انشاء «دولة يهودية غير كبيرة» فى فلسطين . وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، يحاول الصهاينة ذوو الميــــول الفاشية – اتباع جابوتينسكى – بيغين وشامير وغيرهما ، الذين يساندهم المتعصبون الدينيون بكل الوسائل ، ويستحثونهـــم فى

عدد من الاحوال ، ان ينشئوا بالحديد والدم «اسرائيل الكبرى» من الفرات الى النيل .

فور صدور كتاب «الدولة اليهودية» قام هرتسل بنشاط محموم لاجل تحقيق «الارشادات» الواردة فيه اى لاجل تطبيق افكار الصهيونية السياسية التى حظيت بدعم عدد من رجال المال من اصل يهودى فى بلدان اوروبا الغربية . ومما يدل على مدى اللامبدئية لدى القادة الصهاينة واقع انهم ، رغم نداءات مؤسسي الصهيونية الى «الانسانية والديموقراطية» ، اختاروا اول رئيس دولة ليطلبوا منه العون فى تحقيق خططهم . . . السلطان التركى عبد الحميد الثانى الذى لقبه الرأى العام العربى والغربى «بالدموى» لدوره فى تنظيم مذابح الارمن واضطهاد العرب فى الامبراطورية العثمانية .

فى ربيع سنة ١٨٩٦ ، اتصل هرتسل باحد عملاء السلطان التركى السريين ، هو نفلينسكى الذى ارسله عبد الحميد الثانى الى اوروبا بمهمة اللجوء الى جميع الوسائل ، بما فيها الرشوات ، لاجل اضعاف الحملة ضد تركيا فى صحافة بلدان اوروبا الغربية . ففى سنة ١٨٩٦ ، كانت هذه الحملة قد بلغت الذروة بسبب اشتداد مذابح الارمن وتزايد عدد ضحاياها . وقد تعهد نفلينسكى ، لقاء رشوة معينة ولقاء تقديم العون فى اداء رسالته ، بتنظيم لقاء بين هرتسل والسلطان (١) .

فى حزيران (يونيو) ١٨٩٦ دعى هرتسل الى القسطنطينية حيث اجرى مفاوضات مع الصدر الاعظم الذى ابدى اهتماما خاصا باقامة اتصالات مع كبار اصحاب المصارف فى اوروبا الغربية بواسطة زعيم الصهاينة الظاهر حديثا . وقد طرح رئيس الحكومة التركية مسألة الحصول على قرض كبير قدره ١٨ مليون ليرة تركية بوساطة هرتسل . ولكنه اتضح ان الباب العالى لا يستطيع ، نظرا لتفاقم ازمة الشرق الادنى تفاقما حادا ، ان يبحث مسألة اعتماد الاموال لاجل صهاينة فلسطين ، فاضطر هرتسل الى قطع المفاوضات ومغادرة عاصمة الامبراطورية العثمانية خالى الوفاض ، هذا اذا لم نأخذ بالحسبان ان «السلطان الدموى» «انعم» عليه بوسام «المجيدية» من الدرجة الثالثة (٢) .

رغم فشل المفاوضات ، اسهم واقع الزيارة الى القسطنطينية

فى توطيد مكانة هرتسل والحركة الصهيونية بقدر معين فى اوساط البرجوازية اليهودية . وبعد انشاء المنظمة الصهيونية العالمية فى المؤتمر التنظيمى بمدينة بال سنة ١٨٩٧ ، اصبح هرتسل بالطبع زعيمها ، وشرع فى انشاء صندوق كبير لاجل تمويل نزوح اليهود الى فلسطين .

ان اهتمام الاوساط النافذة فى بلدان اوروبا الغربية بخطط هرتسل لم ينبع من اعتبارات انسانية ، بل من التعاظم السريع والكبير لاهمية فلسطين على الصعيد الجغرافى السياسى فى اواخر القرن التاسع عشر . وقد اشتدت هذه الاهمية بعد ان استولت بريطانيا العظمى على حزمة الرقابة من اسهم الشركة العامة لقناة السويس واحتلت مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وحصلت الاوساط الحاكمة فى المانيا فى سنة ١٨٨٨ على امتياز ببناء سكة حديد الاناضول التى كان ينبغى ان تصبح جزءا من سكة حديد بغداد ، وكانت تتوخى بناء سكة حديد الحجاز ، وقد كان من شأن تحقيق هذه الخطط ان يوطد مواقع الامبريالية الالمانية فى مشارف قناة السويس . ولهذا كان من الطبيعى ان يستغل قادة الحكومة الالمانية ، عشية السفرة الشرقية الثانية التى رسم غليوم الثانى القيام بها والتى نص مشروعها على زيارة فلسطين وسوريا فى خريف ١٨٩٨ ، وساطة دوق بادن الاكبر الذى كان يتعاطف مع الافكار الصهيونية ، ويوافقوا على اللقاء مع هرتسل لاجل بحث مشاريعه لاستعمار فلسطين . ومما له دلالته ان المستشار هوهنلويه ، اثناء مفاوضات هرتسل معه ومع وزير الخارجية الالمانية بولوف حول استعمار فلسطين اليهودى ، لم يعترض على تشكيل «الشركة المميزة اليهودية لاجل فلسطين» (وكان ذلك شكلا منتشرا للامتلاك الاستعمارى) فى ظل السيادة الالمانية ، بل انه اهتم بالحدود الشمالية للمنطقة التى كان يطمع بها الصهاينة . وسأل صراحة : «حتى بيروت ضمننا ام ابعد ايضا الى الشمال ؟» (٣) ان طرح السؤال على هذا النحو يتسم بلا ريب باهمية خاصة على ضوء احتلال القوات الاسرائيلية للبنان بعد مرور اكثر من ٨٠ سنة . ولكن هذه المفاوضات وكذلك لقاء هرتسل مرتين مع غليوم الثانى اثناء زيارة غليوم الثانى للقدس والقسطنطينية لم تقرب الصهاينة

من الهدف المنشود لان عبد الحميد الثانى كان يخشى المعارضة الحادة من جانب الاوساط الاسلامية النافذة فى آسيا .

ومع ذلك قرر الصهاينة بعد مرور سنتين القيام بضغط جديد على عبد الحميد . وهذه المرة اختير لاداء دور الوسيط المستشرق والرحالة المجرى المشهور ، اليهودى الاصل ، ارمينى فامبيرى ، القريب جدا من السلطان . وفى ايار (مايو) ١٩٠١ ، نظم فامبيرى لقاء بين هرتسل وعبد الحميد . ومن جديد طرح الصهاينة مسألة انشاء شركة مميزة لاجل استعمار فلسطين ، وطرح السلطان مسألة اشتراك الرأسمال اليهودى اشتراكا فعالا فى تسوية ديون الامبراطورية العثمانية للخارج . وهذه المرة ذكر الطرف التركى السعر — ٣٠ مليون ليرة تركية . وفى هذه المرة ايضا ، كما تبين ، لم يكن السلطان موافقا على منح ميثاق خاص يسمح بتأسيس شركة مميزة . وكل ما كان على استعداد لفعله ، هو الموافقة على نزوح عدد معين من اليهود الى الامبراطورية العثمانية ، ولكن شرط قبولهم الجنسية التركية واداء الخدمة العسكرية (٤) .

فى شباط (فبراير) ١٩٠٢ راح هرتسل من جديد الى القسطنطينية لاجل انجاز المفاوضات . وقد اهتم السلطان بما اذا كان هرتسل قد استطاع ان يؤمن القرض المرغوب فيه ، بينما اهتم الصهاينة بالمسالة الفلسطينية . وفى الحاصل اتضح ان السلطان مستعد للسماح لليهود بدخول الامبراطورية ، ولكن لا فى فلسطين ، بل فى العراق وبدون اية مواثيق . ولم يكن بوسع هرتسل ان يحصل بموجب هذه الشروط حتى على جزء من القروض الضرورية للسلطان ، فانقطعت المفاوضات نهائيا . والشىء الوحيد الذى استطاع ان يحصل عليه زعيم المنظمة الصهيونية العالمية فى عاصمة الامبراطورية العثمانية ، وذلك بعد مفاوضات مديدة ، هو اضافة شريط الى وسام «المجيدية» (٥) .

وهكذا تبددت آمال الصهاينة فى استغلال مطامع عبد الحميد . ولم تتحقق خططهم المرتبطة باستغلال التناقضات الانجليزية الالمانية ، وبالاستفادة من مصلحة الاحتكارات الالمانية والطغمة العسكرية البروسية فى توطيد المواقع الالمانية فى فلسطين ، عند مشارف قناة السويس .

فى هذه الاحوال قرر هرتسل ورفاقه فى الفكر ان يتجهوا فى اوائل القرن العشرين صوب بريطانيا العظمى التى كان حكامهـــا ، خلافا للامبرياليين الالمان ، لا يعولون على السلطان التركى ، بل على تقسيم الامبراطورية العثمانية والاستيلاء على الاراضى العربية . ولهذا كان من الاسهل التفاهم معهم فى المسألة الفلسطينية .

فى سنة ١٩٠٢ ، اجرى هرتسل مفاوضات فى لندن مــــع روتشيلد ووزير المستعمرات تشمبرلن .

اقترح هرتسل تسليم شبه جزيرة سيناء ، بما فيه منطقـــة مدينة العريش ، وكذلك قبرص ، للمنظمة الصهيونية العالمية لاجل استعمارهما . ومن هنا ينجم ان اهتمام الصهاينـــة بشبه جزيرة سيناء ومنطقة العريش اللتين اقتحمتهما الدبابات الاسرائيلية ابان العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ واللتين احتلتهما اسرائيل من جديد فى سنة ١٩٦٧ ولم يرجعا الى مصر الا فى سنة ١٩٨٢ بصـــورة ثمن لمؤامرة كمب ديفيد ، قد سبق ان ظهر فى اوائل القـــرن العشرين . وقد وافق الانجليز على بحث مسألة شبه جزيرة سيناء ولكنه اتضح بعد اعمال البحث الجيولوجى المناسبة ان استعماره غير ممكن الا شرط بناء قناة خاصة لاجل ضخ المياه من نهر النيل ، الامر الذى يهدد باضطرابات كبيرة فى مصر .

فى سياق بحث المشروع المتعلـــق بقبرص ، لفت تشمبرلن الانتباه الى ان الجزيرة يقطنها بكثافة اليونانيون والاتراك . فاجاب هرتسل : اذا وافقت الحكومة البريطانية (وقد احتلت بريطانيـــا العظمى قبرص سنة ١٨٧٨ بذريعة حماية تركيا من الخطـــــر الروسى !) على منح قبرص لاجل الاستعمار اليهودى ، فانه سيصار فورا الى تأسيس شركة شرقية يهودية رأسمالها ٥ ملايين جنيـــه استرلينى ؛ وهذه الشركة ستشرع فى شراء اراضى القبارصة ؛ وبعد ذاك ، يرحل القبارصـــة الى اليونان وتركيا بعد ان يحصلوا على تعويض (٥-أ) وهذا المشروع يتسم ايضا باهمية لا يستهان بها على ضوء الوضع المتوتر اقصى التوتر فى الوقت الحاضر فى قبرص حيث لا تزال تتواجد القواعد الحربية البريطانية وحيث ازمة الشرق الادنى الناجمة عن عدوان اسرائيل على البلدان العربية تسهم فى ابقاء الوضع النزاعى .

بعد نشوب الحرب العالمية الاولى ، قرر زعماء المنظمة الصهيونية العالمية فى البدء ، الحفاظ على العلاقات مع الجانبين المتحاربين . ونقلوا مقر هيئة اركان المنظمة الصهيونية العالمية من برلين الى كوبنهاغ المحايدة . وبقى قسم من نشطائها فى برلين املا فى استغلال الحلف العسكرى بين المانيا والامبراطورية العثمانية لاجل توسيغ تسربهم الى فلسطين . ولكن الزعيم الجديد للمنظمة الصهيونية العالمية وايزمان انتقل الى لندن ، واخذ يعول اكثر فاكثر على المنظمات اليهودية النافذة ، لا فى بريطانيا وحسب ، بل فى الولايات المتحدة ايضا ، أملا فى ان يحصل على فلسطين بمساعدتها .

فى سياق ١٩١٤-١٩١٦ لم يفلح المستعمرون البريطانيون فى تحقيق خططهم ، اى الاستيلاء على البلدان العربية وفرض رقابتهم على شعوب الشرق الاسلامى . وفى سنة ١٩١٥ انتهت بالفشل مبادرة وزير البحرية البريطانية آنذاك ونستون تشرشل لعبور الدردنيل والوصول الى بحر مرمره بغية الزحف مباشرة على القسطنطينية وانزال قوات مسلحة فى الوقت نفسه فى اسكندرونة واحتلال ساحل سوريا ولبنان .

ومنى باخفاق اكبر الفيلق الانجليزى بقيادة الجنرال تاونسند الذى زحف على بغداد من منطقة الخليج العربى . ففى جوار كوت العمارة ، احاطت القوات التركية بالفيلق واسرته ، ونزلت ضربة هائلة بالمكانة البريطانية فى الشرق الاسلامى . وقد اشتد خطر هذه الضربة خصوصا وان الجيش التركى السادس بدأ فى ذلك الوقت بالذات الهجوم من فلسطين على المواقع البريطانية فى منطقة قناة السويس .

فى هذه الاحوال ، قرروا فى لندن الشروع فى مفاوضات سرية مع القادة السياسيين والدينيين العرب فى سوريا والحجاز . ولقاء الوعد بمنح العرب الاستقلال بعد انتهاء الحرب ، ارادوا منهم ان يوافقوا على البدء فورا بالانتقاض على الامبراطورية العثمانية ويشكلوا الفصائل المسلحة ويوجهوا ضربة من المؤخرة الى القوات المسلحة التركية التى تهاجم من القدس منطقة قناة السويس ، والبصرة من كوت العمارة .

ومن ايار (مايو) ١٩١٥ الى كانون الثانى (يناير) ١٩١٦ جرت مفاوضات بين المفوض الاعلى البريطانى فى مصر ماك ماهون والامير فيصل ابن شريف مكة وحاكم الحجاز حسين الهاشمى . وتم التوصل الى اتفاق اشترك فى صياغته كذلك قادة المنظمات القوميـــة السورية . ومقابل اعتراف بريطانيا بالدولة العربية المستقلـــة التى كان ينبغى ان تشمل العراق وسوريا ولبنان (بدون بيروت) وفلسطين والحجاز والجزيرة العربية ، تعهد الزعماء العرب بترؤس انتفاضة جميع الوحدات العربية الداخلة فى قوام القوات المسلحة التركية ، وانتفاضة القبائل العربية فى مؤخرة هذه القوات . وتنفيذا للتعهدات ، بدأ حسين الهاشمى فى سنة ١٩١٦ الانتفاضة ضـــد الامبراطورية العثمانية ، وبوصفه شريف مكة ، اعلن الجهاد ضد الالمان والاتراك .

ساعدت انتفاضة العرب القوات المسلحة البريطانيـــة تحاشى الهزيمة فى الشرق الاسلامى ولعبت دورا لا يستهان به فى انتصار دول الوفاق على الامبراطورية العثمانيـــــة . ولكن الامبرياليين البريطانيين ، كما سنبين ادناه ، لم يعتزموا الوفاء بالتزاماتهم حيال العرب . فقد قاموا فى آن واحد بمساومة مخزية مع الامبرياليين الفرنسيين بشأن استعباد وتقسيم الشرق العربى ، ومع الصهاينة حول تسليمهم فلسطين فعلا والقدس المقدسة لدى المسلمين .

ففى ١٥ ايار (مايو) ١٩١٦ وقع ممثل بريطانيا سايكس وممثل فرنسا بيكو اتفاقية سرية تنص على استيلاء فرنسا على سوريـــا الغربية ولبنان وقيليقيا ، وبريطانيا على العراق الجنوبى والاوسط ومناطق فلسطين المتاخمة لمينائى حيفا وعكا . وكان من المتفق عليه ان يخضع القسم الباقى من فلسطين لادارة انجلو-فرنسيـــة مشتركة . واعلن القسم الشرقى من سوريا والقســـم الشمالى من العراق منطقة نفوذ فرنسية . ووقع ما وراء الاردن والقسم الشمالى من ولاية بغداد فى منطقـــــة نفوذ بريطانيا (٦) . وهكذا اعد المستعمرون البريطانيون تجزئـــة الشرق العربى الى مستعمرات واشباه مستعمرات ، مخالفين بغدر ومكر تعهدهم امام الملأ لشريف مكة بانشاء دولة عربية اسلامية مستقلة واحدة موحدة .

ان اتفاقيتى سنة ١٩١٦ مع القادة العرب ومع فرنسا عرضت للخطر تحقيق خطط المستعمرين البريطانيين الذين حلموا بمستعمرة جديدة سماها كرزون «الهند العربية» . ولجعل تنفيذ الاتفاقيتين مع العرب والفرنسيين التى تناقض بعضهما بعضا امرا مستحيلا ، قرروا فى لندن الاستفادة من خدمات الصهاينة . وفى سنة ١٩١٦ اعدت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة سرية لاجل الحكومة الحربية نصت على ضرورة عقد اتفاقية مع الصهاينة بأسرع وقت . كما اشير فيها الى انه من المرغوب فيه تقديم العون الى الصهاينة باسرع وقت لاجل توسيع الهجرة اليهودية الى فلسطين اقصى التوسيع . وقد جاء فى هذه الوثيقة : «حين يصلب عود مستوطنيهم فى فلسطين الى حد ان ينافسوا السكان العرب ، فانهم سيتمكنون من ان يأخذوا فى ايديهم ادارة الشؤون الداخلية فى هذه المنطقة» (٧) .

وهكذا اذن ، عندما كان عشرات الالاف من العرب الذين صدقوا وعود الانجليز يهبون استجابة لنداء شريف مكة الى الجهاد لاجل تأسيس دولة عربية واحدة موحدة فى آسيا تشمل بالطبع فلسطين ، كانت وزارة الخارجية البريطانية تتفق مع الصهاينة حول تأسيس «وطن قومى يهودى» فى فلسطين وتبحث خطة تسليم السلطة فى هذا البلد الى «الاغلبية» اليهودية . والواقع ان عدد السكان العرب فى فلسطين فى سنة ١٩١٦ كان يربو على عدد السكان اليهود . . . الى ١٢ مرة ! وهكذا بحثوا فى لندن فعلا منذ نحو ٧٠ سنة ، مشاريع لا ترمى الى تأسيس اسرائيل المقبلة وحسب ، بل ترمى ايضا الى اقامة الرقابة الصهيونية على الضفة الغربية من نهر الاردن التى هى جزء لا يتجزأ من فلسطين العربية .

فى ١٩١٦ و١٩١٧ احتدم الصراع الحاد فى الاوساط الحاكمة البريطانية حول الصفقة المرتآة مع الصهاينة . فان بعض اعضاء الحكومة النافذين وبعض كبار الموظفين فى وزارة شؤون الهند والمستعمرات قد تخوفوا من ان يعتبر زعماء الشرق الاسلامى انتهاك التعهدات المقطوعة لشريف مكة والتواطؤ مع الصهاينة خيانة

ومن ان ذلك يقوض نفوذ بريطانيا فى آسيا وافريقيا الشمالية اكثر مما يقوضه تنفيذ معاهدتي سايكس – بيكو وماك ماهون – حسين .

ومع ذلك ، استطاع انصار الصفقة المنافقة مع الصهاينة ان يحرزوا الغلبة لان المنظمات الاميركية النافذة دخلت الحلبة . وقد كانت للحكومة البريطانية مصلحة خارقة فى اشتراك الولايات المتحدة اشتراكا فعالا فى العمليات الحربية ضد المانيا . ونحو ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ ، تسنى لزعيم الصهاينة الاميركيين ، عضو المحكمة العليا فى الولايات المتحدة ، براندیس ، الصديق الشخصى للرئيس الاميركى ، ان يؤمن دعم الرئيس ويلسون للخطط الصهيونية ، الامر الذى احيطت الحكومة البريطانية علما به على الفور ، وفى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٧ وجه وزير الخارجية البريطانية بلفور رسالة الى زعيم الصهاينة البريطانيين روتشيلد جاء فيها ان الحكومة البريطانية ستبذل قصارى الجهد لاجل انشاء «وطن قومى للشعب اليهودى» فى فلسطين (٨) .

وكان ذلك وعد بلفور (او بيان بلفور) السيىء الشهرة . وهكذا لم يؤمن المستعمرون البريطانيون دعم خطط الصهاينة باشراك الولايات المتحدة بصورة فعالة فى الحرب العالمية وحسب ، بل جعلوا كذلك من المستحيل تحقيق الاتفاق مع شريف مكة . ذلك انهم دقوا «الاسفين اليهودى» فى قلب الاراضى العربية ، وفصلوا مصر عن سوريا ، ولبنان عن الحجاز وما وراء الاردن بمساعدة «الوطن القومى اليهودى» فى فلسطين . وهكذا تم نسف التعهد بانشاء دولة عربية مستقلة واحدة موحدة . وفى الوقت ذاته ، خلقت لندن بواسطة وعد بلفور المقدمات لاجل احباط اتفاقية سايكس – بيكو وبالتالى وفرت الظروف لاجل التفرد بالرقابة على اغلبية بلدان وشعوب الشرق الاسلامى .

واستغلالا للنجاح بدأ الصهاينة فى ١٩١٨ و١٩١٩ يطالبون بتفسير تعبير «الوطن القومى اليهودى» تفسيرا اوسع ، ويدعون بما وراء الاردن (الاردن مستقبلا) ولبنان . وبتأثيرهم اعلن الرئيس الاميركى ويلسون فى آب (اغسطس) ١٩١٨ : «انا على اقتناع بان الامم المتحالفة سترسى فى فلسطين ، بدعم تام من حكومتنا وشعبنا ، اساس الدولة اليهودية» (٩) . وهكذا «حسّن» ويلسون

و«رقّي» وعد بلفور : كان وعد بلفور لا يحكي الا عن انشـــاء «وطن يهودي» ، اما الرئيس الاميركي ، فقد تنبأ بانشاء «دولة يهودية» في هذه المنطقة القديمة للحضارة الاسلامية حيث تقــع القدس العزيزة على قلب كل مسلم . واستغلالا لبيان ويلسون ، تمكن رسل الصهاينة من حمل رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ على ان يطرح في جلسة الحكومة البريطانية مسألة توسيع الحدود الشمالية لفلسطين «حتى نهــــر الليطاني ومدينة بانياس ضمنا» (١٠) ، الامر الذي كان يعني ضم لبنان الجنوبي كله ومنطقة الجولان الى فلسطين . وفي سنة ١٩١٩ افلح وفد من المنظمة الصهيونية العالمية ، برئاسة رئيس اسرائيل المقبل وايزمان ، في حمل مؤتمر الصلح في باريس على بحث مذكرة جاء فيها انه يجب ضم لبنان الجنوبي وصولا الى نهر الليطاني الى «الوطن اليهودي» المقبل في فلسطين لاجل تأمين حيويته وتزويده بالمياه . وفي شباط (فبراير) ١٩٢٠ ، ارسل برانديس الى لويد جورج برقية طالب فيها بضم حوض نهر الليطاني وكل سلسلـــة حرمون وما وراء الاردن ، اي لبنان الجنوبي ومنطقة الجولان وجزء من سوريا الجنوبية والاردن الى فلسطين (١١) .

وهكذا يتبدى ميل واحد في مفاوضات هرتسل مع هوهنلويه في سنة ١٨٩٨ ، ومع عبد الحميد في سنة ١٩٠١ ، ومع تشمبرلن حول استعمار شبه جزيرة سيناء في سنة ١٩٠٢ ، ووعد بلفور سنة ١٩١٧ ، ومطالبة الصهاينة وحلفائهم في سنة ١٩١٨ وسنة ١٩١٩ وهو الميل الى ضم نصف لبنان وسوريا الجنوبيـــة وكل الاردن الى «الوطن القومي اليهودي» . وبعد تأسيس دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٨ ، تبدى هذا الميل القرصاني ، العدواني في اربع حروب عربية اسرائيلية ، وفي احتلال منطقة الجولان والضفـــة الغربية من نهر الاردن وقطاع غزة في سنة ١٩٦٧ ، وفي اقتحام لبنان في سنة ١٩٧٨ ، وفي الحرب ضد لبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية في سنتي ١٩٨٢ و١٩٨٣ ، وفي خطط تقسيم لبنان التي تحاك في تل ابيب وواشنطن .

في نيسان (ابريل) ١٩١٨ ، عندما هزمت القوات المسلحـــة البريطانية الوحدات التركية واحتلت فلسطين ، شرع زعماء المنظمة

الصهيونية العالمية على الفور فى تحقيق خططهم التى تتجاوز بعيدا جدا وعد بلفور . وقد انشئت فى فلسطين اللجنة الصهيونية برئاسة وايزمن . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ عقدت هذه اللجنة فى يافا مؤتمرا صاغ «المهمات الاساسية للحكومة الموقتة فى فلسطين» ، كما طالب بتغيير اسم فلسطين وتسميتها «ايرتس اسرايل» («بلاد اسرائيل» ، «ارض اسرائيل») ، وبالاستعاضة عن العلم البريطانى بالعلم اليهودى ، وما الى ذلك (١٢) .

وبما ان اللجنة الصهيونية اخذت تتدخل بفظاظة وبلا تكلف فى نشاط الادارة العسكرية البريطانية فى فلسطين ، فقد اتخذت هذه الادارة التدابير لاجل الحد من نشاط اللجنة الصهيونية . وردا على ذلك ، حمل الصهاينة الحكومة البريطانية على اتخاذ قرار باقامة الادارة المدنية فى فلسطين . وفى تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، عيّن العضو القديم فى الحكومة البريطانية صموئيل مفوضا ساميا فى القدس . وقد قال وايزمن ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، فى وصف صموئيل : «انا اتحمل المسؤولية الاساسية عن تعيين هربرت صموئيل فى فلسطين . انه صديقنا . بناء على طلبنا وافق على شغل هذا المنصب الصعب . لقد نصبناه فى هذا المنصب . انه صموئيلنا» (١٣) .

وفى اوائل العشرينيات اتجه الصهاينة نحو انشاء «دولتهم» فى الشرق الاسلامى ، باستغلال الادارة المدنية الانجليزية ، واجتذاب الرأسمال اليهودى من بريطانيا والولايات المتحدة على نطاق واسع لاجل بسط الرقابة على اقتصاد فلسطين ، وبخاصة فى ميدان الرى وميدان التزويد بالطاقة ، وانشاء نقاط ارتكاز بصورة الكيبوتسات فى مختلف مناطق فلسطين ، واقصاء سكان البلد العرب الاصليين بالنقود والاستفزازات والخداع والارهاب . وهذا ما استثار سخطا هائلا ومعارضة متعاظمة سواء فى صفوف الشعب العربى الفلسطينى ام فى صفوف شعوب سائر البلدان الاسلامية .

ولمقاومة نمو الحركة المعادية للامبريالية ، عقد وزير المستعمرات البريطانى الجديد ونستون تشرشل فى آذار (مارس) ١٩٢١ فى القاهرة مؤتمرا لكبار الاختصاصيين البريطانيين فى

شؤون الشرق الاسلامى من الاداريين العسكريين ، والجواسيس ، والديبلوماسيين ، وعلماء الشؤون الاسلامية . وقد رسم المؤتمر ستراتيجية جديدة للامبريالية البريطانية تأخذ بالحسبان امكانية الاستفادة من الصهاينة لاجل قمع حركة العرب التحررية . ولهذا الهدف ، عين عبدالله ، الابـــن الاصغر لشريف مكة السابق الذى اصبح فى هذه الاثناء ملك الحجاز حسين الهاشمى ، حاكما للدولة المؤسسة حديثا — امارة ما وراء الاردن ، التى صارت محميـــة بريطانية . اما فيصل ، ابن حسين الهاشمى البكر ، فقد تم تنصيبه على عرش المملكة العراقية التى صارت هى ايضا منطقة خاضعـــة لانتداب بريطانيا العظمى .

اما فلسطين ، فان المؤتمر قد صادق فعلا على تحويلها تدريجيا الى ارض ممنوحة للصهاينة . وبعد انتهاء المؤتمر ، زار تشرشل القدس فى اواخر آذار (مارس) ١٩٢١ ، فرفض قطعـــا مطلب الزعماء العرب بمنح عرب فلسطين الحق فى انتخاب حكومة وطنية . وقد قال تشرشل بوقاحة : «اما فيما يخص الحكومـــة التمثيلية ، الادارة الذاتية التامة ، فمن المشكوك فيه ان يعيش احفادنا حتى ظهورها» (١٣-أ) . ولكم يشبه هذا الرأى المتعـــالى الصفيـق تصريحات كارتر وريغان وبيغن وشامير حول آفاق انشاء دولـــة عربية مستقلة فى فلسطين !

ان محاولات صهينة فلسطين مع اماكنها الاسلامية والمسيحية المقدسة ، قد استثارت موجة من الغضب والسخط تجاوزت بعيدا حدود الشرق الادنى . ففى سنة ١٩٣٠ انعقد فى بومباى مؤتمـــر المسلمين لعموم الهند واتخذ قرارا يعلن ان فلسطين واماكنهـــا المقدسة تخضع لوصاية العالم الاسلامى كله . وطالب المؤتمر بالغاء وعد بلفور ، ووقف الانتداب البريطانى على فلسطين ومنح شعبها على الفور الادارة الذاتية الحقيقية . واعلن يوم الجمعة فى ١٦ ايار (مايو) ١٩٣٠ «يوم فلسطين» ، وكان المقصود ان يحتفل به على نطاق واسع جميع المسلمين فى الهند وبورما وسيلان . كذلك شاطر الرأى العام التقدمي الهندى استياء الهنود المسلمين ، الامر الذى تدل عليه القرارات العديدة التى اتخذها المؤتمر الوطنى الهندي (١٤) .

وفى فلسطين نفسها ، ظلت تتعاظم الحركة المعادية للصهيونية والمعادية للامبريالية ، وذلك تحت قيادة المؤتمر الفلسطينى العربى الذى سبق ان تأسس فى سنة ١٩٢٠ ، ثم تحت قيادة اللجنة العربية العليا منذ سنة ١٩٣٦ . وفى سنوات ١٩٢٩ و١٩٣٣ و١٩٣٦ نشبت فى فلسطين انتفاضات جبارة ضد الصهاينة وضد المستعمرين البريطانيين حظيت بالدعم المعنوى من جانب الرأى العام فى بلدان العالم الاسلامى . وفى هذه الاحوال اضطر المستعمرون البريطانيون الى كبح الهجرة اليهودية الى فلسطين ، والحد بعض الشىء من تعسف الصهاينة فى فلسطين .

واتخذ زعماء المنظمة الصهيونية العالمية من جهتهم تدابير معاكسة فى بضعة اتجاهات . اولا ، بدأوا يستثيرون بين العرب واليهود بدأب وانتظام نزاعات تتفاقم وتتحول الى مصادمات مسلحة . وهذا ما انصرف اليه بنشاط بالغ العلوج من المنظمة الصهيونية الجديدة التى تأسست فى سنة ١٩٢٩ برئاسة الصهيونى الفاشى النزعة جابوتينسكى ، معلم ومعبود بيغن . ان المذابح التى قام بها اشقياء وعلوج جابوتينسكى قد وفرت للمستعمرين البريطانيين ذريعة متاسبة لاجل توجيه ضربة الى حركات المسلمين المعادية للامبريالية ، لا فى فلسطين فقط ، بل ايضا فى سائر بلدان الشرقين الادنى والاوسط .

ثانيا ، بدأ زعماء المنظمة الصهيونية العالمية وسائر المنظمات الصهيونية ينظمون شتى المظاهرات والاحتجاجات فى بريطانيا ولاسيما فى الولايات المتحدة الاميركية لاجل اجبار الحكومة البريطانية على الغاء حتى التدابير الضيقة التى تحد من تحكم الصهاينة فى فلسطين .

٣ ــ تحالف الصهاينة
مع الفاشيين الايطاليين والالمان

وفى الوقت نفسه بدأ الصهاينة توسيع الاتصالات مع الدولتين الفاشيتين أملا فى الحصول منهما على الاسلحة ، والتوصل الى ارسال القسم القادر على العمل من السكان اليهود فى هذين البلدين الى فلسطين لاجل النضال ضد العرب . وعدا ذلك اراد الصهاينة

استغلال العلاقات مع دولتي «المحور» لاجبار الولايات المتحدة الاميركية وبخاصة بريطانيا العظمى على الغاء القيود المفروضة على الهجرة اليهودية وتحكم الصهاينة فى فلسطين . ولتطبيق هذه الخطة ، استغلوا العلاقات القديمة بين جابوتينسكى والفاشيين الايطاليين . وفى الثلاثينيات تقابل قائدا المنظمة الصهيونية العالمية وايزمان وغولدمان غير مرة مع موسولينى ؛ وقد كان موسولينى ، على حد قول رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، «خارق اللطف» ، وامر بتوسيع العلاقات الاقتصادية مع الشركات الصهيونية في فلسطين وسمح بفتح مدرسة بحرية حربية صهيونية بصورة سرية وغير شرعية في مدينة تشيفيتا – فيكيا الايطالية ، وقد دامت هذه المدرسة حتى سنة ١٩٣٨ ضمنا (١٥) . وفيها بالذات جرى تعليم الامرين المقبلين للمدمرات وزوارق الطوربيد الاسرائيلية التى قامت بغارات وحشية على المرافئ والقرى الساحلية فى عدد من البلدان العربية والتى شنت حملات قرصنية على ناقلات البترول العربية فى البحر الاحمر .

وقد كان تعاون الصهاينة مع الفاشيين الالمان اشد خزيا . وفى الفصل السابع سبق ان تحدثنا عن اسباب اهتمام القيادة الفاشية الالمانية بهذا التعاون . اما اهتمام الصهاينة ، فقد نبع عن واقع ان الاغلبية الساحقة من اليهود القاطنين فى المانيا ، وعددهم ٥٠٣ آلاف ، كانت تعادى الصهيونية نحو عام ١٩٣٣ . وكان الاتحاد الصهيونى الالمانى لا يضم اكثر من ٢٠ الفا . وكان اليهود باغلبيتهم ينتسبون الى الاتحاد المركزى للمواطنين الالمان ذوى العقيدة الدينية اليهودية الذى تأسس فى سنة ١٨٩٣ والذى كان برنامجه يؤكد ان اليهود الالمان هم مواطنون المان مع كل ما ينجم عن ذلك من عواقب .

وهذا ما استثار كبير استياء الصهاينة ، فشرعوا منذ اوائل الثلاثينيات يقيمون اتصالات مع الهتلريين . فقد كانت تطيب وتصلح لهم آراء النظريين الفاشيين فى قضية «التفوق العرقى» و«الاستثنائية العرقية» . وليس من قبيل الصدفة اطلاقا كتب كبير ايديولوجيى النازية الفرد روزنبرغ فى كتابه «آثار اليهود فى العهود المتعاقبة» : «يجب دعم الصهيونية بحزم وعزم لكي يتحقق

سنويا ترحيل عدد معين من اليهود الالمـــان الى فلسطين . . .»
(١٦) وهذا الموقف استتبع كبير الارتياح فى صفوف زعماء الاتحاد الصهيونى الالمانى الذين كانوا يعارضون بكل ضراوة تمثل اليهود الالمان فى الامة الالمانيـــــة وكانوا يسعون وراء ترحيلهم الى فلسطين . ويؤكد الاختصاصى الانجليزى المعروف فى تاريـــــخ الصهيونية وفلسطين ، سايكس : «كـــان الزعماء الصهاينة قد وطدوا العزم على نيل المنافع السياسية من تلك المأساة الرهيبــة التى حملتها الفاشية الى اليهود» (١٧) .

فى حزيران (يونيو) ١٩٣٣ ، نشر الاتحـاد الصهيونى الالمانى بيانا يحبذ وصول الفاشيين الى الحكم . وقـــد ادلى خاخام برلين برينس الصهيونى القوى الاقتناع ، بتصريح وقح جاء فيــه : «ان يوم الثلاثين من كانون الثانى (ينايــــر) ١٩٣٣ هو بداية عودة اليهود الى اليهودية . وعوضا عن التمثل سنبدأ نفكر فى الاعتراف بالامة اليهودية والعرق اليهودى» (١٨) .

وكل هذا يوضح لماذا جرى فى صيـــف ١٩٣٣ سحق الاتحاد المركزى للمواطنين الالمان ذوى العقيـــــدة الدينية اليهودية ، المعروف بعدائه للصهيونية ، على ايدى فصائل الهجوم الهتلريـــة ولماذا كلف الاتحاد الامبراطورى لليهــــود الالمان ، الخاضع للصهاينة ، بقيادة الطوائف اليهودية فى المانيا منذ خريـــــف ١٩٣٣ . واعلن النضال ضـــد الصهيونية جريمة فى المانيـــا الهتلرية . وصارت جريدة «يوديشه روندشاو» التى كانت ادارة غوبلز تشجع بجميـــــع الوسائل نشرها لســـان حال «الاتحاد الامبراطورى لليهود الالمان» . اما كيف استغل الصهاينة الاحتكار الذى حصلوا عليه للقيام بالنشاط الدعائى بين السكان اليهود ، فيدل عليه الواقع المخزى التالى . فى اول نيسان (ابريل) ١٩٣٣ وقعت فى كثير من مناطق المانيا مذابح يهودية اثارت سخطا هائلا فى اوساط الرأى العام العالمى . ولكن «يوديشـــــه روندشاو» كتبت عنها ما يلى : «ان الاول مـــن نيسان ١٩٣٣ سيصبح يوم اليقظة اليهودية والنهضة اليهودية !» (١٩) . هكذا رحب الصهاينة بتحقيق مبدئهم القائل «اللاسامية تخلق الصهيونية» ، وذلـــــك بمساعدة الفاشيين .

وفى ٢٦ آذار (مارس) ١٩٣٣ جرى لقاء سرى بيـــــن قادة الاتحاد الصهيونى الالمانى ورئيس وزراء بروسيا آنذاك غرمـــن غورينغ اسفر عن عقد اتفاقية «هآفارا» الصهيونية الفاشية السرية . وفضلا عن ذلك ، اشترت شركة الملاحة الفلسطينية الصهيونية فى المانيا الفاشية باخرة الركاب الكبيـــرة «هوهنشتاين» وغيرت اسمها وسمتها بمهابة واحتفال «تل ابيب» . وفى اوائل سنة ١٩٣٥ قامت هذه السفينة ، وعلى متنها مهاجرون يهود ، برحلتهـا الاولى من بريمرهافن الى حيفا . وعليها كانت تظهر ، كما ينبغى ، نجمة داود مع كتابة «تل ابيب» بالعبرية ، بينما كان يخفق على الصارى علم كبير بالصليب المعقوف . وكان العضـــو القديم فى الحزب النازى ليديغ ربان «تل ابيب» (٢٠) .

هكذا كانت العلاقة المعقدة بين السياسة الاستعمارية التـــى انتهجتها الامبريالية البريطانية والامبريالية الالمانيـــة فى بلدان الشرق الاسلامى وبين النشاط الحازم الذى قامت به اللوبـــى الصهيونية فى بريطانيا والولايات المتحدة . كذلك كانـت متعددة الجوانب العلاقة بين الصهاينة والزعماء الفاشيين والدوائر المختصة وبين تأسيس وتجهيز وتسليح فصائل الهاغانا ثم جيش اسرائيـل التى شنت وتشن الحروب منذ عشرات السنين على الشعوب العربية والتى قامت وتقوم بشتى عمليات التدخل المسلح والتخريب الدامية لاجل انشاء «اسرائيل الكبرى» . وفى مختلـــف المراحل من تطور حركة التحرر الوطنى ، حركـــة شعوب الشرق الاسلامى ضـــد الامبريالية ، كانت الخطط الصهيونيـــة تتجاوب مع مصالح الحكام الحقيقيين فى المانيا وايطاليا وبريطانيـــــا والولايات المتحدة الاميركية لان القصد منها كان الحؤول دون اتحاد شعـــوب الشرق الاسلامى ضد المستعمرين وضد المستعمريـــن الجدد . وعلى هذا التطابق بين المصالح يرتكز ، بقدر كبير ، تحالـــف الامبرياليين والصهاينة .

٤ ــ اسرائيل فى خدمة الامبرياليين
بعد الحرب العالمية الثانية

وعلى خصائص هذا التحالف يشهد تاريخ السنوات الاربعين التى تصرمت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وبما ان السياسة العدوانية التى انتهجها ولا يزال ينتهجها حكام اسرائيل الصهاينة قد اوضحتها بما يكفى من التفصيل المطبوعات العلمية والمبسطة العديدة التى صدرت فى بلدان الشرق وفى الاتحاد السوفييتى وحتى جزئيا فى اوروبا الغربية ، فان مهمة المؤلف تتلخص ، قبل كل شىء ، فى تبيان الترابط بين اهداف وطرائق سياسة حكام اسرائيل وبين السياسة الاستعمارية الجديدة التى ينتهجها فى الشرق الادنى قادة البلدان الغربية وفى المقام الاول بينهم الاوساط الحاكمة الاميركية . فهذا الترابط بالذات يحدد خصائص واهمية التحالف العسكرى والسياسى بين الامبريالية والصهيونية الذى يشكل خطرا فادحا للغاية على شعوب الشرق الاسلامى .

ابان الحرب العربية الاسرائيلية الاولى ١٩٤٨-١٩٤٩ دعم الامبرياليون الاميركيون اسرائيل ودعم الامبرياليون البريطانيون صنيعتهم امير ما وراء الاردن الاقطاعى عبدالله لانه لا عبدالله ولا المستعمرون البريطانيون كانوا يرغبون فى انشاء الدولة الفلسطينية العربية الذى نص عليه قرار هيئة الامم المتحدة فى سنة ١٩٤٧ . ولهذا قابلت لندن بالارتياح اتفاق عبدالله ورئيس وزراء اسرائيل الاول بن غوريون فى سنة ١٩٤٩ بشأن تقاسم اراضى فلسطين العربية بين اسرائيل وما وراء الاردن . ذلك ان هذا الاتفاق اسفر ، فيما اسفر ، عن تأزيم العلاقات بين امارة ما وراء الاردن (التى اصبحت دولة الاردن بعد احتلال الضفة الغربية من نهر الاردن) وبين سائر الدول العربية ، وسدد بالتالى ضربة الى التضامن العربى والاسلامى .

فى اواخر سنة ١٩٥٥ واوائل سنة ١٩٥٦ ، عندما رفض الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى كان يتمتع بمكانة بالغة فى عموم العالم الاسلامى ، ان يخضع لضغط الدول الامبريالية ، تقرر فى لندن وباريس توجيه ضربة قوية جدا الى مصر الثورية .

ردا على اجراءات الغرب التمييزية اعلـــن عبد الناصر تأميم قناة السويس ، فشرعت الاوساط الحاكمة آنذاك فـى فرنسا وبريطانيا تستعد بهمة ونشاط لشن حرب على مصر .

ولهذا الغرض عقدت في ايلول (سبتمبر) ١٩٥٦ اتفاقية سرية مع حكام اسرائيل الصهاينة بشأن اعداد العدوان الثلاثى على اكبر بلدان العالم العربى واوسعها نفوذا . وبما ان التوسعيين الصهاينة كانوا فى ذلك الوقت يحاولون تثبيت اقدامهم فى شبـــه جزيرة سيناء ، ويحيكون الخطط للاستيلاء على منطقة الجولان وقسم مـن ضفة الاردن الغربية ، فقد سعـــوا وراء القضاء على النظام التقدمى الذى اقامه جمال عبد الناصر والذى كان حصنا للوحدة العربيـــة والاسلامية فى المنطقـــة . وهكذا تطابقت من جديد مصالـــح المستعمرين الاوروبيين الغربيين والمعتدين الصهيونيين وخططهم وحساباتهم . وقد عهد الى المعتدين الصهيونيين بدور الرائد فـى الحرب الانجليزية الفرنسية الاسرائيلية ضد مصر ، التى بدأت فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبـــــر) ١٩٥٦ باقتحام القوات المسلحة الاسرائيلية شبه جزيرة سيناء ؛ وهذا الاقتحام تبعه فى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) نزول القوات الانجلو-فرنسية فى بور سعيد .

ان المقاومة الباسلة التى ابدتها القوات المسلحـة المصرية ، وحركة التضامن الجبارة التى شملـــت العالم الاسلامى من المغرب الى اندونيسيا ، والموقف الحازم الذى وقفـه الاتحاد السوفييتى ، كل هذا ادى الى اخفـــاق العدوان الثلاثى ، والى انسحاب القوات الانجلو-فرنسية اضطرارا من الاراضى المصرية ، والى استقالـــة رئيس حكومة المحافظين البريطانية ايـــدن ، والى انسحاب القوات الاسرائيلية من شبه جزيرة سيناء .

ابان العدوان اللاثى ، شغلت الاوساط الحاكمة الاميركيـــة موقفا متحفظا ، لاعتبارهـــــا ان الحرب ستقوض مواقع بريطانيا وفرنسا وتساعد الاحتكارات الاميركية ، بالتحالف مع الانظمـــة العربية المحافظة ، فى احتلال مواقع الهيمنـــة فى بلدان العالم الاسلامى . والى هذا بالذات كان يرمى «مذهب ايزنهاور» السيىء الشهرة الذى اعلن في واشنطن في كانون الثانى (يناير) ١٩٥٧ .

ولكن تطور الاحداث فى بلدان العالم الاسلامى لم يجر بموجب سيناريو واشنطن .

ففى سنتى ١٩٦١ و١٩٦٢ ، بدأت الثورة المعادية للامبريالية فى مصر تتحول ، بعد اقرار الميثاق القومى ، الى ثورة اجتماعية ؛ وفى سنة ١٩٦١ نالت الكويت الاستقلال ، وفى سنة ١٩٦٢ انتصرت الثورة اليمنية ؛ وفى ٣ تموز (يوليو) اضطرت فرنسا الى الاعتراف باستقلال الجزائر . ورفض العالم العربى الخضوع للتحكم الاستعمارى الانجلو-فرنسى و«لمذهب ايزنهاور» الاستعمارى الجديد .

وفى هذه الاحوال ، اخذت الاوساط الحاكمة الاميركية تعول بصورة سافرة على اسرائيل الصهيونية ، وحسبت ان تسدد ضربة ماحقة الى مصر وسوريا بمساعدة السلاح الجوى الاسرائيلى المزود آنذاك بالطائرات الفرنسية من طراز «ميراج» ، والدبابات الانجليزية التى دفع اثمانها الصهاينة الاوروبيون الغربيون والصهاينة الاميركيون فى المقام الاول ، وان تطيح بنظام عبد الناصر ، وتنشىء بالتالى فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط رأس جسر ثان للهجوم على الشرق الاسلامى وكان رأس الجسر الاول قد انشىء فى ايران نتيجة للانقلاب المضاد للثورة الذى دبرته وكالة المخابرات المركزية فى آب (اغسطس) ١٩٥٣ .

ان الصهاينة الذين ابدوا من جديد استعدادهم لتغيير حماتهم فى اى وقت كان ، اذا كان ذلك يؤمن بلوغ هدفهم الرئيسى وهو بناء «اسرائيل الكبرى» ، قد انخرطوا بنشاط فى اعداد عدوان جديد فى الشرق الاوسط . وهكذا ظهر التحالف العسكرى السياسي ، اى محور واشنطن - تل ابيب ، الذى يمثل خطرا فادحا على شعوب البلدان العربية وكل العالم الاسلامى .

ان الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة ، «الحرب الخاطفة» السيئة الصيت التى قامت بها العسكرية الصهيونية على طريقة «حماتها» السابقين الفاشيين ، ولكن بايعاز من حماتها الجدد ، الاميركيين ، قد انتهت بنجاح عسكرى ضخم احرزه الصهاينة . فباستغلال الطريقة المفضلة لدى الفاشيين والساموارئيين اليابانيين - طريقة الهجوم المفاجىء بدون اعلان الحرب -

والتجسس والرشوة وخيانة التكتلات الموالية للغرب ، والمعلومات الواسعة الواردة من وكالة المخابرات المركزية عن الوضع فـــى البلدان العربية ، استطاع الصهاينـــة ان يقهروا القوات المسلحة المصرية والسورية والاردنية ، ويحتلوا شبه جزيرة سيناء والضفة الغربية من نهر الاردن ، وقطاع غزة ، ومنطقة الجولان . امـــا المهمة الرئيسية التى طرحتها عليهم الاوساط الحاكمة الاميركية — وهى اسقاط نظام عبد الناصر والنظام التقدمى فى سوريـا — فان الصهاينة عجزوا عن تحقيقها .

استثار العدوان الاسرائيلى بالغ الاستياء والسخط فـى عموم العالم الاسلامى واضعف فى كثير من بلدانه نفوذ حاميـة المعتدى الكبرى — الولايات المتحدة الاميركية ، وعزلت صنائعها فى العالم الاسلامى . وفى الوقت ذاته ، اسهمت المساعدة السياسيـــــة والديبلوماسية والاقتصادية والعسكرية الشاملة التى قدمها الاتحاد السوفييتى وسائر البلدان الاشتراكيـــة ، لا فى صيانة النظامين التقدميين فى مصر وسوريا وحسب ، بل ايضا فى توطيدهما ، وفى بعث قدرتهما الدفاعية وفى تمتيـــن اواصر التضامن بين بلدان الاسرة الاشتراكية وشعوب العالم الاسلامى .

وما ان استولى المعتدون الاسرائيليون على اكثر من ٦٠ الـــف كيلومتر مربع من اراضى مصر وسوريا والاردن والشعب العربـــى الفلسطينى حتى شرعوا يستثمرون بلا شفقـــة ولا رحمة السكان والثروات الطبيعية فى هذه المناطق ، ولا سيما حقول البترول فى شبه جزيرة سيناء ، فارضين النظام العرقى الوحشى ، خانقين كل شكل من اشكال الاحتجاج ، وقامعين تطور التعليم والتنويـــــر والثقافة الاسلامية . وفى غضون سنوات عديـــدة ، انتهجوا هذه السياسة الاحتلالية رغم تعاظم مقاومة الجماهير الشعبية ، ومعارضة البلدان العربية وعموم العالم الاسلامى ، واستيـــــاء الرأى العام العالمى ، والقرارات العديدة التى اتخذها مجلس الامن واتخذتهـــا الجمعية العموميـــــة لهيئة الامم المتحدة . ومرد ذلـــك الى عناد الاوساط العليا الصهيونيـــة الحاكمة فى اسرائيل ووقاحتهـــا ولامبدئيتها ، والى ضغط اللوبى الصهيونية على الاوساط الحاكمة فى بلدان اوروبا الغربية وبخاصة فى الولايات المتحدة .

ان استيلاء الصهاينة على رأس جسر شاسع عند ملتقى آسيا وافريقيا ، عند مشارف قناة السويس والقسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وحوض البحر الاحمر كان مفيدا للمركب الصناعى العسكرى والبنتاغون وعموم الاوساط العليا الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية . وقد ادركوا فى واشنطن ان هذا من شأنه ان يعقد الوضع السياسى الداخلى فى البلدان العربية ويؤزم العلاقات بين البلدان التى استولى الصهاينة على رقع من اراضيها وبين البلدان التى كانت خارج منال المعتدى . وكانت الاوساط الحاكمة الاميركية تعتقد انه لا بدّ لهذا ان يسدد ضربة الى الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ويسهم فى قيام فاصل بين القوى التقدمية والقوى المحافظة فى العالم الاسلامى ويخلق ظروفا ملائمة لاجل توطيد مواقع الولايات المتحدة لدرجة كبيرة فى هذا العالم ، ولاجل املاء «الفراغ» الذى نشأ بعد رحيل المستعمرين البريطانيين الاضطرارى فى اوائل السبعينيات من العربية الجنوبية ومنطقة الخليج العربى .

ولكن ليس هذا وحده هو الذى قرر دعم الولايات المتحدة للمعتدين الصهاينة . ففى اواخر الستينيات واوائل السبعينيات ، مارست اسرائيل بديبلوماسيتها وقواتها المسلحة ومصالحها المختصة تقديم «خدمات» خفية للمستعمرين الجدد الاميركيين تسكت عنها حتى الآن ، مسهمة فى نسف استقرار عدد من الانظمة التقدمية فى بلدان آسيا وافريقيا ، مستثيرة النزاعات بين بلدان افريقيا الاستوائية وافريقيا الشمالية ، مساعدة فى تأزيم التوتر فى افريقيا الشمالية الشرقية ومنطقة الخليج العربى . فبنتيجة اتفاقية سرية معقودة بين الصهاينة ونظام هايله سيلاسى الرجعى ، اشرف المدربون الاسرائيليون على اعداد قسم كبير من الطيارين العسكريين فى اثيوبيا وراقبوا جملة من مطارات البلد الحربية . وهذا ما ازم العلاقات بين اثيوبيا وجارتيها المسلمتين ، مصر والسودان ، وساعد الديبلوماسية الاميركية فى القيام بمناورات معقدة ترمى الى تعزيز نفوذها فى هذه المنطقة .

فى اواخر الستينيات امر هايله سيلاسى بنقل زهاء ١٠ آلاف يهودى اثيوبى الى ارخبيل دهلاق (جزر فاطمة) الخارق الاهمية على

الصعيد الستراتيجي ، الواقع فى القسم الجنوبى من البحر الاحمر ، عند مشارف مضيق باب المندب ، الامر الذى اوجد بالفعل نقاط ارتكاز لاجل المصالح المختصة فى اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية . وقد استغل الصهاينة هذه الجزر كقاعدة سرية لاجل السفن الخفيفة لقواتهم البحرية الحربية وكرأس جسر لاجل ارسال الاسلحة الى جمهورية اليمن العربية حيث استخدموها ، بمشاركة العملاء الاسرائيليين من عداد اليهود اليمنيين الذين بقوا فى البلد ، لاجل تسعير نيران الحرب الاهلية فى اليمن ؛ فقد وصلت هذه الاسلحة الى شيوخ القبائل المترحلة الذين كانوا يحاربون حكومة صنعاء الشرعية .

فى غضون سنوات عديدة ، قامت علاقات وثيقة ، منظمة بمساعدة وكالة المخابرات المركزية ، بين «سافاك» ومصالح التجسس والمخابرات الاسرائيلية ولا سيما منها «موساد» . وفى المناطق الصحراوية من ايران الجنوبية الشرقية ، انشئت معسكرات خاصة كان يجرى فيها تدريب عدد كبير من عملاء «موساد» المجندين من صفوف اليهود المهاجرين من البلدان العربية وذلك قبل ارسالهم بمهمات تخريبية الى البلدان الاسلامية . وفى اوائل السبعينيات ، نظمت المصالح المختصة الاسرائيلية ، باذن من الشاه ، توريد الاسلحة بانتظام ، عبر كردستان الايرانية ، الى كردستان العراقية ، بغية استثارة النزاعات بين الاكراد وحكومة الجمهورية العراقية ، الامر الذى عقد الوضع السياسى الداخلى فى العراق ، وصعب على العراق تقديم المساعدة للبلدان العربية المجاورة فى صد العدوان الاسرائيلى . وكل هذا كان يتطابق آنذاك مع مصالح الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة ايضا .

كذلك قام الصهاينة بنشاط بالغ فى زايير حيث اشرفوا فى غضون عدد من السنين على تدريب فصائل المظليين التى ارسلت مرتين – فى سنة ١٩٨٢ وسنة ١٩٨٣ بايعاز واشنطن وبتحبيذ فرنسا – الى التشاد حيث اشتركت فى الحرب الاهلية ضد حكومة هوكونى ودى التى يؤيدها المسلمون من سكان التشاد تأييدا فعالا . ان الحرب الاهلية التى اسهم الصهاينة ببالغ النشاط فى

اشعال نيرانها – علما بانهم استأنفوا علاقاتهم الديبلوماسية مع زايير فى سنة ۱۹۸۳ – قد ازمت الوضع فى افريقيا الوسطى وافريقيا الشمالية الشرقية ، وعقدت العلاقات بين ليبيا من جهة والسودان ومصر من جهة اخرى ، وصرفت انتباه جملة من البلدان الاسلامية عن العدوان الاسرائيلى فى لبنان ، وساعدت فى توطيد مواقع الولايات المتحدة الاميركية السياسية منها والعسكرية ، فى مصر والسودان .

ان تحكم الصهاينة الفظ والمتحدى فى الاراضى التى احتلوها سنة ١٩٦٧ ، ورفضهم تنفيذ قرارات هيئة الامم المتحدة ، واعمالهم العدوانية ضد البلدان العربية المجاورة – كل هذا ادى فى سنة ۱۹۷۳ الى نشوب الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة . وما لبثت الولايات المتحدة الاميركية ان استغلت الوضع المعقد الناشىء على الجبهة المصرية الاسرائيلية فى النصف الثانى من تشرين الاول (اكتوبر) ۱۹۷۳ لاجل التدخل السياسى المباشر . وكان الهدف من هذا التدخل فرض نفسها بدور الوسيط على الاطراف المتحاربة ، واستئناف العلاقات الديبلوماسية مع عدد من البلدان العربية وبخاصة مع مصر ، هذه العلاقات التى كانت قد قطعت بسبب دعم الولايات المتحدة للمعتدين الاسرائيليين دعما لا حدّ له .

وبدفع مصر واسرائيل الى توقيع المعاهدة الانفصالية فى سنة ۱۹۷۹ حسبت الولايات المتحدة ان تجتذب الى هذه المعاهدة فيما بعد العربية السعودية والاردن ، وتعزل لبنان وبخاصة سوريا ، وتوفر ، بالاعتماد على مواقعها العسكرية والسياسية فى ايران والباكستان ، الظروف اللازمة لاجل ممارسة التأثير الحاسم فى سياسة البلدان الاسلامية واقتصادها .

الا ان الثورة الافغانية فى سنة ۱۹۷۸ والثورة الايرانية فى سنة ۱۹۷۹ انزلتا ضربتين قويتين جدا بمواقع الولايات المتحدة الاميركية فى آسيا ، وحرمتاها رأس الجسر الحربى الشاسع الذى كانته ايران الشاه ، ومارستا تأثيرا مثورا فى عموم العالم الاسلامى وساعدتا فى اكراه الانظمة العربية المحافظة على الامتناع عن تأييد تواطؤ كمب ديفيد . وهذا ما تجلى بسطوع فى تشرين

الثانى (نوفمبر) ١٩٧٩ ، اثناء النضالات المعادية للحكومة فى العربية السعودية . فان المنتفضين قد استولوا على مقدس من اهم مقدسات الاسلام — جامع الحرم فى مكة المكرمة ؛ ولم تستطع القوات الحكومية ان تسترد هذا الجامع الا فى اوائل كانون الاول (ديسمبر) بمساعدة فصائل مختصة لمكافحة الانصار ارسلت من فرنسا . وتجاوبا مع احداث مكة المكرمة تدفقت فى تشرين الثانى ١٩٧٩ موجة من الاضطرابات المعادية لاميركا فى الباكستان وبنغلادش واندونيسيا .

لم تحظ سياسة الولايات المتحدة الاميركية فيما يتعلق تواطؤ كمب ديفيد حتى بتأييد الانظمة المحافظة فى بلدان الشرق ، بينما استثارت سياسة اسرائيل الصهيونية التنديد الحاد ، لا من قبل اوساط الرأى العام العالمى وحسب ، بل ايضا من قبل الاوساط الحكومية فى كثير من البلدان المتحالفة مع الولايات المتحدة الاميركية فى الناتو (حلف الاطلسى الشمالى) . وفى هذه الاحوال اخذوا يرسمون فى واشنطن بكل همة ونشاط الخطط لتغيير الوضع فى الشرق الادنى باتجاه ملائم للاوساط الحاكمة الاميركية .

ولهذا فان الدافع الى غزو لبنان من قبل المعتدين الاسرائيليين فى حزيران (يونيو) ١٩٨٢ لم يكن البتة مجرد السعى الى تسديد ضربة الى منظمة التحرير الفلسطينية والاستيلاء على لبنان الجنوبى ، الامر الذى كان يحلم به الصهاينة منذ اواخر القرن التاسع عشر . ففى الواقع ، كان المقصود من التدخل المسلح الصهيونى فى لبنان ان يساعد الاوساط الحاكمة الاميركية فى التوصل فى الثمانينيات الى الاهداف التى لم تستطع بلوغها فى السبعينيات . وكان المقصود ، بموجب حسابات الستراتيجيين الاميركيين ، ان يسفر تدخل الفرق الاسرائيلية المسلحة باحدث المعدات الاميركية التى دفع المكلفون الاميركيون اثمانها ، عن انشقاق ، لا فى حركة المقاومة الفلسطينية وحسب ، بل ايضا فى جامعة الدول العربية وفى منظمة المؤتمر الاسلامى التى تضم ٤٢ دولة .

وليس من قبيل الصدفة تقدم الرئيس ريغان بعد بداية العدوان الاسرائيلى بوقت قصير ، — اى فى اول ايلول (سبتمبر)

١٩٨٢ «بخطة للتسوية السلمية فى الشرق الاوسط» كانت بمثابة حصان طروادة بالنسبة لجامعة الدول العربية .

وقد حسبوا فى واشنطن وتل ابيب ان الخطة ستحظى فى آخر المطاف بتأييد العربية السعودية والاردن وتؤدى الى عزل سوريا وليبيا وعلقوا اهمية خاصة على توسيع العلاقات السرية والعلنية التى قامت بين الصهاينة والتكتلات السياسية والعسكرية المسيحية اليمينية فى لبنان ابان الحرب الاهلية فى لبنان التى نشبت فى سنة ١٩٧٥ . وكان من شأن ذلك ان يوطد مواقع المعتدين الاسرائيليين فى لبنان ويسهم فى تأزيم التناقضات المسيحية الاسلامية ، الامر الذى سيمكن الدولة المنتدبة سابقا — فرنسا — من ان تتدخل فى شؤون لبنان الداخلية .

وهكذا ، بمساعدة اسرائيل الصهيونية ، أمل الامبرياليون الاميركيون فى ان يضعفوا كثيرا القوى التقدمية فى الشرقين الادنى والاوسط ، ويعزلوا البلدان العربية التى اختارت سبيل الوجهة الاشتراكية ، ويضعفوا نفوذ الاتحاد السوفييتى وسائر بلدان الاسرة الاشتراكية فى هذه المنطقة البالغة الاهمية .

لفهم اهمية الازمة اللبنانية على الصعيد العسكرى والسياسى ، يجب ان يؤخذ بالحسبان ان الامر هنا لا يتلخص فى انها صادفت زمنيا تفاقم الوضع فى افريقيا الشمالية الغربية تفاقما حادا بسبب ما يسمى بمشكلة الصحراء الغربية والتدخل الامبريالى فى التشاد ، واشتداد العمليات العدوانية الاميركية ضد ليبيا اشتدادا حادا ، وتعاظم التواجد العسكرى الاميركى فى مصر والسودان وعمان بدرجة كبيرة ، وقيام اسرائيل واميركا بدسائسهما الرامية الى تطويل الحرب الايرانية العراقية . فان الازمة اللبنانية ترتبط كذلك وثيق الارتباط باشتراك الامبرياليين الاميركيين اشتراكا فعالا فى تنظيم اعمال التخريب والتدخل المسلح الفعلى ضد جمهورية افغانستان الديموقراطية ، وباقدام الولايات المتحدة الاميركية على تأزيم العلاقات الايرانية-الافغانية والعلاقات الافغانية-الباكستانية باطراد ، واخيرا بانشاء القيادة المركزية الاميركية التى يشمل مجال فعلها ١٩ بلدا من آسيا الجنوبية الغربية وافريقيا الشمالية الشرقية ، وبينها ١٧ بلدا اسلاميا .

ومن هنا ينجم ان حروب اسرائيل العدوانية ضد البلدان العربية وبخاصة الحرب الخامسة ضد لبنان ، انما هى جزء لا يتجزأ من السياسة الامبريالية التى سلكتها وتسلكها اشد اوساط الامبريالية الاميركية اغراقا فى الرجعية ، رغبة منها فى تحقيق ادعاءاتها بالهيمنة العالمية ، بما فى ذلك السيادة على بلدان وشعوب العالم الاسلامى . ولهذا تدعم الاوساط الحاكمة الاميركية المعتدين الصهاينة بدأب وانتظام بصرف النظر عن ماهية الحزب او التكتل السياسى القابع فى البيت الابيض ، وبصرف النظر عن بعض الخلافات التكتيكية فيما بينها .

والضوارى الصهاينة يقدمون بدورهم فى غضون عشرات السنين على الاتفاق مع اى من الدول الامبريالية ، وينفذون ايا من التكليفات التخريبية والحربية لاجل بلوغ هدفهم الرئيسى ، وهو بناء «اسرائيل الكبرى» . وبما ان اشد التكتلات عدوانية تقبض فى الثمانينيات على زمام الحكم فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل فان التحالف بين الولايات المتحدة واسرائيل ، المصاغ رسميا وتنظيميا فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨١ والموسع كثيرا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٨٣ هو اصلب وارسخ اتفاق بين جميع الاتفاقات العسكرية السياسية التى عقدها الصهاينة يوما مع الدول الاستعمارية . ان تحالف اسرائيل الصهيونية مع القوة القائدة فى الناتو والمدعية بالسيادة العالمية - الامبريالية الاميركية - يشكل خطرا فادحا على مئات الملايين من المسلمين وثقافتهم وحضارتهم ، وتطورهم الاقتصادى والاجتماعى ، على حرية واستقلال شعوب وبلدان العالم الاسلامى .



خاتمة

خلال اربعة عشر قرنا من وجود الاسلام ، اضطرت شعوب العالم الاسلامى فى غضون اكثر من ٩٠٠ سنة الى صد اعمال العدوان والاقتحام والتدخل المسلح . وفى عهد الحروب الصليبية ، كانت هذه الاعمال ينظمها ويشجعها ويوحى بها اقطاعيو اوروبا الغربية ، وفيما بعد ، الاوساط التجارية ، والرأسمال الصناعى المتعاظم والاحتكارات ، والمركب الصناعى العسكرى فى الدول الاوروبية الغربية وفى الولايات المتحدة الاميركية . ان هذه القرون من النضال والالام قد تسببت بخسائر لا تحصى لتطور العالم الاسلامى على الصعيد الاقتصادى والاجتماعى ، ولثقافته وعلمه ، وعرضت للخطر وجود الحضارة الاسلامية الساطعة والباهرة . فان هذه الحضارة قد قدمت للبشرية مؤلفات ادبية وفلسفية وتاريخية واجتماعية ومنجزات هندسية عبقرية ، واكتشافات بارزة فى الرياضيات والجيوديزيا والكيمياء والفيزياء ، وفتحت واعمرت رقعا شاسعة من اراضى آسيا وافريقيا ، ودرست عهودا بعيدة فى تاريخ شعوب العالم ، وسلمت كذلك اوروبا فى عصر النهضة مشعل المعارف الذى سبق ان اشعلته حضارات الهند والصين واليونان وروما .

ولكن حتى فى ايامنا كانت شعوب العالم الاسلامى ترد ، بموجب التصنيف المتخذ فى هيئة الامم المتحدة ، فى فئة البلدان الموصوفة بالبلدان «الضعيفة التطور» . وهذا الوصف المهين لم يستعض عنه بتعبير «البلدان النامية» الا فى اواسط الستينيات .

والواقع ان التأخر الاقتصادى والاجتماعى الذى تعانيه اغلبية

شعوب العالم الاسلامى انما هو نتيجـــــة مباشرة لحروب الفتح والاغتصاب والاعمال العدوانية التى شنتها الدول الغربية ؛ وان هذه الدول كانت قد حولت نحو اوائل القرن العشرين جميع بلدان الشرق بلا استثناء الى مستعمرات واشباه مستعمرات ، واستغلت ، فيما استغلت ، لكى تبنى ازدهارها وتطور اقتصادها ، ملايين وملايين المسلمين فى بلدان آسيا وافريقيا ، معرضة اياهم للعذاب والاستثمار الوحشى والموت جوعا .

ان رجال الدولة والسياسة والصحفيين والدعاة والعلمـــاء فى اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية يستفيدون من الاحتكار الفعلى لوسائل الاعلام الجماهيرى ومن «المؤسسات» التى تملك المليارات والمليارات من النقود والتى تمولها كبريات الاحتكارات فى صالحها ، فيحاولون حمل شعوب الشرق على نسيان عهـــــد الاستعمار وطمس الجوهر الحقيقى للاستعمار الجديد ، وتصوير الاوساط الحاكمة فى الغرب بصورة مفضلين ومحسنين على شعوب آسيا وافريقيا ، بصـــورة «محبين للاسلام» حقيقيين . وفى هذا المجال تبدى نشاطا كبيرا الاوساط الحاكمة الاميركية ، وهيئات الدعاية الخاضعة لها وفى طليعتها «يو . س . أ» (وكالة الاعلام الاميركية) ، والعديد من المراكز العلمية .

ولكن الوضع الاقتصادى فى بلدان العالم الاسلامى التى ترد اغلبيتها (فيما عدا البلدان التى تستخرج البترول) فى عداد البلدان الفقيرة والفقيرة جدا ، وتواجد نزاعات وخلافات وتناقضـــــات اجتماعية فى منتهى الحدة هناك ، يذكران مئات الملايين من الناس بصورة مقنعة بالدور الشرس والمشؤوم الذى لعبه الاستعمار فى تاريخهم وفى وضعهم الحالى الشاق .

ان المستعمرين الجدد يستغلون الى اقصى حد ضعف بلدان العالم الإسلامى على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى ، لكى يفرضوا عليها التحكم الاقتصادى فى ظروف جديـــدة وبطرائق جديدة ، ويحتفظوا بها سوقا للتصريف ومصدرا للخامات ، وارضا ينقلون اليها اضرّ فروع الانتاج الصناعى على حياة الناس والبيئة المحيطة، وقواعد عسكرية ورؤوس جسور لاجل اعداد الحرب الحراريـــة النووية . وهم يستخدمون بجميع الوسائل نبتات بذور النفـــور

العرقى والقومى والدينى والطائفى السامة والنزاعات الحدودية والاقليمية التى سبق ان بذرها المستعمرون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى ادت فى الوقت الحاضر ، بتدخل الديبلوماسية الغربية والمصالح المختصة الغربية باقصى الهمة والحزم ، الى العديد من المصادمات والحروب والنزاعات الدامية التى اضعفت وتضعف كثيرا بلدان وشعوب العالم الاسلامى حيال ضغط المستعمرين الجدد .

ومن اخطر المشاكل مشكلة النزاعات الاقليمية . فان المعتدين الغربيين الذين بنوا امبراطوريات استعمارية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد مزقوا وقسموا اراضى الشعوب والقبائل فى العالم الاسلامى ، وقطعوا بالتالى الطرق التجارية القديمة ، وحرموا الشعوب مخرجا الى البحر والى الخزانات المائية الداخلية الكبيرة . وبعد انهيار النظام الاستعمارى بسرعة ، وبعد تشكيل اكثر من ١٠٠ دولة مستقلة بنفس السرعة ، بما فيها زهاء ٤٠ دولة اسلامية ، اتضح ان المستعمرين السابقين لم يستطيعوا فى سياق استعبادهم المحموم لآسيا وافريقيا ، ولم يتسنّ لهم ، ولم يفلحوا ، وفى عدد من الاحوال لم يريدوا ، ان يرسموا على الارض ويعينوا على الخرائط الحدود بين ممتلكاتهم . ولهذا ، حين نالت شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات بما فيها شعوب الشرق الاستقلال ، لم يكن لاغلبية الدول الفتية حدود معترف بها عموما ، الامر الذى ما لبث ان استغله المستعمرون الجدد لكى يؤزموا التناقضات بينها ويحتفظوا بنفوذهم فيها .

وعلى هذا النحو ، انساقت بلدان اسلامية عديدة على تخوم السبعينيات والثمانينيات الى مجادلات والى نزاعات اقليمية كانت من تركة الاستعمار .

ان حكومة اكبر دولة اسلامية فى العالم - اندونيسيا - لا تزال تقوم حتى الان بعمليات مسلحة فى القسم الشرقى من جزيرة تيمور حيث تخوض الجبهة الثورية المنادية باستقلال تيمور نضالا مسلحا ، بعد انهيار الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية ، ضد ادراج ارضها فى قوام اندونيسيا . وعشية رحيل المستعمرين البريطانيين من هندوستان ، انشئت هناك دولتان - الهند

والباكستان ؛ وكانت الباكستان تتألف بدورها من قسمين : الباكستان الغربية والباكستان الشرقية (حاليا بنغلادش) .

ومن أهم اسباب التأزم الدورى فى العلاقات بين الهند وبنغلادش ، عدم الدقة فى تعيين قسم من الحدود . والتوتر فى العلاقات بين الهند والباكستان ينبع كذلك بقدر لا يستهان به من عدم رسم خط دقيق وواضح لحدود كشمير .

والتوتر على طول الحدود الافغانية الباكستانية ، لا ينجم من دسائس الطغمة العسكرية الباكستانية والاوساط الحاكمة الاميركية الواقفة وراءها ضد جمهورية افغانستان الديموقراطية وحسب ، بل ينجم كذلك من واقع انه ما من حكومة افغانستانية اعترفت بعد الحرب العالمية الثانية بهذه الحدود (خط دوراند) التى فرضها المستعمرون البريطانيون على افغانستان فى سنة ١٨٩٣ .

وعدم الدقة وعدم الوضوح فى تعيين الحدود بين العراق وجمهورية ايران الاسلامية هما عاقبة للصراع بين الامبراطورية العثمانية وشاهات ايران على شط العرب وعاقبة لنشاط اللجنة الحدودية زهاء مائة سنة ولهيمنة المندوبين البريطانيين فيها . وهذا سبب من أهم اسباب الحرب الحالية بين دولتين اسلاميتين كبيرتين .

وغير مرة نشبت فى الجزيرة العربية نزاعات مسلحة بين العربية السعودية وامارة ابوظبى ، بين العربية السعودية وجمهورية اليمن العربية ، بين العربية السعودية وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية . ومن اسباب هذه النزاعات ، الحدود غير الدقيقة وغير الواضحة من جراء سياسة المستعمرين البريطانيين المتعمدة فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . وخلال زمن طويل اختلف المنتدبون البريطانيون على فلسطين والمنتدبون الفرنسيون على لبنان فى مسألة حدود فلسطين الشمالية ، الامر الذى استغله المعتدون الصهيونيون فيما بعد . والنزاعات بين اثيوبيا وجارتيها المسلمتين — السودان والصومال — تنجم بقدر لا يستهان به من واقع ان المسائل الحدودية لا تزال معلقة ، الامر الذى هو نتيجة للصراع المديد بين بريطانيا وايطاليا على توسيع ممتلكاتهما الاستعمارية . ولتسعير اوار النزاع فى التشاد ،

يستغل الامبرياليون ، فيما يستغلون ، عدم دقة ووضوح الحدود بين التشاد وليبيا بسبب من الصراع بين الدولتين الاستعماريتين فرنسا وايطاليا . كذلك يتحمل المستعمرون الفرنسيون المسؤولية المباشرة عن عدم وجود حدود دقيقة وواضحة بين الجزائر والمغرب ، الامر الذى أزم غير مرة العلاقات بين هاتين الدولتين الكبريين فى افريقيا الشمالية .

وقد سبق ان قلنا ان تحكم المستعمرين البريطانيين فى الشرقين الادنى والاوسط قد ادى الى تقسيم شعب البشتانه الى قسمين ، والبلوج الى ثلاثة اقسام ، والاكراد الى اربعة اقسام . والمستعمرون الايطاليون يتحملون قسطا كبيرا جدا من المسؤولية عن كون القضية الاريثرية التى نشبت في اواخر القرن التاسع عشر لا تزال الى الان تؤزم الوضع فى افريقيا الشمالية الشرقية (وفى السنوات الاخيرة يسهم الامبرياليون الاميركيون فى ذلك بجميع الوسائل) . ووجود دولتين يمنيتين على خريطة الشرق الادنى السياسية — جمهورية اليمن العربية وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية — ووجود دولتين فى اراضى الدولة العمانية القديمة — سلطنة عمان والدولة الاتحادية «الامارات العربية المتحدة» التى تضم سبع امارات صغيرة — هما كذلك نتيجة للتحكم البريطانى فى الخليج العربى .

وهذه المصاعب فى العلاقات بين الدول الاسلامية الفتية انما تستغلها فى السنوات الاخيرة ، بقدر متزايد ابدا من النشاط والوقاحة ، الاوساط الحاكمة الاميركية ، مستعيضة عن المبدأ القديم الذى نادى به فوستر دالس — «ضرب الاسيويين بالاسيويين» — بالمبدأ الجديد القائل «ضرب المسلمين بالمسلمين» . وان الديبلوماسية الاميركية بالذات هى التى سبق لها ان سعت وتوصلت ، فى اواسط الخمسينيات ، الى تأزم العلاقات الافغانية الباكستانية تأزما حادا ، الامر الذى ادى الى اغلاق مرافىء الباكستان في وجه السفن التجارية الافغانية والى تردى الوضع الاقتصادي فى افغانستان بصورة حادة . وقد كتبت «نيويورك تايمس» فى سنة ١٩٥٦ ان «تسوية العلاقات بين الباكستان

وافغانستان تهدد باحباط المشاريع الاميركية فى الشرق الادنى وعموما فى آسيا» (١) .

وآنذاك اوعزت الاوساط الحاكمة الاميركية الى شركة البناء الكبيرة «موريسون – نادسن» التى كانت تقوم فى الارض الافغانية باعمال الرى فى وادى نهر غيلمند بان تبنى عددا من القنوات بحيث ان الارض الايرانية حيث يقع المجرى الاسفل للنهر ، تحرم فعلا من الماء ، الامر الذى ادى الى نزاع افغانى ايرانى حاد .

والرأى العام العالمى يعرف جيدا دسائس وكالة المخابرات المركزية فى ايران . ولكنه يعرف بقدر اقل ان هذه الوكالة قد شرعت فى ١٩٨٢ و١٩٨٣ ، بايعاز مباشر من البيت الابيض ، فى انشاء منظمات ايرانية معادية للثورة فى تركيا والباكستان . وتؤكد الصحيفة الاسبوعية القبرصية «خارافغيتيس دفتيراس» والمجلة الاسبوعية اللبنانية «صباح الخير» (حزيران – تموز ١٩٨٣) ان عدد عملاء وكالة المخابرات المركزية فى جمهورية ايران الاسلامية يبلغ ٨٠٠٠ رجل . وبمساعدة منظمة «الاخوان المسلمين» تمارس وكالة المخابرات المركزية تأثيرها فى التكتل الايرانى المغرق فى الرجعية «حجتيه» ، وتستأجر العملاء بنشاط بين المهاجرين الايرانيين الـ٣٠٠ الف الموجودين فى الباكستان ، وتقوم بالنشاط الهدام والتخريبى فى بلوجستان الايرانية بمساعدة منظمات كركوزية مثل «جبهة وحدة بلوجى سيستان وبلوجستان» و«الحركة من اجل انشاء جمهورية بلوجستان السنية» .

ومن اكبر مهام السياسة «الاسلامية» التى تنتهجها الولايات المتحدة الاميركية ، الحد الاقصى من استغلال الوضع المتوتر المخلوق قصدا وعمدا حول افغانستان . والهدف من ذلك ، احداث انشقاق فى العالم الاسلامى ، وتخويف الانظمة الاسلامية المحافظة «بالخطر السوفييتى» ، وتأزيم العلاقات بين الانظمة الاسلامية المحافظة والتقدمية ، وكل هذا لا بدّ له ، بحساب الامبرياليين الاميركيين ، ان يسهل عليهم توطيد مواقعهم فى آسيا الجنوبية الغربية ، والحصول على قواعد جديدة ، واجتذاب البلدان الاسلامية الى مختلف الكتل الحربية السياسية ، وفرض الرقابة على منظمة المؤتمر الاسلامي .

ويعتقد الستراتيجيون الاميركيون ان التأييد الشامل لفصائل العصابات المؤلفة فى اراضى الباكستان وايران لاجل التدخل المنتظم فى افغانستان سيعقد اشد من ذى قبل العلاقات بين الباكستان وايران من جهة والاتحاد السوفييتى من جهة اخرى ، ويخلق وضعا نزاعيا فى آسيا الجنوبية وفى الشرق الادنى . وعدا ذلك ، كما لاحظت المجلة اللبنانية المذكورة آنفا ، تستغل وكالة المخابرات المركزية الالاف من رجال العصابات الافغانيـــة المتواجدين فى اراضى ايران ، لا لاجل اعداد عمليات تدخل مسلح جديـــدة فى افغانستان وحسب ، بل ايضا كضرب من «طابور خامس» تابع لها فى جمهورية ايران الاسلامية .

والامبرياليون الاميركيون بحاجة الى تأزيم الوضـــع حول افغانستان وتعقيده الى اقصى حد لاجل صرف انتباه الرأى العـــام الاسلامى عن مآثم الصهاينة الدموية في لبنان وعن خطط تقسيم هذا البلد وعن الجوهر العدوانى للحلف العسكـــرى والسياسى الاميركى الاسرائيلى الذى اتسعت اطره اتساعا كبيرا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٨٣ اثناء زيارة رئيس وزراء اسرائيل شامير الى واشنطن .

ان الاوساط الحاكمة الاميركية ، ورثة واخلاف المستعمرين الاوروبيين الغربيين ، قد صارت الآن اخطر الاعداء بالنسبـــة لثمانيمئة مليون من المسلمين . وان فرض الرقابـــة بمختلف الاشكال على هؤلاء المسلمين غدا من اهم اهداف الاوساط الحاكمة الاميركية التى تحلم بالسيادة العالمية .

الا ان ضغط المستعمرين الجدد تعارضه وتقاومه بلدان العالم الاسلامى حيث تتربع على دست الحكم انظمة تقدمية ، وحركـــة عدم الانحياز حيث تلعب هذه الانظمة دورا كبيرا ، وتضامن شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، والاسرة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى .

ان فكرة التحالف مع بلدان الشرق وشعوبه قد سبق ان صاغها لينين بدقة ابان الحرب العالمية الاولى فى مؤلفه المعروف «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية وبصدد «الاقتصادية الامبريالية»» ، حيث علل ضرورة تقديم مساعدة شاملة الى شعوب الشرق .

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى قد دشنت عهدا جديدا بالنسبة للبشرية جمعاء بما فيها شعوب العالم الاسلامى .

ولقد اخذ لينين بالحسبان ان روسيا ليست دولة اوروبية وحسب ، بل ايضا دولة آسيوية كبرى ، وان قسمها الشرقى يشكل ٤٠٪ من عموم مساحة آسيا . وفى ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، اتخذ النداء التاريخى «الى جميع المسلمين الكادحين فى روسيا والشرق» . وقد نادت هذه الوثيقة اللينينية بأسس سياسة الدولة السوفييتية الفتية فى الشرق الاسلامى (٢) . وجوابا عن اسئلة مراسل «يونايتد بريس» فى ٢٠ تموز (يوليو) ١٩١٩ ، اكد لينين : «ان نشاط جمهوريتنا السوفييتية فى افغانستان والهند وسائر البلدان الاسلامية خارج روسيا هو مثل نشاطنا بين المسلمين العديدين وسائر الاقوام غير الروسية داخل روسيا . . . نحن نساعد الى اقصى حد التطور الحر المستقل لكل قوم ، ونمو وانتشار الادب بلغة كل قوم» (٣) .

فى غضون سنتى ١٩١٨ و١٩٢٠ ، استقبل لينين فى الكرملين عددا كبيرا من الشخصيات السياسية والاجتماعية من البلدان الاسلامية . وبعد لقائين مع لينين ، كتب الثورى الهندى البارز ، عضو العصبة الاسلامية ، البروفسور محمد بركات الله جملة من المقالات دعا فيها الى الصداقة بين شعوب روسيا السوفييتية وبلدان الشرق الاسلامية . وقد كان لكراس «البلشفية والاسلام» الذى صدر فى عدد من اللغات الشرقية اهمية كبيرة جدا .

وبعد ان عقد الاتحاد السوفييتى معاهدات مع تركيا وايران وافغانستان ، عقدت فى سنة ١٩٢١ ، بوساطة الديبلوماسية السوفييتية ، معاهدة صداقة بين افغانستان وتركيا ومعاهدة صداقة بين ايران وافغانستان .

وهكذا ، بينما كان الامبرياليون يؤلبون شعوب البلدان الاسلامية بعضها على بعض ، لم يقم الاتحاد السوفييتى علاقات ودية متكافئة معها وحسب ، بل اسهم كذلك فى اقامة مثل هذه العلاقات فيما بينها .

فى سنة ١٩٢١ ، لعبت مساعدة الدولة السوفييتية الفتية دورا بالغا في ذود تركيا عن استقلالها . كذلك قدمت روسيا السوفييتية

الدعم المسلح للحكومة الافغانيـــة فى سنة ١٩١٩ ، ابان الحرب الانجلو-افغانية الثالثة ، وفى سنة ١٩٢٤ عند قمع الانتفاضة التى استثارها الامبرياليون البريطانيون فى خوست . وفى سنة ١٩٢٥ حاول العملاء البريطانيون ان يستثيروا نزاعا ايرانيا تركيا ، وفى سنة ١٩٢٨ نزاعا ايرانيـــا افغانيـــا . وفى الحالتين اسهمت الديبلوماسية السوفييتية فى تسوية هذين النزاعين تسويـــة سلمية (٤) .

وعندما عزز المستعمرون البريطانيون فى خريف سنة ١٩٢٤ اعمال القمع ضد حركة شعبى مصر والسودان ضد الامبرياليـــة ، نشأت فى الاتحاد السوفييتى حركة لدعم شعبى هذين البلدين . وفى باكو انشئت لجنة «ارفعوا ايديكم عن مصر» . كذلك انشئت منظمات مماثلة فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية . واخذت اثنتان منهما على عاتقهما مهمـــة «رعاية» المعتقلين السياسيين المصريين الذين زج بهم المستعمرون البريطانيون فى السجون . وفى السنة نفسهـــا اقيمت العلاقات الديبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى والحجاز وظهر فى جدة اول ممثل ديبلوماسى سوفييتى فى العالم العربى . وفى سنة ١٩٢٦ ، عندما ضم الحجاز الى دولة عربية واحدة اسميت فيما بعد العربية السعودية ، كان الاتحـــاد السوفييتى اول دولة كبرى تعترف بها . وليس من قبيل الصدفة صرح وزير الخارجية فى العربية السعودية وملكها المقبل فيصل اثناء زيارته لموسكو سنة ١٩٣٢ : «يسعدنى ان ازور الاتحـــاد السوفييتى الذى تربطـــه بالعربية السعوديـــة اقوى عرى الصداقة» (٥) .

وفى السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ، انتهج الاتحاد السوفييتى سياسة تقديم المساعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والدفاعية لشعوب الشرق على نطاق اوسع فأوسع . وان شعوب البلدان العربية تعرف جيدا ان الموقف الثابت الصلب الذى شغلته الحكومة السوفييتية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٦ قد اجبر المحتلين البريطانيين والفرنسيين على الرحيل من مصر ، وانقذ فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ القوة المسلحة الرئيسية عند مصر عنينا بها الجيش الثالث ، من خطر التطويق والابادة من

قبل المعتدين الاسرائيليين . كذلك لعب الاتحاد السوفييتي دورا ليس اقل شأنا فى مصائر ايران . ففي اوائل العشرينيات ساعدها فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، وفى ١٩٤١–١٩٤٢ انقذ ايران من الغزو الهتلرى ، وفى سنة ١٩٧٨ حال دون التدخل الاميركى .

وقد لعبت الصداقة السوفييتية الافغانية دورا كبيرا فى اعلان استقلال افغانستان ، وفى كون افغانستان قد استطاعت ان تذود عن استقلالها ابان الحرب الانجلو-افغانية الثالثة . وقد عثر مؤلف هذا الكتاب فى ارشيفات الاركان العامة الالمانية على ملف «مجموعة افغانستان» . وكان الملف يتضمن وثائق تتعلق بخطة الغزو ، وقائمة بالفرق الالمانية الـ١٧ التى كان عليها ان تشق طريقا لنفسها الى كابول بعد الاستيلاء على القفقاس وطهران ، وان تقتحم الهند من خلال معبر خيبر . الا ان الهزيمة التى الحقتها القوات المسلحة السوفييتية بالقطعان الالمانية فى معركة ستالينغراد وفى القفقاس احبطت هذه الخطط الخطرة على افغانستان ايضا .

فى سنة ١٩٧٨ دشنت ثورة نيسان (ابريل) عهدا جديدا فى حياة الملايين من الافغان ، ودلت شعوب البلدان الاسلامية الاخرى على طريق النضال والنصر ، واحبطت الخطط البعيدة المدى التى حاكتها الاوساط الحاكمة الاميركية لتحويل افغانستان الى رأس جسر فى الشرق ، كما حولت ايران فى سنة ١٩٥٣ . ولهذا بدأوا فى واشنطن يرسمون بصورة مسعورة الخطط لتنظيم التدخل المسلح ولاستثارة الحرب الاهلية في افغانستان . وفي هذه الاحوال اقترحت الحكومة الافغانية على الاتحاد السوفييتي عقد معاهدة للصداقة ؛ وقد تم توقيع هذه المعاهدة فى ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ . وفى كانون الاول ١٩٨٤ احتفل شعبا افغانستان والاتحاد السوفييتى احتفالا مهيبا بالذكرى السنوية السادسة لتوقيعها . ونظرا للخطر الفادح الذى تهدد النظام الثورى من جراء دسائس الامبرياليين وعملائهم ، طلبت الحكومة الافغانية من الحكومة السوفييتية فى سنة ١٩٧٩ ، بموجب المادة الرابعة من المعاهدة المذكورة ، ان ترسل مجموعة محددة من القوات المسلحة لضمان امن البلاد . وقد لبى الاتحاد السوفييتى هذا الطلب امانة منه للواجب الاممي ولمبادئ الصداقة مع شعوب الشرق الاسلامى واعلن ان

القوات السوفييتية ستنسحب على الفور من افغانستان ما ان يزول خطر التدخل والاقتحام .

ومنذ ذاك انقضى اكثر من خمسة اعوام . ولقد اضطرت المجموعة المحددة من القوات المسلحة السوفييتية الى البقاء في افغانستان لسبب واحد فقط هو ان الاوساط الحاكمة في بلدان الناتو ولا سيما في الولايات المتحدة لا توقف اعمال العدوان على افغانستان ، وليس هذا وحسب ، بل توسعه كذلك بجميع الوسائل . ان الامبرياليين الاميركيين يحاولون استغلال التوتر حول افغانستان لاجل احداث الانشقاق في العالم الاسلامي ، وخلق اوضاع نزاعية فيه ، وتأزيم علاقات بعض البلدان الاسلامية مع الاتحاد السوفييتي .

وبالتعاون الوثيق مع الديبلوماسية السوفييتية ومع البلدان الاسلامية التقدمية الاخرى ، تقوم جمهورية افغانستان الديموقراطية بعمل كبير جدا لاضعاف التوتر في المنطقة وضبط العلاقات الافغانية الايرانية والعلاقات الافغانية الباكستانية ، ولفضح دسائس الامبريالية .

كذلك ينتهج الاتحاد السوفييتي سياسة السلام والصداقة في آسيا الجنوبية الشرقية حيث سبق له في سنوات ١٩٤٦-١٩٤٩ ان دعم الى اقصى حد نضال شعوب اندونيسيا ضد المتدخلين الهولنديين والبريطانيين ، وفي آسيا الجنوبية حيث اسهم بكل الوسائل في تسوية النزاع الهندي الباكستاني في سنة ١٩٦٥ ، علما بان هذا النزاع قد انتهى آنذاك بتوقيع بيان طشقند في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦ ؛ الامر الذي اسهمت فيه جهود الديبلوماسية السوفييتية بقدر لا يستهان به .

ويبذل الاتحاد السوفييتي جهودا كبيرة لاجل تقديم العون الى الشعب العربي الفلسطيني الباسل وسائر البلدان التي تعرضت للعدوان الاسرائيلي ، لاجل حل ازمة الشرق الادنى حلا سياسيا على اساس ضمان امن بلدان المنطقة كافة وتحقيق الحق الثابت للشعب العربي الفلسطيني في انشاء دولته .

ويؤيد الاتحاد السوفييتي بكل نشاط وحزم حرية ليبيا واستقلالها ويسهم في تسوية النزاعات الناجمة عن دسائس

الامبرياليين فى افريقيا الشمالية الغربية وافريقيا الشماليـــــة الشرقية .

وبوضوح متزايد يدرك مئات الملايين من سكان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية واوقيانيا بمن فيهم ٨٠٠ مليون مسلـــــم ، فى الثمانينيات من القرن العشرين ، الفرق الجذرى بين سياسة البلدان الامبريالية وسياسة البلدان الاشتراكية . فان السياسة الخارجية والحربية التى تنتهجها البلدان الغربية ولا سيما بلدان الناتو وعلى رأسها الولايات المتحدة ، تتسم بطابع الاستعمار الجديد البيّن . وهدفها منع التطور الصناعى السريع فى بلدان الشرق واميركـــا اللاتينية ، وابقاء وتوسيع الامكانيات لاجل استثمار دفائنها النافعة ، وفى المقام الاول بينها الخامات الستراتيجية ، ولاجل زيادة تصدير البضائع وكذلك الرساميل اليهـــا . وكل هذا يؤدى الى تفاقـــم الاستعباد المالى للبلدان النامية تفاقما حادا . ففى اواخر الستينيات بلغت ديون البلدان النامية زهاء ١٠٠ مليار دولار ، كما بلغت المدفوعات السنوية من الفوائـــد الى حكومات ومصارف البلدان الرأسمالية زهاء ١٠ مليار دولار ، اما فى اوائل الثمانينيات فقد بلغت الديون اكثر من ٦٠٠ مليار دولار ، والمدفوعات السنوية من الفوائد زهاء ١٢٠ مليار دولار (٦) .

زد على ذلك ان الاوساط الحاكمة فى البلدان الغربية ولا سيما فى الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا العظمى وجمهورية المانيا الاتحادية تعيق بجميع الوسائل تحقيق مطلب البلدان النامية المشروع الذى انعكس فى كثير من قرارات هيئة الامم المتحدة وحركة عدم الانحياز بشأن اقامة نظام اقتصادى عالمى جديد .

وباستثارة النزاعات العرقية والدينية والقومية والاقليمية بين البلدان النامية لا يضعف قادة الناتو مقاومتها للتوسع الاستعمارى الجديد للمصارف وللشركات المتخطية للحدود الوطنية وحسب ، بل يسهمون كذلك بجميع الوسائل فى سباق التسلح المنفلت الذى يقوض اقتصاد البلدان النامية ويزيد من تبعيتها حيال المركـــب الصناعى العسكرى فى الدول الغربية ، ويساعد الامبرياليين فى اجتذابها الى الكتل الحربية وفى الحصول فيها على الجديد والجديد من القواعد . ان الاوساط الحاكمة فى بلدان الناتو تحبط تنفيذ

قرارات هيئة الامم المتحدة بشأن تحويل المحيط الهندى الى منطقة سلام .

ان الدول الامبريالية ، سعيا منها الى بلوغ اهدافها ، تعول على اشد الدول العرقية عدوانية فى آسيا وافريقيا — اسرائيل وجمهورية جنوب افريقيا — وتتخذ تدابير فعالة لاجل تقويض وحدة البلدان النامية واضعاف حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية ، وهى تحاول ان تضع منظمة الوحدة الافريقية فى مواجهة منظمة المؤتمر الاسلامى ، وتؤزم العلاقات فى هاتين المنظمتين بين البلدان المحافظة والبلدان التقدمية . وتولى الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة وفى سائر بلدان الناتو انتباها خاصا لتسعير نيران التناقضات بين البلدان النامية والبلدان الاشتراكية ، بين الدول الاسلامية والاتحاد السوفييتى .

ان الاتحاد السوفييتى ينتهج سياسة مغايرة حيال البلدان النامية بما فيها البلدان الاسلامية . وبالسير فعلا على هدى المبادئ اللينينية للاممية ، وبمقاومة تصدير الثورة المضادة ، اسهم الاتحاد السوفييتى فى توطيد الاستقلال السياسى للعشرات من بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، وحال دون تنفيذ الخطط الامبريالية للتدخل المسلح ضد كوبا وانغولا وموزمبيق واثيوبيا وليبيا ومصر وسوريا والعراق وايران وافغانستان . وقد دعمت الحكومة السوفييتية ولا تزال تدعم نضال البلدان النامية وحركة عدم الانحياز من اجل القضاء على جميع ظاهرات الاستعمار والعرقية والعسكرية ، ووقف اعمال العدوان والتدخل المسلح الامبريالية ، وتصفية القواعد الحربية للدول الغربية فى اراضى بلدان آسيا وافريقيا ، وتحويل البحر الابيض المتوسط الى منطقة خالية من السلاح الذرى والمحيط الهندى الى منطقة سلام .

ان النجاحات الهائلة التى احرزتها شعوب جمهوريات الشرق السوفييتى بمساعدة شغيلة الاتحاد السوفييتى بأسره فى ميادين الاقتصاد والثقافة والعلم والتعليم والصحة تتسم باهمية هائلة بالنسبة لنضال شعوب البلدان النامية بما فيها بلدان الشرق الاسلامى .

ان شعوب العالم الاسلامى ايضا تشعر فعلا بتأثير السياسة

الامية اللينينية الخير . حسبنا التذكير بالسد العالى فى اسوان ومجمع الصلب فى حلوان (مصر) ، وسد الفرات فى سوريـــا ، والاستثمارة النفطية الكبيرة فى الرميلة الشمالى (العراق) ومجمع التعدين فى اصفهان (ايران) وطريق السيارات عبر هندوكوش فى افغانستان ، والمحطة الكهربائية «غودو» فى الباكستان والمئات من المؤسسات والمنشآت الاخرى التى بنيت بمساعدة الاتحاد السوفييتى الفعالة .

وهكذا يطبق الحزب الشيوعى السوفييتى والحكومة السوفييتية والديبلوماسية السوفييتية ومئات الالاف من العاملين السوفييتيين فى الواقع المبادئ اللينينية للصداقة والاخوة مع شعوب الشرق تحقيقا للافكار الواردة فى النداء اللينينى «الى جميـــع المسلمين الكادحين فى روسيا والشرق» .

وبينمـــا كان المستعمرون خلال قرون اخطر اعداء البلدان الاسلامية ، واصبحت حاليا كتلة الناتو الاستعمارية الجديدة برئاسة الولايات المتحدة الاميركية عدوة خطيرة وغدارة لها ، كان الاتحاد السوفييتى وسائر بلدان الاسرة الاشتراكية ولا تزال وسوف تبقى على الدوام صديقة حقيقية لبلدان وشعوب العالم الاسلامى .



ملاحظات

مقدمة

1. Zollner W. Geschichte der Kreuzzüge. B., 1976, S. 83-84.
2. Заборов М. А. Папство и Крестовые походы. М., 1960, с. 229.
3. Заборов М. А. Крестовые походы. М., 1956.

راجع بمزيد من التفاصيل

4. Danvers F. C. The Portuguese in India. L., 1966, v. 1, p. 271.
5. Конрад Н. И. Запад и Восток. М., 1966, с. 507.
6. Бартольд В. В. Сочинения, т. VI, М., 1966, с. 143-199.

الفصل الاول

1. Panikkar K. M. Asia and Western Dominance. L., 1959, p. 45.
2. Danvers F. C., op. cit., p. 42.
3. Danvers F. C., op. cit., p. 177.
4. Danvers F. C., op. cit., p. 190.

4a. Loth H. Das portugieusische Kolonialreich. B., 1982, S. 57.

5. Panikkar K. M., op. cit., p. 40.
6. Danvers F. C., op. cit., p. 306.
7. Danvers F. C., op. cit., p. 271.
8. Pochhammer W. India's Road to Nationhood. Delhi, 1981, p. 328.

8a. Холл Д. Д. История Юго-Восточной Азии. М., 1958, с. 211.

9. ماركس وانجلس . المؤلفات ، م ٢٣ ، ص ٦٧١ (جميع الاستشهادات بمؤلفات ماركس وانجلس ولينين ترد وفقا للطبعات الروسية) .

الفصل الثانى

1. ماركس . نبذة زمنية فى تاريخ الهند . موسكو ، ١٩٤٧ ، ص ٦٣-٦٤ .
2. Синха Н. К., Банерджи А. Ч. История Индии. М., 1954, с. 312.
3. Неру Д. Открытие Индии. М., 1955, с. 295.
4. ماركس وانجلس . المؤلفات ، م ٩ ، ص ٢٢٤ .
5. ماركس . نبذة زمنية فى تاريخ الهند . ص ٧٦ .

6. Lorimer G. G. Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia. L., 1970, v. 1, part 1, p. 1410.

الفصل الثالث

1. Irwin R. W. The diplomatic relations of the United States with the barbary powers. Chapell-Hill, 1931, p. 110-114.
2. Халфин Н. А., Мурадян А. А. Янки на Востоке. М., 1966, с. 81.
3. Paullin Ch. O. Diplomatic Negotiations of American Naval Officers 1778-1883. Baltimore, 1912, p. 69-70.
4. Spears Y. R. The History of our Navy. New-York, 1897, v. III, p. 306-307.
5. Халфин Н. А. Начало американской экспансии. М., 1958, с. 50.
6. Finnie D. H. Pioneers East. Cambridge, 1967, p. 56-58.
7. ماركس وانجلس . المؤلفات ، م ٩ ، ص ٢٥٢–٢٥٣ .
8. Coupland R. East Africa and its Invaders. L., 1968, p. 282-283.
9. Paullin Ch. O., op. cit., p. 353.
10. Зубок Л. И. Экспансионистская политика США в начале XX в., М., 1969, с. 256.
11. Hamilton Ch. Americans and Oil in the Middle East. Houston, 1982, p. 11.
12. Offut M. The protection of citizens abroad by the Armed Forces of the United States. Baltimore, 1958, p. 22.
13. Reynolds Y. N. Voyage of the United States frigate "Potomac". New-York, 1835, p. 122.
14. Roberts E. Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam and Muskat. New-York, 1837, p. 32.
15. Халфин Н. А. المرجع المذكور ، ص ٨٣
16. Tregonning K. G. American activity in North Borneo. "Pacific Historical Review", 1954, No 11, p. 361.

الفصل الرابع

1. Public Record Office, Foreign Office (PRO, FO), 78/343: بالميرستون الى كامبيل فى ٧ يوليو (حزيران) ١٨٣٩ ، رقم ٢١ .
2. "The Times", 29 XI, 1875.
3. Левин З. И. Развитие основных течений общественно-политической мысли в Сирии и Египте. М., 1972, с. 111.
4. Луцкий В. Б. Новая история арабских стран. М., 1965, с. 200.
5. ماركس وانجلس . المؤلفات ، م ٣٥ ، ص ٣٥٣ .
6. Левин З. И. Развитие основных течений общественно-политической мысли в Сирии и Египте. М., 1972; Котлов Л. Н. Становление национально-освободительного движения на Арабском Востоке. М., 1975.

7. Луцкий В. Б. المرجع المذكور ، ص ۲۲۱
8. لينين . المؤلفات الكاملة ، م ۲۸ ، ص ٦٦٨ .
9. Сэрэ-Каналь Ж. Африка Западная и Центральная. М., 1961, с. 288.

الفصل الخامس

1. Lorimer G. C. Gazetteer of the Persian Gulf... v. I, part I, p. 421-427.
2. Ibid., p. 421.
3. Ibid., p. 624.
4. Ibid., p. 635.
5. Ibid., p. 635.
6. National Archives of India (NAI), External, Precis of Muskat Affairs, p. 7-8.
7. Phillips W. Oman: a history. L., 1967, p. 70-71.
8. Aitchinson C. U. A collection of treaties, engagements and sanads. Delhi, 1935, v. XI, p. 287.
9. Ibid., p. 288.
10. Lorimer, op. cit., p. 183.
11. Curzon G. N. Persia and the Persian Question. L., 1966, v. II, p. 449.
13. Sykes P. A history of Afganistan., 1940, v. II, p. 102.
14. Бондаревский Г. Л. Английская политика и международные отношения в бассейне Персидского залива. М., 1968, с. 66.
15. Curzon, op. cit., v. I, p. 480-483.
16. Kumar R. India and the Persian Gulf Region. Delhi-Bombay, 1965, p. 115-116.
17. «Международный нефтяной картель». М., 1954, с. 161.
18. Бондаревский Г. Л. المرجع المذكور ، ص ۲٥٨
19. Curzon, op. cit., v. II, p. 465.
20. Бондаревский Г. Л. المرجع المذكور ، ص ٤٨٠
21. Ronaldshay Earl of. The Life of Lord Curson. L., 1927, v. II, p. 314.
22. Ibid.
23. Бондаревский Г. Л. المرجع المذكور ، ص ٤٩٥–٤٩٦
24. Frazer L. India under Curzon and after. L., 1911, p. 110.
25. NAI, Foreign Department (F.D.), India Sec. War. May, 1915, p. 13-17.
26. PRO, F. O. 371/13070. Use of air power in Arabia.
27. NAI, F. D., No 31. Russian ships in the Persian Gulf. p. 1-16.

28. NAI, F. D., No 355. Defence of the Persian Gulf in the event of a Major War. p. 1-41.

الفصل السادس

1. Луцкий В. Б. المرجع المذكور ، ص ١٥٠
2. لينين . المؤلفات الكاملة ، م ٢٨ ، ص ٦٦٩ .
3. المصدر نفسه ، ص ٦٦٨ .
4. المصدر نفسه .
5. "Historians of the Middle East". Ed. Lewis B. L., 1962, p. 226-245.
6. Urquhart D. The Lebanon. A history and a diary. L.,, 1860, v. II, p. 263.
7. Луцкий В. Б. المرجع المذكور ، ص ١٠٦ .
8. Панченкова М. Т. Политика Франции на Ближнем Востоке и сирийская экспедиция 1860—1861 гг. М., 1966, с. 151-152.
9. المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .
10. ماركس وانجلس . المؤلفات ، م ١٥ ، ص ١٠٢–١٠٤ ، ١١٣–١١٤ .
11. Панченкова М. Т. المرجع المذكور ، ص ١٦٥
12. Louet E. Expedition de Syrie 1860-1861. Paris, 1861, p. 402.
13. Луцкий В. Б. Национально-освободительная война в Сирии (1925-1927). М., 1964, с. 169.

الفصل السابع

1. «Переписка Вильгельма II с Николаем II «1894-1914». М., 1923, с. 28.
2. Архив внешней политики России (АВПР), фонд Политархив, д. № 830, с. 43-53.
3. Fischer F. Griff nach der Weltmacht. Düsseldorf, 1961, S. 133, 136.
4. NAI, F. D., Secret-E, Proceedings, No 489. Relations of Baron Oppenheim. p. 488-495.
5. Fischer F., op. cit., S. 133.
6. Die Grosse Politik der Europäischen Kabinette, 1871-1914. (Gr. Pol.) Bd. XII/32/, N 3345.
7. Переписка Вильгельма II с Николаем II, с. 31.
8. Бондаревский Г. Л. Багдадская дорога и проникновение германского империализма на Ближний Восток. Ташкент, 1955, с. 39-41.
9. Gr. Pol., Bd. XIX (2), N 4014.
10. Бондаревский Г. Л. Борьба за Триполитанию и Киренаику на рубеже XIX—XX вв. Сб. Колониализм вчера и сегодня. М., 1964, с. 93-95.

10a. Агаев С. Л. Германский империализм в Иране. М., 1969, с. 14.
11. Polkehn K. The secret contacts; Zionizm and Nazy Germany, 1933-1941. "Journal of Palestine Studies", N 19/20, Beirut, 1976, p. 63-69.
12. Ibid., p. 68.
13. Ibid., p. 66-67.
14. Ibid., p. 66.
15. "Das Schwarze Korps". Berlin, May, 15, 1935.
15a. Polkehn K. op. cit., p. 72.
16. Documents on German Foreign Policy (DGFP) Ser. D. v. V. Washington 1953, pp. 755, 756, 778, 779.
17. Grobba F. Männer und Mächte im Orient, Göttingen, 1967. S. 158.
18. Polkehn K. op. cit., p. 72-74.
19. Reynolds Q. Minister of Death. New York, 1960, pp. 77-78; Clarke C. Eichmann. The Man and his crimes. New York, 1960, p. 33-37.
20. "Neue Züricher Zeitung", Zurich, 12, VII, 1961.
21. Polkehn K. op. cit., p. 74-75.
22. Tillmann H. Deutschlands Araberpolitik im Zweiten Weltkrieg. Berlin, 1960, SS. 335, 380.
23a. Polkehn K. op. cit., p. 75-76.
23. Ibid.
24. Arendt H. Eichmann in Jerusalem. New York, 1976, pp. 12-13, 61; Lon and David Kimche. Des Zornes und des Herzens Wegen. Berlin, 1956, S. 13.
25. "Horizont". Berlin 1970, N 3, S. 29.
26. Polkehn K. Op. cit., pp. 78-80.
27. Ibid.
28. Litvinoff B. Weizman. L., 1976, p. 200-221.
29. Румянцев Ф. Я. Тайная война на Ближнем и Среднем Востоке. М., 1972, с. 73.
30. المصدر نفسه .
31. Schmits P. All-Islam. Leipzig, 1937, S. 195.
32. Grobba F. op. cit., S. 158-159.
33. Mader G. Hitler's Spionagegenerale sagen aus. B., 1970, S. 311.
34. Grobba F. op. cit., S. 107-108.
35. DGFP, v. X, p. 810-811.
36. Румянцев Ф. Я. المرجع المذكور ، ص ٤
37. DGFP, v. II, Washington, 1954, p. 756-757.
38. Tillmann H. op. cit., S. 102.
39. Ibid., S. 162-165.
40. Гальдер Ф. Военный дневник. М., 1968, т. I, с. 192-194.

41. المصدر نفسه ، ص ٣٠٦–٣٠٧
42. المصدر نفسه ، ص ٢٩١–٢٢٣ .
43. Мирский Г. И. Ирак в смутное время (1930-1941). М., 1961, с. 149;
G. Kirk. The Middle East in the war. L., 1952, p. 64.
44. Гальдер Ф. Военный дневник. М., 1969, т. II, с. 75-76.
45. Ибрагимбейли Х. М. Крах «Эдельвейса» и Ближний Восток. М., 1977, с. 137-138.
46. Warner G. Iraq and Syria 1941. L., 1974, p. 55-56.
46a. DGFP, v. XII, N 1962, p. 31-32.
47. Tillmann H. op. cit., S. 197-199.
48. Ibid., S. 203-204.
49. Ibid., S. 190-194.
50. Ibid., S. 202.
51. DGFP, v. XII, p. 167-169.
52. Tillmann H. op. cit., S. 199.
53. Мирский Г. И. المرجع المذكور ، ص ١٤٣–١٤٤
54. Румянцев Ф. Я. المرجع المذكور ، ص ٦٥
55. "Akten zur Auswartigen Politik 1918-1945". Baden-Baden, Ser. D, Bd. XII, S. 194-195.
56. Tillmann H. op. cit., S. 205.
57. Ibid., S. 205-206.
58. "Foreign Relations of the United States, 1941", vol. III, Washington, 1959, p. 491.
59. Фуллер Д. Вторая мировая война. М., 1956, с. 148.
60. Tillmann H. op. cit., S. 215-216.
61. Papen F. Der Wahrheit eine Gasse. Innsbruck, 1952, p. 282.
62. Tillmann H. op. cit., S. 228.
63. Brethilz W. Der Aufstand der Araber. Wien-München, 1960, p. 163.
64. Tillmann H. op. cit., S. 240-241.
65. Warner G., op. cit., pp. 84-85.
66. Tillmann H. op. cit., S. 207.
67. Ibid., S. 229-231.
68. Mader J. op. cit., S. 346.
69. "Hitler's War Directives 1939-1945". L., 1966, pp. 122-123.
70. Ibid., pp. 124-125.
71. Mendelssohn P. Die Nürenberger Dokumente. Hamburg, 1947, S. 357-359; Mader J. op. cit., S. 351.
72. Tillmann. op. cit., S. 239-240.
73. Grobba F. op. cit., S. 246.
74. Фарман Г. Ирак в годы черного режима. М., 1958, с. 32.
75. Гальдер Ф. цит. соч., т. II, с. 553.

76. "Hitler's War Directives 1939-45", p. 131.
77. Ibid., p. 133.
78. "Kriegstagebuch Oberkommande der Wehrmacht". Bd. I, Wiesbaden, 1964, S. 1022-23, 1038-40.
79. "Hitler's War Directives 1939-45", p. 133.
80. Ibid.
81. Tillmann H. op. cit., S. 315; Grobba F. op. cit.
82. Бондаревский Г. Л. Багдадская дорога и проникновение германского империализма на Ближний Восток, с. 105.
83. "Anatomie des Krieges". B., 1969, S. 377.
84. "Von Ribbentrop zu Adenauer". B., 1961, S. 8.
85. "Hitler's War Directives", pp. 178-183.
86. Василевский А. М. Дело всей жизни. М., 1975, с. 227.
87. Тюленев И. В. Крах операции «Эдельвейс». Орджоникидзе, 1975, с. 34-58; "Hitler's War Directives", pp. 193-197.
88. Ибрагимбейли Х. М. Цит. соч., с. 152; Секистов В. А. «Странная война» в Западной Европе и в бассейне Средиземного моря (1939-1943). М., 1958, с. 278.

الفصل الثامن

1. Абдуллаев З. З. Начало экспансии США в Иране. М., 1963, с. 4.
2. Налбандян М. Избранные философские и общественно-политические произведения. М., 1954, с. 611-612.
3. Jeselson A. United States — Persian Diplomatic Relations. New Jersey, 1956, p. 31.
4. Ibid., pp. 39-40.
5. Зубок Л. И. Экспансионистская политика США в начале XX века. М., 1969, с. 38.
6. «Сборник дипломатических документов, касающихся событий в Персии». СПб. 1913, вып. VII, с. 127.
7. "Review of reviews". New York, 1912, January, p. 47.
8. «Международные отношения в эпоху империализма». т. XVIII, док. № 316, прим. 3.
9. لينين . المؤلفات الكاملة ، م ٢٨ ، ص ٧٠٢ .
10. Millspaugh A. G. The American Task in Persia. New York, 1927, pp. 187-188.
11. Абдуллаев З. З. المصدر نفسه ، ص ٧٣
12. "The Memoires of Cordell Hull", v. II, New York, 1948, p. 1507.
13. Sheen V. The New Persia — New York, 1927, p. 81.
14. "Iran under the Pahlavis", ed. Lenczowski S. Stanford, 1978, p. 42.
15. "Nation". New York, Nov. 1943.

16. Millspaugh A. op. cit., p. 231.
17. Ibid., pp. 217-218.
18. «Советско-иранские отношения в договорах, конвенциях и соглашениях». М., 1946, с. 205.
19. Элвелл-Саттон Л. Иранская нефть. К истории «политики силы». М., 1956, с. 148.
20. Acheson D. Present at the Creation. New York, 1969, p. 197.
21. "The Guardian", 28, IV, 1948.
22. Millspaugh A. op. cit., p. 262.
23. Acheson D. op. cit., p. 332.
24. Иванов М. С. Новейшая история Ирана. М., 1965, с. 151.
25. "Religion and politics in Iran", ed. R. Keddie, Yale University Press, 1983, p. 10;

Агаев С. Л. Иран в прошлом и настоящем. М., 1981, с. 123-124.

26. Acheson D. op. cit., pp. 499-510, 679-685.
27. "Religion and politics in Iran", p. 110.
28. "Tribune des Nations". Paris, 1952, 5 sept. المرجع المذكور ، ص ٣٨٦
29. Элвелл-Саттон Л.

29a. "Cahiers de L'Orient contemporain". Paris, 1953, I sept.

30. "Avanti", Roma, 20. V. 1954.
31. Элвелл-Саттон Л. المرجع المذكور ، ص ٣٨٦

31a. Amiralai Ch. Le petrole et l'independance de l'Iran. Aix-en-Provence, 1961, p. 104.

32. "La Tribune de Nation", 13. VII. 1953.
33. Уайз Д., Росс Т. Невидимое правительство. М., 1965, с. 115-120.
34. Marchetti V., Marks J. The CIA and the cult of intelligence. L., 1974, pp. 23, 26, 28.
35. Eveland W. C. Ropes of Sand. America's Failure in the Middle East. L., 1980, pp. 87-89, 318-19, 356-58.
36. 'La Tribune de Nation", 11. IX. 1953.
37. Tully A. CIA. The inside story. New York, 1962, pp. 92-96; "Saturday Evening Post", New York, 1954. 13 nov., 20 nov.
38. "Le Mond". 20-21. IX. 1953.
39. Monteil V. Iran. Geneve, 1957, p. 39; Amiralai Ch. op. cit., p. 170; Pictet H. L'Orient dans un pare-brise. Geneve/Paris, 1955, pp. 123-124.

39a. "The Washington Post", 22. VIII. 1953.

40. "Religion and Politics in Iran", p. 119.
41. "Le Monde". 20. II. 1914.
42. "United States News and World Report", New York, 1953, 31 aug.
43. "New York Times", 6. VIII. 1954.

44. "Religion and Politics in Iran", p. 119.
45. Halliday F. Iran: Dictatorship and Development. New York, 1979, p. 94.
46. Ibid., p. 93.
47. "Aussenpolitik", Stuttgart, 1978, Mărz.
48. Halliday F. op. cit., p. 271.
49. "The Middle East International", 1978, April.
50. Halliday F. op. cit., p. 272.
51. Cottrell A. Iran's Armed Forces under the Pahlavi Dynasty — "Iran under the Pahlavis", p. 423.
52. "Aussenpolitik", 1978, März.
53. Cottrell A. op. cit., p. 424.
53a. Элвелл-Саттон Л. المرجع المذكور ، ص ٢٥٥-٢٥٦
54. Elwell-Sutton L. Reza Shah the Great. — "Iran under the Pahlavis", p. 45.
55. Агаев С. Л. Иран в прошлом и настоящем. М., 1981, с. 193-194.
56. المصدر نفسه ، ص ١٩٨-١٩٩ .
57. "The Washington Post", 2. I. 1978.
58. Neugerger G., Opperskalski M., CIA in Iran. Die Geheimdokumente aus der Teheraner US-Botschaft, Bornheim, 1982, S. 39.
59. Ibid., S. 61.
60. Ibid., S. 66-67.
61. Агаев С. Л. المرجع المذكور ، ص ١٩٩-٢٠٠ .
62. Агаев С. Л. المرجع المذكور ، ص ١٩٩
63. Агаев С. Л. المرجع المذكور ، ص ٢٠١
64. Агаев С. Л. المرجع المذكور ، ص ٢١١
65. "Foreign Policy", New York, 1980, Oct.
66. Neuberger G., Opperskalski M. op. cit., S. 101-107.
67. Ibid., S. 111-116.
68. "Le Quotidien de Paris", 1981, 14, Dec.
69. "The Washington Post," 10. XII. 1979
70. "New York Times Magazine", 18. IV. 1982.
71. "The Washington Post", 9. V. 1980.
72. "The New York Times", 29. IV. 1980; "Times of India", Delhi, 24. V. 1980.

الفصل التاسع

1. Litvinoff B. Road to Jerusalem. L., 1965, pp. 73-75.
2. Ibid., p. 76.

3. Steward D. The Middle East, Temple of Janus. L., 1972, pp. 132-133.
4. Litvinoff B. op. cit., pp. 94-95.
5. Ibid., p. 96.
6. «История дипломатии». M., 1965, т. III, с. 26.
7. Litvinoff B. op. cit., p. 103; Ллойд-Джордж Д. Правда о мирных договорах. M., 1957, т. II, с. 298.
8. المصدر نفسه ، ص ٢٩٩ .
9. المصدر نفسه ، ص ٣٠٥–٣٠٦ .
10. Kimche Y. The Unromantics, The Great Powers and the Balfour Declaration. L., 1968. p. 45.
11. "Documents on British Foreign Policy". L., 1956, v. IV, p. 281.
12. Kimche Y. op. cit., p. 45.
13. "Documents on Britisch Foreign Policy". L., 1956, v. IV, p. 326.
13a. Ibid., p. 427.
14. Неру Д. Открытие Индии. с. 452. Pochhammer W. India's Road to Nationhood. p. 540.
15. Laqueur W. A History of Zionizm. L., 1972, pp. 371, 498.
16. Rosenberg A. Die Spur der Jüden im Wandel der Zeiten. München, 1937, S. 153.
17. Sykes G. Grossroad's to Israel. L., 1965, p. 151.
18. Lamm H. Über die innere und äussere Entwicklung des Deutschen jüdentums im Dritten Reich. Erlangen, 1961, p. 161.
19. Polkehn K. The Secret Contacts: Zionist — Nazi Relations, 1933-1941 — "Journal of Palestine Studies", Beirut, 1976, N 19/20, p. 62.
20. Ibid., p. 65.

خاتمة

1. "New York Times", 26. VI. 1956.
2. Документы внешней политики СССР. M., 1957, т. I, с. 34-35.
3. لينين . المؤلفات الكاملة ، م ٣٩ ، ص ١١٤–١١٥ .
4. Документы внешней политики СССР. M., 1966, т. XI, с. 570, 592, 618; История дипломатии. M., т. III, с. 471-476.
5. СССР и арабские страны. M., 1961, с. 79-80.
6. كاسترو . ازمة العالم الاقتصادية والاجتماعية . التقرير المقدم لمؤتمر القمة السابع للبلدان غير المنحازة . هافانا ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٠–١٠٢ (نقلا عن الطبعة الروسية) .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي

